التيجان المكللة

في شرح النصائح المرسلة

تأليف

العلامة عثمان بن الشيخ عمر بن الشيخ داود

مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْراً يُفَقِّهْهُ فِي الدِّيْن
رواه البخاري ومسلم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد(١): فيقول خويدم طلبة العلم عثمان بن الشيخ عمر بن الشيخ داود: إن منظومتي "النصائح المرسله، إلى طلاب العلم لله والآخره" لَقِيَتْ -والحمد لله- قبولا وترحيبا كبيرا عند طلبة العلم، فالتَمَسَ منّي بعضُ من لا تسعني مخالفته أن أضع عليها شرحا يستفيد منه الطالب، ويقضي به نَهْمَتَهُ الراغبُ، وينال به مناه والمآرب، فأجبته والله أعلم بما لدىّ من العوارض والمتاعب، وتوالي الهموم والنوائب، لكنني أرجو من الله التيسير بفضله ولطفه، كما يسّر لي هذه المنظومة المشروحة.

وألتزم غالبا إن شاء الله تعالى أن أعزو الفوائد إلى قائليها، اقتداء بأهل العلم والفضل من العلماء، وقد قال الحافظ ابن عبد البر في (جامع بيان العلم): يقال: إن من بركة العلم أن تضيف الشيء إلى قائله، وقال الإمام النووي رحمه الله في (بستان العارفين): إن من النصيحة أن تضاف الفائدة التي تستغرب إلى قائلها، فمن فعل ذلك بورك له في علمه وحاله، ومن أوهم ذلك فيما يأخذه من كلام غيره أنه له فهو جدير أن لا ينتفع بعلمه، ولا يبارك له في حاله، ولم يزل أهل العلم والفضل على إضافة الفوائد إلى قائلها، نسأل الله التوفيق لذلك دائما(٢) اهـــ.

---

[١] بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله الذي علّم الإنسان ما لم يعلم، وكرّم بني آدم وفضّلهم تفضيلا، ورفع درجات الذين أوتوا العلم في الدنيا وفي الآخره، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله، وصفيه وخليله، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، وسيد الكونين، وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد: فهذه تقريرات لطيفة وإشارات منيفة وضعتها على كتابي "التيجان المكللة في شرح النصائح المرسله" تبين ما خفي معناه أو استغلق مبناه، وأذكر فيها تخريج بعض الأحاديث، والفوائد المهمة، والزوائد المتمة التي لا يستغني عنها روّاد المعرفة وراغبو الحكمة، والله سبحانه وتعالى الموفق، وهو المستعان، وإليه تفويضي واستنادي، ولا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم.

قال شيخنا الشيخ عبد الله الشيخ داود: اختلف في أول من تكلم بأما بعد فقيل: داود عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام وهو الأصح، وقيل: يعرب بن قحطان، وقيل: قس بن ساعدة، وقيل: سحبان بن وائل، وقيل: كعب بن لؤيّ.

[٢] بستان العارفين، ص١٧-١٨.

وهذا مع أننا في زمان الاتـــهام والشكوك، فينبغي التصريح بالمرجع الذي نُقِلَت منه الفائدة، والباب الذي ذُكِرت فيه، وربما أزيد ذكر رقم الصفحة، وهذا كله ليكون القارئ والمطالع على ثقة واطمئنان، وليسهل له البحث والرجوع إلى ذلك الكتاب إذا دعت الحاجة إليه أو عند إرادة التحقيق، وسميته: "**التيجان المكّلله، في شرح النصائح المرسله**".

وأذكر إن شاء الله تعالى في بعض المواضع حكايات العلماء والصالحين ومحاسنهم المتنوعة، مثل هممهم العالية وأخلاقهم المرضية، وصبرهم على شدائد تعلّم العلم وتعليمه وغير ذلك، فإن ذلك من أقوى الأسباب لرفع الهمة، ودفع العجز والكسل وبذل الجهد، إذ الإنسان مجبول على اقتداء من يثق به، والتأسي بمن يحبه، قال الله تعالى: {**فاقصص القصص لعلهم يتفكرون**}، وفي ذلك أيضا التعرض لبركاتـــهم ونزول الرحمة التي تنـــزل عند ذكرهم، وقد ذكرتُ في كتابي (إقناع المؤمنين بتبرك الصالحين) أن الإمام سفيان بن عيينة شيخ الإمام الشافعي رحمهما الله قال: عند ذكر الصالحين تنـــزل الرحمة، وأن محمد بن يونس قال: ما رأيت للقلب أنفع من ذكر الصالحين، وأن بشر بن الحرث الحافي قال: إن أقواما موتى تحيا القلوب بذكرهم، وإن أقوما أحياء تقسو القلوب برؤيتهم(١) اهـــ.

وقال الشيخ عبد الفتاح أبو غدة في كتابه (صفحات من صبر العلماء): قال بعض العلماء من السلف: الحكايات جند من جنود الله تعالى يثبِّت الله بــــها قلوب أوليائه، وشاهده من كتاب الله تعالى قوله سبحانه: {**وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبِّت به فؤادك**}.

وقال الإمام أبوحنيفة رضي الله عنه: الحكايات عن العلماء ومحاسنهم أحب إليّ من كثير من الفقه، لأنّها آداب القوم وأخلاقهم، وشاهده من كتاب الله تعالى قوله سبحانه: {**أؤلئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده**} وقوله سبحانه: {**لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب**} نقله الحافظ ابن عبد البر في (جامع بيان العلم وفضله)، والقاضي عياض في (ترتيب المدارك)، والحافظ السخاوي في (الإعلان بالتوبيخ)، والمؤرخ المقري في (أزهار الرياض).

وجاء في مقدمة كتاب (اللقط في حكايات الصالحين) للإمام ابن الجوزي: عن مالك بن دينار قال: الحكايات تُحَفُ الجنة، وقال الجنيد: الحكايات جند من جنود الله عز وجل،

---

[1] إقناع المؤمنين بتبرك الصالحين في باب التبرك بذكر الصالحين واستنـــزال الغيث بــــهم .

يقوَّى بـــها إيمان المريدين، فقيل له: هل لهذا من شاهد؟ قال: قوله تعالى: {**وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبّت به فؤادك**}. وقال آخر: استكثروا من الحكايات فإنـــها درر، وربما كانت فيها الدرة اليتيمة اهـــ.

وقال أبو عمرو بن العلاء: قيل لرجل من بكر بن وائل-قد كبر وذهبت منه لذة المأكل والمشرب والنكاح-: أتحب أن تموت؟ قال: لا، قيل: فما بقي من لذتك في الدنيا؟ قال: أستمع العجائب .

ثم قال أبوغدة: إن خير وسيلة لإشعال العزائم، وإثارة الروح الوثابة، وإذكاء الهمم، وتقويم الأخلاق بصمت وهدوء، ودون أمر أو نـــهي، والتسامي إلى معالي الأمور، والترفع عن سفسافها، والائتساء(١) بالأسلاف الأجلاء هو قراءة سير نبغاء(٢) العلماء الصلحاء، والوقوف على أخبار الرجال العظماء، والتّملي(٣) من مناقب الصالحين الربانيين، والاقتراب من العلماء النبهاء العاملين، فذلك خير مهماز(٤) لرفع الهمم، وشد العزائم، وسُموّ المقاصد، وإنارة القلوب، وإخلاص النيات، وتفجير الطاقات المدفونة، والصبر على اجتياز العقبات والصعوبات، واحتلال ذرى المجد الرفيع، وكسب الذكر الحسن، واغتنام الباقيات الصالحات(٥) اهـــ باختصار.

وأرجو أن يكون سالما عن الإطناب الممل، والإيجاز المخلّ، بل يكون متوسطا موفيا للمقصود، بعون الملك المعبود، ذي الفضل والجود، وأسأله تعالى الإعانة والإمداد، والحفظ من كل ما يؤدّي إلى الندم والعتاب، في هذه الدنيا ويوم المآب، فإنه قريب يجيب بفضله دعوة الداعي إذا دعاه، ولا يخيب لكرمه من رجاه، وهو المحسن الكريم، ذو الفضل العظيم، والجود

---

[١] الائتساء: القدوة، وفي القاموس: ائتسى به جعله قدوة .

[٢] النابغة: قال في القاموس: الرجل العظيم الشأن، والهاء للمبالغة .

[٣] وفي القاموس: تملّى عمره أي استمتع منه، وفي الأساس للزمخشري: ملاك الله حبيبك طوّل لك الإمتاع به.

[٤] المهماز حديدة في مؤخر خف الرائض اهـــ من الصحاح للجوهري، وفي القاموس: المهمزة المقرعة والعصا أو عصا في رأسها حديدة ينخس بـــها الحمار .

[٥] عبد الفتاح أبوغدة، في مقدمة الطبعة الثانية من كتاب صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل، ص١٧-١٨.

العميم، وإنه يمن على من يشاء بما يشاء، فكم أسدى إلى ضعيف مثلي ما لم تبلغه أماني الكبراء، ومطامح الفضلاء.

وأطلب من الله تعالى بجاه حبيبه الأعظم، وصفيه الأفخم، أن يرزقني الإخلاص فيه والتوفيق، وأن يتقبله مني، فإنه نعم المولى ونعم النصير، وهو على كل شيء قدير، وبالإجابة جدير، ولا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم.

مقدمة في فضائل العلم وأهله

تعريف العلم

قال إمام الحرمين: لا يحد العلم لتعذره، وقال أيضا: إن حده عَسِرٌ، فالرأي الإمساك عن تعريفه .

وقال الإمام الرازي: لا يحد لكونه ضروريا.

وقال الحافظ العسقلاني في فتح الباري: قد أنكر ابن العربي في شرح الترمذي على من تصدى لتعريف العلم فقال: هو أبْيَنُ من أن يُبَيّن، ثم قال الحافظ العسقلاني: هذه طريقة الغزالي وشيخه الإمام أن العلم لا يحد لوضوحه أو لعسره (١).

وعرّفه بعضهم ثم اختلفوا فيه، فقال بعضهم: هو اعتقاد الشيء على ما هو به، وقال آخرون: هو الذي يوجب كونَ من قام به عالما، وقال آخرون: هو إدراك المعلوم على ما هو به، وقد ذكر من تعاريفه المرتضى الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين) خمسة عشر تعريفا، وقال: يطلق لفظ العلم على أسماء العلوم المدوّنة كالنحو والفقه، ثم قال: والتحقيق أن المعنى الحقيقي للفظ العلم هو الإدراك،.

فضل العلم

قد تكاثرت الآيات والأخبار والآثار، وتواترت وتطابقت الدلائل الصريحة وتوافقت على فضيلة العلم والحث عليه، فأذكر منها نبذا قليلة.

منها: قوله تعالى: {**ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة**}

وقوله تعالى: {**فلنقصن عليهم بعلم**}

وقوله تعالى: {**خلق الإنسان علمه البيان**} قال الغزالي: إنما ذكر ذلك في معرض الامتنان.

وقوله تعالى: {**وقل رب زدني علما**} .

قال الحافظ العسقلاني في (فتح الباري): إن الله تعالى لم يأمر نبيه صلى الله عليه وسلم بطلب الازدياد من شيء إلا من العلم، والمراد بالعلم العلم الشرعي الذي يفيد معرفة

---

[1] فتح الباري: ج١ص١٤١ .

ما يجب على المكلف من أمر دينه في عباداته ومعاملاته، والعلم بالله وصفاته، وما يجب له من القيام بأمره وتَنْزيهه عن النقائص، ومدار ذلك على التفسير والحديث والفقه اهـ.

١) روينا إجازة عن السيد العلامة الإمام القدوة الحبيب سالم بن عبد الله بن عمر بن أحمد بن عمر بن أحمد الشاطري باعلوي الحسيني(١) قال: أخبرني بكتاب الجامع الصحيح تأليف الإمام الحجة أمير المؤمنين في حديث سيد المرسلين أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري رحمه الله تعالى ورضي عنه بسند عال شيخي العلامة الجليل والفهامة النبيل الحبيب عبد الله بن صالح بن هاشم الحبشي قراءة عليه كله أو أكثره في قبة السيد الإمام أبي بكر العدني بن عبد الله العيدروس بـ"عدن" عن الحبيب محمد بن هادي بن حسن السقاف عن سيدنا الحبيب عيدروس بن عمر الحبشي عن السيد عبد الرحمن بن سليمان الأهدل عن شيخه ابن السنة صالح الفلاّني عن سيدنا أحمد بن محمد بن العجل اليمني المعمر ١٤٧ سنة عن شيخه المعمر مفتي مكة قطب الدين محمد بن أحمد الهروي عن شيخه أبي الفتوح الطاووسي عن شيخه المعمر بابا يوسف الهروي قال: أخبرنا شيخنا عبد الرحمن بن محمد بن يوسف الفاسي الفرغاني المعمر ١٣٠ سنة قال: أخبرنا شيخنا أبولقمان يحيى بن عمار بن مقبل بن شاهان الختلاني المعمر ١٤٣ سنة قال: أخبرنا شيخنا الحافظ أبو عبد الله محمد بن يوسف بن مطر بن صالح الفرَبْري قال: أخبرنا شيخنا أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري قال: حدثنا سعيد بن عُفَير حدثنا ابن وهب عن يونس عن ابن شهاب قال: قال حميد بن عبد الرحمن: سمعت معاوية خطيبا يقول: قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين، وإنما أنا قاسم والله يعطي، ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله لايضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله

---

[١] هو السيد العلامة الفقيه الشافعي المسند المربي الداعي إلى الله الحبيب سالم بن عبد الله بن عمر بن أحمد بن عمر بن أحمد بن عمر بن أحمد بن علي بن حسين بن محمد بن أحمد بن عمر بن علوي الشاطري الحسيني الحضرمي التريمي، ولد بمدينة تريم سنة ١٣٥٧هـ بحضرموت. وكانت هذه الإجازة بالمكاتبة والمراسلة أرسلها إلىّ الشيخ العلامة الحبيب سالم بن عبد الله بن عمر الشاطري من مدينة تريم بواسطة أخينا وحبيبنا الشيخ أبي بكر بن حسن بن مالم، بتاريخ ١٤٣٠/٩/٤هـ .

(١). ورويناه أيضا عن شيخنا الشاطري بطرق أخرى، وروى الحديث أيضا الإمام مسلم وغيره.

٢) وعن أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا، منها طائفة طيبة قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكان منها أجادب أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا، وأصاب طائفة منها أخرى إنما هي قيعان لا تمسك الماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به، رواه البخاري ومسلم .

٣) وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا حسد إلا في اثنتين، رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها، رواه البخاري ومسلم.

قال النووي: المراد بالحسد الغبطة، وهي أن يتمنى مثله، ومعناه ينبغي أن لا يغبط أحدا إلا في هاتين الموصلتين إلى رضاء الله تعالى.

٤) وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له، رواه مسلم (٢).

وقال الحافظ زكي الدين عبد العظيم المنذري في (الترغيب والترهيب): وناسخ العلم النافع له أجره وأجر من قرأه أو نسخه أو عمل به من بعده ما بقي خطه والعمل به لهذا الحديث وأمثاله، وناسخ غير النافع مما يوجب الإثم عليه وزره ووزر من قرأه أو نسخه أو عمل به من بعده ما بقي خطه والعمل به، لما تقدم من حديث مَنْ سنَّ سنة حسنة أو سيئة والله أعلم(٣).

---

[١] رواه البخاري في كتاب العلم باب من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين.

[٢] مقدمة المجموع، ص٥١-٥٢.

[٣] الترغيب والترهيب في باب الترغيب في سماع الحديث وتبليغه ونسخه والترهيب من الكذب على رسول الله صلى الله عيله وسلم من كتاب العلم.

٥) وفي (مجمع الزوائد): عن حذيفة بن اليمان، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فضل العلم خير من فضل العبادة، وخير دينكم الورع، رواه الطبراني في الأوسط، والبزار، وفيه عبد الله بن عبد القدوس، وثقه البخاري وابن حبان وضعفه ابن معين .

٦) وعن ابن عمر، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أفضل العبادة الفقه، وأفضل الدين الورع، رواه الطبراني في الثلاثة، وفيه محمد بن أبي ليلى، ضعفوه لسوء حفظه .

٧) وروى ابن عبد البر عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: طلب العلم فريضة على كل مسلم، وإن طالب العلم يستغفر له كل شيء حتى الحيتان في البحر (١).

٨) وروى الديلمي في مسند الفردوس عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: طلب العلم أفضل عند الله من الصلاة والصيام والحج والجهاد في سبيل الله عز وجلّ(٢).

٩) وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: طلب العلم فريضة على كل مسلم، وواضع العلم عند غير أهله كمقلد الخنازير الجوهر واللؤلؤ والذهب، رواه ابن ماجه وغيره(٣).

وفي رواية عن أنس أيضا: اطلبوا العلم ولو بالصين، فإن طلب العلم فريضة على كل مسلم(٤).

---

[١] قال السيوطي في الجامع الصغير: رواه ابن عبد البر في العلم عن أنس، ورمز له بالصحة .

[٢] وفي الجامع الصغير: رواه الديلمي في مسند الفردوس عن ابن عباس، و رمز له السيوطي بالضعف .

[٣] قال المناوي في شرح الجامع الصغير: قال المنذري: سنده ضعيف، وقال البيهقي: طرقه كلها ضعيفة، وقال ابن عبد البر: روي من وجوه كلها معلولة لكن معناه صحيح، وقال الزركشي: روي من طرق تبلغ رتبة الحسن. وقال المصنف: حديث حسن اهـ. وقال السخاوي في المقاصد الحسنة: ألحق بعض المصنفين بآخر هذا الحديث (ومسلمة) وليس لها ذكر في شيء من طرقه وإن كان معناها صحيحا.

[٤] حديث أطلبوا العلم ولو بالصين إلخ ذكره ابن الجوزي في الموضوعات، وقال: فيه أبو عاتكه منكر الحديث، وقال السيوطي في التعقبات: أخرجه البيهقي في شعب الإيمان من طريقه، وقال: متن مشهور وإسناد ضعيف، وأبو عاتكه من رجال الترمذي لم يجرح بكذب ولا تهمة، وقد وجدت له متابعا عن أنس، أخرجه أبو يعلى وابن عبد البر من طريق كثير بن شنظير عن ابن سيرين عن أنس، وله طرق كثيرة يصل بمجموعها إلى مرتبة الحسن قاله الحافظ المزي انتهى ما في التعقبات باختصار .

وقال ابن عبد البر عن عكرمة قال: قال عيسى عليه السلام: لا تطرح اللؤلؤ إلى الخنـــزير، فإن الخنـــزير لا يصنع باللؤلؤ شيئا، ولا تعطي الحكمة لمن لا يريدها، فإن الحكمة خير من اللؤلؤ، ومن لا يريدها شر من الخنـــزير. ويروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: قام أخي عيسى عليه السلام خطيبا في بني إسرائيل فقال: يا بني إسرائيل لا تعطوا الحكمة غير أهلها فتظلموها، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم (١).

الآثار الواردة في فضائل العلم

ومن الآثار ما ذكره الهيثمي في (مجمع الزوائد) عن ابن مسعود قال: ياءيها الناس علـــيكم بالعلم قبل أن يقبض، وقبضه ذهاب أهله، عليكم بالعلم فإن أحدكم لا يدري متى يُفْتَقَرُ إلى ما عنده، وعليكم بالعلم، وإياكم والتنطع والتعمق، وعليكم بالعتيق، فإنه سيجيء قوم يتلون كتاب الله ينبذونه وراء ظهورهم، رواه الطبراني في الكبير، وأبو قلابة لم يسمع من ابن مسعود.

وعن رجل من عبس قال: كنت أمشي مع سليمان على شط دجلة فقال: يا أخـــا بـــني عبس، انزل فاشرب، فشربت ثم قال: اشرب، فشربت، فقال: ما نقص شربك من دجلة؟ قال: قلت: ما نقص، قال: العلم كذلك، يؤخذ منه ولا ينقص، فذكر الحـــديث، وهـــو بطوله في الزهد في عيش السلف، رواه الطبراني في الكبير، وفيه رجل لم يسم .

وقال النووي في المجموع: عن أبي هريرة رضي الله عنه: لأن أعلم بابا من العلم في أمر ونـــهي أحب إليّ من سبعين غزوة في سبيل الله .

وقال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى: طلب العلم أفضل من صلاة النافلة.

وقال: من أراد الدنيا فعليه بالعلم، ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم.

وقال أيضا: من لا يحب العلم فلا خير فيه فلا يكن بينك وبينه معرفة ولا صداقة.

وعن سفيان الثوري والشافعي رحمهما الله: ليس شيء بعد الفرائض أفضل من طلب العلم.

[1] جامع بيان العلم وفضله باب آفة العلم وغائلته وإضاعته، وكراهية وضعه عند من ليس بأهله، ج١ص١٣٢-١٣٣..

وعن أحمد بن حنبل: قيل له: أي شيء أحب إليك؟ أجلس بالليل أنسخ أو أصلي تطوعا، قال: فنسخك[1] تعلم بـــها أمر دينك لهو أحب .

وعن الزهري ومكحول: ما عبد الله بأفضل من الفقه .

وعن سعيد بن المسيب قال: ليس عبادة الله بالصوم والصلاة، ولكن بالفقه في دينه يعني ليس أعظمها وأفضلها الصوم بل الفقه[2] اهـــ.

وقال علي رضي الله عنه: كفى بالعلم شرفا أن يدعيه من لا يحسنه، ويفرح به إذا نســـب إليه، وكفى بالجهل ذما أن يتبرأ منه من هو فيه.

وقال وهب بن منبه: يتشعب من العلم الشرف وإن كان صاحبه دَنِيًّا، والعز وإن كـــان مهينا، والقرب وإن كان قصيا، والغنى وإن كان فقيرا، والنبل وإن كان حقيرا، والمهابـــة وإن كان وضيعا، والسلامة وإن كان سفيها .

وعن معاذ رضي الله عنه: تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشية، وطلبه عبـــادة، ومذاكرتـــه تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه من لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة [3].

وقال سفيان بن عيينة: لم يعط أحد في الدنيا شيئا أفضل من النبوة، وما بعد النبوة شـــيء أفضل من العلم والفقه.

وعن ابن عمر رضي الله عنه: مجلس فقه خير من عبادة ستين سنة[4].

وقال بعض السلف: خير المواهب العقل وشر المصائب الجهل.

وقيل: العلم حياة القلوب من الجهل، ومصباح البصائر في الظلم، به تبلغ منازل الأبرار، ودرجات الأخيار، والتفكر فيه ومدارسته ترجح على الصلاة، وصاحبه مبجل مكرم [5].

---

[1] وفي تعليق على المجموع لمحمد نجيب المطيعي: هكذا في الأصل، ولعل المعنى: نسخك مسألة إلخ.

[2] مقدمة المجموع للنووي، ص٥٤-٥٦.

[3] مقدمة المجموع، ص٥٣، وتذكرة السامع والمتكلم، ص٦٩-٧٠.

[4] تذكرة السامع والمتكلم، ص ٧١.

[5] مقدمة المجموع، ص٥٣.

وروى أبو الفضل السليماني في كتابه (الحث على طلب الحديث) من طريق عبد الله بن عبد الوهاب الخوارزمي قال: سألت أحمد قلت: إنا نطلب الحديث ولسنا نعمل به، قال: وأي عمل أفضل من طلب العلم؟ (١).

وقال إمام الحرمين رحمه الله في كتابه (الغياثي): فرض الكفاية أفضل من فرض العين من حيث أن فاعله يسدّ مسدّ الأمة، ويسقط الحرج عن الأمة، وفرض العين قاصر عليه، وبالله التوفيق اهـ(٢).

ومن شرف العلم وفضله أن أمر الله تعالى الملائكة بالسجود لآدم، قال القرطبي في تفسيره (الجامع لأحكام القرآن) في قوله تعالى: {**يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون**} دليل على فضل العلم وأهله، وفي الحديث: إن الملائكة لتضع أجنحتها رضى لطالب العلم. أي تخضع وتتواضع، وإنما تفعل ذلك لأهل العلم خاصة من بين سائر عباد الله لأن الله تعالى ألزمها ذلك في آدم عليه السلام فتأدبت بذلك الأدب، فكلما ظهر لها علم في بشر خضعت له وتواضعت وتذللت إعظاما للعلم وأهله، ورضا منهم بالطلب له والشغل به. هذا في الطلاب منهم فكيف بالأحبار فيهم والربانيين منهم!! جعلنا الله منهم وفيهم، إنه ذو فضل عظيم اهـ.

وذكر الإمام الفخر الرازي في تفسيره الشهير بالتفسير الكبير أنه عليه الصلاة والسلام كان يحدث إنسانا فأوحى الله إليه أنه لم يبق من عمر هذا الرجل الذي تحدثه إلا ساعة وكان هذا وقت العصر، فأخبر الرسول بذلك، فاضطرب الرجل وقال: يا رسول الله دلني على أوفق عمل لي في هذه الساعة، قال: اشتغل بالتعلم، فاشتغل بالتعلم، وقبض قبل المغرب. قال الرواي: فلو كان شيء أفضل من العلم لأمره النبي صلى الله عليه وسلم به في ذلك الوقت .

وأراد واحد خدمة ملك، فقال الملك: اذهب وتعلم حتى تصلح لخدمتي، فلما شرع في التعلم وذاق لذة العلم بعث الملك إليه وقال: اترك التعلم فقد صرت أهلا لخدمتي، فقال:

---

[١] فتح المغيث شرح ألفية الحديث للسخاوي ج٢ص٣٢٤.

[٢] مقدمة المجموع ص٥٧ .

كنت أهلا لخدمتك حين لم تربي أهلا لخدمتك، وحين رأيتني أهلا لخدمتك رأيت نفسي أهلا لخدمة الله تعالى، وذلك أني كنت أظن أن الباب بابك لجهلي، والآن علمت أن الباب باب الرب .

وقال القرطبي: المعصية عند الجهل لا يرجى زوالها، وعند الشهوة يرجى زوالها .

وقال قتادة: لو اكتفى أحد من العلم لاكتفى نبي الله موسى عليه السلام، و لم يقل: هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشدا.

وكان لسليمان عليه السلام من ملك الدنيا ما كان حتى إنه قال: رب هب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي، ثم إنه لم يفتخر بالمملكة وافتخر بالعلم حيث قال: {**يا ءيها الناس علمنا منطق الطير**} فافتخر بكونه عالما بمنطق الطير، فإذا حسن من سليمان عليه السلام أن يفتخر بذلك العلم فلأن يحسن بالمؤمن أن يفتخر بمعرفة رب العالمين كان أحسن .

وكان علم آدم سببا له في حصول السجدة والتحية، ثم نقول: من علِم أسماء المخلوقات وجد التحية من الملائكة، فمن علم ذات الخالق وصفاته أما يجد تحية الملائكة بل يجد تحية الرب، قال: {**سلام قولا من رب رحيم**}، وعلم الخضر كان سببا لأن وجد تلميذا مثل موسى ويوشع عليهما السلام، وعلم يوسف كان سببا لوجدان الأهل والمملكة.

وقال أيضا في تفسيره: الكلب إذا تعلم وأرسله المالك على اسم الله تعالى صار صيده النجس طاهرا(١)، والنكتة أن العلم هناك انضم إلى الكلب فصار النجس ببركة العلم طاهرا، فههنا النفس والروح طاهرتان في أصل الفطرة إلا أنـــهما تلوثتا بأقذار المعصية ثم انضم إليهما العلم بالله وبصفاته فنرجو من عميم لطفه أن يقلب النجس طاهرا ههنا والمردود مقبولا.

وقال أيضا: القلب رئيس الأعضاء، ثم إن تلك الرياسة ليست للقوة فإن العظم أقوى منه، ولا للعِظم فإن الفخد أعظم منه، ولا للحدة فإن الظفر أحدّ منه، وإنما تلك الرياسة بسبب العلم، فدل على أن العلم أشرف الصفات(٢).

---

[١] يعني أن الصيد لو قتله الكلب غير المعلم لكان حراما نجسا، لكنه لما قتله ذلك الكلب المعلم كان حلالا طاهرا غير معضه.

[٢] تفسير الفخر الرازي في تفسير قوله تعالى: {**وعلم آدم الأسماء كلها**}.

وقال النووي وبدر الدين بن جماعة: إن العلماء متفقون على أن الاشتغال بالعلم أفضل من الاشتغال بنوافل الصوم والصلاة والتسبيح ونحو ذلك من نوافل عبادات البدن، ومن دلائله أن نفع العلم يعم صاحبه والمسلمين، والنوافل المذكورة مختصة به؛ ولأن العلم مصحح، فغيره من العبادات مفتقر إليه ولا ينعكس؛ ولأن العلماء ورثة الأنبياء، ولا يوصف المتعبدون بذلك؛ ولأن العابد تابع للعالم مقتد له في عبادته وغيرها واجب عليه طاعته ولا ينعكس؛ ولأن العلم تبقى فائدته وأثره بعد صاحبه، والنوافل تنقطع بموت صاحبها، ولأن العلم صفة لله تعالى، ولأن العلم فرض كفاية أعني العلم الذي كلامنا فيه فكان أفضل من النافلة (١).

أنواع العلم

وفي (الترغيب والترهيب) روي عن جابر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: العلم علمان، علم في القلب فذاك العلم النافع، وعلم على اللسان، فذاك حجة الله على ابن آدم، رواه الحافظ أبوبكر الخطيب في تاريخه بإسناد حسن، ورواه ابن عبد البر النمري في كتاب العلم عن الحسن مرسلا بإسناد صحيح(٢) .

وعن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: العلم علمان، علم ثابت في القلب فذاك العلم النافع، وعلم في اللسان فذلك حجة الله على عباده، رواه أبومنصور الديلمي في مسند الفردوس والأصبهاني في كتابه.

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه إلا العلماء بالله تعالى، فإذا نطقوا به لا ينكره إلا أهل الغرة بالله عز وجل، رواه أبو منصور الديلمي في المسند وأبو عبد الرحمن السلمي في الأربعين التي له في التصوف (٣) اهـ .

[1] مقدمة المجموع، ص٥٦، وتذكرة السامع والمتكلم، ص٧٢.

[2] ذكره ابن عبد البر في كتابه جامع بيان العلم في باب ذم الفاجر من العلماء وذم طلب العلم للمباهاة والدنيا، وذكر الإمام التبريزي في مشكاة المصابيح هذا الحديث عن الحسن موقوفا. وحسنه أيضا زين الدين العراقي كما في قاله العلامة أبو الفضل الشيخ عبد الله الصديق الغماري في كتابه: الإعلام بأن التصوف من شريعة الإسلام .

[3] الترغيب والترهيب، كتاب العلم، وذكره أيضا الهندي في كنز العمال ج١٠ص٧٩، رقم الحديث ٢٨٩٣٨.

وعن النواس بن سمعان رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في نفسك وكرهت أن يطّلع عليه الناس، رواه مسلم.

وعن وابصة بن معبد رضي الله عنه قال: أتيت رسول الله صلى الله وسلم فقال: جئتَ تسأل عن البر؟ قلت: نعم، قال: استفت قلبك، البر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب، والإثم ما حاك في النفس وتردد في الصدر وإن أفتاك الناس وأفتوك، قال النووي في الأربعين: رويناه في مسندي الإمامين أحمد بن حنبل والدارمي بإسناد حسن .

وحكي أن العارف بالله تعالى أبا الحسين النوري سئل عن مسائل، فالتفت يمينا وشمالا، ثم أطرق ساعة، ثم رفع رأسه وأجاب بجواب صحيح، فسئل عن التفاته، فقال: سألت ملك اليمين فلم يجبني، ثم ملك الشمال فلم يجبني، فسألت قلبي فأخبرني بما أجبت به(١).

وروى الحافظ أبو مسعود سليمان بن إبراهيم عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن علم الباطن، قال: سألت جبريل عن علم الباطن، قال سألت الله تبارك وتعالى عن علم الباطن، قال: يا جبريل هو سر بيني وبين أوليائي وأصفيائي أودعته في قلوبهم، لا يطلع عليه ملك مقرب ولا نبي مرسل(٢).

وروى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة قال: حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم وعائين، فأما أحدهما فَبَثَّثْتُهُ، وأما الآخر فلو بثثته قُطِع هذا البُلعوم اهـ.

وقال الطيبي في شرحه على المشكاة في شرحه لهذا الحديث: قوله: وعائين شَبَّهَ نوعي العلم بالظرفين لاحتواء كل منهما ما لم يحتوه الآخر، ولعل المراد بالأول علم الأحكام والأخلاق، وبالثاني علم الأسرار المصون عن الأغيار، المختص بالعلماء بالله من أهل العرفان، وأنشد الشيخ أبوحامد الغزالي لزين العابدين في المنهاج:

يا رب جوهر علم لو أبوح به	لقيل لي أنت ممن يعبد الوثنا
ولاستحل رجال مسلمون دمي	يرون أقبح ما يأتونه حسنا
إني لأكتم من علمي جواهره	كي لا يرى ذاك ذو جهل فيفتتنا
وقد تقدم في هذا أبو حسن	إلى الحسين وأوصى قبله الحسنا

---

[١] الجواهر اللؤلؤية ص٢٤٦.

[٢] إتحاف السادة المتقين ج١٠ص٤٤، وسيأتي إن شاء الله في الإخلاص .

وقال بعض العارفين: العلم المكنون والسر المصون علم هذه الطائفة، وهو نتيجة الخدمة وثمرة الحكمة، لا يظفر به إلا الغواصون في بحار المجاهدات، ولا يَسْعَد به إلا المصطفون بأنوار المشاهدات، إذ هو أسرار متمكنة في القلوب لا تظهر إلا بالرياضة، وأهل الغرة بالله لها منكرون، وعنها مدبرون.

وقال شيخنا شيخ الإسلام أبوحفص السهروردي قدس الله سره: قد اندرس كثير من دقيق علومهم.

وقال الجنيد رحمه الله: علمنا هذا طوي بساطه منذ كذا سنة، ونحن نتكلم في حواشيه.

وروى الشيخ أبو طالب المكي عنه أنه قال: لو أن العلم الذي أتكلم به من عندي لفني وانقطع، ولكنه من حق بدا وإلى حق يعود(١) اهـــ .

وفي (الإعلام بأن التصوف من شريعة الإسلام) روى أبو يعلى والبزار والطبراني في الأوسط عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنزل القرآن على سبعة أحرف، لكل آية منها ظهر وبطن. رجال الحديث ثقات كما قال الحافظ الهيثمي، قال ابن النقيب في تفسيره: ظهر الآية ما ظهر من معانيها لأهل العلم بالظاهر، وبطنها ما تضمنته من الأسرار التي أطلع الله عليها أرباب الحقائق اهـــ .

وروى أبو نعيم في الحلية عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: إن القرآن أنزل على سبعة أحرف، ما منها حرف إلا له ظهر وبطن، وإن عليّ بن أبي طالب عنده منه علم الظاهر والباطن.

وروى أيضا عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كنا نتحدث أن النبي صلى الله عليه وسلم عهد إلى عليّ سبعين عهدا لم يعهده إلى غيره . فهذا تصريح بأن الصحابة كانوا يعترفون لعليّ بتفوقه في علوم الحقائق والأسرار، وهذا مما لا نزاع فيه، وقد قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم: أنا مدينة العلم وعلي بابـــها، وهو حديث صحيح كما بيّنه شقيقي الحافظ أبو الفيض في كتاب فتح الملك العلي.

وقال ابن عباس: سلّم الصحابة لعليّ تسعة أعشار العلم وشاركهم في العشر العاشر.

---

[1] شرح الطيبـــي على مشكاة المصابيح المسمى بالكاشف عن حقائق السنن للإمام العلامة المحدث شرف الدين الحسين بن عبد الله بن محمد الطيبـــي ج٢ص٧١٥ .

ثم قال الغماري بعد كلام: لهذا كان عليّ أستاذ الصوفية ورئيسهم كما قال الجنيد وابن العربي الحاتمي وغيرهما، وسلسلة الطريق لا تتصل إلا به، ولا تنتهي إلا إليه بالتلقين والاقتداء والصحبة كما فصلّه أخي في البرهان الجلي(١) اهـــ .

وفي الباهر للحافظ السيوطي: أخرج البخاري ومسلم وأبوداود والنسائي وابن ماجه عن عائشة رضي الله عنها أنـــها قالت: اختصم سعد بن أبي وقاص وعبد بن زمعة في غلام فقال سعد: هذا يا رسول الله ابن أخي عتبة بن أبي وقاص عهد إليّ أنه ابنه، انظر إلى شبهه، وقال عبد بن زمعة: هذا أخي يارسول الله، ولد على فراش أبي، ولده من وليدته، فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى شبهه، فرأى شبها بينا بعتبة، فقال: هو لك يا عبد بن زمعة، الولد للفراش وللعاهر الحَجَر(٢)، واحتجبي منه يا سودة بنت زمعة، قالت: فلم تره سودة قط، وفي لفظ عند البخاري وأبي داود هو أخوك يا عبد. وفي لفظ: فما رآها حتى لقي الله، وفي لفظ مسلم قالت عائشة: فو الله ما رآها حتى مات، قال الشيخ سراج الدين بن الملقن والحافظ ابن حجر: استُدِل بـــهذا الحديث على أن حكم الحاكم بالظاهر لا يحل الأمر في الباطن؛ فإنه حكم بأنه أخو عبد بن زمعة لقوله في الطرق الصحيحة هو أخوك يا عبد، وإذا ثبت أنه أخو عبد لأبيه فهو أخو سودة لأبيها، ثم أمرها بعد ذلك بالاحتجاب منه، فلو كان الحكم يُحِلُّ الأمر بالباطن لما أمرها بالاحتجاب منه، قال ابن الملقن: وقد قال بعض الحنفية: لا يجوز أن يجعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ابنا لزمعة ثم يأمر أخته أن تحتجب منه، فهذا محال، قال ابن الملقن: ليس بمحال بل له وجه، قال: وقد وقع في رواية البخاري في المغازي: هو أخوك يا عبد بن زمعة، ووقع في مسند أحمد وسنن النسائي: واحتجبي منه يا سودة، فليس لكِ بأخ، واختلف في تصحيحها فأعلها البيهقي، وقال المنذري: إنـــها زيادة غير ثابتة، ورواها الحاكم في مستدركه وصحح إسنادها اهـــ .

وقال الحافظ ابن حجر: رجال إسناد هذه الرواية رجال الصحيح، إلا شيخ مجاهد، وهو يوسف مولى آل الزبير، قال: وقد طعن البيهقي في سنده فقال: فيه جرير وقد نسب إلى

---

١ الإعلام بأن التصوف من شريعة الإسلام، للشيخ عبد الله الصديق الغماري، ط الثالثة ص١٩-٢٠.

٢ الحَجَرُ الخيبة والحرمان، كذا فسره ابن الأثير في النهاية .

سوء الحفظ، وفيه يوسف وهو غير معروف، قال: وتعقب بأن جريرا هذا لم ينسب إلى سوء الحفظ، وكأنه اشتبه عليه بجرير بن حازم، وبأن يوسف معروف من موالي آل الزبير، قال: فإذا ثبتت هذه الزيادة تعين تأويل نفي الأخوة عن سودة، قال: وقد نقل ابن العربي عن الشافعي أنه أوله، وقال: لو كان أخاها بنسب محقق لما منعها كما أمر عائشة أن لا تحتجب من عمها من الرضاعة اهــ

وحاصله: أنه جعله أخا لعبد بظاهر الشرع؛ لأن الولد للفراش ونفى أخوّته عن سودة عملا بمقتضى الباطن، وما اطلع عليه من الحقيقة، فهذا حكم في هذه القضية الواحدة بالظاهر والباطن معا.

وقال النسائي: أنبأنا سليمان بن سلم المصاحفي البلخي: حدثنا النضر بن شميل حدثنا حماد أنبأنا يوسف بن سعد عن الحارث بن حاطب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتي بلص فقال: اقتلوه، فقالوا: يارسول الله إنما سرق، فقال: اقتلوه، قالوا: يارسول الله إنما سرق: قال: اقطعوا يده، فقال: ثم سرق فقطعت رجله، ثم سرق على عهد أبي بكر رضي الله عنه حتى قطعت قوائمه كلها، ثم سرق أيضا الخامسة، فقال أبوبكر رضي الله عنه: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلم بـــهذا حين قال اقتلوه، ثم دفعه إلى فتية من قريش ليقتلوه، منهم عبد الله بن الزبير، وكان يحب الإمارة، فقال: أمِّروني عليكم فأمَّروه، فكان إذا ضربه ضربوه حتى قتلوه، أخرجه الحاكم في المستدرك، قال: حدثني أبوبكر محمد بن أحمد بن بالويه حدثنا إسحق بن حسن بن الحربي حدثنا عفان بن مسلم حدثنا حماد بن سلمة عن يوسف بن سعد، وقال: صحيح اهــ ورجاله رجال الصحيح سوى يوسف بن سعد الجمحي وهو ثقة كما قاله الذهبي في الكاشف، وقد أخرجه الطبراني من طريق عن حماد بن سلمة به.

وأخرجه من طريق آخر عن خالد الحذاء عن يوسف، وأخرجه أبو يعلى والهيثم بن كليب الشاشي في مسنديهما وصححه أيضا المقدسي فأخرجه في المختارة، وهذا من الحكم بالحقيقة، فقد نقل الخطابي الاتفاق على أن السارق لا يقتل بحال، وهو يدل على أنه كان مخيرا بين الحكم بظاهر الشريعة وبباطن الحقيقة، فأمر أولا بقتله على مقتضى الحقيقة، فراجعوه، وأمر ثانيا بقتله أيضا، فراجعوه، فأمر بقطعه على مقتضى الشريعة، فلما سرق

الخامسة نفّذ أبوبكر حكم رسول الله فيه كما صرح باستناده إليه، فإن توهم جاهل أنه إنما قتله باجتهاده فهذا من أعظم الجهل، ويرده أمران:
الأول تصريح أبي بكر باستناده إلى رسول الله بقتله، ولا يكون الاجتهاد مع وجود النص.
والثاني: أن الخطابي قال: إنه لم يذهب أحد من الفقهاء إلى أن السارق يقتل، فدل على أن أبابكر لم يفعل ذلك باجتهاده، بل بنص في هذا الرجل بخصوصه(١) اهـ.
وفي الباهر أيضا: قال ابن سعد في الطبقات أنبأنا محمد بن عمر الواقدي عن شيوخه قال: قد قتل مجذر بن ذياد سويد بن الصامت في وقعة التقيا فيها في الجاهلية، فظفر المجذر بسويد فقلته وذلك قبل الإسلام، فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة أسلم الحارث بن سويد ومجذر بن ذياد وشهدا بدرا، فجعل الحارث يطلب مجذرا ليقتله بأبيه فلا يقدر عليه، فلما كان يوم أحد وجال المسلمون تلك الجولة أتاه الحارث من خلفه فضرب عنقه، فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من حمراء الأسد أتاه جبريل فأخبره أن الحارث بن سويد قتل مجذر بن ذياد غيلة، وأمره أن يقتله، فركب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قباء في ذلك اليوم، في يوم حار، فدخل مسجد قباء فصلى فيه، وسمعت به الأنصار، فجاءت تسلّم عليه، وأنكروا إتيانه في تلك الساعة وفي ذلك اليوم، حتى طلع الحارث بن سويد في ملحفة مورسة(٢)، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا عويم بن ساعدة فقال: قدّم الحارث بن سويد إلى باب المسجد فاضرب عنقه بمجذر بن ذياد فإنه قتله غيلة، فقال الحارث: قد والله قتلته، وما كان قتلي إياه رجوعا عن الإسلام ولا ارتيابا فيه، ولكن حمية من الشيطان، وأمر وكلت فيه إلى نفسي، وإني أتوب إلى الله ورسوله مما عملت، وأخرج ديته وأصوم شهرين متتابعين، وأعتق رقبة حتى إذا استوعب كلامه قال صلى الله عليه وسلم: قدّمه يا عويم، فاضرب عنقه، فقدّمه فضرب عنقه.
قال ابن الأثير: اتفق أهل النقل على أن الحارث بن سويد هو الذي قتل المجذر بن ذياد فقتله النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا الاتفاق الذي نقله ابن الأثير يقتضي الحكم بصحة الحديث وإن لم يكن إسناده على شرط الصحة كما تقرر في علم الحديث، وذكره

---

[١] الباهر ص٣٤-٣٧.

[٢] أي مصبوغة بالورس. مختار الصحاح .

ابن عبد البر في (التمهيد) وغيرُه، وهذا الحكم المذكور فيه من الحكم بمقتضى الحقيقة والاطلاع على الباطن؛ لأنه لم يقع فيه دعوى من الوارث ولا طلب منه للقصاص، ولا قبول الدية ولا تأخير لبلوغ من كان من الورثة صغيرا، وكل هذه الأمور من مقتضيات الشريعة.

فإن قيل: إنما قتله من غير دعوى الوارث ولا طلبه لأنه جاءه الوحي بذلك؟ قلت: نعم، وهو نفس المدعى، فإن معنى الحكم بالحقيقة أن يوحى إليه بحقيقة الحال وباطن الأمر، ويؤمر بتنفيذ ذلك من غير توقف على وجود الشرائط التي تعتبر في الشريعة، وهذا معنى الحكم بالحقيقة ولا معنى له غيره، وما قتل الخضر الغلام إلا بوحي أوحاه الله إليه وأطلعه على أنه طبع كافرا وأمره أن يقتله من قبل أن يوجد الشرطان المعتبران في الشريعة، وهما البلوغ ومباشرة الكفر؛ ولهذا قال: {**وما فعلته عن أمري**} أي ما فعلته إلا بوحي من الله وأمره لي بذلك.

قال أبو حيان في تفسيره: الجمهور على أن الخضر نبي، وكان علمه معرفة بواطن أوحيت إليه، وعلم موسى الحكم بالظاهر اهـ .

وروى الإمام بن أحمد بن حنبل عن سعد بن الأطول أن أخاه مات وترك ثلاثمائة درهم وترك عيالا فأردت أن أنفقها على عياله، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: إن أخاك محبوس بدينه فاقض عنه، فقال: يا رسول الله قد أديت عنه إلا دينارين ادعتهما امرأة وليس لها بينة، فقال: اعطها فإنها محقة، أخرجه ابن ماجه.

قال الحافظ زين الدين العراقي في كتاب (قرة العين بالمسرة بوفاء الدين): هذا حديث حسن.

وهذا من الحكم بالباطن فإن ظاهر الشريعة في مثل هذا أنه لا بد من البينة ومن اليمين أيضا وجوبا لأنها دعوى على ميت خصوصا والورثة صغار، ومع ذلك حكم بالأداء بدونهما لاطّلاعه على الباطن[1] .

وفي الباهر أيضا: أخرج أبوبكر بن شيبة في (مسنده) عن أنس قال: كان فينا شاب ذو عبادة وزهد واجتهاد فسميناه لرسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يعرفه، ووصفناه بصفته

---

[1] الباهر في حكم النبي صلى الله عليه وسلم بالباطن والظاهر للحافظ السيوطي، ص٥٦-٦٠.

فلم يعرفه، فبينا نحن كذلك إذ أقبل الرجل فقلنا: يا رسول الله هو هذا، فقال: إني لأرى في وجهه سفعة(١) من الشيطان، فجاء وسلم، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: أجعلت في نفسك أن ليس في القوم أحسن منك؟ فقال: اللهم نعم، ثم ذهب فدخل المسجد، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من يقتل الرجل؟ فقال: أبوبكر أنا، فدخل فإذا هو قائم يصلي، فقال: أقتل رجلا يصلي وقد نـــهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتل المصلين؟، فقال: رسول الله صلى الله عليه وسلم: من يقتل الرجل؟ فقال عمر: أنا يا رسول الله، فدخل المسجد فإذا هو ساجد، فقال مثل أبي بكر وزاد لأرجعن فقد رجع من هو خير مني، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: مه يا عمر، فذكر له، فقال رسول الله: من يقتل الرجل؟ فقال علي: أنا يا رسول الله، فقال: أنت تقتله إن وجدته، فدخل المسجد فوجده قد خرج، فقال عليه السلام: أما والله لو قتلته لكان أولهم وآخرهم ولما اختلف في أمتي اثنان.

وأخرجه ابن المديني في مسنده، وأبو يعلى في مسنده، وللحديث طرق متعددة تقتضي ثبوته. ثم ذكر السيوطي طرقا ثمانية لهذا الحديث(٢) اهـــ.

وعن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر رجلا بعد ما حلف بالخروج من حق صاحبه كأنه صلى الله عليه وسلم علم كذبه، رواه أبو داود والنسائي والحاكم والإمام أحمد(٣) .

وينقسم العلم أيضا إلى علم الأبدان وعلم الأديان، فقد قال الشافعي رحمـــه الله: العلـــم علمان، علم الفقه للأديان وعلم الطب للأبدان (٤) .

وفي آداب الشافعي ومناقبه للحافظ عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي أن الإمام الشـــافعي قال: إنما العلم علمان علم الدين وعلم الدنيا، فالعلم الذي للدين هو الفقه، والعلم الـــذي للدنيا هو الطب.

---

[١] أي علامة من الشيطان ومس منه، قال ابن الأثير في النهاية: جعل صلى الله عليه وسلم ما به من العُجْب مسّا من الجنون .

[٢] الباهر ص٤٤-٤٥.

[٣] مغني المحتاج كتاب الدعوى والبينات.

[٤] تعليم المتعلم في فصل ماهية العلم والفقه وفضله.

وعن الشافعي أيضا قال: لا تسكنن بلدا لا يكون فيه عالم يفتيك عن دينك، ولا طبيب ينبئك عن أمر بدنك(١) اهـ .

باب فضائل العالم

ورد في فضائل العالم آيات وأحاديث كثيرة وآثار من الصحابة والتابعين ومن بعدهم، فمن الآيات:

قوله تعالى: {**ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق**}

وقوله تعالى: {**فالذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق**}

وقوله تعالى: {**إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا**} الآية

وقوله تعالى: {**وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما**}.

وقوله تعالى: {**وعلم آدم الأسماء كلها**} الآية .

وقوله تعالى: {**ومن يؤتى الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا**} قال الزبيدي: قال ابن قتيبة: الحكمة إصابة الحق والعمل به.

وقوله تعالى: {**فاسئلوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون**}.

وقوله تعالى: {**وما يعقلها إلا العالمون**}.

وقوله تعالى: {**بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم**}.

وقوله تعالى: {**إنما يخشى الله من عباده العلماؤ**}(٢) .

وقوله الله تعالى: {**يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات**}

وفي (الدر المنثور في التفسير بالمأثور) في تفسير قوله تعالى: {**يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات**}: أخرج ابن المنذر والحاكم وصححه والبيهقي في المدخل

---

[١] آداب الشافعي ومناقبه ص٣٢١

[٢] وفي كتاب النشر في القراءات العشر ج١ص٢٠: ومن القسم الذي نقله غير الثقة كثير كالقراءة المنسوبة إلى الإمام أبي حنيفة التي جمعها أبو الفضل محمد بن جعفر الخزاعي ونقلها عنه أبو القاسم الهذلي وغيره فإنها لا أصل لها. قال أبو العلاء الواسطي: إن الخزاعي وضع كتابا في الحروف نسبه إلى أبي حنيفة. قلت: وقد رويت الكتاب المذكور ومنه: {**إنما يخشى الله من عباده العلماء**} برفع الهاء ونصب الهمزة وقد راج ذلك على أكثر المفسرين ونسبها إليه، وتكلف توجيهها وإن أبا حنيفة لبريء منها.

عن ابن عباس في قوله تعالى: {يرفع الله الذين آمنوا} الآية: قال: يرفع الله الذين أوتوا العلم من المؤمنين على الذين لم يؤتوا العلم درجات .

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه قال في تفسير هذه الآية: يرفع الله الذين آمنوا منكم وأوتوا العلم على الذين آمنوا و لم يؤتوا العلم درجات.

وأخرج ابن المنذر عن ابن مسعود قال: ما خص الله العلماء في شيء من القرآن ما خصهم في هذه الآية، فضل الله الذين آمنوا وأوتوا العلم على الذين آمنوا و لم يوتوا العلم اهـ.

وقال الحافظ العسقلاني في الفتح: ورفعة درجات العالم تشمل المعنوية في الدنيا بعلو المنزلة وحسن الصيت، والحسية في الآخرة بعلو المنزلة في الجنة، وفي صحيح مسلم عن نافع بن عبد الحارث الخزاعي -وكان عامل عمر على مكة- أنه لقيه بعسفان فقال له: من استخلفت؟ فقال: استخلفت ابن أبزى مولى لنا، فقال عمر: استخلفت مولى؟، قال: إنه قارئ لكتاب الله عالم بالفرائض، فقال عمر: أما إن نبيكم قد قال: إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواما ويضع به آخرين(١) .

وقال تعالى: {**شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط**}الآية. قال بدر الدين محمد بن إبراهيم بن جماعة في تذكرة السامع والمتكلم: بدأ سبحانه بنفسه وثنى بملائكته وثلث بأهل العلم، وكفاهم ذلك شرفا وفضلا وجلالة ونبلا.

وقال الله تعالى: {**قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون** }.

وقال الله تعالى: {**قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب**} .

وقال تعالى: {**قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آيتك به**} قال الغزالي: تنبيها على أنه اقتدر بقوة العلم .

وقال عز وجل: {**وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا**} قال الغزالي: بين سبحانه وتعالى أن عظم قدر الآخرة يعلم بالعلم.

وقال تعالى: {**ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم**} رد سبحانه وتعالى حكمه في الوقائع إلى استنباط العلماء وألحق رتبتهم برتبة الأنبياء في كشف حكم الله تعالى .

---

[١] فتح الباري ج١ص ١٤١.

١) ومن الأحاديث ما رواه أبو الدرداء أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: العلماء ورثة الأنبياء(١).

قال الغزالي في الإحياء: ومعلوم أنه لا رتبة فوق النبوة ولا شرف فوق شرف الوراثة لتلك الرتبة اهـ.

وقال بدر الدين محمد بن إبراهيم بن جماعة: وحسبك بهذه الدرجة مجدا وفخرا، وبهذه الرتبة شرفا وذكرا، فكما لا رتبة فوق رتبة النبوة فلا شرف فوق شرف وارث تلك الرتبة(٢) اهـ.

٢) وعن أبي الدرداء أنه صلى الله عليه وسلم قال: يوزن يوم القيامة مداد العلماء ودم الشهداء(٣). وقال بعضهم: هذا مع أن أعلى ما للشهيد دمه وأدنى ما للعالم مداده.

٣) وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ما عبد الله بشيء أفضل من فقه في دين، ولفقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد، ولكل شيء عماد وعماد هذا الدين الفقه(٤).

---

[١] قال الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الإحياء: أخرج حديث العلماء ورثة الأنبياء أبو داود والترمذي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه. وقال السخاوي في المقاصد: رواه أحمد وآخرون عن أبي الدرداء مرفوعا بزيادة إن الأنبياء =لم يورثوا دينارا ولا درهما إنما ورثوا العلم. وصححه ابن حبان والحاكم وغيرهما وحسنه حمزة الكناني وضعفه غيرهم لكن له شواهد يتقوى بها اهـ إتحاف السادة المتقين ج١ص٧١.

[٢] تذكرة السامع والمتكلم في الباب الأول في فضل العلم والعلماء وفضل تعليمه وتعلمه،

[٣] قال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء: أخرجه ابن عبد البر من حديث أبي الدرداء بسند ضعيف .

[٤] قال الحافظ العراقي: أخرجه الطبراني في الأوسط، وأبوبكر الآجري في فضل العلم، وأبو نعيم في رياضة المتعلمين من حديث أبي هريرة بإسناد ضعيف، وعند الترمذي وابن ماجه من حديث ابن عباس بسند ضعيف: فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد اهـ. وقال المرتضى الزبيدي في إتحاف السادة المتقين: كل جملة من الثلاثة حديث مستقل، أما الأولى منها: فقد أخرج البيهقي في شعب الإيمان عن ابن عمر رفعه: ما عبد الله بشيء أفضل من فقه في دين، وأما الثانية: فقد أخرجه الترمذي وابن ماجه عن ابن عباس كما قاله العراقي، ولفظ ابن ماجه: فقيه واحد، ولفظ الترمذي: فقيه أشد من غير ذكر واحد، وأورد الحديثين معا جماعة، وهم الثلاثة الذين ذكرهم العراقي آنفا، والبيهقي في الشعب، والدارقطني في السنن، والقضاعي في مسند الشهاب، وأحمد بن منيع في مسنده عن أبي هريرة مرفوعا، وفي الفردوس للديلمي بلا سند عن ابن مسعود رفعه: لعالم واحد أشد على إبليس من عشرين عابدا، وروى الخطيب في تاريخه عن أبي هريرة ولفظه: إن لكل شيء دعامة، ودعامة هذا الدين الفقه، وأخرج أحمد بن منيع في مسنده عن أبي هريرة رفعه: لكل شيء عماد، وعماد الدين الفقه اهـ بحذف.

٤) وعن عثمان بن عفان رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: يشفع يوم القيامة ثلاثة الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء(١) .

٥) وقال الحافظ الهيثمي في (مجمع الزوائد): عن عبد الرحمن بن عوف عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: فُضِّل العالِمُ على العابد سبعين درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض (٢).

٦) وعن ابن عباس، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: علماء هذه الأمة رجلان: رجل آتاه الله علما فبذله للناس، و لم يأخذ عليه طمعا، و لم يشتر به ثمنا، فذلك تستغفر له حيتان البحر، ودواب البر والطير في جوِّ السماء، ويقدم على الله سيدا شريفا حتى يرافق المرسلين، ورجل آتاه الله علما فبخل به عن عباد الله، وأخذ عليه طمعا واشترى به ثمنا فذاك يلجم يوم القيامة بلجام من نار، وينادى مناد: هذا الذي آتاه الله علما فبخل به عن عباد الله، وأخذ عليه طمعا، واشترى به ثمنا، وكذلك حتى يفرغ من الحساب، رواه الطبراني في الأوسط(٣) .

٧) وعن جابر، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: معلم الخير يستغفر له كل شيء حتى الحيتان في البحار، رواه الطبراني في الأوسط(٤).

٨) وعن أبي أمامة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله وملائكته حتى النملة في جحرها وحتى الحوت في البحر يصلون على معلم الناس الخير، ، رواه الطبراني في الكبير(٥) اهـ

٩) وعن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

---

[١] قال الحافظ العراقي: أخرجه ابن ماجه من حديث عثمان بن عفان بإسناد ضعيف.

[٢]، رواه أبو يعلى وفيه الخليل بن مرة، قال البخاري: منكر الحديث، وقال ابن عدي: لم أر له حديثا منكرا، وهو في جملة من يكتب حديثه، وليس بمتروك .

[٣]، رواه الطبراني في الأوسط، وفيه عبد الله بن خراش، ضعفه البخاري، وأبو زرعة، وأبو حاتم، وابن عدي ووثقه ابن حبان .

[٤]، رواه الطبراني في الأوسط، وفيه إسمعيل بن عبد الله بن زرارة، وثقه ابن حبان، وقال الأزدي: منكر الحديث، ولا يلتفت إلى قول الأزدي في مثله، وبقية رجاله رجال الصحيح .

[٥] مجمع الزوائد في باب فضل العالم والمتعلم من كتاب العلم.

إن الله وملائكته وأهل السموات والأرض حتى النملة في حجرها، وحتى الحوت ليصلون على معلمي الناس الخير، رواه الترمذي وقال: حديث حسن (١).

١٠) وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن مثل العلماء في الأرض كمثل النجوم يهتدى بها في ظلمات البر والبحر، فإذا انطمست النجوم أوشك أن تضل الهداة، رواه أحمد(٢).

١١) وعن أبي موسى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يبعث الله العباد يوم القيامة ثم يميز العلماء فيقول: يا معشر العلماء إني لم أضع علمي فيكم لأعذبكم، اذهبوا فقد غفرت لكم، رواه الطبراني في الكبير.

١٢) وعن أبي أمامة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يجاء بالعالم والعابد فيقال للعابد: ادخل الجنة، ويقال للعالم: قف حتى تشفع للناس، رواه الأصبهاني وغيره .

١٣) وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يبعث العالم والعابد فيقال للعابد: ادخل الجنة، ويقال للعالم: اثبت حتى تشفع للناس بما أحسنت أدبهم، رواه البيهقي وغيره.

١٤) وعن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فضل العالم على العابد سبعون درجة ما بين كل درجتين حُضْرُ الفرس(٣) سبعين عاما، وذلك لأن الشيطان يبتدع البدعة للناس فيبصرها العالم فينهى عنها، والعابد مقبل على عبادة ربه لا يتوجه لها ولا يعرفها، رواه الأصبهاني وعجز الحديث يشبه المدرج(٤) اهـ.

---

[١] مقدمة المجموع، ص٥٢.

[٢] قال المنذري في الترغيب والترهيب: رواه أحمد عن أبي حفص صاحب أنس عنه ولم أعرفه وفيه رشدين أيضا.

[٣] قال في القاموس وشرحه: الحضر بالضم ارتفاع الفرس في عدوه كالإحضار، وقال الأزهري: الحضر والحضار من عدو الدوابّ. وفي الحديث: أنه أقطع الزبير حضر فرسه بأرض المدينة، وفي حديث كعب بن عجرة: فانطلقت مسرعا أو محضرا فأخذت بضبعه وقال كراع: أحضر الفرس إحضارا وحضرا، وكذلك الرجل، وعندي أن الحضر الإسم، والإحضار المصدر. والفرس مِحْضِيْرٌ كمِنطيق، لا محضار كمحراب، وهو من النوادر، كذا في الصحاح وجامع القزاز وشروح الفصيح. والذي في المحكم: جواز محضير ومحضار على حد سواء، ونصه: وفرس محضير، الذكر والأنثى سواء، وفرس محضير ومحضار، بغير هاء للأنثى، إذا كان شديد الحضر، وهو العدو، وفي الجمهرة لابن دريد: فرس محضار: شديد العدو، وفي المعجم الوسيط: الحضر: عدو ذو وثب.

[٤] الترغيب والترهيب، كتاب العلم.

١٥) وعن أبي الدرداء، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: العلماء خلفاء الأنبياء، رواه البزار، ورجاله موثقون(١).

١٦) وفي تفسير الفخر الرازي: روى ابن عمر مرفوعا: إن الشيطان يضع البدعة للناس فيبصرها العالم فيزيلها، والعابد يقبل على عبادته لا يتوجه ولا يتعرف لها (٢).

ومن الآثار ما رواه الخطيب البغدادي بسنده عن علي رضي الله عنه: العالم أفضل من الصائم القائم الغازي في سبيل الله، وإذا مات العالم شيعه سبعة وسبعون ألفا من مقربي السماء، وإذا مات العالم انثلم بموته في الإسلام ثلمة لا يسد إلى يوم القيامة(٣).

وقال أبو الأسود الدؤلي: ليس شيء أعز من العلم، الملوك حكام على الناس والعلماء حكام على الملوك.

وقال الشافعي رضي الله عنه: إن لم يكن الفقهاء العاملون أولياء الله فليس لله ولي.

وقال أبو مسلم الخولاني: العلماء في الأرض مثل النجوم في السماء إذا بدت للناس اهتدوا بها وإذا خفيت عليهم تحيروا.

وقال سفيان بن عيينة: أرفع الناس عند الله منزلة من كان بين الله وبين عباده وهم الأنبياء والعلماء(٤).

---

[١] مجمع الزوائد باب فضل العلماء ومجالستهم من كتاب العلم.

[٢] تفسير الفخر الرازي، وهو بعض حديث ذكره .

[٣] ذكره الخطيب البغدادي في الفقيه والمتفقه ج٢ص٩٩.

[٤] مقدمة المجموع، ص٥٣-٥٦.

فضائل طالب العلم

ورد في فضائل طالب العلم أحاديث وآثار كثيرة.

١) فمن الأحاديث ما ذكره المنذري في (الترغيب والترهيب) فقال: روي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلما ستره الله في الدنيا والآخرة، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه، ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقا إلى الجنة، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا حفتهم الملائكة، ونزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وذكرهم الله فيمن عنده، ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه، رواه مسلم(١).

٢) وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع، رواه أبو داود، وغيره، وهو بعض حديث طويل(٢).

٣) وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشية، وطلبه عبادة، ومذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة؛ لأنه معالم الحلال والحرام، ومنار سبل أهل الجنة، وهو الأنيس في الوحشة، والصاحب في الغربة، والمحدث في الخلوة، والدليل على السراء والضراء، والسلاح على الأعداء، والزين عند الأخلاء، يرفع الله به أقواما فيجعلهم في الخير قادة أئمة، تقتص آثارهم ويقتدي بفعالهم، وينتهى إلى رأيهم، ترغب الملائكة

---

[١] قال الحافظ المنذري: رواه مسلم وأبوداود والترمذي والنسائي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه والحاكم وقال: صحيح على شرطهما .

[٢] وتمامه كما في الترغيب والترهيب: وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما إنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذه بحظ وافر، قال المنذري: رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه والبيهقي، وقال الترمذي: لا يعرف إلا من حديث عاصم بن رجاء بن حيوة وليس إسناده عندي بمتصل، وإنما يروى عن عاصم بن رجاء بن حيوة عن داود بن جميل عن كثير بن قيس عن أبي الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا أصحّ .

في خلتهم، وبأجنحتها تمسحهم، ويستغفر لهم كل رطب ويابس، وحيتان البحر وهوامه، وسباع البر وأنعامه؛ لأن العلم حياة القلوب من الجهل، ومصابيح الأبصار من الظلم، يبلغ العبد بالعلم منازل الأخيار والدرجات العلى في الدنيا والآخرة، التفكر فيه يعدل الصيام، ومدارسته تعدل القيام، به توصل الأرحام، وبه يعرف الحلال من الحرام، وهو إمام العمل والعمل تابعه، يلهمه السعداء، ويحرمه الأشقياء، رواه ابن عبد البر في كتاب العلم (١).

٤) وعن سَخْبَرة رضي الله عنه قال: مر رجلان على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يذكر فقال: اجلسا فإنكما على خير، فلما قام رسول الله صلى الله عليه وسلم وتفرق عنه أصحابه قاما فقالا: يا رسول الله إنك قلت لنا: اجلسا فإنكما على خير، ألنا خاصة أم للناس عامة؟ قال: ما من عبد يطلب العلم إلا كان كفارة ما تقدم، رواه الترمذي مختصرا والطبراني في الكبير واللفظ له(٢)

٥) وعن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما اكتسب مكتسِب مثل فضل علم يهدى صاحبه إلى هدى أو يرده عن ردى، وما استقام دينه حتى يستقيم عمله، رواه الطبراني في الكبير (٣).

٦) وروي عن أبي ذر وأبي هريرة رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا جاء الموت لطالب العلم وهو على هذه الحالة مات وهو شهيد، رواه البزار والطبراني في الأوسط.

٧) وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من جاءه أجله وهو يطلب العلم لقي الله و لم يكن بينه وبين النبيين إلا درجة النبوة، رواه الطبراني في الأوسط.

---

[١] قال المنذري في الترغيب والترهيب: رواه ابن عبد البر في كتاب جامع بيان العلم وفضله من رواية موسى بن محمد ابن عطاء القرشي حدثنا عبد الرحيم بن زيد العمي عن أبيه عن الحسن عنه وقال: هو حديث حسن ولكن ليس له إسناد قوي، وقد رويناه من طرق شتى موقوفا كذا قال رحمه الله، ورفعه غريب جدا والله أعلم اهـ الترغيب والترهيب.

[٢] قال المنذري: (سخبرة) بالسين المهملة المفتوحة والخاء المعجمة الساكنة وباء موحدة وراء بعدها تاء تأنيث في صحبته اختلاف والله أعلم.

[٣] قال المنذري: ورواه في الصغير إلا أنه قال فيه: حتى يستقيم عقله، وإسنادهما متقارب .

٨) وعن صفوان بن عسال المرادي رضي الله عنه قال: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو في المسجد متكئ على برد له أحمر، فقلت له: يارسول الله إني جئت أطلب العلـــم، فقال: مرحبا بطالب العلم، إن طالب العلم تحفه الملائكة بأجنحتها، ثم يركب بعضـــهم بعضا حتى يبلغوا السماء الدنيا من محبتهم لما يطلب، رواه أحمد وغيره (١) انتهى مـــا في الترغيب والترهيب .

٩) وعن واثلة بن الأسقع، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من طلب علما فأدركه كتب الله له كفلين من الأجر، ومن طلب علما فلم يدركه كتب الله له كفلا من الأجر، رواه الطبراني في الكبير، ورجاله موثقون (٢).

١٠) وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من خـــرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع، رواه الترمذي وقال: حديث حسن(٣) .

١١) وفي سنن ابن ماجه عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: سيأتيكم أقوام يطلبون العلم، فإذا رأيتموهم فقولوا لهم: مرحبا مرحبا بوصية رســـول الله صلى الله عليه وسلم وأقنوهم. قلت للحَكَم(٤) ما أقنوهم قال: علموهم اهـــ.

١٢) وفي تفسير الفخر الرازي: قال عليه السلام: من خرج يطلب بابا من العلم ليرد به باطلا إلى حق أو ضلالا إلى هدى كان علمه كعبادة أربعين عاما.

١٣) وعن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من أحب أن ينظر إلى عتقـــاء الله من النار فلينظر إلى المتعلمين، فو الذي نفسي بيده ما من متعلم يختلف إلى باب عالم إلا كتب الله له بكل قدم عبادة سنة، وبنى له بكل قدم مدينة في الجنة، ويمشـــي علـــى الأرض تستغفر له، ويمسي ويصبح مغفورا له، وشهدت الملائكة لهم بأنـــهم عتقـــاء الله من النار(٥).

---

[١] قال الحافظ المنذري: رواه أحمد والطبراني بإسناد جيد واللفظ له، وابن حبان في صحيحه والحاكم وقال: صحيح الإسناد، وروى ابن ماجه نحوه باختصار .

[٢] مجمع الزوائد للحافظ الهيثمي، في باب فضل العالم والمتعلم من كتاب العلم .

[٣] مقدمة المجموع، ص٥٢.

[٤] هو الحكم بن عبدة من سند الحديث.

[٥] تفسير الفخر الرازي في تفسير قوله تعالى: {**وعلم آدم الأسماء كلها**}.

ومن الآثار ما روي عن سفيان الثوري والشافعي: ليس شيء بعد الفرائض أفضل من طلب العلم(١) .

وعن أبي هريرة، أنه مر بسوق المدينة فوقف عليها، فقال: يا أهل السوق، ما أعجزكم؟ قالوا: وما ذاك يا أبا هريرة؟، قال: ذاك ميراث رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم وأنتم هاهنا، ألا تذهبون فتأخذون نصيبكم منه؟، قالوا: وأين هو؟ قال: في المسجد، فخرجوا سراعا ووقف أبو هريرة لهم حتى رجعوا، فقال لهم: ما لكم؟ قالوا: ياأباهريرة، فقد أتينا المسجد، فلم نر فيه شيئا يقسم، فقال لهم أبوهريرة: وما رأيتم في المسجد أحدا؟ قالوا: بلى رأينا قوما يصلون، وقوما يقرأون القرآن، وقوما يتذاكرون الحلال والحرام، فقال لهم أبو هريرة: ويحكم فذاك ميراث محمد صلى الله عليه وسلم، رواه الطبراني في الأوسط وإسناده حسن(٢).

وفي طبقات الحنابلة أن أبا عمران الصوفي قال: رأى الإمام أحمد بن حنبل أصحاب الحديث، وقد خرجوا من عند محدث، والمحابر بأيديهم، فقال أحمد: إن لم يكن هؤلاء الناس فلا أدري من الناس(٣)

---

[١] مقدمة المجموع، ص٥٦.

[٢] مجمع الزوائد، في باب فضل العالم والمتعلم من كتاب العلم.

[٣] طبقات الحنابلة للقاضي أبي الحسين محمد بن محمد بن الحسين ابن أبي يعلى الحنبلي، المتوفى سنة ٥٢٦هـ.

فضائل العالم والمتعلم

وقد وردت في فضائلهما معا أحاديث وآثار كثيرة،

١) فمن الأحاديث ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه وعالما ومتعلما رواه الترمذي وقال: حديث حسن، وابن ماجه والبيهقي.

٢) وعنه أيضا قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما من رجل تعلم كلمة أو كلمتين أو ثلاثا أو أربعا أو خمسا مما فرض الله عز وجل فيتعلمهن ويعلمهن إلا دخل الجنة، قال أبو هريرة: فما نسيت حديثا بعد إذ سمعتهن من رسول الله صلى الله عليه وسلم، رواه أبو نعيم(١).

٣) وعنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: أفضل الصدقة أن يتعلم المرء المسلم علما ثم يعلمه أخاه المسلم، رواه ابن ماجه بإسناد حسن.

٤) وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: عليكم بهذا العلم قبل أن يقبض، وقبضه أن يرفع، وجمع بين أصبعيه الوسطى والتي تلي الإبهام هكذا، ثم قال: العالم والمتعلم شريكان في الخير ولا خير في سائر الناس، رواه ابن ماجه(٢) . قال الحافظ المنذري: قوله: ولا خير في سائر الناس: أي بقية الناس بعد العالم والمتعلم وهو قريب المعنى من قوله: الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله ومن والاه وعالما ومتعلما وتقدم اهـ (٣).

٥) وفي (مجمع الزوائد): عن جابر بن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: الناس معادن، فخيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا، رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح.

٦) وعن أبي بكرة، قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: اغد عالما، أو متعلما، أو مستمعا، أو محبا، ولا تكن الخامسة فتهلك، قال عطاء: قال لي مسعر: زدتنا خامسة

---

[١] قال المنذري: إسناده حسن لو صح سماع الحسن من أبي هريرة .

[٢] قال المنذري: رواه ابن ماجه من طريق علي بن يزيد عن القاسم عنه.

[٣] الترغيب والترهيب في كتاب العلم في باب الترغيب في العلم وطلبه وتعلمه وتعليمه.

لم تكن عندنا، قال: والخامسة أن تبغض العلم وأهله، رواه الطبراني في الثلاثة والبزار، ورجاله موثقون .

٧) وعن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: أغد عالما أو متعلما أو مستمعا أو محبا ولا تكن الخامسة فتهلك، قال عطاء: قال لي مسعر بن كدام: يا عطاء زدتنا في هذا الحديث زيادة لم تكن في أيدينا وإنما كان في أيدينا: أغد عالما أو متعلما، يا عطاء ويل لمن لم يكن فيه واحدة من هذه، قال أبو عمرو: الخامسة التي فيها الهلاك معاداة العلماء وبغضهم، ومن لم يحبهم فقد أبغضهم أو قارب ذلك، وفيه الهلاك والله أعلم(١).

٨) وعن أبي الرُّدَيْن، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما من قوم يجتمعون على كتاب الله يتعاطونه بينهم إلا كانوا أضيافا لله، وإلا حفتهم الملائكة حتى يقومــوا أو يخوضوا في حديث غيره، وما من عالم يخرج في طلب علم مخافة أن يموت، أو انتساخِهِ مخافة أن يدرس، إلا كان كالغادي الرائح في سبيل الله، ومن يبطئ به عمله لم يسرع به نسبه، رواه الطبراني في الكبير من رواية إسمعيل بن عياش.

٩) وعن أبي أمامة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: من غدا إلى المسجد لا يريد إلا أن يتعلم خيرا أو يعلمه كان له كأجر حاج تاما حجته، رواه الطبراني في الكبير، ورجاله موثقون كلهم.

١٠) وعن سهل بن سعد عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: من دخل مسجدي هـــذا ليتعلم خيرا أو يعلمه كان بمنـــزلة المجاهد في سبيل الله، ومن دخله لغير ذلـــك مـــن أحاديث الناس كان بمنـــزلة الذي يرى ما يعجبه وهو شيء لغيره، رواه الطـــبراني في الكبير، وفيه يعقوب بن حميد بن كاسب، وثقه البخاري وابن حبان وضعفه النسائي وغيره اهـــ.

١١) و فيه أيضا عن عبد الله بن عمرو قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم من بعض حُجَرِه، فدخل المسجد، فإذا هو بحَلقتين، إحداهما يقرأون القرآن ويدعون الله، والأخرى يتعلمون ويعلمون، فقال النبي صلى الله عليه وسلم:

---

١ بيان جامع العلم وفضله لابن عبد البر في باب قوله صلى الله عليه وسلم: العالم والمتعلم شريكان.

كلّ على خير، هؤلاء يقرأون القرآن ويدعون الله، فإن شاء أعطاهم وإن شاء منعهم، وهؤلاء يتعلمون ويعلمون، وإنما بعثت معلما فجلس معهم (١).

١٢) وعنه صلى الله عليه وسلم: من سلك طريقا يطلب فيه علما سلك به طريقا من طرق الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم لرضى الله عنه، وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض حتى الحيتان في جوف الماء، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب؛ فإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر.

١٣) وفي (الإحياء) أيضا أنه عليه الصلاة والسلام قال: إن الحكمة تزيد الشريف شرفا وترفع المملوك حتى تجلسه مجالس الملوك(٢) اهـ.

ومن الآثار ما قاله بدر الدين بن جماعة: اعلم أنه لا رتبة فوق رتبة من تشتغل الملائكة وغيرهم بالاستغفار والدعاء له، وتضع له أجنحتها، وإنه لَيُنَافَسُ في دعاء الرجل الصالح أو من يظن صلاحه فكيف بدعاء الملائكة، وقد اختلف في معنى وضع أجنحتها فقيل: التواضع له، وقيل: النزول عنده والحضور معه، وقيل: التوقير والتعظيم له، وقيل: معناه تحمله عليها فتعينه على بلوغ مقاصده. وأما إلهام الحيوانات بالاستغفار لهم فقيل: لأنها خلقت لمصالح العباد ومنافعهم، والعلماء هم الذين يبينون ما حل منها وما يحرم ويوصون بالإحسان إليها ونفى الضرر عنها (٣)اهـ.

وقال الغزالي في (الإحياء): أي منصب يزيد على منصب من تشتغل ملائكة السموات والأرض بالاستغفار له، فهو مشغول بنفسه وهم مشغولون بالاستغفار له اهـ.

وعن صفوان بن عسال المرادي قال: من خرج من بيته ابتغاء العلم فإن الملائكة تضع أجنحتها للمتعلم والعالم، رواه الطبراني في الكبير، وهو عند الترمذي خلا ذكر العالم، وفيه عبد الكريم بن أبي المخارق، وهو ضعيف.

---

[١] أخرج هذه الأحاديث الثلاثة ابن ماجه ج١ ص٣٩ – ٤١

[٢] قال الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الإحياء: رواه أبو نعيم في الحلية، وابن عبد البر في بيان العلم، وعبد الغني الأزدي في أدب المحدث من حديث أنس بإسناد ضعيف .

[٣] تذكرة السامع والمتكلم، لابن جماعة، الباب الأول في فضل العلم والعلماء وفضل تعليمه وتعلمه.

وعن عبد الله، قال: اغد عالما أو متعلما، ولا تغد بين ذلك، فإن لم تفعل فأحب العلماء ولا تبغضهم، رواه الطبراني في الكبير، ورجاله رجال الصحيح إلا أن عبد الملك بن عمير لم يدرك ابن مسعود .

وروي عن أبي الدرداء رضي الله قال: اغد عالما أو متعلما أو محبا أو متبعا ولا تكن الخامس فتهلك. قال: قلت للحسن: وما الخامس؟ قال: المبتدع.

وعن عون بن عبد الله قال: حدثت عمر بن عبد العزيز أنه كان يقال: إن استطعت فكن عالما، فإن لم تستطع فكن متعلما، وإن لم تستطع فأحبهم، وإن لم تستطع فلا تبغضهم، فقال عمر بن عبد العزيز: لقد جعل الله عز وجل له مخرجا إن قَبِلَ(١).

وروى ابن عبد البر بسنده أيضا عن عبد الله بن مسعود أنه كان يقول: اغد عالما أو متعلما ولا تغد إمّعة(٢) فيما بين ذلك (٣) اهـ.

وعن أبي ذر وأبي هريرة رضي الله عنهما قالا: باب من العلم نتعلمه أحب إلينا من ألف ركعة تطوعا، وباب من العلم نعلمه عمل به أو لم يعمل أحب إلينا من مائة ركعة تطوعا.

وعن الحسن البصري قال: لأن أتعلّم بابا من العلم فأعلمه مسلما أحب إلى من أن تكون لي الدنيا كلها في سبيل الله تعالى(٤) .

وقال الفضيل بن عياض: عالم معلم يدعى كبيرا في ملكوت السماء.

وفي (الإحياء) للغزالي في كتاب العلم: قال علي بن طالب رضي الله عنه لكميل بن زياد النخعي: يا كميل العلم خير من المال، العلم يحرسك وأنت تحرس المال، والعلم حاكم والمال محكوم عليه، والمال تنقصه النفقه والعلم يزكو بالإنفاق.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: خُيِّر سليمان بن داود عليهما السلام بين العلم والمال والملك فاختار العلم، فأعطي العلم والمال والملك معه .

---

[١] جامع بيان العلم وفضله، في باب قوله صلى الله عليه وسلم: العالم والمتعلم شريكان.

[٢] الإمَّعُ: الرجل المتابع كلَّ أحد على رأيه لا يثبت على شيء، ومن يقول: أنا مع الناس، وتأمّع واستأمع: صار إمّعة اهـ قاموس.

[٣] جامع بيان العلم وفضله في باب فساد التقليد ونفيه، والفرق بين التقليد والاتباع.

[٤] مقدمة المجموع ص٥٥-٥٦ .

وسئل ابن المبارك: من الناس؟ فقال: العلماء، قيل: فمن الملوك؟ قال: الزهاد، قيل: فمن السفلة؟ قال: الذين يذكرون الدنيا بالدين .

وقال بعض العلماء: ليت شعري أي شيء أدرك من فاته العلم، وأي شيء فات من أدرك العلم .

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: عليكم بالعلم قبل أن يرفع ورفعه موت رواته، فو الذي نفسي بيده ليودّنّ رجال قتلوا في سبيل الله شهداء أن يبعثهم الله علماء لما يرون من كرامتهم، وإن أحدا لم يولد عالما وإنما العلم بالتعلم .

وقال سالم بن أبي الجعد: اشتراني مولاي بثلاثمائة درهم وأعتقني، فقلت: بأي شيء أحترف؟، فاحترفت بالعلم فما تمت لي سنة حتى أتاني أمير المدينة زائرا فلم آذن له.

وقال بعض الحكماء: إذا مات العالم بكاه الحوت في الماء، والطير في الهواء، ويفقد وجهه ولا ينسى ذكره .

وقال الزهري رحمه الله: العلم ذَكَر ولا يحبه إلا ذُكران الرجال(١) اهـــ .

وفي (إتحاف السادة المتقين): دخل عطاء بن أبي رباح أحد الموالي على هشام بن عبد الملك وكان عليه قميص دنس وجبة دنسة وقلنسوة دنسة على حمار إكافه خشب، فلمـــا رآه هشام قال: مرحبا مرحبا هاهنا هاهنا فرفعه حتى مست ركبته ركبته وعنده أشراف الناس يتحدثون فسكتوا.

وقال إبراهيم الحربي: كان عطاء عبدا أسود كأن أنفه باقلاة، قال: وجاء سليمان بن عبد الملك إليه هو وابناه فجلسوا إليه وهو يصلي، فلما صلى انفتل عليهم، فما زالوا يســـئلونه عن مناسك الحج وقد حوّل قفاه إليهم، ثم قال سليمان لابنيه قُومَا فَقَامَا، فقال: يا ابنيّ لا تنيا في طلب العلم، فإني لا أنسى ذلّنا بين يدى هذا العبد الأسود.

وعن أبي العالية قال: كنت آتي ابن عباس وقريش حوله، فيأخذ بيدي فيجلسني معه على السرير، فتغامزت فِيَّ قريش ففطن لهم ابن عباس، فقال: هكذا العلم يزيد الشريف شـــرفا ويجلس المملوك على الأسرة.

---

[١] قال الزبيدي في شرح الإحياء ج١ص٩٤: ونص ما في الحلية: العلم ذَكَر لا يحبه إلا الذُّكُور من الرجال، أي أقوياء الرجال، وأخرجه الخطيب أيضا عن الزهري فساقه وزاد ولا يزهد فيه إلا إناثها اهـــ

وكان محمد بن عبد الرحمن الأوقص عنقه داخل في بدنـــه، وكـــان منكبـــاه خـــارجين كأنـــهما زُجَّان فقالت: أمه يا بني لا تكون في مجلس إلا كنت المضحوك المسخور بـــه، فعليك بطلب العلم فإنه يرفعك، فولّى قضاء مكة عشرين سنة، وكان الخصم إذا جلـــس بين يديه يرعد حتى يقوم اهـــ . (١)

فصل: واعلم أن جميع ما ذكر من فضيلة العلم، والعلماء إنما هو في حق العلماء العـــاملين الأبرار المتقين الذين قصدوا به وجه الله الكريم، والزلفى لديه في جنات النعيم، لا مَن طلبه بسوء نية أو خبث طوية أو لأغراض دنيوية من جاه أو مـــال أو مكـــاثرة في الأتبـــاع والطلاب.

فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم: من طلب العلم ليماري به السفهاء أو يكاثر به العلماء أو يصرف به وجوه الناس إليه أدخله الله النار، أخرجه الترمذي.

وعنه صلى الله عليه وسلم: من تعلم علما لغير الله أو أراد به غير وجه الله فليتبوأ مقعـــده من النار، ، رواه الترمذي.

وروى(٢): من تعلم علما مما يبتغى به وجه الله تعالى، لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضا من الدنيا لم يجد رائحة الجنة يوم القيامة، أخرجه أبو داود.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: إن أول الناس يقضى عليـــه يوم القيامة وذكر الثلاثة، وفيه: ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن، فأتي به فعرّفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت فيك العلم وعلمته، وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت ولكن تعلمت ليقال: عالم، وقرأت ليقال: قارئ، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى في النار، أخرجه مسلم والنسائي (٣).

وعن حماد بن سلمة: من طلب الحديث لغير الله تعالى مكر به.

وعن بشر: أوحى الله تعالى إلى داود لا تجعل بيني وبينك عالما مفتونا فيصدك بشك عن محبتي، أولئك قطاع الطريق على عبادي(٤) اهـــ.

---

[١] إتحاف السادة المتقين ج١ص٧٢.

[٢] كذا في الاصل، وهي من صيغ التمريض مع أن الحديث غير مطعون فيه. فليحرر....

[٣] تذكرة السامع ص ٨٣.

[٤] تذكرة السامع ص ٨٣.

وقال ابن عبد البر من حديث ابن وهب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: هلاك أمتي عالم فاجر وعابد جاهل، وشر الشر أشرار العلماء، وخير الخير خيار العلماء.

وروي ابن عبد البر بسنده عن ابن المبارك قال: كان يقال: تعوّذ بالله من فتنة العالم الفاجر، والعابد الجاهل، فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون(١) اهـ .

وقال بعضهم:

فساد كبير عالـم متهتك وأكبر منه جاهل متنسك

هما فتنة في العالمين عظيمة لمن بـهما في دينه يتمسك

وروى ابن عبد البر بسنده عن أيوب السختياني قال: قال أبوقلابة: إذا أحدث الله لك علما فأحدث له عبادة، ولا يكن همك أن تحدّث به(٢).

وما ورد في فضائل العلم والعلماء والمتعلمين العاملين به وفي وعيد غير العاملين به كثير جدا لا مطمع في إحصائه واستيعابه، فنقتصر على هذه النكت اليسيرة والأحرف القليلة، والله الموفق .

وهذا أوان الشروع في المقصود بعون الملك المعبود .

---

[١] جامع بيان العلم ج١ص٢٣٥.

[٢] جامع بيان العلم ج١ص٢٣٠.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد: فهذه منظومة في آداب طلبة العلم والطالبات، ومشكاة للراغبين والراغبات، نظمتها في بلدة عَيْلْ طَيْرْ مِن بحر الطويل المقبوض عروضا وضربا، وهي مائة وستة وأربعون بيتا .

بَدَأتُ بِبِسْمِ اللهِ نَظْمِيَ أوَّلاً وَحَمْدٍ وَشُكْرِ اللهِ رَبِّ الْبَرِيَّةِ

ابتدأت بالبسملة تيمنا وتبركا بـــها واقتداء بكتاب الله العزيز فإنه تعالى جل اسمه بدأ بالبسملة كل سورة من سور القرآن الكريم سوى سورة براءة، وعملا بحديث كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم أقطع ذكره السيوطي في (الدر المنثور).(١).

وأخرج الحافظ أبو بكر الخطيب البغدادي في الجامع عن أبي جعفر محمد بن علي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: بسم الله الرحمن الرحيم مفتاح كل كتاب.

وأخرج الخطيب في الجامع عن سعيد بن جبير قال: لا يصلح كتاب إلا أوله بسم الله الرحمن الرحيم وإن كان شعرا .

---

[١] وقال: أخرجه الحافظ عن عبد القادر الرُهاوي في "الأربعين" بسند صحيح عن أبي هريرة. لكنه رمز له بالضعف في الجامع الصغير. وقال المناوي في فيض القدير شرح الجامع الصغير: قال النووي في الأذكار بعد سياقه هذا الحديث وما قبله: روينا هذه الألفاظ في الأربعين للرهاوي، وهو حديث حسن، وقد روي موصولا ومرسلا، قال: ورواية الموصول جيدة الإسناد، وإذا روي الحديث موصولا ومرسلا فالحكم الاتصال عند الجمهور اهـــ وذكره ابن السبكي في طبقات الشافعية الكبرى ج١ص٦.

وقال المناوي: قال النووي: في كتاب المصطفى صلى الله عليه وسلم إلى هرقل استحباب تصدير الكتب ببسم الله الرحمن الرحيم وإن كان المبعوث إليه كافرا، وقال ابن حجر: الحديث الذي أشار إليه النووي صححه ابن حبان، وفي إسناده مقال، وبتقدير صحته فالرواية المشهورة بلفظ بحمد الله والتي ذكرها النووي وردت في بعض طرق الحديث بأسانيد واهية. ثم قال المناوي: إن هذا اللفظ وإن كان عاما لكن أريد به الخصوص وهو الأمور التي تحتاج إلى تقديم الخطبة، وأما المراسلات فلم تجر العادة الشرعية ولا العرفية بابتدائها بذلك، وهو نظير الحديث الذي خرجه أبو داود بلفظ: كل خطبة ليس فيها شهادة فهي كاليد الجذماء. فالابتداء بالحمد واشتراط التشهد خاصة بالخطبة بخلاف بقية الأمور المهمة، وبعضها يبدأ فيه بالبسملة تامة كالمراسلات، وبعضها ببسم الله فقط كالذبيحة، وبعضها بلفظ من الذكر مخصوص كالتكبير، وقد جمعت كتب المصطفى صلى الله عليه وسلم إلى الملوك وغيرهم فلم يقع في واحد منها البداءة بالحمد بل بالبسملة وهو يؤيد ما قررته اهـــ.

وإنما قلت: بدأت ببسم الله نظمي تأسّيا ببعض العلماء الأجلاء كالإمام الشاطبي رحمه الله فإنه قال في أول كتابه "حرز الأماني ووجه التهاني" المعروف بالشاطبية:

بدأت ببسم الله نظمي أولا تبارك رحمانا رحيما وموئلا

وابتدأ مؤلف عقيدة العوام بقوله:

أبدأ باسم الله والرحمن وبالرحيم دائم الإحسان

وقال شيخ مشايخنا الشيخ عبد الرحمن بن عبد الله الشاشي المقدشي في أول قصيدة له:

ببسم الإله ابتدائي على مرامي لأحظى بنيل جلا

وتكلم كثير من العلماء عمّا يتعلق بالبسملة من حكم ابتدائها بالفاتحة في الصلاة واشتقاقها وعلومها ومعانيها وخواصها وبركاتها وغير ذلك، وكان شيخنا العلامة الشيخ عبد الله بن الشيخ داود يلقي إلينا في الدرس بعض ما يتعلق بها في خمسة مجالس، ولا تسأل عن طول كل مجلس منها.

وقد قال بعض العلماء: إنّ معاني الكتب الثلاثة في القرآن، ومعانيه في الفاتحة، ومعانيها في البسملة، ومعانيها في الباء، وزاد بعضهم: ومعاني الباء في نقطتها، أي في أول نقطة منها عند الكتابة .

وقال ابن حجر الهيتمي في كتابه (الإعلام بقواطع الإسلام): روي أن علي بن أبي طالب جلس مع ابن عباس رضي الله عنهم، وأنهما تكلما في الباء من بسم الله من العشاء إلى أن طلع الفجر اهـ . (١)

ومن فضائلها ما قاله ابن كثير في تفسيره: روى الإمام العالم الحبر العابد أبو محمد عبدالرحمن ابن أبي حاتم رحمه الله في تفسيره عن ابن عباس أن عثمان بن عفان سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بسم الله الرحمن الرحيم فقال: هو اسم من أسماء الله، وما بينه وبين اسم الله الأكبر إلا كما بين سواد العينين وبياضهما من القرب (٢) .

---

[١] ص٢١١، وهو مطبوع على هامش الزواجر عن اقتراف الكبائر لابن حجر الهيتمي أيضا.

[٢] قال السيوطي في الدر المنثور: أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره، والحاكم في المستدرك وصححه، والبيهقي في شعب الإيمان وأبو ذر الهروي في فضائله، والخطيب البغدادي في تاريخه عن ابن عباس رضي الله عنهما أن عثمان بن عفان، فذكر الحديث.

وروى الحافظ ابن مردويه بسنده عن أبي سعيد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن عيسى بن مريم عليه السلام أسلمته أمه إلى الكتّاب(١) ليعلّمه، فقال له المعلّم: اكتب، فقال: ما أكتب؟ قال: بسم الله، قال له عيسى: وما بسم الله؟ قال المعلم: ما أدري، قال له عيسى: الباء بـــهاء الله والسين سناؤه، والميم مملكته، والله إله الآلهة، والرحمن رحمن الدنيا والآخرة، والرحيم رحيم الآخرة. وقد رواه ابن جرير عن أبي سعيد أيضا (٢).

وعن جابر بن عبد الله: قال: لما نزل بسم الله الرحمن الرحيم هرب الغيم إلى المشرق وسكنت الرياح وهاج البحر وأصغت البهائم بآذانـــها ورجمت الشياطين من السماء وحلف الله تعالى بعزته وجلاله ألاّ يسمى اسمه على شيء إلا بارك فيه.

وعن ابن مسعود قال: من أراد أن ينجيه الله تعالى من الزبانية التسعة عشر فليقرأ بسم الله الرحمن الرحيم، فيجعل الله من كل حرف منها جُنة من كل أحد، ذكره ابن عطية والقرطبي.

وروى الإمام أحمد في مسنده عن أبي تميمة يحدث عن حديث النبي صلى الله عليه وسلم، قال: عثر بالنبي صلى الله عليه وسلم فقلت: تعس الشيطان، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لا تقل: تعس الشيطان فإنك إذا قلت: تعس الشيطان تعاظم وقال: بقوتي صرعته، وإذا قلت: بسم الله تصاغر حتى يصير مثل الذباب .

قال ابن كثير فهذا من تأثير بركة بسم الله، ولهذا تستحب في أول كل عمل وقول، فتستحب في أول الخطبة، وعند دخول الخلاء، وفي أول الوضوء، وعند الذبيحة، وغيرها اهـــ.

وفي (الدر المنثور في التفسير بالمأثور) أخرج الديلمي في (مسند الفردوس) عن ابن عباس مرفوعا: إن المعلم إذا قال للصبي: قل بسم الله الرحمن الرحيم كتب للمعلم وللصبي ولأبويه براءة من النار .

---

[١] في لسان العرب: المكتب والكُتّاب موضع تعليم الكُتّاب والجمع الكتاتيب والمكاتب.

[٢] قال السيوطي في "الدر المنثور" : أخرجه ابن جرير وابن عدي في "الكامل"، وابن مردويه وأبونعيم في "الحلية"، وابن عساكر في "تاريخ دمشق"، والثعلبي بسند ضعيف جدا عن أبي سعيد الخدري .

وأخرج الديلمي عن ابن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من قرأ بسم الله الرحمن الرحيم كتب بكل حرف أربعة آلاف حسنة ومحي عنه أربعة آلاف سيئة ورفع له أربعة آلاف درجة .

وأخرج أبونعيم والديلمي عن عائشة قالت: لما نزلت بسم الله الرحمن الرحيم ضجت الجبال حتى سمع أهل مكة دويها، فقالوا: سحر محمد الجبال، فبعث الله دخانا حتى أظل على أهل مكة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من قرأ بسم الله الرحمن الرحيم موقنا سبحت معه الجبال إلا أنه لا يسمع ذلك منها اهـ.

وقال الفخر الرازي في تفسيره: لما ركب نوح عليه السلام السفينة قال: بسم الله مجراها ومرساها، فوجد النجاة بنصف هذه الكلمة، فمن واظب على هذه الكلمة طول عمره كيف يبقى محروما عن النجاة؟، وأيضا إن سليمان عليه السلام نال مملكة الدنيا والآخرة بقوله: إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم، فالمرجوّ أن العبد إذا قاله فاز بملك الدنيا والآخرة (١).

ثم ثنيت بالحمد اقتداء بكتاب الله العزيز أيضا، فقد بدأ المولى تبارك وتعالى الحمدلة بعد البسملة بخمس سور من القرآن، وعملا بحديث "كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بحمد الله أقطع،(٢) ورمز السيوطي في الجامع الصغير لحسنه تبعا لابن الصلاح.

وقال النووي في الأذكار: وأحسن العبارات فيه: الحمد لله رب العالمين .

أُصَلِّيْ عَلَىْ خَيْرِ الأَنَامِ مُحَمَّدٍ وَآلٍ وَصَحْبٍ مَعْ سَنِــيٍّ تَحِيَّةِ

ثم ثلثت بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم عملا بقوله صلى الله عيله وسلم: "كل كلام لا يبدأ فيه بحمد الله والصلاة عليّ فهو أقطع، أبتر، ممحوق من كل بركة"، رواه الرُهاوي عن أبي هريرة كما في "الجامع الصغير"، وفي إسناده مقال(٣).

---

[١] مفاتيح الغيب ج١ص١٧٥.

[٢] قال ابن السبكي في "طبقات الشافعية الكبرى" ج١ص٣: هذا لفظ ابن ماجه، وفيه روايات أخر، ففي رواية: بالحمد لله أقطع، وفي رواية: بحمد الله أقطع، وفي رواية: كل كلام لا يبدأ فيه بحمد الله فهو أجذم .

[٣] قال المناوي في "فيض القدير شرح الجامع الصغير": قال القسطلاني: في إسناده ضعفاء ومجاهيل. ورواه ابن المديني وابن منده وغيرهم بأسانيد كلها مشحونة بالضعفاء والمجاهيل . انتهى باختصار .

وقال المناوي في (فيض القدير): وفيه تعليم حسن وتوقيف على أدب جميل، وبعث على التيمن بالذكرين والتبرك بـــهما، وقد توارث العلماء والخطباء والوعاظ كابرا عن كابر هذا الأدب فحمدوا الله وصلوا على نبيه أمام كل علم مفاد، وقبل كل عظة وتذكرة وفي مفتتح كل خطبة، ذكره كله الزمخشري اهـــ .

وَأَتْبَاعِهِمْ وَالْمُهْتَدِيْنَ بِـــهَدْيِهِمْ ذَوِيْ الفَضْلِ وَالإِحْسَانِ أَنْصَارِ مِلَّةِ

وَمَنْ عَلَّمَ العِلْمَ الشَّرِيْفَ وَطَاْلِبٍ بِهِ عَامِلٍ بالصِّدْقِ مَعْ حُسْنِ نِيَّةِ

وَبَعْدُ فَذَا نَظْمٌ بَدِيْعٌ لِنُصْحِ مَنْ يَرُوْمُ تَعَلُّمَ العُلُوْمِ وَحِكْمَةِ

أي وبعد ما تقدم فهذا نظم لنصح من له رغبة في تعلم العلم الشريف، والنصح دعامة عظيمة من دعائم الدين، به صلاح الدين والدنيا، فعن أبي رقية تميم بن أوس الداري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: الدين النصيحة قلنا: لمن؟ قال: لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم، رواه مسلم .

وعن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: تناصحوا في العلم فإن خيانة أحدكم في علمه أشد من خيانته في ماله، وإن الله سائلكم يوم القيامة. (١).

وفي (النهاية) لابن الأثير: النصيحة كلمة يعبر بـــها عن جملة هي إرادة الخير للمنصوح له، وليس يمكن أن يعبر هذا المعنى بكلمة واحدة تحصرها وتجمع معناه غيرها.

وقال الإمام النووي في (التلخيص): قال الإمام أبو سليمان الخطابي: النصيحة كلمة جامعة معناها حيازة الحظ للمنصوح له، قال: وهو من وجيز الأسماء ومختصر الكلام، قال: وقيل: إنّها مأخوذة من نصحت العسل إذا صفّيته من الشمع شبهوا تخليص القول والعمل من الغش بتخليص العسل من الخلط، قال: ومعنى الحديث عماد الدين وقوامه النصحية، كقوله صلى الله عليه وسلم الحج عرفة أي عماده ومعظمه(٢) اهـــ.

---

[١] مجمع الزوائد، في باب النصح في العلم من كتاب العلم، قال الهيثمي: رواه الطبراني في الكبير، وفيه أبو سعد البقال، قال أبو زرعة: ليِّن الحديث مدلس، قيل: هو صدوق، قال: نعم، كان لا يكذب، وقال أبوهشام الرفاعي: كان ثقة، وضعفه شعبة لتدليسه، والبخاري ويحيى بن معين وبقية رجاله موثقون .

[٢] التلخيص شرح الجامع الصحيح" للبخاري ج٢ ص٨٠٤

عَسَىْ يَنْفَعُ اللهُ الكَرِيْمُ بِمَنِّهِ   رِجَاْلاً ذَوِيْ فَهْمٍ وَفِكْرٍ وَفِطْنَةِ
كَمَا أَنَّهُ وَعْظٌ لِنَفْسِيْ وَنُصْحُهَا   عَسَىْ أَنْ يَكُوْنَ لِيَ مِرْقَاةَ جَنَّةِ

أي عسى أن ينفع الله بهذا النظم رجالا ذوي فهم وفكر وفطنة كما أرجو أن يكون لنفسي وعظا ونصحا وسببا لدخول جنته الفيحاء.

فَيَا طَاْلِبَ العِلْمِ الشَّرِيْفِ نَصِيْحَتِيْ   إِلَيْكَ تَقَّبَلْهَا بِأعْظَمِ رَغْبَةِ

أي تقبل يا طالب العلم نصيحتي هذه بأقوى إرادة وأعظم رغبة.

وَكُنْ سَالِكاً نَـهْجَ الأُلَىْ فِيْ تَعَلُّمٍ   فَهُمْ فِيْ طَرِيْقِ الاهْتِدَا خَيْرُ أُسْوَةِ [1]
وَهُمْ سَادَةٌ غُرُّ الجِبَاْهِ أَئِمَّةٌ   حُمَاةٌ لِهَذَا الدِّيْنِ مِنْ كُلِّ فِتْنَةِ
وَمِنْ وَاجِبِ التِّلْمِيْذِ [2] **أنْ يَقْتَدِي بِهِمْ   وَيَقْفُوْ عَلَى آثَارِهِمْ بِالْمَوَدَّةِ**

أي كن أيها الطالب مقتديا في تعلم العلم العلماء المتقدمين واسلك طريقهم فإنـهم خير أسوة وإنـهم سادة غر الجباه... فلهذا يجب على التلميذ أن يقتدي بـهم ويقفو آثارهم بالمحبة، فإن الخير في اتباعهم كما قال اللقاني رحمه الله في (الجوهرة):

فكل خير في اتباع من سلف   وكل شر في ابتداع من خلف.

ولما أنْهيت الكلام على اتباع السلف الصالح والسلوك في نـهجهم شَرَعت أتكلم بما لا بدّ للطالب من امتثال أوامر الله سبحانه وتعالى، واجتناب نواهيه، فقلت:

وَلاْ بُدَّ لِلْتِّلْمِيْذِ مِنْ تَرْكِ مَا نَـهَى الـ   ـإِلَهُ بَتَاتاً خَائِفاً كُلَّ لَحْظَةِ
مَعَ الامْتِثَالِ لِلأوَامِرِ عَامِلاً   بِمَا فِيْ كِتَابِ اللهِ رَبِّيْ وَسُنَّةِ

أي لا بد للطالب من اجتناب المنهيات وامتثال الأوامر، فقد قال الله تعالى: {**وما أتـاكم الرسول فخذوه وما نـهاكم عنه فانتهوا**}، وهذا معنى التقوى وهي كما قـال أمـير المؤمنين علي ابن أبي طالب كرم الله وجهه: الخوف من الجليل، والعمل بالتنْزيل، والرضى بالقليل، والاستعداد ليوم الرحيل.

---

[1] الأسوة بكسر الهمزة وضمها: القدوة .

[2] التلميذ بكسر التاء الفوقية وسكون اللام وكسر الميم بعدها تحتية فذال معجمة: المشتغل بالعلم اهـ الفتوحات الربانية شرح الأذكار النووية: جـ١ص١٢٧.

وهي الموصى بـــها في كتابه العزيز للأولين والآخرين قال الله تعالى: {**ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبكلم وإياكم أن اتقوا الله**} .

وقال ابن كثير: قيل: إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سأل أبيَ بن كعب رضي الله عنه عن التقوى، فقال له: أما سلكت طريقا ذا شوك؟ قال: بلى، قال: فما عملت؟، قـــال: شمرت واجتهدت، قال: فذلك التقوى.

وقد أخذ هذا المعنى ابن المعتز فقال:

خلّ الذنوب صغيرها وكبيـــرهـــا ذاك التقى

واصنع كماش فوق أر ض الشوك يحذر ما يرى

لا تحقرنّ صغيرة إن الجبال من الحصى (١)

وقوله: عاملا بما في كتاب الله إلخ. أي بما ثبت بالكتاب والسنة والإجماع والقياس، فهذه الأربعة هي الأصول التي اتفقت عليها الأمة، ففي البيت الاكتفاء من باب {**سرابيل تقيكم الحر**} أي والبرد.

وَهَذَا أَسَاسٌ لِلتَّعَلُّمِ يَافَتَى وَأَصْلٌ لِنَيْلِ كُلِّ خَيْرٍ وَبُغْيَةِ

أي إن هذا المذكور هو أساس تعلم العلم وركنه الأعظم، وهو الأصل للنجاح وبلوغ الآمال. ففي فتح المغيث للسخاوي: عن الحسن البصري قال: كان الرجل يطلب العلم فلا يلبث أن يُرى ذلك في تخشعه وبِهديه ولسانه وبصره ويده.

وعن أبي جعفر أحمد بن حمدان بن علي النيسابوري قال: كنت في مجلس أبي عبد الله المروزي، فلما حضرت الظهر وأذن أبو عبد الله خرجت من المسجد، فقال لي: يا أبا جعفر إلى أين؟ قلت: أتطهر للصلاة، قال: كان ظني بك غير هذا، يدخل عليك وقت الصلاة وأنت على غير طهارة.

وقال الشعبِي ووكيع: كنا نستعين على حفظ الحديث بالعمل به، زاد وكيع: وكنا نستعين في طلبه بالصوم .

وعن سفيان الثوري قال: العلم يهتف بالعمل، فإن أجاب، وإلا ارتحل، ويروى أنه صلى الله عليه وسلم قال: من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم .

---

[١] ذكره ابن كثير في تفسير قوله تعالى: {**هدى للمتقين**} في أول سورة البقرة.

وعن أبي الدرداء قال: من عمل بعشر ما يعلم علّمه الله ما يجهل .

وعن ابن مسعود أنه قال: ما عمل أحد بما علّمه الله إلا احتاج الناس إلى ما عنده.

وعن عمرو بن قيس الملائي أنه قال: إذا بلغك شيء من الخبر فاعمل به ولو مرة تكون من أهله(١).

وَلاْ شَكَّ أَنَّ الذَّنْبَ دَاْءٌ وَظُلْمَةٌ يُغَطِّي صَدَاهُ (٢) الْقَلْبَ عَنْ فَهْمِ حِكْمَةِ

أي لا شك أن الذنب داء معنوي يسوّد القلوب ويغطيها ويخرس الفطنة، فقد روى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إن العبد إذا أذنب ذنبا نُكِتَتْ في قلبه نُكتة سوداء، فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه، وإن عاد زادت حتى تعلو قلبه، فذلك الران الذي ذكر الله في القرآن: {**كلا بل ران على قلوبـــهم ما كانوا يكسبون**}(٣).

وكان الإمام أبو حنيفة رحمه الله تعالى إذا أشكلت عليه مسألة قال لأصحابه: ما هذا إلا ذنب أحدثته! وكان يستغفر، وربما قام وصلى، فتنكشف له المسألة، ويقول: رجوت أني تيب على، فبلغ ذلك الفضيل بن عياض فبكى بكاء شديدا ثم قال: ذلك لقلة ذنبه، فأما غيره لا ينتبه لهذا.

قال الحافظ ابن الجوزي في كتابه (ذم الهوى): قال يحيى بن معاذ: سقم الجسد بالأوجاع، وسقم القلوب بالذنوب، كما لا يجد الجسد لذة الطعام عند سقمه فكذلك القلب لا يجد حلاوة العبادة مع الذنوب.

---

[١] فتح المغيث شرح ألفية الحديث للسخاوي باب آداب طالب الحديث.

[٢] قال في لسان العرب الصدأ: الدنس يركب الحديد، وصدأ الحديد وسخه، وفي الحديث: إن هذه القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد، وهو أن يركبها الرين بمباشرة المعاصي والآثام.

[٣] قال السيوطي في الدر المنثور في التفسير بالمأثور: أخرج حديث إن العبد إذا أذنب الخ أحمد وعبد بن حميد والحاكم والترمذي وصححاه والنسائي وابن ماجه وابن جرير وابن حبان وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان.

وكان بعض الحكماء يقول: إذا لم يُستعمَل القلب فيما خلق له من الفكر في اجتلاب المصالح في الدين والدنيا واجتناب المفاسد تعطل واستترت جوهريته، فإذا أضيف إلى ذلك فعل ما يزيده ظلمة كشرب الخمر وطول النوم وكثرة الغفلة صار كالحديد يغشاه الصدأ فيفسده[1].

وقال ابن رسلان في مقدمة الزبد:

فشهوة النفس مع الذنوب موجبتان قسوة القلوب

وفي تهذيب التهذيب للحافظ ابن حجر: في ترجمة وكيع بن الجراح الكوفي وهو أحد الأئمة الأعلام الحفاظ، أن الناس كانوا يحفظون تكلفا، ويحفظ هو طبعا، وقال علي بن خشرم: رأيت وكيعا وما رأيت بيده كتابا قط إلا وهو يحفظ، فسألته عن دواء الحفظ فقال: ترك المعاصي، ما جربت مثله للحفظ.

وهو الذي عناه الإمام الشافعي رضي الله عنه بقوله:

شكوت إلى وكيع سوء حفظي فأرشدني إلى ترك المعاصي

وأخبرني بأن العلم نور ونور الله لا يهدى لعاص

وقال عبد الله بن مسعود: إني لأحسب أن الرجل ينسي العلم قد علمه بالذنب يعمله.

واعلم أن الذنوب قسمان صغائر وكبائر، فالصغائر كثيرة جدا، والكبائر قيل: إنّها سبع، وقيل: تسع، وري عن ابن عباس رضي الله عنه أنّها إلى السبعين أقرب، وروي عنه أيضا أنّها إلى سبعمائة أقرب، فقد قال السيوطي في (الدر المنثور) في تفسير قوله تعالى: {**إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه**}: أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق سعيد بن جبير أن رجلا سأل ابن عباس كم الكبائر سبع هي؟، قال: قال: إلى سبعمائة أقرب منها إلى سبع، غير أنه لا كبيرة مع استغفار ولا صغيرة مع إصرار اهـــ.

وقد عدّ هذه الكبائر ابن حجر الهيتمي في (الزواجر عن اقتراف الكبائر) فبلّغها أربعمائة وسبعا وستين كبيرة .

---

[1] ذم الهوى لابن الجوزي ص٩٢.

وَأَنَّ العُلُوْمَ النَافِعَاتِ دَوَاؤُنَا وَنُوْرٌ يُزِيْل رَيْنَ قَلْبٍ وَقَسْوَةٍ

يعنى لا شك أن العلوم النافعة هي دواء ونور يزيل ظلمة القلوب وقسوتـــها، فقد أخرج ابن المنذر عن إبراهيم التيمي رحمه الله في قوله تعالى: {**كلا بل ران على قلوبـــهم ما كانوا يكسبون**} قال: إذا عمل الرجل الذنب نكت في قلبه نكتة سوداء ثم يعمل الذنب بعد ذلك فينكت في قلبه نكتة سوداء، ثم كذلك حتى يسود عليه، فإذا ارتاح العبد قال: يُيَسر له عمل صالح فيذهب من السواد بعضه، ثم يُيسر له عمل صالح أيضا فيذهب من السواد بعضه، ثم يُيسر له أيضا عمل صالح فيذهب من السواد بعضه، ثم كذلك حتى يذهب السوء كله(١).

وروى ابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إن المؤمن إذا أذنب كانت نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ في قلبه، فإن تاب ونزع واستغفر صُقِل قَلبُهُ، فإن زاد زادت، فذلك الران الذي ذكره الله في كتابه: {**كلا بل رّان على قلوبِهم ما كانوا يكسبون**}(٢).

وقال الحافظ سليمان بن طرحان: الحسنة نور في القلب، وقوة في العمل، والسيئة ظلمة في القلب وضعف في العمل(٣).

وقال ابن عباس: إن للحسنة نورا في القلب، وزَيْنا في الوجه، وقوة في البدن، وسعة في الرزق، ومحبة في قلوب الخلق، وإن للسيئة ظلمة في القلب، وشينا في الوجه، ووهنا في البدن، ونقصا في الرزق، وبغضة[٤] في قلوب الخلق (٥).

فإذا اجتمع نور الإيمان ونور العلم ونور اجتناب المعاصي وفعل الطاعات في قلب العبد اتسع وانشرح واستنار، فيعي حينئذ الحكمة، وتثبت فيه، فلهذا لا بد لطالب العلم اجتناب ما نـــهى الله عنه وامتثال أوامره جل وعلا .

---

[١] الدر المنثور في التفسير بالمأثور في تفسير قوله تعالى: كلا بل ران على قلوبـــهم ما كانوا يكسبون.

[٢] سنن ابن ماجه باب ذكر الذنوب من كتاب الزهد.

[٣] تعليق الشيخ أبي غدة على رسالة المسترشدين للإمام الحارث المحاسبي ص٢٢١.

[٤] في القاموس: البعض بالضم ضد الحب والبغضة بالكسر والبغضاء شدته.

[٥] تعليق الشيخ أبي غدة على رسالة المسترشدين للإمام الحارث المحاسبي ص٢١٨-٢١٩ .

وَمَا اجْتَمَعَ الضِّدَاْنِ فِيْ القَلْبِ مَرَّةً فَإِنْ جَاء هَذَا غَابَ هَذَا بِسُرْعَةِ
كَذَاكَ ظَلاْمُ اللَّيْلِ يَذْهَبُ إِنْ بَدَا الصَّــ ــبَاحُ وَحَلَّ النُّوْرُ مَوْضِعَ ظُلْمَةِ

أي لا تجتمع ظلمة المعاصي وداؤها ونور العلم النافع ودواؤه في القلب كما لا يجتمع ظلام الليل وضياء النهار.

وقال ابن الجوزي في صيد الخاطر: الحذر الحذر من الذنوب خصوصا ذنوب الخلوات، فإن المبارزة لله تعالى تسقط العبد من عينه سبحانه، ولا ينال لذةَ المعاصي إلا دائمُ الغفلة، فأما المؤمن اليقظان فإنه لا يلتذ بـــها، لأنه عند التذاذه يقف بإزائه علمُه بتحريمها، وحَذَرُه من عقوبتها، فإن قويت معرفته رأي بعين علمه قرب الناهي وهو الله فيتنغص عيشه في حال التذاذه، فإن غلبه سكر الهوى كان القلب متنغصا بـــهذه المراقبات، وإن كان الطبع في شهوته فما هي إلا لحظة، ثم خزي دائم، وندم ملازم، وبكاء متواصل، وأسف على ما كان مع طول الزمان، حتى إنه لو تيقن العفو وقف بإزائه حذر العتاب، فَأُفٍّ للذنوب! ما أقبح آثارها وأسوأ أخبارها!!.

وفيه أيضا: أن الفضيل بن عياض قال: إني لأعصي الله فأعرف ذلك في خلق دابتي وجاريتي.

وفيه أيضا في فصل علة الإبطاء في الإجابة: أن إبراهيم الخواص رحمة الله عليه خرج لإنكار منكر فنبحه كلب له فمنعه أن يمضى، فعاد ودخل المسجد وصلى ثم خرج فبصبص الكلب له فمضى وأنكر المنكر فزال المنكر، فسئل عن تلك الحال فقال: كان عندي منكر فمنعني الكلب، فلما عدت تبت من ذلك فكان ما رأيتم اهـــ.

وأحسن من قال:

يمر السحاب على بلدة بماء مَعين من المعصرات
يريد النـــزول فلا يستطيع لما حل فيها من المنكرات [1]

[1] تعليق الشيخ أبي غدة على رسالة المسترشدين للإمام الحارث المحاسبي، ص٢٢٢.

سَيَنْدَمُ مَنْ يَعْصِي بِعَمْدٍ إِلَهَهُ إِذَا الأَرْضُ رُجَّتْ وَالحِجَارَةُ بُسَّتِ (١)
وَيَأْتِيْ كَئِيْباً بَاكِياً (٢) فِيْ القِيَامَةِ يَقُوْلُ أَيَا وَيْلِيَ كُنْتُ كَتُرْبَةِ
وَيَصْرُخُ بِالْثُبُوْرِ حُزْناً وَحَسْرَةً يُنَادِيْ فَهَلْ لِيْ مِنْ رُجُوْعٍ وَأَوْبَةِ

أي سيندم يوم القيامة من تعمد بالعصيان وبارز ربه باجتراح الآثام والسيآت، إذا اشتدت الكروب وبلغت الحناجر القلوب، ورجت الأرض وبست الجبال؛ لعِظَم الدواهي والأهوال، ويأتي في ذلك اليوم ذليلا باكيا، صارخا بالثبور والويل، ويتمنى أن يكون ترابا وأن يرجع إلى الدنيا ليعمل فيها عملا صالحا، قال تعالى حكاية عن أهل النار: {**فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل**}. نسأل الله السلامة والعفو والعافية .

وَهَذَا إِذَا لَمْ يَعْفُ رَبِيْ ذُنُوْبَهُ بِفَضْلٍ وَيَسْمَحْ مَا جَنَاهُ بِمِنَّةِ

قال النبهاني في سعادة الدارين: روى عن علي أنه قال: اسم الله الأعظم ترك المعاصي اهـ وكان بشر بن الحرث الحافي: يقول: الدعاء ترك الذنوب اهـ(٣) وكان بشر هذا من أئمة الصالحين، وقد قال فيه الإمام أحمد لما أخبر له بموت بشر: مات رحمه الله وما له نظير في هذه الأمة إلا عامر بن قيس.

وفي البداية والنهاية أن الإمام أحمد قال يوم بلغه موت بشر: ما ترك بعده مثله.

وكان سفيان الثوري يقول: الدعاء حقيقة هو ترك الذنوب، فمن تركها فعل الله به ما يختاره من غير سؤال(٤) اهـ.

---

[١] الرَّجُ التحريك، والتحرك والاهتزاز . قاموس. وقوله: وبست أي فتتت الحجارة. قال الله تعالى: {**إذا رجت الأرض رجا وبست الجبال بسا**}

[٢] الكآبة الغم وسوء الحال، والانكسار من الحزن، قال الشاعر:

ليس من مات فاستراح بميت إنما الميت ميت الأحياء
إنما الميت من يعيش كئيبا كاسفا باله قليل الرجاء

[٣] طبقات الصوفية للسلمي.

[٤] تنبيه المغترين، ص١١٢.

فصل في إخلاص طالب العلم

تفسير الإخلاص

عن الفضيل بن عياض رحمه الله قال: ترك العمل لأجل الناس رياء والعمل لأجل الناس شرك والإخلاص أن يعافيك الله منهما .

وقال أبو محمد سهل بن عبد الله التستري رحمه الله: نظر الأكياس في تفسير الإخلاص، أن تكون حركاته وسكونه في سره وعلانيته لله تعالى وحده، لا يمازجه شيء، لا نفس ولا هوى ولا دنيا .

وقال السري في رسالته: الإخلاص إفراد الحق في الطاعة بالقصد، وهو أن يريد بطاعته التقرب إلى الله تعالى دون شيء آخر من تصنع لمخلوق أو اكتساب محمدة عند الناس أو محبة مدح من الخلق، أو شيء سوى التقرب إلى الله تعالى، قال: ويصح أن يقال: الإخلاص تصفية العقل عن ملاحظة الخلق .

وقال الشيخ زين الدين بن علي المعبري ثم المليباري في (هداية الأذكياء إلى طريق الأولياء):

أخلص وذا أن لا تريد بطاعة　　　إلا التقرب من إلهك ذي الكلا (١)

وقال الإمام أبو القاسم القشيري في كتابه الرسالة: سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمي رحمه الله يقول: وقد سألته عن الإخلاص ماهو؟ فقال: سمعت علي بن سعيد، وأحمد بن محمد بن زكريا وقد سألتهما عن الإخلاص فقالا: سمعنا علي بن إبراهيم الشقيقي وقد سألناه عن الإخلاص فقال: سمعت محمد بن جعفر الخصاف، وسألته عن الإخلاص فقال: سألت أحمد بن بشار عن الإخلاص ما هو؟ قال: سألت أبا يعقوب الشريطي عن الإخلاص ماهو؟ قال: سألت أحمد بن غسان عن الإخلاص ماهو؟ قال: سألت عبد الواحد بن زيد عن الإخلاص ماهو؟ قال: سألت الحسن عن الإخلاص ما هو: قال: سألت حذيفة عن الإخلاص ماهو؟ قال: سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن الإخلاص ماهو؟ قال: سألت جبريل عن الإخلاص

---

[1] الكلاءة الحفظ قال الله تعالى : (قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن) وفي المصباح: كلأه يكلؤه كـــلاءة بالكسر والمد حفظه وفي المعجم الوسيط: كلأ الله فلانا كَلْئًا وكِلاءً وكِلاءَةً .

ما هو؟ قال: سألت رب العزة عن الإخلاص ماهو؟ قال: هو سر من سري استودعته في قلب من أحببته من عبادي(١).

وذكره الغزالي في الإحياء في باب الإخلاص، وذكر المرتضى الزبيدي في "إتحاف السادة المتقين" طرقا لهذا الحديث(٢).

وقال الجنيد البغدادي: الإخلاص سر بين الله وعبده لا يعلمه ملك فيكتبه ولا شيطان فيفسده، ولا هوى فيميله(٣).

أدلة الإخلاص

إعلم أن الآيات والأحاديث الواردة في الإخلاص كثيرة جدا لكن نتبرك بذكر نبذ منها، فمن الآيات قوله تعالى: {**وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين**} إلى قوله تعالى: {**وذلك دين القيمة**}وقوله تعالى: {**إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصا له الدين ألا لله الدين الخالص**} وقوله تعالى: {**هو الحي لا إله إلا هو**} الآية.

ومن الأحاديث ما ذكره الحافظ المنذري في الترغيب والترهيب عن أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: من فارق الدنيا على الإخلاص لله وحده لا شريك له وأقام الصلاة وآتى الزكاة فارقها والله عنه راض، رواه ابن ماجه والحاكم، وقال: صحيح على شرط الشيخين .

وعن أبي فراس-رجل من أسْلَم- قال: نادى رجل فقال: يارسول الله ما الإيمان؟ قال: الإخلاص، وفي لفظ آخر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: سلوني عما شئتم، فنادى رجل يارسول الله ما الإسلام؟ قال: إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، قال: فما الإيمان؟ قال: الإخلاص، قال: فما اليقين؟ قال: التصديق، رواه البيهقي وهو مرسل .

---

[١] ذكره في باب الإخلاص من الرسالة.

[٢] وفي إتحاف السادة المتقين للزبيدي ما يشبه هذا الحديث فقال: روى الحافظ أبومسعود سليمان بن إبراهيم أيضا في مسلسلاته عن حذيفة بن اليمان عن علم الباطن قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن علم الباطن قال: سألت جبريل عليه السلام عن علم الباطن قال: سألت الله تبارك وتعالى عن علم الباطن، قال: يا جبريل هو سر بيني وبين أوليائي وأصفيائي أودعته في قلوبهم لايطلع عليه ملك مقرب ولا نبي مرسل. إتحاف ج١٠ص٤٤.

[٣] طبقات الشافعية الكبرى لابن السبكي، ترجمة الجنيد البغدادي.

وعن معاذ بن جبل أنه قال حين بعث إلى اليمن: يا رسول الله أوصني، قال: أخلص دينك يكفيك العمل القليل، رواه الحاكم من طريق عبيد الله بن زجر عن أبي عمران، وقال: صحيح الإسناد.

وروى عن ثوبان قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: طوبى للمخلصين أولئك مصابيح الهدى تنجلي عنهم كل فتنة ظلماء، رواه البيهقي .

وعن مصعب بن سعد عن أبيه رضي الله عنه أنه ظن أن له فضلا على من دونه من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: إنما ينصر الله هذه الأمة بضعيفها بدعوتـــهم وصلاتـــهم وإخلاصهم، رواه النسائي وغيره وهو في البخاري وغيره دون ذكر الإخلاص.

وعن أبي الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ما ابتغي به وجه الله تعالى. ورواه الطبراني بإسناد لا بأس به.

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: من أخلص لله أربعين يوما ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه، ذكره رُزَيْن العبدري في كتابه، ورواه الحسين بن الحسين المروزي في زوائده في كتاب الزهد لعبد الله بن المبارك، ورواه أبو الشيخ ابن حبان وغيره عن مكحول مرسلا.

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم، رواه مسلم اهـــ(١).

وَكُنْ مُخْلِصاً يَا طَالِبَ العِلْمِ قَاصِداً بِمَرْضَاةِ رَبِّيْ عَنْكَ بَعْدَ الْمَنِيَّةِ

تَعَلَّمْ لأَجْلِ اللهِ إِنْ كُنْتَ رَاغِباً حُصُوْلَ الأَمَانِ ثُمَّ فَوْزاً بِجَنَّةِ

أي كن يا طالب العلم مخلصا في تعلمك للعلم قاصدا به رضاء الله سبحانه وتعالى عنك والتقرُّبَ إليه فقط، إن كنت راغبا حصول الأمان لك من النيران، والفوز بدخول الجنان، قال الله تبارك وتعالى: {**وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين**} وقال تعالى: {**فاعبد الله مخلصا له الدين ألا لله الدين الخالص**} وقال تعالى: {**قل الله أعبد مخلصا له ديني**}.

---

(١) الترغيب والترهيب في باب الإخلاص والصدق والنية الصالحة.

وروى البخاري ومسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه .

وفي (الزواجر عن اقتراف الكبائر): روى الشيخ نصر المقدسي إمام الشافعية في زمنه عن أبي ذر رضي الله عنه أنه قال: أوصاني حبيبي رسول الله صلى الله عليه وسلم بأربع كلمات هن أحب إليّ من الدنيا وما فيها، قال لي: يا أبا ذر جدد السفينة فإن البحر عميق يعني الدنيا وخفف الحمل فإن السفر بعيد، واحمل الزاد فإن العقبة طويلة، وأخلص العمل فإن الناقد بصير (١).

وقال الإمام النووي: اعلم أنه ينبغي لمن أراد شيئا من الطاعات وإن قلّ أن يحضر النية، وهو أن يقصد بعمله لله عز وجل وتكون نيته حال العمل، ويدخل في هذا جميع العبادات من الصلاة والصوم والوضوء والتيمم والاعتكاف والحج والزكاة والصدقة وقضاء الحوائج وعيادة المريض واتباع الجنائز وابتداء السلام ورده وتشميت العاطس وإنكار المنكر والأمر بالمعروف وإجابة الدعوة وحضور مجالس العلم والأذكار وزيارة الأخيار والنفقة على الأهل والضيف وإكرام أهل الود وذوي الأرحام ومذاكرة العلم والمناظرة فيه وتكراره وتدريسه وتعلمه وتعليمه ومطالعته وكتابته وتصنيفه والفتاوي، وكذلك ما أشبه هذه الأعمال حتى ينبغي له إذا أكل أو شرب أو نام يقصد بذلك التّقوِّي على طاعة الله أو راحة البدن للتنشط للطاعة، وكذلك إذا أراد جماع زوجته يقصد إيصالها حقها وتحصيل ولد صالح يعبد الله تعالى وإعفاف نفسه وصيانتها من التطلع إلى حرام والفكر فيه، فمن حُرم النية في هذه الأعمال فقد حرم خيرا عظيما كثيرا، ومن وُفِّق لها فقد أعطي فضلا جسيما، فنسأل الله الكريم التوفيق لذلك وسائر وجوه الخير، ودلائل هذه القاعدة قوله صلى الله عليه وسلم: إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى. قال العلماء من أهل اللغة والأصول والفقه: إنما للحصر تفيد تحصيل المذكور ونفي ما سواه(٢) اهـ.

---

[١] الزواجر عن اقتراف الكبائر، ج١ص٢١.

[٢] بستان العارفين، ص٣٩.

الإخلاص أساس الأعمال وأصعبها

قال الغزالى في الإحياء قيل لسهل: أي شيء أشد على النفس ؟ قال الإخلاص إذ ليس لها فيه نصيب(١).

وقال أيضا: معرفة حقيقة الإخلاص والعمل به بحر عميق يغرق فيه الجميع إلا الشاذ النادر والفرد الفذ، وهو المستثني في قوله تعالى: إلا عبادك منهم المخلصين، فليكن العبد شديد التفقد والمراقبة لهذه الدقائق وإلا التحق بأتباع الشياطين وهو لا يشعر(٢) اهـ .

وفي (اتحاق السادة المتقين): قال سهل: أهل لا إله إلا الله كثير والمخلصون قليل (٣).

وعن يوسف بن حسين رحمه الله: أعز شيء في الدنيا الإخلاص .

وعن يعقوب السوسي رحمه الله قال: متى شهدوا في إخلاصهم الإخلاص احتاج إخلاصهم إلى إخلاص(٤) .

وفي كتاب (الأربعين في أصول الدين) للإمام الغزالى: قيل لعائشة رضي الله عنها: متى يكون الرجل مسيئا؟ فقالت: إذا ظن أنه محسن(٥).

خاتمة

قال ابن علان في (الفتوحات): ذكر الشيخ زكريا الأنصاري درجات الإخلاص في شرح كتاب (الرسالة القشيرية) فقال: هي ثلاثة، عليا ووسطى ودنيا، فالعليا أن يعمل لله وحده امتثالا لأمره وقياما بحق عبوديته، والوسطى أن يعمل لثواب الآخرة، والدنيا أن يعمل للإكرام(٦) في الدنيا والسلامة من آفاتِها وما عدا الثلاثة من الرياء وإن تفاوتت أفراده اهـ(٧).

---

[١] إحياء علوم الدين كتاب النية والإخلاص ج٥ ص٣٠:

[٢] إحياء علوم الدين كتاب النية والإخلاص ج٥ ص٢٩:

[٣] إتحاف السادة المتقين ج١٠ ص٦٥

[٤] مقدمة المجموع، ص٤٨.

[٥] الأربعين في أصول الدين ص١٦٤.

[٦] أي لأن يكرمه الله في الدنيا كأن يغنيه ويقضي حاجاته ونحو ذلك. ابن علان .

[٧] الفتوحات الربانية على الأذكار النووية ج١ص٨٠ .

الصدق في الأعمال

ويقرب من الإخلاص الصدق، قال الإمام النووي في الأذكار: الصدق التنقي عن مطاوعة النفس .

وقال في (المجموع): عن الحارث بن أسد المحاسبي بضم الميم رحمه الله: الصادق هو الذي لا يبالي لو خرج كل قدر له في قلوب الخلق من أجل صلاح قلبه، ولا يحب إطلاع الناس على مثاقيل الذر من حسن عمله، ولا يكره اطلاعهم على السيء من عمله، لأن كراهته ذلك دليل على أنه يحب الزيادة عندهم، وليس هذا من أخلاق الصديقين .

وعن أبي القاسم الجنيد بن محمد رحمه الله قال: الصادق يتقلب في اليوم أربعين مرة، والمرائي يثبت على حالة واحدة أربعين سنة. قال النووي: معناه: أن الصادق يدور مع الحق حيث دار، فإذا كان الفضل الشرعي في الصلاة مثلا صلى، وإذا كان في مجالسة العلماء والصالحين والضيفان والعيال وقضاء حاجة المسلمين وجبر قلب مكسور ونحو ذلك فعل ذلك الأفضل وترك عادته .

وكذلك القراءة والذكر والأكل والشرب والجد والمزح والاختلاط والاعتــزال والتنعم والابتذال ونحوها، فحيث رآى الفضيلة الشرعية في شيء من هذا فعله، ولا يرتبط بعادة ولا بعبادة مخصوصة كما يفعله المرائي، وقد كانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم أحوال في صلاته وصيامه وأوراده وأكله وشربه ولبسه وركوبه ومعاشرة أهله وجده ومزاحه وسروره وغضبه وإغلاظه في إنكار المنكر ورفقه فيه وعقوبته مستحقي التعزير وصفحه عنهم وغير ذلك بحسب الإمكان والأفضلِ في ذلك الوقت والحال .

ولا شك في اختلاف أحوال الشيء في الأفضلية فإن الصوم حرام يوم العيد وواجب قبله مسنون بعده، والصلاة محبوبة في معظم الأوقات وتكره في أوقات وأحوال كمدافعة الأخبثين، وقراءة القرآن محبوبة وتكره في الركوع والسجود وغير ذلك، وكذلك تحسين اللباس يوم الجمعة والعيد وخلافه يوم الاستسقاء، وكذلك ما أشبه هذه الأمثلة، وهذه نبذة يسيرة ترشد الموفق إلى السداد وتحمله على الاستقامة وسلوك طريق الرشاد اهـــ.[١]

---

[١] مقدمة المجموع، ص٥٠.

وقال بعض العلماء: كن من الصادقين، فإن لم تكن منهم فكن معهم، قال الله تعالى: {**ياءيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين**}.

قال السيد أحمد بن عاصم الأنطاكي: إذا جالستم أهل الصدق فجالسوهم بالصدق فإنـــهم جواسيس القلوب. الرسالة القشيرية باب الفراسة.

وَلاْ يَخْطُرَنْ فِيْ القَلْبِ حُبُّ رِيَاسَةٍ وَجَاهٍ فَذَا أَصْلٌ لِكُلِّ رَزِيَّةِ

وَلاْ تَطْلُبَنْ صِيْتاً وَمَدْحاً وَشُهْرَةً فَهَذَا سُقُوْطٌ صَاْحِ فِيْ قَعْرِ هُوَّةِ

وَمَنْ يَتَعَلَّمْ لِلْمَنَاصِبِ دِيْنَهُ فَقَدْ ضَاعَ عُمْراً بِالْمَسَاوِيْ وَغَفْلَةِ

أي لا يخطر في قلبك حال تعلمك للعلم حب رياسة وجاه ومدح وشهرة وكثرة الأتباع ونحوها من حظوظ النفس وشهواتـــها، فقد روى ابن عبد البر في كتاب (جامع بيان العلم وفضله) عن يزيد بن أبي حبيب قال: سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الشهوة الخفية، فقال: هو الرجل يتعلم العلم يحب أن يجلس إليه(١) .

وروى الحافظ الخطيب البغدادي بسنده عن أبي هريرة رضي الله، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا تعلموا العلم لتباهوا به العلماء، أو لتماروا به السفهاء، أو لتصرفوا به وجوه الناس إليكم، فمن فعل ذلك فهو في النار، ولكن تعلموه لوجه الله والدار الآخرة.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أيضا، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من تعلم علما مما يبتغى به وجه الله لا يتعلمه إلا ليصيب عرضا من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة.

وقال الشافعي رضي الله عنه لأهل الحلقة: تفقهوا مع فقهكم هذا بمذاهب أهل الإخلاص، ولا تفقهوا بما يؤديكم إلى ركوب القلاص (٢).

وروى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: احذروا الشـــهوة الخفيـــة، قـــالوا: يارسول الله وما الشهوة الخفية؟ قال: العالم يحب أن يُجْلَسَ إليه، رواه الديلمي في مســـند الفردوس.

---

[١] جامع بيان العلم وفضله، في باب ذم الفاجر من العلماء وذم طلب العلم للمباهاة والدنيا.

[٢] الفقيه والمتفقه في باب إخلاص النية والقصد بالفقه وجه الله عز وجل،ج٢ ص٨٨- ٨٩.

قال المناوي في شرح هذا الحديث: فإن ذلك يبطل عمله لتفويته الإخلاص وتصحيح النية، فليس الشأن حفظ العلم بل في صونه عما يفسده كالرياء والعجب والتعاظم بإظهار علمه، وذلك سم وخيم، وسهم من سهام الشيطان الرجيم، أخرج العلائي في أماليه عن علي كرم الله وجهه سيكون أقوام يحملون العلم لا يجاوز تراقيهم، يخالف علمهم عملهم، وسرهم علنهم، يجلسون حلقا حلقا، يباهي بعضهم بعضا، حتى إن الرجل ليغضب على جليسه إذا جلس لغيره ويدعه، أولئك لا تصعد أعمالهم إلى الله تعالى.

وقال كعب الأحبار: سيكون في آخر الزمان علماء يتغايرون على العلم كما تتغاير النساء على الرجال، يغضب أحدهم على جليسه إذا جالس غيره أو أخذ عنه، أولئك الجبارون أعداء الرحمن . وفي تاريخ ابن عساكر عن ابن عيينة أن ربيعة بكى فقيل: ما يبكيك؟ قال: رياء حاضر وشهوة خفية، والناس عند علمائهم كغلمان في حجور أمهاتِهم، إن أمروهم ائتمروا وإن نهوهم انتهوا. قال الغزالي: هذا هو الانتكاس على أمّ الرأس وفاعله الذي يقوم في العرض الأكبر مع المجرمين ناكسا رأسه عند ربه، انظر كيف انتهى أمر الذين يزعمون التقرب إلى الله تعالى بالعلم يبذلون المال والجاه، ويتحملون أصناف الذل في خدمة السلاطين لاستطلاق الجرايات، ويتوقع المعلم في نفس المتعلم أن ينقطع إليه ويقتصر عليه، ويقوم معه في كل نائبة وينصر وليه ويعادي عدوه، وينهض حمارا له في حاجاته مسخرا بين يديه في أوطاره ومهماته، فإن قصر غضب عليه وعاداه، فاخسأ بعالم يرضى لنفسه بهذه المرتبة ثم يفرح بها ثم لا يستحيي أن يقول: غرضي من التدريس نشر العلم تقربا إلى الله تعالى انتهى. فهذا حال زمن الغزالي فلو رأى زماننا هذا!!. قال البيهقي: فعلى هذا ينبغي للعالم أن يكون فعله لوجه الله تعالى لا يريد أن يزداد من الناس جاها أو على أقرانه استعلاء ولا يريد أن يكثر الآخذون عنه، وأن يكون علمه أظهر في الناس من علم غيره بل يقصد أداء الأمانة بنشر ما عنده وإحياء معالم الدين وصونها عن الدروس.

وقال في الحكم: ادفن وجودك في أرض الخمول فما نبت مما لم يدفن لا يتم نتاجه اهـ مناوي .

وقال صلى الله عليه وسلم: ما من عبد يخطب خطبة إلا الله سائله عنها ما أراد بـــها، رواه البيهقي عن الحسن مرسلا.

قال المناوي: ورواه ابن أبي الدنيا عن الحسن البصري مرسلا، قال المنذري: إسناده جيد اهـــ لكن فيه جعفر بن سليمان، قال الذهبي: ضعفه القطان ووثقه جمع (١).

وَإِيَاكَ إِيَّاكَ القَوَادِحَ كَلَّهَا كَإِعْجَاب نَفْسٍ وَالرِّيَاءِ وَسُمْعَةِ

وَيُفْسِدُ ذَا أَعْمَالَهُ فَثَوَابُـــهَا كَمِثْلِ سَرَابٍ أَوْ هَبَاءٍ وَرَغْوَةِ

أي احذر أيها المتعلم للعلم من القوادح للأعمال من الرياء والسمعة والعجب فإنها تفسد الأعمال وتحبط ثوابَها فتكون كالسراب والهباء والرغوة، واعلم أن العوارض المشوشة للإخلاص مختلفة، فمنها: ما هو حرام يحبط ثواب الأعمال الصالحة كلها وتجب التوبة منه، ومنها: ما هو ظاهر جلي، ومنها: ما هو خفي دقيق لا يدركه إلا الموفقون من عباد الله، فقد ذكر الإمام أبوحامد الغزالي في الإحياء أن درجات الشوائب والآفات المكدرة للإخلاص أربعة فقال: اعلم أن الآفات المشوشة للإخلاص بعضها جلي، وبعضها خفي، وبعضها ضعيف مع الجلاء وبعضها قوي مع الخفاء، ولا يفهم اختلاف درجاتـــها في الخفاء والجلاء إلا بمثال، وأظهر مشوشات الإخلاص الرياء فلنذكر منه مثالا، فنقول: الشيطان يدخل الآفة على المصلى مهما كان مخلصا في صلاته، ثم إذا نظر إليه جماعة أو دخل عليه داخل فيقول له: حسن صلاتك حتى ينظر إليك هذا الحاضر بعين الوقار والصلاح ولا يزدريك ولا يغتابك فتخشع جوارحه، وتسكن أطرافه، وتحسن صلاته، فهذا هو الرياء الظاهر، ولا يخفى ذلك على المبتدئين من المريدين.

الدرجة الثانية: يكون المريد قد فهم هذه الآفة وأخذ منها حذره فصار لا يطيع الشيطان فيها، ولا يلتفت إليه ويستمر في صلاته كما كان، فيأتيه في معرض الخير ويقول: أنت متبوع ومقتدي بك ومنظور إليك وما تفعله يؤثر عنك ويتأسى بك غيرك، فيكون لك ثواب أعمالهم إن أحسنت وعليك الوزر إن أسأت، فاحسن عملك بين يديه فعساه يقتدى بك في الخشوع وتحسين العبادة وهذا أغمض من الأول، وقد ينخدع به من لا ينخدع بالأول، وهو أيضا عين الرياء ومبطل للإخلاص، فإنه إن كان يرى الخشوع

[١] فيض القدير، جـــ١، ص٤٨٠.

وحسن العبادة خيرا لا يرضى لغيره تركه فلم لم يرتض لنفسه ذلك في الخلوة ولا يمكن أن تكون نفس غيره أعز عليه من نفسه؟ فهذا محض التلبيس، بل المقتدى به هو الذي استقام في نفسه واستنار قلبه فانتشر نوره إلى غيره فيكون له ثواب علمه.

فأما هذا فمحض النفاق والتلبيس، فمن اقتدى به أثيب عليه وأما هو فيطالب بتلبيسه ويعاقب على إظهاره من نفسه ما ليس متصفا به.

الدرجة الثالثة: وهي أدق مما قبلها، أن يجرب العبد نفسه في ذلك ويتنبه لكيد الشيطان ويعلم أن مخالفته بين الخلوة والمشاهدة للغير محض الرياء، ويعلم أن الإخلاص في أن تكون صلاته في الخلوة مثل صلاته في الملإ، ويستحيي من نفسه ومن ربه أن يتخشع لمشاهدة خلقه تخشعا زائدا على عادته، فيقبل على نفسه في الخلوة ويحسن صلاته على الوجه الذي يرتضيه في الملإ ويصلى في الملإ أيضا كذلك، فهذا أيضا من الرياء الغامض لأنه حسن صلاته في الخلوة لتحسن في الملإ فلا يكون قد فرق بينها، فالتفاته في الخلوة والملإ إلى الخلق، بل الإخلاص أن تكون مشاهدة البهائم لصلاته ومشاهدة الخلق على وتيرة واحدة، فكأن نفس هذا ليس تسمح بإساءة الصلاة بين أظهر الناس ثم يستحيي من نفسه أن يكون في صورة المرائين، ويظن أن ذلك يزول بأن تستوى صلاته في الخلا والملإ وهيهات بل زوال ذلك بأن لا يلتفت إلى الخلق كما لا يلتفت إلى الجمادات في الخلا والملإ جميعا، وهذا من شخص مشغول الهم بالخلق في الملإ والخلا جميعا، وهذا من المكايد الخفية للشيطان.

الدرجة الرابعة: وهي أدق وأخفى، أن ينظر إليه الناس وهو في صلاته فيعجز الشيطان عن أن يقول له: يخشع لأجله فإنه قد عرف أنه قد تفطن لذلك فيقول له الشيطان: تفكر في عظمة الله تعالى وجلاله ومن أنت واقف بين يديه واستحي من أن ينظر الله إلى قلبك وهو غافل عنه، فيحضر بذلك قلبه وتخشع جوارحه ويظن أن ذلك عين الإخلاص وهو عين المكر والخداع، فإن خشوعه لو كان لنظره إلى جلاله لكانت هذه الخطرة تلازمه في الخلوة ولكان لا يختص حضورها بحاجة حضور غيره، وعلامة الأمن من هذه الآفة أن يكون هذا الخاطر مما يألفه في الخلوة كما يألفه في الملإ، ولا يكون حضور الغير هو السبب في حضور الخاطر كما لا يكون حضور البهيمة سببا، فما دام يفرق في أحواله بين مشاهدة

إنسان ومشاهدة بهيمة فهو بعيد خارج عن صفو الإخلاص مدنس الباطن بالشرك الخفي من الرياء، وهذا الشرك أخفى في قلب ابن آدم من دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء، ولا يسلم من الشيطان إلا من دق نظره وسعد بعصمة الله تعالى وتوفيقه وهدايته، وإلا فالشيطان ملازم للمتشمرين لعبادة الله تعالى لا يغفل عنهم لحظة حتى يحملهم على الرياء في كل حركة من الحركات حتى في كحل العين وقص الشارب وطيب يوم الجمعة ولبس الثياب، فإن هذه سنن في أوقات مخصوصة وللنفس فيها حظ خفي لارتباط نظر الخلق بها ولاستئناس الطبع بها، فيدعوه الشيطان إلى فعل ذلك ويقول: هذه سنة لا ينبغى أن تتركها، ويكون انبعاث القلب باطنا لها لأجل تلك الشهوة الخفية، أو مشوبة بـــها شوبا يخرج عن حد الإخلاص بسببه، وما لا يسلم عن هذه الآفات كلها فليس بخالص، بل من يعتكف في مسجد معمور نظيف حسن العمارة يأنس إليه الطبع فالشيطان يرغبه فيه ويكثر عليه من فضائل الاعتكاف، وقد يكون المحرك الخفي في سره هو الأنس بحسن صورة المسجد واستراحة الطبع إليه، ويتبين ذلك في ميله إلى أحد المسجدين أو أحد الموضعين إذا كان أحسن من الآخر وكل ذلك امتزاج بشوائب الطبع وكدورات النفس ومبطل حقيقة الإخلاص، لعمري الغش الذي يمزج بخالص الذهب له درجات متفاوتة، فمنها ما يغلب ومنها ما يقل ولكن يسهل دركه. ومنها ما يدق بحيث لا يدركه إلا الناقد البصير.

وغش القلب ودغل الشيطان وخبث النفس أغمض من ذلك وأدق كثيرا، ولهذا قيل: ركعتان من عالم أفضل من عبادة سنة من جاهل، وأريد به العالم البصير بدقائق آفات الأعمال حتى يخلص عنها، فإن الجاهل نظره إلى ظاهر العبادة واغتراره بـــها كنظر السوادي إلى حمرة الدينار المموه واستدارته وهو مغشوش زائف في نفسه، وقيراط من الخالص الذي يرتضيه الناقد البصير خير من دينار يرتضيه الغِرّ الغبي، فهكذا يتفاوت أمر العبادات بل أشد وأعظم، ومداخل الآفات المتطرقة إلى فنون الأعمال لا يمكن حصرها وإحصاؤها، فلينتفع بما ذكرناه مثالا، والفطن يغنيه القليل عن الكثير، والبليد لا يغنيه التطويل أيضا فلا فائدة في التفصيل.

وكم من أعمال يتعب الإنسان فيها ويظن أنها خالصة لوجه الله ويكون فيها مغرورا لأنه لا يرى وجه الآفة فيها، كما حكى عن بعضهم أنه قال: قضيت صلاة ثلاثين سنة كنت صليتها في المسجد في الصف الأول لأني تأخرت يوما لعذر، فصليت في الصف الثاني فاعترتني خجلة من الناس حتى رأوني في الصف الثاني ، فعرفت أن نظر الناس إلي في الصف الأول كان مسرتي وسبب استراحة قلبي من حيث لا أشعر، وهذا دقيق غامض قلما تسلم الأعمال من أمثاله، وقل من يتنبه له إلا من وفقه الله تعالى، والغافلون يرون حسناتِهم كلها في الآخرة سيآت وهم المرادون بقوله تعالى: {**وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون، وبدا لهم سيئات ما كسبوا**}، وبقوله تعالى: {**قل هل أنبئكم بالأخسرين عملا، الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنّهم يحسنون صنعا**}.

وأشد الخلق تعرضا لهذه الفتنة العلماء، فإن الباعث للأكثرين على نشر العلم لذة الاستيلاء والفرح بالاستتباع والاستبشار بالحمد والثناء، والشيطان يلبس عليهم ذلك ويقول: غرضكم نشر دين الله والنضال عن الشرع الذي شرعه الرسول صلى الله عليه وسلم وترى الواعظ يمنُّ على الله تعالى بنصيحة الخلق ووعظه للسلاطين، ويفرح بقبول الناس قوله وإقبالهم عليه، وهو يدعي أنه يفرح بما يسر له من نصرة الدين، ولو ظهر من أقرانه من هو أحسن منه وعظا وانصرف الناس عنه وأقبلوا عليه ساءه ذلك وغمه، ولو كان باعثه الدين لشكر الله تعالى إذ كفاه الله تعالى هذا المهم بغيره، ثم الشيطان مع ذلك لا يخليه ويقول: إنما غمك لانقطاع الثواب عنك لا لانصراف وجوه الناس عنك إلى غيرك إذ لو اتعظوا بقولك لكنت أنت المثاب واغتمامك لفوات الثواب محمود، ولا يدرى المسكين أن انقياده للحق وتسليمه الأمر أفضل وأجزل ثوابا وأعود عليه في الآخرة من انفراده.

والحاصل أن ثواب الأعمال الصالحة لا يحصل إلا بالإخلاص كما ذكره الإمام الغزالي، فقد قال رحمه الله تعالى في الإحياء: لا يحصل الأجر إلا بالإخلاص، والإخلاص قلما يستيقنه العبد من نفسه وإن بالغ في الاحتياط، فلذلك ينبغي أن يكون أبدا بعد كمال الاجتهاد مترددا بين الرد والقبول خائفا أن تكون في عبادته آفة يكون وبالها أكثر من ثوابـــها، وهكذا كان الخائفون من ذوي البصائر، وهكذا ينبغى أن يكون كل ذي

بصيرة، ولذلك قال سفيان رحمه الله: لا أعتدّ بما ظهر من عملي، وقال عبد العزيز بن أبي رواد: جاورت هذا البيت ستين سنة وحججت ستين سنة فما دخلت في شيء من أعمال الله تعالى إلا وحاسبت نفسي فوجدت نصيب الشيطان أوفى من نصيب الله، ليته لا لي ولا علي، ومع هذا فلا ينبغى أن يترك العمل عند خوف الآفة والرياء، فإن ذلك منتهي بغية الشيطان منه إذ المقصود أن لا يفوت الإخلاص، ومهما ترك العمل فقد ضيع العمل والإخلاص جميعا اهـــ(١).

وقوله: كإعجاب نفس: اعلم أن من الآفات المحبطة للثواب العجب، وقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم: لو لم تذنبوا لخشيت عليكم ما هو أكبر منه العجب.

وروى الديلمي: إن العجب يحبط عمل سبعين سنة.

وروى الطبراني: لو كان العجب رجلا لكان رجل سوء.

وروى البيهقي: لو لم تكونوا تذنبون لصب عليكم ما هو أكبر من ذلك العجب.

وقال صلى الله عليه وسلم: ثلاث مهلكات، شح مطاع، وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه.

وقال الهيتمي: وللعجب آفات كثيرة، منها: تولد الكبر عنه فتكون آفات الكبر آفات العجب لأنه الأصل.(٢)

وقال أيضا: من أعجب بشيء من علمه أو عمله أو غيرهما استعظم نفسه وتكبّر وتمرّد وتجبّر، وقد ينتهي الحمق والغباوة ببعض العباد إلى أنه إذا أوذى يتوعد مؤذيه ويقول: سترون ما يحل به، وإذا نكب مؤذيه يعد ذلك من كراماته لعظم قدر نفسه عنده واستيلاء الجهل عليه لجمعه بين العجب والكبر والاغترار بالله تعالى، وقد قتل جماعة الأنبياء وماتوا من غير أن يعاجلوا بعقاب في الدنيا فما مرتبة هذا الجاهل؟ وإذا اتضح لك كبر هذين النوعين(٣) اللذين هما في الظاهر عليهما معول الدين والدنيا اتضح لك كبر البقية من ذوي الأموال والجاه وغيرهم، فالمتكبر بالنسب قد يرى من ليس كنسبه مثل عبده، وكذا بالجمال، وأكثر ما يجري بين النساء ونحوهن، وكذا بالمال كما هو مشاهد بين أرباب

---

[١] إحياء علوم الدين كتاب النية والإخلاص والصدق .

[٢] الزواجر عن اقتراف الكبائر، ص٦٨-٦٩.

[٣] المراد بِهما العلماء والعاملون.

الدنيا من المناصب والمتاجر وغيرها، وكذا بالأتباع والجند وأكثر ما يجري بين الملوك، ومما يهيج الكبر ويسعر ناره العجب والحقد والحسد والرياء إذ التكبر خلق باطني لأنه استعظام النفس ورؤية قدرها فوق قدر الغير وموجبه الحقيقي هو العجب وحده.(١)

قال تعالى: {**إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين**}. وقال تعالى: {**وهم يحسبون أنــهم يحسنون صنعا**} .

وقال ابن مسعود: الهلاك في اثنين، القنوط والعجب، أي لأن القانط أيس من نفع الأعمال ومن لازم ذلك تركها، والمعجب يرى أنه سعد وظفر بمراده فلا يحتاج لعمل، ومن ثم قال تعالى: {**فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى**}. ومن تزكية النفس أنــها بارة وهو معنى العجب. وقال مطرف: لأن أبيت نائما وأصبح نادما أحب إليّ من أن أبيت قائما وأصبح معجبا.

قال الإمام أبو القاسم القشيري في (الرسالة): كان عمر بن عبد العزيز رحمه الله إذا كتب كتابا واستحسن لفظه مزق الكتاب وغَيّره بكتابة غيره خوفا من العجب اهــ

وفي (الزواجر): أخرج الطبراني في (الأوسط) والبزار بإسناد لا بأس به عن عمر، وأبو يعلى عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: يظهر الإسلام حتى تختلف التجار في البحر، وحتى تخوض الخيل في سبيل الله، ثم يظهر قوم يقرأون القرآن، يقولون: من أقرأ منا؟ من أعلم منا؟ من أفقه منا؟، ثم قال لأصحابه: هل في أولئك من خير؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: أولئك منكم، وأولئك هم وقود النار. وروى الطبراني: من قال: أنا عالم فهو جاهل(٢).

وقوله: والرياء: اعلم أن الرياء هو أن ترائي الناس بأعمالك ويكون هو الحامل والباعث عليها، ويدخل في جميع الطاعات والأعمال الصالحة كالصلاة والزكاة والصيام والحج وتعلُّم العلم الشريف وتعليمه وغير ذلك مما يتقرب به إلى الله تعالى، فالمرائي هو الذي يفعل الطاعات ويريد بــها غير وجه الله تعالى، وهو حرام شرعا ومن الكبائر الموبقات وهو الشرك الأصغر، قال العلامة ابن حجر الهيتمي في "الزواجر عن اقتراف الكبائر": قد

---

[١] الزواجر عن اقتراف الكبائر ج١ ص٦٧-٦٨.

[٢] الزواجر ج١ ص٨٧.

شهد بتحريم الرياء الكتاب والسنة، وانعقد عليه إجماع الأمة، أما الكتاب فمنه قوله عز وجل قائلا: {**الذين هم يراءون**} وقال تعالى: {**والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد**} قال مجاهد: هم أهل الرياء.

وقال تعالى: {**ولا يشرك بعبادة ربه أحدا**} أي لا يرائي بعمله ومن ثم نزلت فيمن يطلب الأجر والحمد بعبادته وأعماله.

وقال تعالى: {**إنما نطعمكم لوجه لا نريد منكم جزاء ولا شكورا**}.

أما السنة فمنها ما رواه أحمد: إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر الرياء، يقول الله يوم القيامة إذا جزى الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون في الدنيا، انظروا هل تجدون عندهم جزاء.

وروى ابن ماجه: إن أخوف ما أخاف على أمتي الإشراك بالله، أما إني لست أقول يعبدون شمسا ولا قمرا ولا وثنا ولكن أعمالا لغير الله وشهوة خفية.

وروى الحاكم وأبو نعيم في (حلية الأولياء): الشرك أخفى في أمتي من دبيب النمل على الصفا في الليلة الظلماء، وأدناه أن تحب على شيء من الجور أو تبغض على شيء من العدل، وهل الدين إلا الحب في الله والبغض في الله؟ قال الله تعالى: {**قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله**}.

وروى الترمذي والحاكم: إن الله إذا كان يوم القيامة ينزل إلى العباد- أي يتجلى لهم تجليا منزها عن الحركة والانتقال وسائر لوازم الجهات والأجسام- ليقضى بينهم وكل أمة جاثية، فأول من يدعى به رجل جمع القرآن، ورجل قتل في سبيل الله، ورجل كثير المال، فيقول الله للقارئ ألم أعلمك ما أنزلت على رسولي؟ قال: بلى يارب، قال: فما ذا عملت فيما علمت؟ قال: كنت أقوم آناء الليل وآناء النهار، فيقول الله له: كذبت بل أردت أن يقال فلان قارئ فقد قيل ذلك، ويؤتى بصاحب المال فيقول الله له: ألم أوسع عليك حتى لم أدعك تحتاج إلى أحد؟ قال: بلى يارب، قال: فما عملت فيما آتيتك؟ قال: كنت أصل الرحم وأتصدق، فيقول الله له: بل أردت أن يقال: فلان جواد فقد قيل ذلك، ويؤتى بالذي قتل في سبيل الله، فيقول الله له: فيما قتلت؟ فيقول: أمرت بالجهاد في سبيلك فقاتلت حتى قتلت، فيقول الله له: كذبت ويقول الله له: أردت أن يقال: فلان

جريء – أي شجاع – فقد قيل ذلك، يا أباهريرة أولئك الثلاثة أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة.

وروى أحمد ومسلم والنسائي: إن أول الناس يقضى عليه يوم القيامة رجل استشهد فأتى به فعرَّفه أي الله نعمته فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت، قال: كذبت ولكنك قاتلت ليقال: جريء فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل تعلم العلم وعلّمه وقرأ القرآن فأتي به فعرفه نعمته فعرفها، قال: فماذا عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت ولكنك تعلمت العلم ليقال: عالم وقرأت القرآن ليقال: هو قارئ، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله فأتى به فعرفه نعمته، فقال: فما ذا عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها، قال: كذبت ولكنك فعلته ليقال: هو جواد، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه ثم ألقي في النار. وروى الحاكم: ثلاثة مهلكون عند الحساب: جواد وشجاع وعالم.

وروى أحمد والترمذي وابن ماجه: إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه نادى مناد من كان أشرك في عمل عمله لله أحدا فليطلب ثوابه من عنده فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك.

وروى مسلم وابن ماجه: قال الله تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه، إذا كان يوم القيامة أتى بصحف مختمة فتنصب بين يدي الله تعالى فيقول الله لملائكته اقبلوا هذا وألقوا هذا فتقول الملائكة: وعزتك ما رأينا إلا خيرا فيقول: نعم لكن كان لغيري ولا أقبل اليوم إلا ما ابتغي به وجهي.

وفي رواية لابن عساكر والدارقطني: يجاء يوم القيامة بصحف مختومة فتنصب بين يدي الله عز وجل فيقول للملائكة: ألقوا هذا واقبلوا هذا، فتقول الملائكة: وعزتك مارأينا إلا خيرا، فيقول وهو أعلم: إن هذا كان لغيري لا أقبل اليوم من العمل إلا ما كان ابتغي به وجهي.

وفي أخرى مرسلة لابن المبارك: إن الملائكة يرفعون عمل العبد من عباد الله يستكثرونه حتى يبلغوا به إلى حيث شاء الله من سلطانه، فيوحي الله إليهم إنكم حفظة على عمل عبدي وأنا رقيب على ما في نفسه، إن عبدي هذا لم يخلص لي في عمله فاجعلوه في سجين، ويصعدون بعمل العبد يستقلونه ويحقرونه حتى يبلغوا به إلى حيث شاء الله من سلطانه، فيوحي الله إليهم إنكم حفظة على عمل عبدي وأنا رقيب على نفسه إن عبدي هذا أخلص لي عمله فاجعلوه في عليين.

وروى الديلمي: ريح الجنة يوجد من مسيرة خمسمائة عام، ولا يجده من طلب الدنيا بعمل الآخرة.

وروى الطبراني: من قام مقام رياء وسمعة فإنه في مقت الله حتى يجلس.

وروى أحمد والترمذي وابن ماجه: من يرائي يرائي الله به ومن يسمع يسمع الله به: وهو بتشديد الميم أي من يظهر عمله للناس رياء يسمع الله به أي يفضحه يوم القيامة، ومعنى من راءى راءى الله به أي من أظهر للناس العمل الصالح ليعظم عندهم وليس هو كذلك راءى الله به أي أظهر سريرته على رؤوس الخلائق .

وروى أحمد والطبراني: يا أيها الناس اتقوا الشرك فإنه أخفى من دبيب النمل قالوا: وكيف نتقيه يارسول الله؟ قال: قولوا: اللهم إنا نعوذ بك أن نشرك بك شيئا نعلمه ونستغفرك لما لا نعلمه.

وفي رواية: أنه صلى الله عليه وسلم قال لأبي بكر رضي الله عنه: الشرك فيكم أخفى من دبيب النمل، وسأدلك على شيء إذا فعلته أذهب عنك صغار الشرك وكباره، تقول: اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم وأستغفرك لما لا أعلم تقولها ثلاث مرات.

وروى أبو داود بسند صحيح: من تعلم علما مما يبتغى به وجه الله عز وجل لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضا من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة أي ريحها الطيب.

وروى الديلمي: إياكم أن تخلطوا طاعة الله تعالى بحب ثناء العباد فتحبط أعمالكم.

وروى البيهقي: أيها الناس إياكم وشرك السرائر: أن يقوم الرجل فيصلي فيزين صلاته جاهدا لما يرى من نظر الناس إليه فذلك شرك السرائر.

وفي رواية له: إياكم وشرك السرائر أن يتم ركوعها وسجودها لما يلحظه من الحدق والنظر فذلك شرك السرائر.

وروى الحاكم: من تهيأ للناس بقوله ولباسه وخالف ذلك في أعماله فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين.

وروى الطبراني وأبو نعيم والبيهقي وابن عساكر وابن النجار: يؤمر بناس، وفي رواية بفئة أي جماعة من الناس يوم القيامة إلى الجنة حتى إذا دنوا منها واستنشقوا ريحها ونظروا إلى قصورها وإلى ما أعده الله لأهلها فيها نودوا أن اصرفوهم عنها لا نصيب لهم فيها، فيرجعون بحسرة ما رجع الأولون والآخرون بمثلها فيقولون: ربنا لو أدخلتنا النار قبل أن ترينا ما أريتنا من ثوابك وما أعددت فيها لأوليائك كان أهون علينا، قال: ذاك أردت بكم يا أشقياء، كنتم إذا خلوتم بارزتموني بالعظائم، وإذا لقيتم الناس لقيتموني مخبتين، تراءون الناس بأعمالكم خلاف ما تعطوني من قلوبكم، هبتم الناس ولم تهابوني ، وأجللتم الناس ولم تجلوني، وتركتم للناس ولم تتركوا لي، فاليوم أذيقكم العذاب مع ما حرمتم من الثواب. وفي رواية: فاليوم أذيقكم أليم عذابي مع ما حرمتكم من جزيل ثوابي.

وروى الذهبي: سأل رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ما النجاة غدا؟ قال صلى الله عليه وسلم: أن لا تخادع الله، قال: وكيف يخادع الله؟ قال: أن تعمل بما أمرك الله ورسوله وتريد به غير وجه الله، فاتقوا الرياء فإنه الشرك بالله، وإن المرائي ينادى عليه يوم القيامة على رؤوس الخلائق بأربعة أسماء: يا كافر يا فاجر يا غادر يا خاسر ضل عملك وبطل أجرك فلا خلاق أي لا نصيب لك اليوم فالتمس أجرك ممن كنت له تعمل يا مخادع(١).

وقال الهيتمي في الزواجر أيضا: الرياء إما جلي وهو ما يحمل على العمل ويبعث عليه، وإما خفي وهو ما لا يحمل عليه لكنه يخفف مشقته كمن يعتاد التهجد كل ليلة ويثقل عليه لكنه إذا نزل به ضيف أو اطلع عليه أحد نشط له وخف عليه ومع ذلك هو إنما يعمل لله ولولا رجاء الثواب لما صلى، وأمارة ذلك أنه يتهجد وإن لم يطلع عليه أحد، وأخفى من هذا ما لا يحمل على تسهيل وتخفيف ومع ذلك عنده رياء كامن في قلبه

[1] الزواجر عن اقتراف الكبائر، ج١ص٣٥-٣٨.

ككمون النار في الحجر لا يمكن الاطلاع عليه إلا بالعلامات، وأجلى علاماته أنه يسره اطلاع الناس على طاعته وعبادته، فرب عبد مخلص في عمله يكره الرياء ويذمه فلا يكون عنده منه شيء يحمل على العمل ابتداء ولا دواما ولكنه إذا اطلع الناس عليه سرّه ذلك وارتاح له وروّح ذلك عن قلبه شدة العبادة عليه، وهذا السرور يدل على رياء خفي إذ لو لا التفات القلب للناس لما ظهر سروره عند اطلاعهم، فاطلاعهم مع عدم كراهته له حرّك ما كان ساكنا وصار غذاء للعرق الخفي من الرياء، وحينئذ يحمل على تكلف سبب الاطلاع عليه ولو بالتعريض ونحوه كإظهار النحول وخفض الصوت ويبس الشفتين وغلبة النعاس الدال على طول التهجد.

وأخفى من ذلك أن يختفي بحيث لا يريد الاطلاع عليه ولا يسره ولكنه يحب أن يبدأ بالسلام والتعظيم، وأن يقابل بمزيد الثناء، والمبادرة إلى حوائجه، وأن يسامح في معاملته، وأن يوسع له المكان إذا أقبل، ومتى قصر أحد في ذلك ثقل على قلبه لعظمة طاعته التي أخفاها عند نفسه، فكأن نفسه تطلب أن يحترم في مقابلتها، حتى لو فرض أنــــها لم تفعل تلك الطاعات لما كانت تطلب ذلك الاحترام، ومهما لم يكن وجود الطاعة كعدمها في كل ما يتعلق بالخلق لم يكن قد قنع بعلم الله تعالى و لم يكن خاليا عن شوب خفي من الرياء أخفى عن دبيب النمل. قال الغزالي: وكل ذلك يوشك أن يحبط الأجر ولا يسلم منه إلا الصديقون(١) .

وقال أيضا: وكل من وجد في نفسه فرقا بين اطلاع الصغار والمجانين واطلاع غيرهم على عبادته فعنده شوب من الرياء، إذ لو علم أن الله هو النافع الضار القادر على كل شيء وغيره هو العاجز عن كل شيء لاستوى عنده الصغار وغيرهم و لم تتأثر نفسه بحضور كبيرهم ولا صغيرهم اهــ.

وقال المليباري في هداية الأذكياء:

إيمان مرء لا يكون تكاملا   حتى يرى ناسا بإبل مُثّلا
فيكون مدحهمُ وذمهمُ سوا   لم يخش لومة لائم في ذي العلا

أي لا يخشى لومة لائم في دين ذي العلا جل جلاله .

---

(١) الزواجر عن اقتراف الكبائر ج١س٤٣.

وقال السيد أبوبكر بن محمد شطا في شرحه لهذين البيتين: هذا مأخوذ من قوله عليه الصلاة والسلام: لا يكمل إيمان المرء حتى يكون الناس عنده كالأباعر . أي في مشاهدة العمل، فما دام يفرق بينهما فهو ليس بمخلص اهــ.

وفي الزواجر: اختلف الغزالي وابن عبد السلام فيمن قصد بعمله الرياء والعبادة فقال الغزالي: إن غلب باعث الدنيا فلا ثواب له، أو باعث الآخرة فله الثواب، وإن تساويا تساقطا فلا ثواب أيضا، وقال ابن عبد السلام: لا ثواب مطلقا للأخبار الواردة كخبر: من عمل عملا أشرك فيه غيري فأنا منه بريء هو للذي أشرك، وأوّل الغزالي الحديث على ما إذا استوى القصدان أوكان قصد الرياء أرجح، وصريح كلام الغزالي أن الرياء ولو محرما لا يمنع أصل الثواب عنده إذا كان باعث العبادة أغلب، ومن ثم قال: لو كان اطلاع الناس مرجحا ومقويا نشاطه ولو فقد لم يترك العبادة ولو انفرد قصد الرياء لما أقدم فالذي نظنه والعلم عند الله تعالى أنه لا يحبط أصل الثواب ولكنه يعاقب على مقدار قصد الرياء في صدقته وصلاته فهو الشرك الذي يناقض الإخلاص، وقد نقلناه عن سعيد بن المسيب وعبادة بن الصامت رضي الله عنهما ما يدل على أنه لا ثواب له أصلا انتهى، قال الهيتمي: وبــــهذا يترجح كلام ابن عبد السلام.

والحاصل أن الذي يتجه ترجيحه في ذلك أنه متى كان المصاحب لقصد العبادة رياء مباحا لم يقتض إسقاط ثوابــــها من أصله، بل يثاب على مقدار قصده العبادة وإن ضعف أو محرما اقتضى سقوطه من أصله كما دلت عليه الأحاديث الكثيرة السابقة، وقوله تعالى: {**فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره**} قد لا يعكر على ذلك لأن تقصيره بقصده المحرم أوجب سقوط الأجر فلم يبق له ذرة من خير فلم تشمله الآية(١).

مهمة في عدم تأثير الرياء الوارد بعد تمام الأعمال غالبا

اعلم أن العبد إذا عقد عبادته على الإخلاص ثم ورد عليه وارد الرياء فإن كان بعد تمام العمل لم يؤثر فيه لأنه تم على الإخلاص فلا ينعطف عليه أثر ما طرأ إن لم يتكلف إظهاره والتحدث به، فإن تكلف ذلك قصدا للرياء قال الغزالي: فهذا مخوف، وفي الآثار والأخبار ما يدل على أنه يحبط العمل وساق ذلك ثم استبعد أن يكون ذلك الطارئ مبطلا لثواب

---

[١] الزواجر عن اقتراف الكبائر، ج١، ص٤٠-٤١.

العمل. قال: بل الأقيس أنه مثاب في عمله الذي انقضى ويعاقب على مرآته بطاعة الله ولو بعد فراغه منها بخلاف ما لو تغير عقده إلى الرياء في أثنائها فإنه يحبطها بل يفسدها إن تمحض قصد الرياء، فإن لم يتمحض لكنه غلب حتى انغمر(١) قصد القربة فيه فهذا يتردد في إفساده للعبادة، وميل الحارث المحاسبي إلى إفساده، والأحسن عندنا أن هذا القدر إذا لم يظهر أثره في العمل بل بقي العمل صادرا عن باعث الدين وإنما انضاف إليه سرور باطلاع فلا يفسد عمله لبقاء أصل النية الباعثة عليه والحاملة على إتمامه، بخلاف ما لو عرض له ما لولا الناس لقطع صلاته مثلا فإنه يفسدها فيعيدها إن كانت فرضا. (٢).

وقال العلامة المحدث بن علان الصديقي في شرح الأذكار: إن طرأ الرياء في عمل عقده لله خالصا فإن دفعه حالا لم يضر إجماعا، وإلا فرجح أحمد وجماعة من السلف إثابته عملا بنيته الأولى، ومحله إن كان العمل مرتبطا آخره بأوله كالصلاة وإلا كالقراءة فلا ثواب بعد الرياء .

أما إذا صاحبه غير محرّم كأن حج بقصد الحج والتجارة فنقل عن ابن عبد السلام منع الثواب مطلقا، وعن الغزالي اعتبار الباعث فإن غلب باعث الدنيا أو تساويا فلا ثواب، وقول الشافعي وأصحابه: من حج بنية التجارة كان ثوابه دون ثواب المتخلي عنها يقتضي ثوابه على القصد الديني وإن قلّ، ويؤيده قوله: فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره، وكلام الإحياء في مواضع، وكذا كلام غيره يتبين منه صحة ذلك (٣)اهـ.

فائدة في إطلاق الرياء على أمر مباح

قال ابن حجر الهيتمي في "الزواجر ": وقد يطلق الرياء على أمر مباح وهو طلب نحو الجاه والتوقير بغير عبادة كأن يقصد بزينة لباسه الثناء عليه بالنظافة والجمالة ونحو ذلك، وقس على ذلك ما أشبهه من كل تجمل وتزين وتكرم لأجل الناس كالإنفاق على الأغنياء لا في معرض العبادة والصدقة بل ليقال: إنه سخي، ووجه عدم حرمة هذا النوع أنه ليس فيه ما مر في المحرم من التلبيس بالدين والاستهزاء برب العالمين، وقد كان صلى الله عليه وسلم إذا أراد الخروج سوّى عمامته وشعره ونظر وجهه في المرآة، فقالت عائشة رضي الله

---

[١] حتى انغمر: أي غطّاه.

[٢] الزواجر عن اقتراف الكبائر، ج١، ص٤١.

[٣] الفتوحات الربانية شرح الأذكار النووية، ج١ص٦٢

عنها: أو تفعل ذلك يارسول الله، فقال: نعم، إن الله يحب من العبد أن يتزين لإخوانه إذا خرج إليهم، نعم هذا منه صلى الله عليه وسلم عبادة متأكدة لأنه مأمور بدعوة الخلق واستمالة قلوبــــهم ما أمكنه، إذ لو سقط من أعينهم لأعرضوا عنه، فلزمه أن يظهر لهم محاسن أحواله لئلا يزدروه فيعرضوا عنه لامتداد أعين عامة الخلق إلى الظواهر دون السرائر، فهذا قصده صلى الله عليه وسلم وفيه قربة أي قربة، ويجري ذلك في العلماء ونحوهم إذا قصدوا بتحسين هيآتِهم نحو ذلك(١) .

فائدة أخرى

قال الهيتمي: ليس كل شوب من الرياء مفسدا للعمل ومحبطا له، بل السرور إما محمود بأن يشهد أن الله أطلعهم عليه إظهارا لجميع أحواله ولطفه به فإنه في نفسه يستر طاعته ومعصيته ثم إن الله تعالى يستر معصيته ويظهر طاعته، ولا لطف أعظم من ستر القبيح وإظهار الجميل فيكون فرحه بجميل نظر الله له ولطفه به لا بحمد الناس وقيام المَنزلة في قلوبــــهم، قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا، أو يشهد أنه لما ستر قبيحه وأظهر جميله في الدنيا فكذلك يفعل معه في الآخرة لخبر ما ستر الله على عبد ذنبا في الدنيا إلا ستره عليه في الآخرة، أو بأن يظن رغبة المطلعين على الاقتداء به في الطاعة فيتضاعف بذلك أجره فيكون له أجر العلانية بما ظهر آخرا وأجر السر بما قصده أوّلاً إذ من أُقْتُدِي به في طاعة له مثل أجر المقتدين به من غير أن ينقص من أجورهم شيء، وتوقع ذلك جدير بأن ينشأ عنه السرور، فإن ظهور مخايل الربح لذيذ يوجب السرور لا محالة، أو بأن يفرح بكونه تعالى وفقه إلى سبب يحمدونه عليه ويحبونه لأجله ولم يجعلهم كجماعة آخرين مذنبين يهزءون بالمطيعين ويؤذونـــهم، وعلامة هذا الفرح أن يكون فرحه بحمدهم غيره كفرحه بحمدهم له(٢) .

وقوله: وسمعة: اعلم أنه ورد في ذم السمعة ما يرتدع به أولو الألباب ولا يستهين به من يرجو الثواب ويخشى العقاب، فمن ذلك ما رواه جندب بن عبد الله رضي الله عنه قال:

---

[١] الزواجر ج١ص٤٠.

[٢] الزواجر ج١ص٤٣-٤٤.

قال النبي صلى الله عليه وسلم: من سمّع سمّع الله به، ومن يراء يراء الله به، رواه البخاري ومسلم.

وعن أبي هند الداري أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: من قام مقام رياء وسمعة رايا الله به يوم القيامة وسمّع، رواه أحمد بإسناد جيد والبيهقي والطبراني ولفظه: أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: من رايا بالله لغير الله فقد برئ من الله .

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: من سمّع الناس بعمله سمّع الله به سامع خلقه(١) وصغّره وحقّره، رواه الطبراني في الكبير بأسانيد أحدها صحيح، والبيهقي.

وعن عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: من قام مقام رياء رايا الله به، ومن قام مقام سمعة سمّع الله به، رواه الطبراني بإسناد حسن.

وعن معاذ بن جبل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ما من عبد يقوم في الدنيا مقام سمعة ورياء إلا سمّع الله به على رؤوس الخلائق يوم القيامة، رواه الطبراني بإسناد حسن.

وفي (مشكاة المصابيح): عن أبي تميمة قال: شهدت صفوان وأصحابه وجندب يوصيهم، فقالوا: هل سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا؟ قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: من سمّع سمّع الله به يوم القيامة، ومن شآقّ شقّ الله عليه يوم القيامة، رواه البخاري(٢) .

---

[١] الذي في مشكاة المصابيح: أسامع خلقه، قال الطيبي في (الكاشف شرح مشكاة المصابيح): ويروى سامعُ خلقه مرفوعا، فيكون السامع من نعت الله تعالى، يريد سمّع الله الذي هو سامع خلقه، يعني يفضحه الله اهـ .

وفي القاموس وشرحه تاج العروس: يكون السمع للواحد والجمع كقوله تعالى: {**ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم**} وجمعه أسماع، وجمع القلة أسمُع، وجمع الجمع أي جمع الأسمُع: أسامع، ومنه الحديث: من سمّع الناس بعمله سمّع الله به أسامع خلقه وحقّره وصغّره، يريد أن الله تعالى يُسَمِّع أسماع خلقه بهذا الرجل يوم القيامة، ويحتمل أن يكون أراد أن الله يظهر للناس سريرته ويملأ أسماعهم بما ينطوي عليه من خبث السرائر جزاء لعمله، ويروى سامعُ خلقه برفع العين فيكون صفة من الله تعالى، المعنى: فضحه الله تعالى اهـ

[٢] مشكاة المصابيح في باب الرياء والسمعة في الفصل الثالث .

وَلاْ تَكْتَرِثْ بِالذَّمِ وَالسَّبِّ وَاطْلُبَنْ مَرَاتِبَ عِزٍّ كُلَّ وَقْتٍ بِــهِمَّةِ

أي لا تكترث ولا تبال بذم الناس وسبهم إياك وازدرائهم عليك، فإن ذلك يؤدي إلى التشويش وانكسار الخاطر وضعف الهمة، واطلب كل وقت بـــهمة عالية وعزيمة قوية مراتب العز والشرف من العلم والعمل به.

الهمة العالية أساس التقدم والنجاح

اعلم أن الهمة العالية هي من أشرف خصال المرء ومن أعظم نعم الله على عباده، وقد كان صلى الله عليه وسلم أعظم الخلق همة، وقد قيل: أحسن بيت مدح به رسول الله صلى الله عليه وسلم قول حسان بن ثابت:

له همم لامنتهى لكبارها وهمته الصغرى أجل من الدهر (١)

وقال أبو سعيد البوصيري في البردة:

كالزهر في ترف والبدر في شرف والبحر في كرم والدهر في همم

قال ابن حجر الهيتمي في شرحه على البردة: أي كل همة من هممه صلى الله عليه وسلم كهمم أهل الدهر، بل هي أعلى وأجل اهـــ .

وكما يطير الطير بجناحيه كذلك ينهض الإنسان بِهمته، وينال بـــها إلى مقصوده وتحقيق مراده، وبلوغ أغراضه، فهي سُلَّمُ المأمول، والطريق الوحيد إلى وصول المطلوب، وبقدر الهمة يكون النجاح، وأحسن القائل:

فكن رجلا رجله في الثرى وهامة همته في الثريا

وفي قصيدتي التائية:

وبالهمة العلياء والعزم تقطع الـــ ـــمفاوز فاطلب كل خير بقوة

وفي الإنسان طاقة عظيمة في ذهنه وفكره، وقدرة عجيبة خلقها الله تعالى فيه يتمكن بـــها إذا استخدمها الوصول إلى أعلى المناصب وأرفع المراتب، وينال بـــها المقاصد والمآرب، فالإنسان في حاجة ماسة إلى تحريك همته الراكدة، وتنبيه عزيمته الراقدة، وليس بينه وبين مطالبه إلا استعمال هذه القوة الكامنة، والغريزة الغالية، وقد كانت لكثير من العلماء هِمَمٌ

---

[١] وبعد هذا البيت:

له راحة لو أن معشار عشرها على البر كان البر أندى من البحر

العمدة شرح البردة لابن حجر الهيتمي .

عجيبة وعزائم قوية يرتكبون بـــها أصعب المشقات ويصعدون بـــها الشواهق الراسيات، ويقطعون بـــها المفاوز والفلوات، فكان منهم من استغرق ساعات عمره في تعلم العلوم وجمعها، ومنهم من يصوم نـــهاره ويسهر بالركوع والسجود وأنواع العبادات، ولا ينام ليله فيصلي بوضوء العشاء صلاة الفجر عدة سنوات، وقد كان الإمام أبوحنيفة رحمه الله يصلي الفجر بوضوء العشاء أربعين سنة، وفي رواية خمسين سنة، وصلى سعيد بن المسيب الغداة بوضوء العشاء خمسين سنة، وقال الحافظ ابن الجوزي: صلى وهب بن منبه وطاووس بن كيسان الغداة بوضوء العشاء أربعين سنة، وكان صفوان بن سليم لم يضع جنبه على فراش منذ أربعين سنة، وقال الإمام يحيى بن معين: إن أبابكر بن عياش لم يفرش له فراش خمسين سنة، وذكر كثير من علماء السير والتواريخ أن السري بن مغَلِّس السَّقَطِيّ أتت عليه ثمانية وسبعون سنة لم يُرَ فيها مضطجعا إلا في علة الموت(١).

وقال الإمام النووي: إن أبابكر النيسابوري بقي أربعين سنة لم ينم الليل يصلي الصبح بطهارة العشاء.

وفي (الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية) أن الشيخ عبد القادر الجيلاني كان يصلي الصبح بوضوء العشاء أربعين سنة.

وفي (مكاشفة القلوب) أن حبشي بن داود صلى الغداة أربعين سنة على طهر العشاء، وكان بشر الحافي ويزيد الرقاشي ومالك بن دينار وسفيان الثوري وإبراهيم بن أدهم يقومون الليل كله على الدوام إلى أن ماتو رحمهم الله .

وكان قوم من الصالحين يصلون كل ليلة ألف ركعة، منهم زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وبلال بن سعد التابعي، وعلي بن عبد الله بن عباس، وقال الذهبي: كان له خمسمائة شجرة يصلي عند كل شجرة ركعتين، وذلك كل يوم، وكهمس بن الحسن، ومرة بن شراحيل الهَمْدَاني.

---

[١] هذا ما ذكره الحافظ ابن الجوزي في صفة الصفوة، والذي ذكره ابن كثير في البداية والنهاية والإمام القشيري في الرسالة والحافظ الذهبي في سير أعلام النبلاء وابن عماد الحنبلي في شذرات الذهب وغيرهم أن السري بن مغلّس السَقَطِيّ أتت عليه ثمان وتسعون سنة ما رؤي مضطجعا إلا في علة الموت!!. ذكرت ذلك كله وما فيه من الإشكال في إقناع المؤمنين بتبرك الصالحين. فليراجع.

وكان من العلماء من يكرر درسه ويعيده كثيرا من المرات، وكان الشيخ أبو إسحق الشيرازي رحمه الله يقول: كنت أعيد كل قياس ألف مرة، فإذا فرغت منه أخذت قياسا آخر، وكنت أعيد كل درس ألف مرة، فإذا كان في المسئلة بيت يستشهد حفظت القصيدة. ولقد كان اشتغاله أول طلبه أمرا عجابا وعملا دائما، يقول من شاهده عجبا لهذا القلب والكبد كيف ما ذابا .

ومنهم من له كل يوم دروس كثيرة تزيد على عشرة من الفنون المختلفة، ومنهم من انقطع لنصح المسلمين وأمرِهم بالمعروف والنهي عن المنكر، ومنهم من يعتني غير ذلك من المهمات المختلفة التي لا بد منها في السعادة الأخروية والدنيوية.

فلا بد لطالب العلم إذا كان عاقلا مخلصا من اقتحام العقبات، وارتكاب المشقات، واحتمال الصعوبات، اقتداء بـــهولاء السادة المذكورين وبأمثالهم، لينال بذلك ما نالوا من الدرجات العلية والمراتب الهنية، وقال الله سبحانه وتعالى لحبيبه صلى الله عليه وسلم: {**فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل**} وقال تعالى: {**يا يحيى خذ الكتاب بقوة**} فإذا صبر الطالب على شدائد التعلم وسلك مسالك الصالحين من السلف والخلف يلتحق بـــهم ويفوز كما فازوا إن شاء الله، والله الموفق.

وقال ابن الجوزي في كتابه (صيد الخاطر): اعلم أن الفضائل لا تنال بالهوينا، وأن يسير التفريط يشين وجه المحاسن، فالبدار البدار، وانـــهض بعزيمة عازم، وارفض في هذه العزيمة الدنيا وأربابـــها، فبارك الله لأهل الدنيا في دنياهم، فنحن الأغنياء وهم الفقراء، كما قال إبراهيم بن أدهم: ولو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف.

فأبناء الدنيا أحدهم لا يكاد يأكل لقمة إلا حراما أو شبهه، وإن جمعوا مالا فمن وجوه لا تصلح، ثم كل منهم خائف أن يقتل أو يعزل أو يشتم، ونحن نأكل ما ظاهر الشرع يشهد له بالإباحة، ولا نخاف من عدو، ولا ولايتنا تقبل العزل، والعز في الدنيا لنا لا لهم، وإقبال الخلق علينا وتقبيل أيدينا وتعظيمنا عندهم كثير، وفي الآخرة بيننا وبينهم تفاوت إن شاء الله تعالى(١) اهـــ .

[1] صيد الخاطر، في فصل تكاليف المجد ص٣٩٠-٣٩١.

وقال في موضع آخر: من علامة كمال العقل علو الهمة، والراضي بالدون دني. وفي هذا قال الشاعر:

إذا ما علا المرء رام العلا ويقنع بالدون من كان دونا

وقال آخر:

ومن تكن العلياء همة نفسه فكل الذي يلقاه فيها محبب

وقال أيضا في (صيد الخاطر): ما ابتلى الإنسان قط بأعظم من علو همته، فإن من علت همته يختار المعالي، وربما لا يساعد الزمان، وقد تضعف الآلة فيبقى في عذاب، وإني أعطيت من علو الهمة طرفا فأنا به في عذاب، ولا أقول: ليته لم يكن، فإنه إنما يحلو العيش بقدر عدم العقل، والعاقل لا يختار زيادة اللذة بنقصان العقل.

وقال أيضا في (صيد الخاطر): ومن رزق همة عالية يعذّب بمقدار علوها كما قال الشاعر:

وإذا كانت النفوس كبارا تعبت في مرادها الأجسام

وبيان هذا أن من علت همته طلب العلوم كلها و لم يقتصر على بعضها، وطَلَبَ من كل علم نــهايته، وهذا لا يحتمله البدن، ثم يرى أن المراد العملُ فيجتهد في قيام الليل وصيام النهار، والجمعُ بين ذلك وبين العلم صعب، ثم يرى ترك الدنيا ويحتاج إلى ما لا بد منه، ويحب الإيثار ولا يقدر على البخل، ويتقاضاه الكرم والبذل، ويمنعه عز النفس عن الكسب من وجوه التبذل، فإن هو جرى على طبعه من الكرم احتاج وافتقر وتأثر بَدَنُه وعائلته، وإن أمسك فطبعه يأبى ذلك، وفي الجملة يحتاج إلى معاناة و جمع بين أضداد، فهو أبدا في نصب لا ينقضي، وتعب لا يفرغ، ثم إذا حقق الإخلاص في الأعمال زاد تعبه وقوي وصبه، فأين هو ومن دنت همته؟ إن كان فقيها فسئل عن حديث قال: ما أعرفه، وإن كان محدثا فسئل عن مسلة فقهية قال: ما أدري، ولا يبالي إن قيل عنه مقصر!، والعالي الهمة يرى التقصير في بعض العلوم فضيحة، قد كشفت عيبه، وقد رأت الناس عورتــه، والقصير الهمة لا يبالي بمنن الناس ولا يستقبح سؤالهم ولا يأنف من رد، والعالي الهمة لا يحمل ذلك، ولكن تعب عالي الهمة راحة في المعنى، وراحة قصير الهمة تعب وشين

إن كان ثَمَّ فهم، والدنيا دار سباق إلى أعالي المعالي، فينبغي لذي الهمة أن لا يقصر في شوطه، فإن سَبَقَ فهو المقصود، وإن كبا جواده مع اجتهاده لم يُلَم(١).

وقال أيضا في (صيد الخاطر): خُلقت لي همة عالية تطلب الغايات، بلغتُ السنّ وما بلغت ما أملْتُ، فأخذت أسأل الله تطويل العمر(٢)، وتقويةَ البدنِ وبلوغ الآمال، فأنكرت عليّ العاداتُ وقالت: ما جرت عادة بما تطلب، فقلت: إنما أطلب من قادر على تجاوز العادات.

وقد قيل لرجل: لنا حُوَيجة، فقال: اطلبوا لها رجُيلا (٣).

وقال أيضا: نظرت إلى علو همتي فرأيتها عجبا!! وذلك أنني أروم من العلم ما أتيقن أني لا أصِل إليه، لأنني أحب نيل كل العلوم على اختلاف فنونـــها، وأريد استقصاء كل فن، وهذا أمر يعجز العمر عن بعضه، فإن عرض لي ذو همة في فن قد بلغ منتهاه رأيته ناقصا في غيره، فلا أعدّ همته تامة، مثل المحدث فاته الفقه، والفقيه فاته علم الحديث، فلا أرى الرضا بنقصان من العلوم إلا حادثا عن نقص الهمة!! .

ثم إني أروم نـــهاية العمل بالعلم، فأتوق إلى ورع بِشر الحافي، وزهد معروف الكرخي، وهذا مع مطالعة التصانيف وإفادة الخلق ومعاشرتـــهم بَعِيْدٌ!! .

ثم إني أروم الغنى عن الخلق وأستشرف الإفضال عليهم، والاشتغالُ بالعلم مانع من الكسب، وقبولُ المنن مما تأباه الهمة العالية .

ثم أني أتوق إلى طلب الأولاد، كما أتوق إلى تحقيق التصانيف، ليبقي الخلفان نائبين عني بعد التلف، وفي طلب ذلك ما فيه من شغل القلب المحب للتفرد .

ثم إني أروم الاستمتاع بالمستحسنات، وفي ذلك امتناع من جهة قلة المال، ثم لو حصل فَرَّقَ جمعَ الهمة!! ، وكذلك أطلب لبدني ما يصلحه من المطاعم والمشارب، فإنه متعود بالترفه واللطف، وفي قلة المال مانع، وكل ذلك جمع بين أضداد !!.

وقال أيضا: لقد رأيت أقواما يصفون علو هممهم، فتأملتها فإذا بـــها في فن واحد، ولا يبالون بالنقص فيما هو أهمّ، قال الرضي:

---

[١] صيد الخاطر في فصل علو الهمة، ص٤٠٠-٤٠١

[٢] وقد عاش ٨٩سنة

[٣] صيد الخاطر، في فصل قوة الهمة ص٢٢٩.

ولكل جسم في النحول بلية وبلاء جسمي من تفاوت همتي

فنظرت فإذا غاية أمله الإمارة !.

وكان أبو مسلم الخراساني في حال شبيبته لا يكاد ينام، فقيل له في ذلك، فقال: ذهن صاف، وهَمٌّ بعيد، ونفس تتوق إلى معالي الأمور، مع عيش كعيش الهمج الرعاع!

قيل: فما الذي يبرد غليلك ؟ قال: الظفر بالملك، قيل: فاطلبه، قال: لا يطلب إلا بالأهوال! قيل: فاركب الأهوال، قال: العقل مانع ! قيل: فما تصنع؟ قال: سأجعل من عقلي جهلا، وأحاول به خطرا لا يُنَال إلا بالجهل! وأدبّر بالعقل ما لا يحفظ إلا به فإن الخمول أخ العدم.

فنظرت إلى حال هذا المسكين، فإذا هو قد ضيع أهم المهمات، وهو جانب الآخرة، وانتصب في طلب الولايات، فكم فتك وقتل؟!! حتى نال بعض مراده من لذات الدنيا، ثم لم يتنعم في ذلك غير ثمان سنين! ثم اغتيل ونَسِيَ تدبير العقل! فقتل ومضى إلى الآخرة على أقبح حال!!.

ثم قال ابن الجوزي أين أنا وما وصفته من حال من كانت غاية همته الدنيا ؟ وأنا لا أحب أن يَخْدِشَ حصولُ شيء من الدنيا وجهَ ديني بسبب، ولا أن يُؤَثِّرَ في علمي ولا في عملي.

فوا قلقي من طلب قيام الليل، وتحقيق الورع مع إعادة العلم، وشغل القلب بالتصانيف، وتحصيل ما يلائم البدن من المطاعم!!

ووا أسفي على ما يفوتني من المناجاة في الخلوة مع ملاقاة الناس وتعليمهم، ويا كدر الورع مع طلب ما لا بد منه للعائلة!!

غير أني قد استسلمت لتعذيبي، ولعل تَهذيبي في تعذيبي؛ لأن علو الهمة تطلب المعالي المقربة إلى الحق عز وجل. وها أنا أحفظ أنفاسي من أن يضيع منها نَفَسٌ في غير فائدة، فإن بلغ همي مراده...، وإلا فَنِيَّةُ المؤمن أبلغ من عمله(١) اهـ.

وقال أيضا في (صيد الخاطر): واللذات كلها حاصلة بين حِسّي وعقلي، فنهاية اللذات الحسية وأعلاها: النكاح، وغاية اللذات العقلية: العلم، فمن حصلت له الغايتان في الدنيا فقد نال النهاية. وأنا أُرْشِدُ الطالب إلى أعلى المطلوبين، غير أن للطالب المرزوق علامة،

---

[١] صيد الخاطر، في فصل تفاوت الهمم والأمل، ص٢١٨-٢٢٠

وهو أن يكون مرزوقا علو الهمة، وهذه الهمة تُولَد مع الطفل، فتراه في زمن طفولته يطلب معالي الأمور، كما يروى في الحديث أنه كان لعبد المطلب مفرش في الحجر- بجوار الكعبة المعظمة-، فكان النبي صلى الله عليه وسلم ياتى وهو طفل فيجلس عليه، فيقول عبد المطلب: إن لابنى هذا شأنا.

فإن قال قائل: فإذا كانت لى همة، و لم أرزق ما أطلب فما الحلية؟ فالجواب أنه إذا امتنع الرزق من نوع لم يمتنع من نوع آخر.

ثم من البعيد أن يَرزُقك همةً ولا يُعِيْنُكَ، فانظر في حالك، فلعله أعطاك شيئا ما شكرتَه!

أو ابتلاك بشيء من الهوى ما صبرت عنه!

واعلم أنه ربما زوى عنك من لذات الدنيا كثيرا، ليؤثرك بلذات العلم، فإنك ضعيف ربما لا تقوى على الجمع، فهو أعلم بما يصلحك .

وأما ما أردت شرحه لك، فإن الشاب المبتديءَ طَلَبَ العلمِ ينبغي له أن يأخذ من كل علم طرفا ويجعل علم الفقه الأهمّ، ولا يقصر في معرفة النقل أي المنقولات من الأحاديث والسير والأخبار، فبه يتبيّن سير الكاملين، وإذا رُزِقَ فصاحة من حيث الوضع يعني اللغة والنطق، ثم أضيف إليها معرفة اللغة والنحو، فقد شُحِذَتْ شَفْرَةُ لِسانه عَلى أجْوَدِ مِسَنٍّ. ومتى أدى العلمُ لمعرفة الحق وخدمةِ الله عز وجل فُتِحَت له أبوابٌ لا تفتح لغيره(١) اهـــ.

ولله در القائل:

سبقت العالمين إلى المعالي بصائب فكرة وعلو همه
ولاح بحكمتي نور الهدى في ليال للضلالة مدلهمه
يريد الجاهلون ليطفئوه ويأبى الله إلا أن يتمه (٢)

وعن الشافعي: ما أفلح سمين قط إلا أن يكون محمد بن الحسن، قيل: ولم؟ قال: لأن العاقل لا يعدو من إحدى خلتين، إما يغتم لآخرته أو لدنياه، والشحم مع الغم لا ينعقد(٣).

---

[١] صيد الخاطر، في فصل جوانب الفضل، ص١٦٥.

[٢] علو الهمة ص٣٢.

[٣] سير أعلام النبلاء ج١٠ص٨٩.

وصاحب الهمة العالية لا يستريح ولا يكسل، وليس لنَفْسِهِ هدوء واطمئنان، بل هو في سير حثيث، ونصب شديد؛ لطموحه إلى الترقي والسموّ، فهو مغتم مجهود؛ لرغبته فيما هو أشرف وأرفع مما ناله من منصب أومال أوعلم، وإن كان ما ناله بذاته رفيعا مرموقا يقتنع به كثير من الناس. فيا طالب العلم سُلّ سيف العزم عن الغِمْدِ، واضرب بِها رأس الكسل والعجز، واطعن برمح الرجولية جثمان التواني والبطء، وأرخ عنان جواد الهمة والعزم، وسِر إلى الأمام كى تلحق مواكب ذوي الهمم العالية، وقوافل راغبي المراتب السامية، والله المستعان، وبيده التوفيق.

وَلاْ تَفْرَحَنْ فِيْ مَدْحِهِمْ وَثَنَائِهِمْ فَذَلِكَ أَصْلٌ لِلْغُرُوْرِ وَخِسّةِ

أي لا تفرح بمدحهم وثنائهم عليك، فإن ذلك يؤدي في الغالب إلى الغرور والزّهو والعجب والانخداع بأقوالهم، قال الإمام النووي في مقدمة التلخيص شرح الجامع الصحيح للبخاري: قال الإمام البخاري: المادح والذام عندي سواء .

وفي (سير أعلام النبلاء) قال يونس بن عبد الأعلى: قال لي الشافعي: رضى الناس غاية لا تدرك، وليس إلى السلامة منهم سبيل، فعليك بما ينفعك فالزمه(١).

[1] سير أعلام النبلاء ج١٠ص٨٩.

فصل في التحذير من اتباع الهوى

تعريف الهوى

قال ابن الجوزي في كتابه (ذم الهوى): الهوى هو ميل الطبع إلى ما يلائمه(١). وقال بعضهم: ميلان النفس إلى ما تستلذه من الشهوات من غير داعية الشرع(٢).

وقال ابن حجر الهيتمي في (العمده في شرح البرده): الهوى بالقصر لغة: الميلان إلى الشيء، وعرفا: ميلان النفس إلى ما يترتب عليه ذم في العاجل، وعقاب في الآجل اهـ.

وقال ابن حجر الهيتمي في (الفتح المبين بشرح الأربعين): المعروف في استعمال الهوى عند الاطلاق أنه الميل إلى خلاف الحق، ومنه: {**ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله**} {**وأما من خاف مقام ربه ونَهى النفس عن الهوى**}. وقد يطلق بمعنى مطلق الميل والمحبة، فيشمل الميل للحق وغيره، وبمعنى محبة الحق خاصة والانقياد إليه، ومنه حديث: لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به وقول عائشة رضي الله عنها لما نزل قوله تعالى: {**ترجئ من تشاء منهن وتؤوي إليك من تشاء**} للنبي صلى الله عليه وسلم: ما أرى ربك إلا يسارع في هواك. وقول عمر رضي الله عنه في قصة المشاورة في أسارى بدر: فَهَوِي رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال أبوبكر، ولم يَهْوَ ما قلت(٣) اهـ.

وَإِيَّاْكَ طَوْعَ النَّفْسِ فِيْمَا تُرِيْدُهُ   وَلاْ تَتَّفِقْ مَعْهَا بِصُلْحٍ وُهُدْنَةِ

أي احذر أن تطيع نفسك فيما تريده من اتباع هواها وشهواتها، ولا تقبل منها الصلح والهدنة والتنزل لها في بعض مطالبها، فإنها هي العدو الملازم، فقد قال تعالى: {**ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه**}

---

[١] ذم الهوى لابن الجوزي ص٣٥.

[٢] ذم الهوى لابن الجوزي ص٣٨.

[٣] قال الهيتمي: قوله صلى الله عليه وسلم: تبعا لما جئت به أي من هذه الشريعة المطهرة الكاملة، بأن يميل قلبه وطبعه إليه كميله لمحبوباته الدنيوية التي جبل على الميل إليها من غير مجاهدة وتَصبِّر واحتمال مشقة، أو بعض كراهة مَّا، بل يهواها كما يهوى المحبوبات المشتهيات؛ إذ من أحب شيئا أتْبَعه هواه، ومال عن غيره إليه، ومن ثم آثر صلى الله عليه وسلم التعبير بذلك على نحو حتى يأتمر بكل ما جئت به؛ لأن المأمور بالشيء قد يفعله اضطرارا. ثم قال الهيتمي: واعلم أن الهوى يميل بالإنسان بطبعه إلى مقتضاه، ولا يقدر على جعله تبعا لما جاء به صلى الله عليه وسلم إلا كل ضامر مهزول. الفتح المبين، شرح حديث الحادي والأربعين.

وروى البيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك .

وقال الإمام البوصيري رحمه الله في قصيدته البردة:

وخالف النفس والشيطان واعصهما   وإن هما محضاك النصح فاتـــهم

ولا تطع منهما خصما ولا حكما   فأنت تعرف كيد الخصم والحكم

وقال ابن الجوزي في (ذم الهوى): قال الأصمعي: سمعت أعرابيا يقول: إذا أشكل عليك أمران لا تدري أيهما أرشد فخالف أقربــــهما إلى هواك، فإنّ أكثر ما يكون الخطأ مع متابعة الهوى(١).

وَلاْتَرْضَ لاْتَأْمَنْ بِــهَاْ إِنّ كَيْدَهَاْ عَظِيْمٌ يَزِيْدُ كَيْدَ شَرِّ اَلْبَرِيَّةِ

وَأَمَّاْرَةٌ بِاَلْسُوْءِ وَاَلْشَرِّ دَاْئِماً فَحَاْذِرْ كَمَاْ تَخْشَىْ أَخِيْ فَتْكَ لَبْوَةِ (٢)

أي لا ترض عن نفسك ولا تأمنها فإنـــها غدارة أشد شرا من الشيطان الرجيم، قال العلامة البيجوري في (تحفة المريد على جوهرة التوحيد): النفس أشد من الشيطان في الكيد ولذلك قال بعضهم:

توق نفسك لا تأمن غوائلها   فالنفس أخبث من سبعين شيطانا

---

[١] ذم الهوى لابن الجوزي ص٤٨.

[٢] قوله: "فَتْكَ" من فتك يفتُك ويفتِك، وفتك به انتهز منه فرصة فقتله، وفي المختار: الفتك بفتح الفـــاء وضـــمها وكسرها: القتل على غرة، وقد فتك به يفتُك ويفتِك بالضم والكسر، وفي الحديث: "قيّد الإيمانُ الفتكَ لا يفتـــك مؤمن". وقوله: "اللبوة" في القاموس وشرحه: اللَّبْأَةُ كتمرة: الأسدة أي الأنثى من الأسد، واللَّبْوَةُ بالواو مع سكون الباء وفتح اللام قال اليزيدي في "نوادره": هي لغة أهل الحجاز، ونقله أبوجعفر في شرح الفصيح، ونقلها الجوهري عن السكيت، ويكسر فيقال: لِبوة غير مهموز، قال أبوجعفر: حكاها يونس في نوادره وهي كلمة قليلة اهـــ وقال ابن منظور في اللسان: اللبؤة الأنثى من الأسد، والجمع لُبُؤٌ، واللَّبوة ساكنة الباء غير مهموزة لغة فيها، واللبؤ الأسد اهـــ.

وذكر الإمام السيوطي في كتابه الكَنْز المدفون والفلك المشحون ص٣٢١ أن للأسد أسماء وهي: الأســـد، الســـبع، الدلهمس، هرثمة، الشجعم، الشدقم، الصم، الهواس، الخابس، الهصور، والضيغم، حيدرة، الغضنفر، قسورة، الليث، الكلب، الوثاب، الضرغام، الوردل، السميدع، الهزبر، الحفص، العنبس، وريبال، الهرماس، الفرائص، أسامه، ساعدة اهـــ.

وقال ابن عجيبة: فرّق الجنيد بين هواجس النفس ووسواس الشيطان(١) بأن ما دعت إليه النفس لا تنتقل عنه بل تعاوده مرة بعد مرة إلا بعد مجاهدة كبيرة، ووسواس الشيطان ينتقل عنها، فإذا خالفته في معصية انتقل لأخرى، وربما ذهب بالتعوّذ ونحوه، ولذلك كانت النفس أخبث من سبعين شيطانا (٢)اهـــ .

وقال ابن عطاء الله السكندري في الحكمة الخامسة والثلاثين من كتابه (الحكم): أصل كل معصية وغفلة وشهوة الرضا عن النفس، وأصل كل طاعة ويقظة وعفة عدم الرضا منك عنها، ولأن تصحب جاهلا لا يرضى عن نفسه خير لك من أن تصحب عالما يرضى عن نفسه، فأي علم لعالم يرضى عن نفسه؟ وأي جهل لجاهل لا يرضى عن نفسه اهـــ.

وهي أمارة بالسوء فاحذر منها كما تخشى من سطوة الأسد وبطشه، قال الله تعالى: {**إن النفس لأمارة بالسوء**}.

وَخَالِفْ هَوَاهَا وَاقْمَعَنْ شَهَوَاتِهَا وَخُذْهَا بِقَهْرٍ وَانْقِلاْبٍ بِعَنْوَةِ

أي خالف هوى نفسك واقمعها عن التمادي في اتباع شهواتـــها، وخذها بقهر وانقلاب بقوة كانقلاب أهل الثورة على الدول، قال سليمان بن داود: الغالب لهواه أشد من الذي يفتح المدينة وحده.

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ليس الشديد من غلب الناس ولكن الشديد من غلب نفسه(٣).

[1] فائدة: قال ابن عجيبة: الخواطر خطابات ترد على القلوب تكون بإلقاء ملك، أو شيطان، أو حديث نفس، فإن كان من الملك فإنـــها إلهام، أو من الشيطان فوسواس، أو من النفس فهواجس، فما وافق الحق ودعا إليه فمن الملك، وما وافق الباطل أو دعا إلى معصية غالبا فمن الشيطان، وقد يدعو إلى الطاعة حيث يترتب عليها معصية كالرياء وحب المدح، وما دعا إلى اتباع الشهوة والدعة –أي الراحة– فمن النفس، قال أبوعلي الدقاق: من أكل الحرام لم يفرّق بين الإلهام والوسواس اهـــ.

[2] معراج التشوف إلى حقائق التصوف للشيخ العلامة الصوفي أحمد بن محمد بن عجيبة شارح كتاب الحكم لابن عطاء الله السكندري ص٤٢.

[3] ذم الهوى لابن الجوزي ص٦٢-٦٣.

وقال ابن المبارك في قوله تعالى: {**وجاهدوا في الله حق جهاده**} قال: هو جهاد النفس والهوى(١).

وفي (الجامع الصغير): روى الخطيب عن جابر أنه صلى الله عليه وسلم قال: قدمتم خير مَقْدَم وقدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر مجاهدةِ العبد هواه، ورمز لضعفه(٢).

قال المناوي في (فيض القدير): روى هذا الحديث عن جابر البيهقيُ أيضا في كتاب الزهد.

وقال الشيخ أحمد بن محمد بن الصديق الغماري في (المداوي لعلل الجامع الصغير وشرحي المناوي): هذا الحديث له شواهد كثيرة، يمكن جمعها في جزء مفرد، ولنا عزم على ذلك إن شاء الله تعالى وأعان عليه اهـــ

وعن فضالة بن عبيد قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: المجاهد من جاهد نفسه في الله عز وجل.

وقال رجل للحسن البصري: يا أباسعيد أي الجهاد أفضل؟ قال: جهادك هواك.

وفي (المدابغي) قيل: أوحى الله إلى بعض الصديقين: عاد نفسك فليس في المملكة من ينازعني غيرها (٣).

وقيل ليحيى بن معاذ: من أصحّ الناس عزما؟ قال: الغالب لهواه (٤).

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: إذا أصبح الرجل اجتمع هواه وعمله، فإن كان عمله تبعا لهواه فيومه يوم سوء، وإن كان هواه تبعا لعمله فيومه يوم صالح(٥).

وقال مالك بن دينار: من غلب شهوات الدنيا فذلك الذي يَفرق(٦) الشيطان من ظله.

---

[١] ذم الهوى لابن الجوزي ص٦٤.

[٢] قال السيوطي في الدرر المنتثرة: حديث رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر قالوا: وما الجهاد الأكبر؟ قال: جهاد القلب، قال الحافظ ابن حجر في (تسديد القوس): هو مشهور على الألسنة وهو من كلام إبراهيم بن أبي عبلة اهـــ.

[٣] المدابغي حاشية فتح المبين لشرح الأربعين النووية ص٨٠.

[٤] ذم الهوى لابن الجوزي ص٤٨.

[٥] وفي رواية: إذا أصبح الرجل اجتمع هواه وعمله وعلمه، فإن كان عمله تبعا لهواه فيومه يوم سوء، وإن كان عمله تبعا لعلمه فيومه يوم صالح. اهـــ حاشية بسام محمد بارود على العمده شرح البرده.

[٦] يفرق الشيطان أي يخاف.

وقال بشر بن الحرث الحافي: اعلم أن البلاء كله في هواك، والشفاء كله في مخالفتك إياه(١).

وقال بشر أيضا: لا تجد حلاوة العبادة حتى تجعل بينك وبين الشهوات حائطا من حديد.

وقال علي بن سهل: العقل والهوى يتنازعان، فمعين العقل التوفيق، وقرين الهوى الخذلان، والنفس واقفة بينهما، فأيهما ظفر كانت في حيزه.

وقال آخر: إن لكل شيء أباجاد(٢)، وإن أباجاد الحكمة طرد الهوى ووزن الأعمال(٣).

وقال ابن الجوزي أيضا: اعلم أن الهوى يسري بصاحبه في فنون، ويُخْرِج من دار العقل إلى دائرة الجنون، وقد يكون الهوى في العلم فيخرج بصاحبه إلى ضد ما يأمر به العلم(٤).

العلم(٤).

---

[١] ذم الهوى لابن الجوزي ص٤٦-٤٩.

[٢] أي أول الشيء وبدايته يعني أن لكل شيء بداية، وبداية الحكمة طرد الهوى إلخ، وهي مأخوذة من الأحرف الأبجدية- أبجد هوز إلخ. حيث إن (أبجد) أول الحروف وبدايتها. وفي القاموس: أبجد إلى قرشت ملوك مدين، وكَلَمُنْ رئيسهم، ووضعوا الكتابة العربية على عدد حروف أسمائهم، هلكوا يوم الظلة، فقالت ابنة كَلَمُنْ:

كلمن هدم ركني هلكه وسط المحله
سيد القوم أتاه الـــحتف نارا وسط ظله
جعلت نارا عليهم دارهم كالمضمحله

ثم وجدوا بعدهم ثخذ وضظغ فسموها الروادف اهـــ. وقال أبو عبد الله البجلي: كان أبوجاد وهوّز وحطي وكَلَمُنْ وسعفص وقرشت ملوك مدين وكان ملكهم في يوم الظلة اسمه كَلَمُنْ اهـــ حاشية الجمل على الجلالين في قصة شعيب عليه السلام في سورة الأعراف. وفي المعجم الوسيط: تستعمل الحروف الأبجدية في حساب الجمل على التالي:

ا	ب	ج	د	هـ	و	ز	ح	ط	ي	ك	ل	م	ن	س	ع	ف	ص	ق	ر	ش	ت
١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠	٢٠	٣٠	٤٠	٥٠	٦٠	٧٠	٨٠	٩٠	١٠٠	٢٠٠	٣٠٠	٤٠٠

ث	خ	ذ	ض	ظ	غ
٥٠٠	٦٠٠	٧٠٠	٨٠٠	٩٠٠	١٠٠٠

وفي المعجم الوسيط أيضا: أن المغاربة يخالفون في ترتيب الكلمات التي بعد كَلَمُنْ، فيجعلونـــها صعفض قرشت ثَخَذْ ظَغَشْ اهـــ. وفي كتاب نور الظلام شرح عقيدة العوام في شرح بيت:

أبياتـــها ميز بعد الجمل تاريخها لي حي غر جمل

كلام يتعلق بهذا الموضوع فانظره إن شئت.

[٣] ذم الهوى لابن الجوزي ص٥٦.

[٤] ذم الهوى لابن الجوزي ص٣٨.

وقال صفوان بن سليم: ليأتين على الناس زمان تكون همة أحدهم فيه بطنه، ودينه هواه(١).

وقال الحسن بن علي المطّوّعي: صنم كل إنسان هواه، فإذا كسره بالمخالفة استحق اسم الفُتُوَّة(٢).

وفي الرسالة القشيرية: قال بشر بن الحرث: إذا أعجبك الكلام فاصمت وإذا أعجبك الصمت فتكلم لأن في ذلك مخالفة لهوى النفس.

فَلاْ أَحَدٌ مِمَنْ هَوَاْهُ اتَّبَعْ بِغَيْـــــرِ هَدْيٍ أَضَلُّ فَاَخْشَ هَذِىْ اَلْبَلِيَّةِ

أي فلا أحد أضل ممن اتبع هواه بغير هدي، فليخش طالب العلم من هذا الضلال والبلية، وفي البيب إشارة إلى قوله تعالى: {**ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله**}

وقال عز وجل في ذم اتباع الهوى: {**ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثـــل الكلب**} .

وقال تعالى: {**واتبع هواه وكان أمره فرطا**}.

وقال تعالى: {**أفرأيت من اتخذ إلهه هواه**} . قال الحسن: هو المنافق لا يهوى شـــيئا إلا ركبه .

وقال تعالى: {**بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم فمن يهدي من أضل الله**}.

وقال تعالى: {**ليضلون بأهوائهم بغير علم**}.

وقال تعالى: {**ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله**}.

وقال ابن السماك: إن شئت أخبرتك بدائك وإن شئت أخبرتك بدوائك، داؤك هـــواك، ودواؤك ترك هواك(٣).

---

[١] ذم الهوى لابن الجوزي ص٤٧.

[٢] ذم الهوى، ص٣٩-٥٢.

[٣] ذم الهوى لابن الجوزي ص٤٨.

فَمَنْ خَاْلَفَ اَلْهَوَىْ لأَجْلِ إِلَهِهِ   فَمَأْوَاْهُ يَوْمَ اَلْدِّيْنِ فِيْ وَسْطِ جَنَّةِ

يعني من خالف هواه لأجل الله تعالى فإن الجنة هي مأواه، وقد ورد في فضل مخالفة الهوى آيات وأحاديث وآثار كثيرة ذكرنا بعضها، وقال تعالى: {**وأما من خاف مقام ربه ونَهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى**} قال المفسرون: هو نـــهي النفس عما حرّم الله عليها. وقال مقاتل: هو الرجل يهم بالمعصية فيذكر مقامه للحساب فيتركها.

قال أحمد بن الحواري: سمعت أبا سليمان الداراني في قول الله عز وجل: {**وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا**} قال: صبروا عن الشهوات(١) .

وقال أبوعلي الدقاق: من ملك شهوته في حال شبيبته صَيَّرَه الله مَلِكاً في حال كهولته كيوسف عليه السلام، {**إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين**}(٢).

وعن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لما خلق الله عز وجل الجنة والنار أرسل إلى جبريل يعني إلى الجنة، فقال: انظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها، فجاء فنظر إليها وإلى ما أعد الله عز وجل لأهلها فيها، فرجع إليه فقال: وعزتك لا يسمع بـــها أحد إلا دخلها، فأمر بـــها فحجبت بالمكاره، وقال: ارجع إليها فانظر إليها، فرجع فإذا هي قد حجبت بالمكاره، فقال: لقد خشيت ألا يدخلها أحد، قال: فانظر إلى النار وإلى ما أعددت لأهلها فيها، فجاءها فنظر إليها وإلى ما أعد الله لأهلها فيها، فإذا هي يركب بعضها بعضا، فرجع إليه، فقال: وعزتك لا يسمع بـــها أحد فيدخلها، فأمر بـــها فحفت بالشهوات، وقال له: ارجع إليها فانظر إليها، فإذا هي قد حفت بالشهوات، فرجع إليه، فقال: وعزتك لقد خشيت ألا ينجو منها أحد إلا دخلها. قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح(٣).

وقال حذيفة بن قتادة المرعشي: كنت في المركب فانكسر بنا فوقعت أنا وامرأة على لوح من ألواح المركب فمكثنا سبعة أيام فقالت المرأة: أنا عطشـــى، فســـألت الله تعـــالى أن

---

[١] ذم الهوى لابن الجوزي ص٥٠.

[٢] ذم الهوى لابن الجوزي ص٥٣-٥٦.

[٣] ذم الهوى لابن الجوزي ص٤١.

يسقيها، فنـــزلت علينا من السماء سلسلة فيها كوز معلق فيه ماء فشربت، فرفعت رأسي أنظر السلسلة فرأيت رجلا جالسا في الهواء متربعا، فقلت: من أنت؟، قال: من الإنـــس، قلت: فما الذي بلغك هذه المنـــزلة؟، قال: آثرت مراد الله على هواي فأجلســـني كمـــا تراني .

وقال معاوية: المروءة ترك اللذة وعصيان الهوى .

وقال مبادر بن عبيد الله الصوفي: سمعت بعض أصحابنا يقول: رأيت غرفة في الهواء وفيها رجل فسألته عن حاله التي بلّغته إلى تلك المنـــزلة؟ فقال: تركت الهوى فأدخِلْتُ في الهوا(١).

وقال أبوسليمان الداراني: أفضل الأعمال خلاف هوى النفس.

خاتمة في بعض ما ورد في ذم اتباع الهوى

قال تعالى: {**ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين**}.

وقال تعالى: {**فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا**}

وقال ابن عباس: ما ذكر الله عز وجل الهوى في موضع من كتابه إلا ذمه.

وقال الشعبي: إنما سمى هوى؛ لأنه يهوي بصاحبه (٢).

وعن شداد بن أوس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله(٣) .

وعن ابن البُجَيْر(٤) وكان من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم: قال صلى الله عليه وسلم: ألا وإن عمل الجنة حزنة(٥) بربوة، ألا وإن عمل النار سهلة بسهوة(٦)، ألا يا رب شهوة ساعة أورثت حزنا طويلا(٧).

---

[١] ذم الهوى لابن الجوزي ص٤٦.

[٢] ذم الهوى لابن الجوزي ص٣٦.

[٣] ذم الهوى لابن الجوزي ص٦٠.

[٤] وفي الجامع الصغير: أبو البجير بدل ابن البجير.

[٥] الحَزْنُ: المكان الغليظ وهو الخشن، والحُزُوْنة الخُشُونة. لسان العرب.

[٦] وذكر في لسان العرب هذا الحديث وقال: السهوة الأرض اللينة التربة، شبه المعصية في سهولتها على مرتكبها بالأرض السهلة التي لا حزونة فيها، وقيل: كل ليّن سهو، والأنثى سهوة اهـــ.

[٧] وفي رواية: وتمنى على الله الأمانيّ. بتشديد الياء جمع أمنية. اهـــ فيض القدير للمناوي.

وعن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات. اخرجه مسلم.

وقال خلف بن هشام: سمعت الفضيل بن عياض يقول: من استحوذت عليه الشـــهوات انقطعت عنه موادّ التوفيق.

وقال يحيى بن معاذ: حفت الجنة بالمكاره وأنت تكرهها، وحفت النار بالشهوات وأنت تطلبها، فما أنت إلا كالمريض الشديد الداء إن صبّر نفسه على مضض(١) الدواء اكتسب اكتسب بالصبر عافية، وإن جزعت نفسه مما يلقى طالت به علة الضنى .

وعن عمرو بن عوف عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن أخوف ما أخاف على أمتي حَكَمٌ جائر، وزلة عالم، وهوى متبع.

وعن أبي أمامة الباهلي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما تحت ظل السماء إله يعبد أعظم عند الله من هوى متبع.

وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ثلاث مهلكات، شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه(٢).

وقال الأصمعي: سمعت رجلا يقول:

إن الهوان هو الهوى قُلِبَ اسمه   فإذا هويت فقد لقيت هوانا

وسئل ابن المقفع عن الهوى فقال: هوان سرقت نونه، فنظمه شاعر فقال:

نون الهوان من الهوى مسروقة   فإذا هويت فقد لقيت هوانا (٣)

وقال الإمام البوصيري في (البردة):

فاصرف هواها وحاذر أن توليه   إن الهوى ما تولى يصم أو يَصِمِ (٤)

---

[١] المضض الألم ووجع المصيبة. قاموس.

[٢] ذم الهوى لابن الجوزي ص٤٠-٤٣.

[٣] ذم الهوى لابن الجوزي ص٥٧-٥٨.

[٤] قوله: يُصم بضم أوله أي يقتله، من أصمى الصيد قتله، وقوله: يَصم بفتح أوله أي يعب؛ لأن الهوى تارة يأتي بما فيه قتل وعيب، كالردة وزنى المحصن، وتارة يأتي بما فيه عيب فقط كالسرقة والقذف، وهو أصل كل مفسدة، ورأس كل خطيئة؛ إذ هو حالة شبيهة بالسكر تمنع التمييز بين حسن الأمور وقبحها.

قال ابن حجر الهيتمي في (العمده في شرح البرده): في منثور الحكم: من أطاع هواه أعطي عدوه مناه.

وقال بعض الحكماء: العقل صديق مقطوع، والهوى عدو متبوع.

وقال بعض البلغاء: أفضل من عصي هواك، وأفضل من رفض دنياك. وقال هشام بن عبد الملك:

إذا أنت لم تعص الهوى قادك الهوى   إلى كل ما فيه عليك مقال

اهـــ.

المبادرة إلى الخيرات

اعلم أن الله تعالى أمر بالمبادرة والمسارعة إلى الأعمال الصالحة فقال عز وجل: {**فاستبقوا الخيرات**} وقال جل شأنه: {**وسارعوا إلى مغفرة من ربكم**} الآية، وقال تعالى في وصف بعض رسله عليهم الصلاة والسلام: {**إنـــهم كانوا يسارعون في الخيرات**} وأمر بـــها أيضا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: بادروا بالأعمال سبعا، هل تنتظرون إلا فقرا منسيا أو غنى مطغيا أو مرضا مفسدا أو هرما مفندا أو موتا مجهزا(١) أو الدجال فشر غائب ينتظر أو الساعة فالساعة أدهى وأمر، رواه الترمذي عن أبي هريرة وقال: حديث حسن.

وقال ابن الجوزي في كتابه (صيد الخاطر): ينبغي للإنسان أن يعرف شرف زمانه، وقدر وقته، فلا يضيع منه لحظة في غير قربة، ويقدم الأفضل فالأفضل من القول والعمل، ولتكن نيته في الخير قائمة من غير فتور، بما لا يعجز عنه البدن من العمل، كما جاء في الحديث: "نية المؤمن خير من عمله". وقد كان جماعة من السلف يبادرون اللّحظات.

وكان الإمام أبو الوفاء بن عقيل الحنبلي في محافظته على وقته، وحرصه على الانتفاع به في كل نفس من أنفاسه، حتى إنه كان يختار سف الكعك وتحسيه بالماء على مضغ الخبز، لأجل ما بينهما من التفاوت في الوقت، ليتوفر على مطالعة، أو تسطير فائدة، أو القيام بعبادة.

وقال أبو غدة: الوقت أرخص ما يكون عند الجهلاء، وأغلى ما يكون عند العقلاء، فهو قوام علمهم وعماد حياتـــهم (٢) .

وفي (شرح الحكم) لابن عباد: قال السري السَّقَطِي رحمه الله: جزت من بغداد أريد الرباط، إلى عبادان لأصوم بـــها رجب وشعبان، فاتفق لي في طريقي علي الجرجاني، وكان من الزهاد الكبار، فدنا وقت إفطاري، وكان معي ملح مدقوق وأقراص، فقال: ملحك مدقوق ومعك ألوان من الطعام، لن تفلح، ولن تدخل في سنن المحبين،

---

[١] قوله مجهزا بإسكان الجيم وكسر الهاء وفي "النهاية" أجهز على الجريح إذا أسرع قتله اهـــ دليل الفالحين ج٣ ص١٤

[٢] تعليق أبي غدة على رسالة المسترشدين ص٢٠٧ .

فنظرت إلى مزود كان معه فيه سويق الشعير فَسَفَّ منه، فقلت: ما دعاك إلى هذا؟، قال: إني حسبت ما بين المضغ والسَفِّ سبعين تسبيحة، فما مضغت الخبز منذ أربعين سنة(١) سنة(١) اهــ.

وقال بعض السلف: بين شرب السويق ومضغ الفتيت قراءة خمسين آية(٢).

وقد كان مؤرخ بغداد ومحدثها الخطيب البغدادي يمشي وفي يده جزء يطالعه، كسبا للوقت حتى في أثناء المشي(٣) .

وقال السيوطي والسخاوي في ترجمة الإمام النووي رحمه الله تعالى: إنه لم يصرف ساعة في غير طاعة.

وكان ابن عقيل يقول: إني لا يحل لي أن أضيع ساعة من عمري، حتى إذا تعطل لساني عن مذاكرة ومناظرة، وبصري عن مطالعة أعملت فكري في حال راحتي، وأنا منطرح، فلا أنْهض إلا وقد خطر لي ما أسطره، وإني لأجد من حرصي على العلم وأنا في عشر الثمانين أشد مما كنت أجده وأنا ابن عشرين، وأنا أقصر بغاية جهدي أوقات أكلي، حتى أختار سف الكعك وتحسيه بالماء على الخبز، لأجل ما بينهما من تفاوت المضغ، توفرا على مطالعة، أو تسطير فائدة لم أدركها فيه، وإن أجلّ تحصيل عند العقلاء بإجماع العلماء هو الوقت، فهو غنيمة تنتهز فيها الفرص (٤).

وَإِيَّاكَ وَالتَّسْوِيْفَ(5) فَالعَجْزُ فِيْهِ وَالتَّـــ ـــخَلُّفُ وَالذُّلُ وَحِرْمَانُ مُنْيَةِ

أي احذر من التسويف؛ فإن فيه العجز والتخلف عن الرفقة السائرين إلى بلوغ المعالي واكتساب المجد، وفيه الذل والحرمان عن بلوغ الآمال .

---

[١] شرح الحكم لابن عماد ج٢ص٣٩.

[٢] المقاصد الحسنة للحافظ السخاوي، ص١٠٤.

[٣] كذا في ترجمته في تذكرة الحفاظ للذهبي جــ٣ص١١٤١.

[٤] رسالة المسترشدين ص٢٠٥-٢٠٦.

[٥] سوف الأمر: قال سوف أفعله، المعجم الوسيط.

وفي مقدمة المجموع: من آداب المتعلم أن تكون همته عالية، فلا يرضى باليسير مع إمكان الكثير، وأن لا يُسوّف في اشتغاله، ولا يؤخر تحصيل فائدة وإن قلت إذا تمكن منها، وإن أمن حصولها بعد ساعة؛ لأن للتأخير آفات؛ ولأنه في الزمن الثاني يُحَصِّل غيرها(١).

وَلاْ تُمْهِلُوْا (٢) لِلغَدِ أَعْمَالَ يَوْمِكُمْ عَلَيْكُمْ لَهُ أَعْمَاْلُ بِرٍ بِكَثْرَةِ
وَيُمْكِنُ أَنَّ الْمَوْتَ يَأتِيْكَ بَغْتَةً فَبَادِرْ إِلَىْ الْخَيْرَاْتِ قَبْلَ الْمَنِيَّةِ

أي لا تؤخروا أعمال يومكم إلى الغد؛ فعليكم أعمال بر أخرى تواجهكم في الغد، ولا يتسع الغد لعمله وعمل الأمس ، فإن أتيت فيه بعمل الأمس ضيعت عمله، وكذا العكس، قال ابن عطاء الله السكندري في (الحكم): حقوق في الأوقات يمكن قضاؤها، وحقوق الأوقات لا يمكن قضاؤها؛ إذ ما من وقت يرد إلا ولله عليك فيه حق جديد، وأمر أكيد، فكيف تقضي فيه حق غيره، وأنت لم تقض حق الله فيه اهـــ. ويمكن أن يأتيك الموت بغتة قبل الغد، فينبغي أن تبادر إلى الخيرات قبل أن يحول بينك وبينها الموت؛ لما مر من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: بادروا بالأعمال سبعا.

وفي (الترغيب والترهيب) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجل وهو يعظه: اغتنم خمسا قبل خمس، شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفَراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك، رواه الحاكم، وقال صحيح على شرطهما.

وروي عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا أيها الناس توبوا إلى الله قبل أن تموتوا، وبادروا بالأعمال الصالحة قبل أن تشغلوا، وصلوا الذي بينكم وبين ربكم بكثرة ذكركم له، وكثرة الصدقة في السر والعلانية، ترزقوا وتنصروا وتجبروا، رواه ابن ماجه.

---

[١] مقدمة المجموع باب أداب المتعلم .

[٢] قال في لسان العرب: أمهله أنظره.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: بادروا بالأعمال فتنا كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمنا ويمسي كافرا، ويمسي مؤمنا ويصبح كافرا، يبيع دينه بعرض من الدنيا، رواه مسلم.

وعن مصعب بن سعد عن أبيه: قال الأعمش ولا أعلمه إلا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: التؤدة(١) في كل شيء خير إلا في عمل الآخرة، رواه أبو داود والحاكم والبيهقي، وقال الحاكم صحيح على شرطهما (٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنـــزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة، رواه الترمذي وقال: حديث حسن.

وفي (طلوع الثريا بإظهار ما كان خفيا) للحافظ السيوطي أنه صلى الله عيه وسلم قال في وصف الجنة: غالية لا تدرك بالهوينا(٣).

وقال الإمام الشافعي رحمه الله: الوقت سيف إن لم تقطعه قطعك(٤).

وقد أحسن من قال:

وكن صارما كالوقت فالمقت في عسى وإياك مهلا فهي أخطر علة

وسِرْ زَمِناً وانْهَض كَسِيرا فَحظُّك الـــ ـــبطالة ما أخرتَ عزما لصحة

وقال الترمذي حدثنا عبيد بن حميد، قال: حدثنا محمد بن الفضل، قال: حدثنا حماد بن سلمة، عن حبيب بن الشهيد، عن الحسن البصري، عن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج من بيته وهو في مرض موته يتكيء على أسامة بن زيد، وعليه ثوب قطري قد توشح به فصلى بـــهم، ثم قال عبيد بن حميد وهو شيخ الترمذي: قال محمد بن الفضل: سألني يحيى بن معين عن هذا الحديث أول ما جلس إليّ فقلت: حدثنا حماد بن سلمة، فقال: لو كان من كتابك، فقمت لأخرج كتابي، فقبض على ثوبي

---

[١] قال الحافظ المنذري: التؤدة بفتح المثناة فوق، وبعدها همزة مضمومة، ثم دال مهملة مفتوحة وتاء تأنيث هي التأني والتثبت وعدم العجلة.

[٢] الترغيب والترهيب ج٤ ص٨٩- ٩٠.

[٣] طلوع الثريا بإظهار ما كان خفيا، وهو في ضمن الحاوي للفتاوي للسيوطي ج٢ص٣٨٥

[٤] الفتوحات الربانية شرح الأذكار النووية: جـــ١ص١٢٧.

ثم قال: أمله عليّ، فإني أخاف أن لا ألقاك، فأمليته عليه، ثم أخرجت كتابي فقرأته عليه(١).

وَشَمِّرْ (٢) وَخُضْ بَحْرَ العُلُوْمِ فَإِنَّمَا تَنَالُ الْمُنَى بِالْجِدِّ مَعْ تَرْكِ لَذَّةِ

أي اجتهد وبالغ يا طالب العلم وخض بحر العلوم المتنوعة؛ فإن المنى لا تنال إلا بالجد وترك الراحة، فقد قيل: من جد وجد، وقال الإمام يحيى بن أبي كثير: لا يستطاع العلم براحة الجسم، رواه مسلم في صحيحه في باب أوقات الصلوات الخمس.

وقد قيل: من طلب الراحة ترك الراحة(٣) .

وقال بعضهم:

ادأب على جمع الفضائل جاهدا وأدم لها تعب القريحة والجسد
واقصد بِها وجه الإله ونفع من بلغته ممن جدّ فيها واجتهد
واترك كلام الحاسدين وبغيهم هَمَلا فبعد الموت ينقطع الحسد (٤)

وقيل للإمام أحمد: متى يجد العبد طعم الراحة؟ فقال: عند أول قدم في الجنة(٥).

الحرص على طلب العلم

وقال الذهبي: قال علي بن أحمد الخوارزمي: قال ابن أبي حاتم: كنا بمصر سبعة أشهر لم نأكل فيها مرقة، نهارنا ندور على الشيوخ، وبالليل ننسخ ونقابل، فأتينا يوما أنا ورفيق لي شيخا فقالوا: هو عليل، فرأيت سمكة أعجبتنا فاشتريناها، فلما صرنا إلى البيت حضر وقت مجلس بعض الشيوخ، فمضينا فلم تزل السمكة ثلاثة أيام وكادت أن تنتن، فأكلناها نيئة لم نتفرغ نشويها، ثم قال: لا يستطاع العلم براحة الجسد(٦).

---

[١] قيمة الزمن ٣٣-٣٤.

[٢] التشمير: المبالغة في الاجتهاد، قال في المصباح: شَمَّر ثوبه رفعه، ومنه قيل: شَمَّرَ في العبادة إذا اجتهد وبالغ، وقال أيضا: التشمير في الأمر: السرعة فيه.

[٣] علو الهمة ٢٨.

[٤] آخر كتاب الإتقان في علوم القرآن.

[٥] علو الهمة ٣٠

[٦] علو الهمة ١٥٠

وجاء في (توالي التأسيس في معالي محمد بن إدريس) للحافظ ابن حجر قال ابن أبي حاتم: سمعت المزني يقول: قيل للشافعي: كيف شهوتك للعلم؟ قال: أسمع بالحرف أي بالكلمة مما لم أسمعه، فتودّ أعضائي أن لها أسماعا تَتَنَعَّمُ به مثل ما تَنَعَّمَتْ به الأذنان، فقيل له: كيف حرصك عليه؟ قال: حرص الجموع المنوع في بلوغ لذته للمال، فقيل له: فكيف طلبك له؟ قال: طلب المرأة المضلة ولدها ليس لها غيره . وقال أبو غدة: بمثل هذا الشغف والعشق للعلم يتكوّن النبوغ والإمامة فيه(١) اهـ.

ومما يحكى عن الشيخ شمس الدين أبي الثناء الإصبهاني: من حرصه على العلم وشحه بضياع أوقاته أن بعض أصحابه كان يذكر أنه كان يمتنع كثيرا من الأكل لئلا يحتاج إلى الشرب، فيحتاج إلى دخول الخلاء، فيضيع عليه الزمان (٢).

وكان لون ثياب الإمام شعبة بن الحجاج الواسطي كالتراب، وذلك لاشتغاله بالعلم، وعدم تفرغه بسبب ذلك لغسلها (٣).

وَكُنْ بَاذِلاً جُهْداً كَبِيْراً كَمِثْلِ مَنْ   يَغُوْصُ البِحَارَ كَيْ يَفُوْزَ بِدُرَّةِ

يعني كن باذلا في طلب العلم غاية طاقتك ونهاية وسعك كما يبذل طالب الدرر والجواهر غاية جهده في حصولها بحيث يغوص أعماق البحار لينالها ويظفر بها.

قال بعض العلماء:

بقدر الكد تُكتسب المعالي   ومن طلب العلا سَهِر الليالي
ومن رام العلا من غير كد   أضاع العمر في طلب الْمُحَال

وقال آخر:

تمنيت أن تمسي فقيها مناظرا   بغير عناء والجنون فنون
وليس اكتساب المال دون مشقة   تَحَمَّلُهَا فالعلم كيف يكون

وقال آخر:

وكن مستفيدا كل يوم زيادة   من العلم واسبح في بحور الفوائد

---

[١] قيمة الزمن ص ٢٩.

[٢] قيمة الزمن ص ٧٩.

[٣] صفحات من صبر العلماء ص١١٢.

وقال ابن جريج: كان المسجد فراش عطاء بن أبي رباح عشرين سنة! وقال إسماعيل بن أمية: كان عطاء يطيل الصمت، فإذا تكلم خُيِّلَ إلينا أنه مؤيد أي تمده الملائكة بما يقول. وكان أسود، أعور، أفطس، أشل، أعرج، ثم عمي! ففي جسمه ستة عيوب، ولكنه كان ركنا من أركان العلم والدين والصلاح والقدوة. وكان ثقة فقيها، حج نيّفا أي زيادة على سبعين حجة.

وكان عطاء أسود شديد السواد، ليس في رأسه شعر إلا شعرات، فصيحا إذا تكلم(١).

وَكُنْ صَابِراً فِيْ كُلِّ عُسْرٍ وَشِدَّةٍ ... تَنَلْ يَا أَخِيْ شَأْوَ العُلاْ وَالْمَسَرَّةِ

أي كن أيها الطالب صابرا في كل عسر وشدة تلحق بك في طلب العلم أيّاً كان نوعها فتنال حينئذ شأو العلا والمسرة أي غايتهما.

روى الخطيب البغدادي بسنده عن محمد بن عاصم بن خلاد قال: كان يقال: من لم يركب المتاعب لم ينل الرغائب (٢) .

وقد أجمع عقلاء كل أمة على أن النعيم لا يدرك بالنعيم، وأن من آثر الراحة فاتته الراحة، وأن بحسب ركوب الأهوال واحتمال المشاق تكون الفرحة واللذة، فلا فرحة لمن لا همّ له، ولا لذة لمن لا صبر له، ولا راحة لمن لا تعب له، بل إذا تعب العبد قليلا استراح طويلا(٣).

قال الشاعر:

من كان يعلم أن الشهد مطلبه ... فلا يخاف للسع النحل من ألم

وقال الآخر:

وإذا كنت المقدام فلا ... تجزع في الحرب من الرَّهَج

وقال ابن الوردي في مبحث العلم من لاميته:

واهجر النوم وحصله فمن ... يعرف المطلوب يحقر ما بذل

---

[١] سير أعلام النبلاء في ترجمة عطاء بن أبي رباح، وصفحات من صبر العلماء ص١١٤.

[٢] الفقيه والمتفقه جـ٢ص١٥.

[٣] علو الهمة ٢٨.

إِذَا مَا تَسَابَقَتْ خُيُوْلُ ذَوِيْ التُّقَىْ بِمَيْدَانِـــهَا عَجِّلْ خُطَاكَ بِسُرْعَةِ

أي إذا تنافس المتنافسون وتحركت هممهم إلى المبادرة في تعلم العلم والعمل به وفي سائر الخيرات من كل ما يتقرب به إلى الله تعالى، لا تتأخر أيها الطالب عنهم، ولا تتخلف عن تلك القافلة السائرة ليلها ونـــهارها إلى ذروة المجد، وسنام العز والشرف، ففي هذا البيت استعارة مكنية حيث شُبِهَ ذوو التقى بمتسابقين على خيول بجامع توجه كل إلى غاية وذكر الميدان ترشيح، وقوله: عجل خطاك كناية عن اللحوق؛ لأن من لازم تعجيل الخطا اللحوق.

وَلاْ تَرْضَ أنْ تَبْقَى وَرَاْءَ جِيَادِهِمْ وَحِيْداً بِلاْ أُنْسٍ فَتَنْدَمْ بِحَسْرَةِ [١]

أي لا ترض أن تتخلف عن رفقتك في طلب العلم، وتقيم وحدك في مضيق الجهل وظلماته، التي هاجروا منها، كي لا تندم وتتحسّر، فقد قال الإمام البوصيري في همزيته يلوم نفسه:

كنت في نومة الشباب فما استيـــ ـــقظت إلا ولمتي شمطاء [٢]
وتماديت أقتفي أثر القو م فطالت مسافة واقتفاء
فورا السائرين وهو أمامي سبل وعرة وأرض عراء [٣]

---

[١] ولي في هذا المعنى أبيات في معاتبة نفسي وتوبيخها على تأخرها عن المشمرين عن ساعد الجد القائمين في ليلهم ونـــهارهم لطاعة ربـــهم، منها:

وَلَـــكِنَّ بَيْنَ هَؤُلاْءِ ذَوِيْ النُّـــهَىْ وَبَيْنِيْ قِـــفَـــارٌ ذَاْتُ بُعْـــدٍ وَظُلْمَةِ
فَقَدْ أَدْلَجُوْا رَوْماً لِنَيْلِ الْعُلَىْ وَمُهْـــ جَتِيْ هَذِهِ مَالَتْ إِلَىْ نَـــحْوِ رَاحَـــةِ
تَرَىْ وَحْدَهَا قَدْ أَصْبَحَتْ فِيْ حَظِيْرَةٍ تَرَحَّلَ أَهْـــلُ اللُّبِ عَـــنْـــهَا بِلَيْلَةِ
فَيَبْدُو وَرَاءَ السَّائِرِيْنَ سَوَادُهَا فَهَلْ ذُوْ حِجًى يَرْضَىْ بِتِلْكَ الْفَضِيْحَةِ

[٢] اللمة بالكسر: الشعر الذي يجاوز شحمة الأذن، فإذا بلغ المنكبين فهي جمة، والشمطاء: التي يخالط سوادها بياض. اهـــ لسان العرب.

[٣] قوله: وعرة أي يعسر سلوكها، والعراء: الفضاء الواسع اهـــ لسان العرب.

وَكُنْ مُكْثِراً ذِكْرَ الإِلَهِ بِخَلْوَةٍ وَجَمْعٍ وَلَيْلٍ وَالْمَسَاءِ وَغُدْوَةِ

أي كن مكثرا ذكر الله تعالى في كل وقت وحال، فإنه لا يختص بزمن ولا مكان ولا حال من الأحوال، قال الله تعالى: {**ياءيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا**} وقال تعالى: {**والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما**}، وقال تعالى: {**لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا**}، وقال جل شأنه: {**الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم**} وقال تعالى: {**وتبتل إليه تبتيلا**}، وقال تعالى: {**واعبد ربك حتى يأتيك اليقين**}.

قِرَآةَ قُرْآنٍ مَجِيْدٍ فَرَتِّلَنْ لِكَيْ تَرْتَدِيْ كُسْوَةَ مَجْدٍ وَرِفْعَةِ

أي رتلن قراءة القرآن المجيد، والترتيل في القراءة هو التأني فيها والتمهل، وتمييز الحروف والحركات، وسئلت أم سلمة عن قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم وصلاته فقالت: ما لكم وصلاته! كان يصلي ثم ينام قدر ما صلى، ثم يصلي قدر ما نام، ثم ينام قدر ما صلى حتى يصبح، ثم نعتت قراءته فإذا هي تنعت قراءة مفسرة حرفا حرفا، أخرجه النسائي وأبو داود والترمذي، وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب[1] اهـ.

وفي (الدر المنثور): أخرج العسكري في المواعظ عن علي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن قول الله {**ورتل القرآن ترتيلا**} قال: بَيِّنْهُ تبيينا، ولا تنثره نثر الدقل، ولا تَهذه هَذّ الشعر، قِفُوا عند عجائبه، وحركوا به القلوب، ولا يكوننّ هَمُّ أحدكم آخر السورة.

وأخرجه الديلمي أيضا بسند واه عن ابن عباس مرفوعا اهـ.

وَسَبِّحْ بِحَمْدِ اللهِ فِيْ الصُّبْحِ وَالْمَسَا مَعَ البَاقِيَاْتِ الصَّالِحَاتِ البَهِيَّةِ

أي سبح الله واحمده في الصبح والمساء، فقد أمر الله تعالى بذلك في القرآن الكريم، قال الله تعالى: {**واذكر ربك كثيرا وسبح بالعشي والإبكار**}. وقال تعالى: {**فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا**} وقال تعالى: {**وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى**}. وقال تعالى: {**يسبح له**

---

[1] ذكره القرطبي في مقدمة تفسيره الجامع لأحكام القرآن.

فيها بالغدو والآصال رجال لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله}. وقال تعالى: {**فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون**}. وقال تعالى: {**ياءيـــها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا وسبحوه بكرة وأصيلا**}. وقال تعالى: {**إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق**} وقال تعالى: {**فاصبر إن وعد الله حق واستغفر لذنبك وسبح بحمد ربك بالعشي والإبكار**}. وقال تعالى: {**ليؤمنوا بالله ورسوله ويعزروه ويوقروه ويسبحوه بكرة وأصيلا**}. وقال تعالى: {**وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ومن الليل فسبحه وأدبار السجود**}.

فهذه عشر آيات أمر فيها المولى جل جلاله بالتسبيح في الصباح والمساء.

وقد ورد في فضل التسبيح والحمد في هذين الوقتين أحاديث كثيرة، روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: من قال سبحان الله وبحمده في يوم مائة مرة حطت عنه خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر .

وروى الحاكم أبو عبد الله من حديث إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة عن أبيه عن جده: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من قال: لا إله إلا الله دخل الجنة أو وجبت له الجنة، ومن قال: سبحان الله وبحمده مائة مرة كتب الله له مائة ألف حسنة وأربعا وعشرين ألف حسنة، قالوا: يا رسول الله إذا لا يهلك منا أحد، قال: بلى إن أحدكم ليجيء بالحسنات لو وضعت على جبل أثقلته، ثم تجيء النعم فتذهب بتلك، ثم يتطاول الرب بعد ذلك برحمته، قال الحاكم صحيح الإسناد .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: من قال سبحان الله وبحمده كتب له مائة أَلْفِ حَسَنَةٍ وأربعةٌ وعشرون ألفَ حَسَنَةٍ، ومن قال: لا إله إلا الله كان له بـــها عهد عند الله يوم القيامة، رواه الطبراني بإسناد فيه نظر كما قال المنذري. وقال الهيثمي: في إسناده النضر بن عبيد و لم أعرفه وبقية رجاله ثقات.

وروى مسلم في صحيحه عن أبي ذر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل أي الكلام أفضل قال: ما اصطفى الله لملائكته أو لعباده سبحان الله وبحمده اهـــ.

قال ابن علان: قال ابن حجر في شرح المشكاة: ولأجل ذلك افتخروا أي الملائكة به على آدم قالوا: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك.

وعن أبي ذر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ألا أخبرك بأحب الكلام إلى الله، قلت: يا رسول الله أخبرني بأحب الكلام إلى الله، فقال: إن أحب الكلام إلى الله سبحان الله وبحمده. قال المنذري في الترغيب والترهيب: رواه مسلم والنسائي والترمذي إلا أنه قال: سبحان ربي وبحمده، وقال: حديث حسن صحيح.

وقال الإمام النووي في المجموع: المراد أن هذا -يعني سبحان الله وبحمده- أحب كلام الآدميين وأفضله لا أنه أفضل من كلام الله اهـ.

وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال صلى الله عليه وسلم: كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم، واللفظ لمسلم.

وروى أبو داود في سننه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من قال حين يصبح: سبحان الله العظيم وبحمده مائة مرة، وإذا أمسى كذلك لم يواف أحد من الخلائق بمثل ما وافى .

وروى الإمام مسلم وأصحاب السنن الأربعة كلهم عن جويرية بنت الحارث رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج من عندها بكرة حين صلى الصبح وهي في مسجدها ثم رجع إليها بعد أن أضحى وهي جالسة، فقال: ما زلت على الحال التي فارقتك عليها؟ قالت: نعم، قال النبي صلى الله عليه وسلم: لقد قلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرات، لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن: سبحان الله وبحمده عدد خلقه ورضاء نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته .

وأما الباقيات الصالحات فقد ذكرها الله تعالى في القرآن فقال: {**المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا**} وهي سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، وفي بعض الأحاديث زيادة ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وقد وردت في فضائلها وجزيل ثوابها أحاديث كثيرة، منها: ماروي عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف قال: جلس النبي صلى الله عليه وسلم ذات يوم فأخذ عودا يابسا فحط ورقه ثم قال: إن قول لا إله إلا الله والله أكبر والحمد لله وسبحان الله تحط الخطايا كما تحط ورق هذه الشجرة الريح، خذهن يا أبا الدرداء قبل أن يحال بينك

وبينهن، هن الباقيات الصالحات وهن من كنوز الجنة، قال أبو سلمة: فكان أبو الدرداء إذا ذكر هذا الحديث قال: لأهللن الله ولأكبرن الله ولأسبحن الله حتى إذا رآني الجاهل حسب أني مجنون. ذكره ابن جرير الطبري في تفسير آية {**المال والبنون زينة الحياة الدنيا**} الآية.
وقال تعالى: {**ويزيد الله الذين اهتدوا هدى والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير مردا**}.

وروى ابن جرير الطبري بسنده في تفسيره أيضا عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: استكثروا من الباقيات الصالحات، قيل: وماهي يارسول الله؟ قال: الملة، قيل: وماهي يارسول الله؟ قال: التكبير والتهليل والتسبيح والتحميد ولاحول ولا قوة إلا بالله.

وفي (الترغيب والترهيب) روي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: استكثروا من الباقيات الصالحات، قيل: وما هن يارسول الله؟ قال: التكبير والتهليل والتسبيح والحمد لله ولا حول ولا قوة إلا بالله، رواه النسائي واللفظ له، والإمام أحمد وأبو يعلى وابن حبان في صحيحه والحاكم وقال: صحيح الإسناد.
وقال الهيثمي في (مجمع الزوائد): إن اسناد الإمام أحمد وأبي يعلى حسن اهـ. وفي بعض طرق الحديث زيادة العلي العظيم كما في (الجامع الصغير)، وفي بعضها: التحميد بدل والحمد لله .

وقال الهيثمي في (مجمع الزوائد): عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قل سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله، فإنهن الباقيات الصالحات، وهن يحططن الخطايا كما تحط الشجرة ورقها وهن من كنوز الجنة، رواه ابن ماجه باختصار والطبراني اهـ .
وقال الهيثمي أيضا في (مجمع الزوائد): عن أبي هريرة قال: خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: خذوا جنتكم، قلنا: يارسول الله من عدو حضر؟ فقال: خذوا جنتكم من النار، قولوا: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله، فإنهن يأتين يوم القيامة مستقدمات ومنجيات ومجنبات، وهن الباقيات الصالحات، رواه الطبراني في الصغير والأوسط .

وروى الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لأن أقول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس، وليس في رواية مسلم: لا حول ولا قوة إلا بالله.

وَصَلِّ الصَّلاةَ بِالجَمَاعَةِ دَائِماً رَوَاتِبَهَا احْفَظْ وَالضُّحَىْ كُلَّ ضَحْوَةِ

أي صل بالجماعة جميع الصلوات المكتوبة أو المسنونة التي تشرع فيها الجماعة، واعلم أن الجماعة في الصلاة المفروضة فرض عين في الجمعة وفرض كفاية في غيرها بشروطها المقررة في الفقه، وقد ورد في فضلها أحاديث وآثار كثيرة، وفي تركها وعيد شديد، من ذلك ما رواه الشيخان أنه صلى الله عليه وسلم قال: لقد هممت أن آمر بالصلاة فتقام، ثم آمر رجلا فيؤم الناس ثم أنطلق معي برجال معهم حزم من حطب إلى قوم لا يشهدون الجماعة فأحرق عليهم بيوتهم.

وروى أحمد وأبو داود والنسائي وابنا خزيمة وحبان في صحيحيهما عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ما من ثلاثة في قرية ولا بدو لا تقام فيهم الصلاة إلا قد استحوذ عليهم الشيطان أي غلب، فعليكم بالجماعة؛ فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية.

زاد رزين: وإن ذئب الإنسان الشيطان، إذا خلا به أكله .

وفي (الزواجر عن اقتراف الكبائر): حكى ابن عمر أن عمر خرج إلى بستان له فرجع وقد صلى الناس العصر، فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون فاتتني صلاة العصر في الجماعة، أشهدكم أن حائطي على المساكين صدقة لتكون كفارة لما صنع.

وقال ابن عمر رضي الله عنهما: كنا إذا فقدنا الإنسان في صلاة العشاء والصبح في الجماعة أسأنا به الظن أن يكون قد نافق أي لحديث: إنهما أثقل الصلوات على المنافقين، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبوا .

وقال حاتم الأصم: فاتتني مرة صلاة الجماعة فعزاني أبو إسحق البخاري وحده، ولو مات لي ولد لعزاني أكثر من عشرة آلاف نفس؛ لأن مصيبة الدين عند الناس أهون من مصيبة الدنيا (١).

[١] الزواجر عن اقتراف الكبائر، ج١ص١٣١-١٣٤.

وقوله: **رواتبها احفظ** أي احفظ رواتب الصلوات المكتوبات، وهي مؤكدة وغير مؤكدة، فالمؤكدة عشر ركعات، وهي ركعتان قبل الفجر، وركعتان قبل الظهر، وركعتان بعده، وركعتان بعد المغرب، وركعتان بعد العشاء، وغير المؤكدة أن تزيد ركعتين قبل الظهر، وركعتين بعده، وأربعا قبل العصر، وركعتين قبل المغرب، وركعتين قبل العشاء، وأفضل هذه الرواتب المذكورة ركعتا الفجر، والوتر أفضل منهما كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

وقوله: **والضحى كل ضحوة** أي احفظ صلاة الضحى في وقتها ولا تتركها؛ فإن فضلها عظيم وأجرها جزيل، وهي سنة من السنن المؤكدة، وقد كانت واجبة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فخفف عنا بفضله تعالى ولُطفه، وقد ورد في فضائلها أحاديث كثيرة. وفي (الترغيب والترهيب) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أوصاني خليلي صلى الله عليه وسلم بصيام ثلاثة أيام من كل شهر، وركعتي الضحى، وأن أوتر قبل أن أرقد، رواه البخاري ومسلم وأبو داود، ورواه الترمذي والنسائي نحوه، وابن خزيمة ولفظه: أوصاني صلى الله عليه وسلم بثلاث لست بتاركهن: أن لا أنام إلا على وتر، وأن لا أدع ركعتي الضحى، فإنها صلاة الأوابين، وصيام ثلاثة أيام من كل شهر.

وعن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: يصبح على كل سلامى من أحدكم صدقة، فكل تسبيحة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن المنكر صدقة، ويُجزئ من ذلك ركعتان يركعهما من الضحى، رواه مسلم.

وعن بريدة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: في الإنسان ستون وثلاثمائة مفصل، فعليه أن يتصدق عن كل مفصل منها صدقة، قالوا: فمن يطيق ذلك يا رسول الله؟ قال: النخاعة في المسجد تدفنها، والشيء تُنَحِّيْهِ عن الطريق، فإن لم تقدر فركعتا الضحى تجزئ عنك، رواه أحمد واللفظ له وأبو داود وابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما.

وروي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من حافظ على شُفْعة الضحى غفرت له ذنوبه وإن كانت مثل زَبَدِ البحر، رواه ابن ماجه والترمذي. وقوله شفعة الضحى بضم الشين المعجمة، وقد تفتح أي ركعتا الضحى.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية فغنموا وأسرعوا الرجعة، فتحدث الناس بقرب مغزاهم وكثرة غنيمتهم وسرعة رجعتهم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ألا أدلكم على أقرب منهم مغزى، وأكثر غنيمة، وأوشك رجعة؟ من توضأ ثم غدا إلى المسجد لسبحة الضحى فهو أقرب منهم مغزى وأكثر غنيمة وأوشك رجعة، رواه أحمد من رواية ابن لهيعة، والطبراني بإسناد جيد.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثا فأعظموا الغنيمة وأسرعوا الكرة، فقال رجل: يا رسول الله ما رأينا بعثا قط أسرع كرة، ولا أعظم غنيمة من هذا البعث، فقال: ألا أخبركم بأسرع كرة منهم، وأعظم غنيمة؟ رجل توضأ فأحسن الوضوء، ثم عمد إلى المسجد فصلى فيه الغداة ثم عقّب بصلاة الضحوة، فقد أسرع الكرة وأعظم الغنيمة، رواه أبو يعلى، ورجال إسناده رجال الصحيح، والبزار وابن حبان في صحيحه.

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من صلى الضحى ركعتين لم يكتب من الغافلين، ومن صلى أربعا كتب من العابدين، ومن صلى ستا كُفِيَ ذلك اليوم، ومن صلى ثمانية كتبه الله من القانتين، ومن صلى ثنتي عشرة ركعة بنى الله له بيتا في الجنة، وما من يوم ولا ليلة إلا لله مَنّ يمنّ به على عباده وصدقة، وما منّ الله على أحد من عباده أفضل من أن يلهمه ذكره، رواه الطبراني في الكبير ورواته ثقات.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا يحافظ على صلاة الضحى إلا أواب، قال: وهي صلاة الأوابين، رواه الطبراني وابن خزيمة في صحيحه.

وروى عنه رضي الله عنه أيضا عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إن في الجنة بابا يقال له الضحى، فإذا كان يوم القيامة نادى مناد أين الذين كانوا يديمون صلاة الضحى، هذا بابكم فادخلوه برحمة الله، رواه الطبراني في الأوسط(١) .

وقال السيوطي في جزء ألفه في صلاة الضحى: روى الأحاديث الواردة في الأمر بصلاة الضحى والترغيب فيها بضع وعشرون صحابيا. وقال السيوطي في هذا الكتاب: لم يرد

---

[1] الترغيب والترهيب في باب الترغيب في صلاة الضحى من كتاب النوافل.

حديث بانحصار صلاة الضحى في عدد مخصوص، فلا مستند لقول الفقهاء: إن أكثرها ثنتا عشرة ركعة كما نبه عليه الحافظ أبو الفضل ابن حجر وغيره (١)

كَذَا الوَتْرُ وَانْوِ الاعْتِكَافَ بِمَسْجِدٍ

في هذا الشطر الترغيب بالوتر والاعتكاف، فالوتر هو من النوافل التي لا تشرع فيها الجماعة إلا في رمضان، وهو آكد السنن الراتبة مع الفرائض وأفضلها على الراجح، فقد قال الإمام النووي في المجموع: قال أصحابنا: أفضل النوافل التي لا تشرع لها الجماعة السنن الراتبة مع الفرائض، وأفضل الرواتب الوتر وسنة الفجر، وأيهما أفضل فيه قولان، الجديد الصحيح الوتر أفضل، والقديم أن سنة الفجر أفضل(٢) اهـ .

وقد ورد فيه أحاديث كثيرة، منها قوله صلى الله عليه وسلم: من لم يوتر فليس منا. وقوله صلى الله عليه وسلم: إن الله أمدكم بصلاة هي خير لكم من حمر النعم وهي الوتر. وقال أبو حنيفة بوجوبه(٣).

ووجوبه على نبينا عليه الصلاة والسلام من خصائصه، وأقله ركعة واحدة، وأكثره إحدى عشرة ركعة.

والاعتكاف في المسجد سنة، وقد كان صلى الله عليه وسلم يعتكف في شهر رمضان وغيره، فينبغى لطالب العلم أن ينويه إذا دخل المسجد ويهتم به؛ فإنه من أيسر العبادات للتلاميذ؛ لأن المساجد مساكنهم ومنازلهم غالبا.

وَصَلِّ صَلاةَ اللَّيْلِ مِنْ بَعْدِ هَجْعَةٍ (٤)

أي صل صلاة التهجد، وهي الصلاة بعد النوم في الليل، أما الصلاة قبل النوم فلا تسمى تَهجدا. وقال الإمام النووي في (المجموع): قال العلماء: التهجد أصله الصلاة في الليل بعد

---

[١] الحاوي للفتاوي ج١ص٥٧ و٦٣.

[٢] المجموع شرح المهذب للنووي في باب صلاة التطوع.

[٣] وفي المجموع: وخالف أبا حنيفة في وجوب الوتر صاحباه أبويوسف ومحمد بن الحسن، فقالا: هو سنة. وقال ابن المنذر: لا أعلم أحدا وافق أبا حنيفة في هذا.

[٤] في المصباح: يقال: جاء بعد هجعة أي بعد نومة من الليل، وفي مختار الصحاح يقال: أتيت فلانا بعد هجعة أي بعد نومة خفيفة من الليل. وفي اللسان وتاج العروس مثل عبارته، لكنهما قالا: من أول الليل.

النوم، وقوله تعالى: {**كانوا قليلا من الليل ما يهجعون**} قال المفسرون وأهل اللغة: الهجوع النوم في الليل.

وقال أيضا: فقيام الليل سنة مؤكدة، وقد تطابقت عليه دلائل الكتاب والسنة وإجماع الأمة، والأحاديث الواردة فيه في الصحيحين وغيرهما أشهر من أن تذكر، وأكثر من أن تحصر.

وقال أيضا: يسن لكل من استيقظ في الليل أن يمسح النوم عن وجهه، وأن يتسوك وأن ينظر في السماء، وأن يقرأ الآيات التي في آخر آل عمران {**إن في خلق السموات والأرض**} ثبت كل ذلك في الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم(١).

وقال أيضا في (المجموع): كان قيام الليل واجبا في أول الإسلام، ثم نسخ في حق الأمة، وفي حقه عليه الصلاة والسلام وجهان لأصحابنا، قال أكثرهم: لم ينسخ، والصحيح أنه نسخ(٢).

وقال الله تعالى: {**ومن الليل فتهجد به نافلة لك**} وقال تعالى: {**أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه**} وقال تعالى: {**من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون**}.

وفي (الترغيب والترهيب) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أفضل الصيام بعد رمضان شهر الله المحرم، وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل، رواه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن خزيمة في صحيحه.

وعنه أيضا قال: قلت: يا رسول الله إني إذا رأيتك طابت نفسي وقرت عيني، أنبئني عن كل شيء، قال: كل شيء خلق من الماء، فقلت: أخبرني بشيء إذا عملته دخلت الجنة، قال: أطعم الطعام وأفش السلام، وصِلِ الأرحام، وصل بالليل والناس نيام تدخل الجنة بسلام، رواه أحمد وابن أبي الدنيا في كتاب التهجد، وابن حبان في صحيحه واللفظ له، والحاكم وصححه.

---

[١] مجموع النووي ج٣ص٣٦٩-٣٧٠.

[٢] مجموع النووي أول كتاب الصلاة.

وروي عن علي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إن في الجنة لشجرة يخرج من أعلاها حلل، ومن أسفلها خيل من ذهب مسرجة ملجمة من در وياقوت، لا تروث ولا تبول، لها أجنحة خطوها مدَّ البصر فيركبها أهل الجنة فتطير بـهم حيث شاءوا، فيقول الذين أسفل منهم درجة: يا رب بم بلغ عبادك هذه الكرامة كلها؟ قال: فيقال لهم: كانوا يصلون بالليل، وكنتم تنامون، وكانوا يصومون وكنتم تأكلون، وكانوا ينفقون وكنتم تبخلون، وكانوا يقاتلون وكنتم تجبنون، رواه ابن أبي الدنيا.

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: في الجنة غرفة يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها، فقال أبومالك الأشعري: لمن هي يارسول الله؟ قال: لمن أطاب الكلام، وأطعم الطعام، وبات قائما والناس نيام، رواه الطبراني في الكبير بإسناد حسن.

وروي عن أسماء بنت يزيد رضي الله عنها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: يحشر الناس في صعيد واحد يوم القيامة، فينادي مناد، فيقول: أين الذين تتجافى جنوبـهم عن المضاجع؟ فيقومون وهم قليل، فيدخلون الجنة بغير حساب، ثم يؤمر بسائر الناس إلى الحساب، رواه البيهقي .

وعن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: عليكم بقيام الليل، فإنه دأب الصالحين قبلكم، وقربة إلى ربكم، ومَكْفَرَة للسيئات، ومنهاة عن الإثم، رواه الترمذي في كتاب الدعاء من جامعه، وابن أبي الدنيا في كتاب التهجد، والحاكم وقال: صحيح على شرط البخاري.

وعن سلمان الفارسي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم، ومقربة لكم إلى ربكم، ومَكْفَرَة للسيئات، ومنهاة عن الإثم، ومطردة للداء عن الجسد، رواه الطبراني في الكبير، والترمذي في الدعوات من جامعه.

وعن سهل بن سعد رضي الله عنهما قال: جاء جبريل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا محمد عش ما شئت فإنك ميت، واعمل ما شئت فإنك مجزي به، وأحبب من شئت

فإنك مفارقه، واعلم أن شرف المؤمن قيام الليل، وعزه استغناؤه عن الناس، رواه الطبراني في الأوسط وإسناده حسن.

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أشراف أمتي حملة القرآن وأصحاب الليل، رواه ابن أبي الدنيا والبيهقي.

وعن عمرو بن عنبسة رضي الله عنه أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: أقرب ما يكون الرب من العبد في جوف الليل الآخر، فإن استطعت أن تكون ممن يذكر الله في تلك الساعة فكن، رواه الترمذي وابن خزيمة، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح غريب.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: ذكر عند النبى صلى الله عليه وسلم رجل نام ليلة حتى أصبح، قال: ذاك رجل بال الشيطان في أذنيه أو قال: في أذنه، رواه البخاري ومسلم والنسائي، ورواه ابن ماجه، وقال: في أذنيه من غير شك، وزاد في آخره: قال الحسن: إن بوله والله ثقيل.

وروى الطبراني في الأوسط حديث ابن مسعود رضي الله عنه ولفظه: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا أراد العبد الصلاة من الليل أتاه ملك، فقال له: قم فقد أصبحت فصل واذكر ربك، فيأتيه الشيطان فيقول: عليك ليل طويل وسوف تقوم، فإن قام فصلى أصبح نشيطا خفيف الجسم قرير العين، وإن هو أطاع الشيطان حتى أصبح بال في أذنه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله يُبْغِضُ كل جعظري جواظ صخاب(١) في الأسواق جيفة بالليل، حِمَارٍ بالنهار، عالم بأمر الدنيا، جاهل بأمر الآخرة، رواه ابن حبان في صحيحه، والأصبهاني (٢).

وفي (الجامع الصغير للسيوطي): عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قالت أم سليمان بن داود لسليمان: يا بني لا تكثر النوم بالليل؛ فإن كثرة

---

[١] قال الحافظ المنذري في الترغيب والترهيب: قال أهل اللغة: الجعظري الشديد الغليظ، والجواظ الأكول، والصخاب الصياح.

[٢] الترغيب والترهيب باب الترغيب في قيام الليل، والترهيب من نوم الإنسان إلى الصباح وترك قيام شيء من الليل، من كتاب النوافل.

النوم بالليل تترك الإنسان فقيرا يوم القيامة، رواه النسائي وابن ماجه والبيهقي عن جابر(١).

والأحاديث الواردة في صلاة الليل خصوصا وفي قيامه عموما كثيرة جدا، فلنكتف بما ذكرناه والله الموفق.

وفي (فتح المغيث) للحافظ السخاوي عن أبي عصمة عاصم بن عصام البيهقي قال: بت ليلة عند أحمد، فجاء بالماء فوضعه، فلما أصبح نظر إلى الماء، فإذا هو كما كان، فقال: سبحان الله رجل يطلب العلم لا يكون له ورد بالليل (٢).

وكان الإمام السبكي تقي الدين علي بن عبد الكافي ينهى أولاده عن نوم النصف الثاني من الليل ويقول: يا بني تعوّد السهر ولو أنك تلعب، والويل كل الويل لمن تراه نائما وقد انتصف الليل(٣) .

وكان عمر بن عبد العزيز رحمه الله إذا غلبه النوم يقوم فيجول في الدار وينشد قوله :

وكيف تنام العين وهي قريرة ... ولم تدر في أي المحلين تنـــزل(٤) .

وفي (صفة الصفوة) كان عمر بن عبد العزيز رحمه الله يتمثل بـــهذه الأبيات:

أيقـــظان أنت اليوم أم أنت نائم ... وكيف يطـــيق النوم حيران هائم

فلـــو كنت يقظان الـــغداة لحَرّقت ... مدامـــعَ عينيك الدموعُ السواجم

بلِ اصْبحتَ في النوم الطويل وقد دنت ... إليك أمـــور مفظعات عـــظائم

نـــهارك يا مغـــرور سهو وغفـــلة ... وليلك نـــوم والـــردى لك لازم

يغـــرك مـــا يفـــنى وتُشْغَـــلُ بالمنى ... كما غُرَّ في اللذات في النوم حالم

وتُشغَـــلُ فيمـــا سوف تكـــره غِبَّه ... كذلك في الدنيا تعيش البهائم (٥)

---

[١] قال السيوطي في التعقبات ص١٠٢: ذكر هذا الحديث ابن الجوزي في الموضوعات، وليس بموضوع بل هو إما حسن وإما ضعيف انتهى باختصار . وقال المنذري في الترغيب والترهيب: في إسناده احتمال للتحسين.

[٢] فتح المغيث شرح ألفية الحديث للسخاوي ج٢ص٣٢٢ .

[٣] طبقات الشافعية الكبرى لابن السبكي في ترجمة الإمام السبكي.

[٤] تنبيه المغترين ص٦٧.

[٥] صفة الصفوة لابن الجوزي، ج٢ص١٢٤-١٢٥.

وقال آخر:

أما والله لو علم الأنام   لِما خُلِقوا لَما هَجعوا وناموا
لقد خُلِقوا لأمرٍ لو رأتْه   عيونُ قلوبِهم تاهوا وهاموا
ممات ثم قبر ثم حشر   وتوبيخ وأهوال عظام
ليوم الحشر قد عملت رجال   فصلَّوا من مخافته وصاموا
ونحن إذا دُعينا أو نُهينا   كأهل الكهف أيقاظ نيام

وقال في قصيدة (تبارك ذو العلا):

وخذ بالليل حظ النفس واطرد   عن العينين محبوب الغماض
وَكُنْ فِيْ الصَّلاْةِ خَاشِعاً مُتَدَبِّراً   قِرَاءَتَهَاْ يَا صَاحِ مَعْ حُسْنِ هَيْئَةِ

يعني كن في صلاتك خاشعا متدبرا قراءتك فيها مع حسن هيئة الصلاة. والخشوع كما في القاموس: السكون والتذلل. وهو روح الصلاة وسرها، وأثنى الله على فاعليه، فقال جل شأنه: {**قد أفلح المؤمنين الذين هم في صلاتـــهم خاشعون**}. قال النووي: ليس في كلام العرب كلمة أجمع للخير من لفظة الفلاح، ويقرب منها النصيحة (١).

وفي (الدر المنثور) عند تفسير هذه الآية عن ابن عمر في قوله تعالى: {**الذين هم في صلاتـــهم خاشعون**} قال: كانوا إذا قاموا إلى الصلاة أقبلوا على صلاتـــهم، وخفضوا أبصارهم إلى موضع سجودهم، وعلموا أن الله يُقبِل عليهم فلا يلتفتون يمينا ولا شمالا.

وعن ابن عباس في قوله تعالى {**الذين هم في صلاتـــهم خاشعون**} قال: خائفون ساكنون.

وعن قتادة قال: الخشوع في القلب هو الخوف، وغض البصر في الصلاة.

وأخرج ابن أبي شيبة عن الحكم قال: إن من تمام الصلاة أن لا تعرف مَنْ عن يمينك ولا مَنْ عن شمالك .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد في الزهد والحاكم وصححه عن حذيفة قال: أول ما تفقدون من دينكم الخشوع، وآخر ما تفقدون من دينكم الصلاة، الحديث. اهـــ.

---

[١] شرح مسلم للنووي في باب الأذان، ج٤ص٨٧.

وعن عثمان بن عفان عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: ما من امرئ مسلم تحضره صلاة مكتوبة فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها إلا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب ما لم تؤت كبيرة، وذلك الدهر كله. ، رواه مسلم(١).

وفي (الترغيب والترهيب) عن عبادة بن الصامت قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: خمس صلوات افترضهن الله، من أحسن وضوءهن وصلاهن لوقتهن، وأتمّ ركوعهن، وسجودهن، وخشوعهن كان له على الله عهد أن يغفر له(٢).

وقال الجنيد البغدادي: الخشوع تذلل القلوب لعلام الغيوب.

وعن الحسن رحمه الله: كل صلاة لا يحضر فيها القلب فهي إلى العقوبة أسرع.

ونقل الغزالي رحمه الله عن أبي طالب المكي عن بشر الحافي أنه قال: من لم يخشع فسدت صلاته.

وعن معاذ بن جبل: من عرف مَن على يمينه وشماله متعمدا وهو في الصلاة فلا صلاة له .

وفي (تحفة المحتاج في شرح المنهاج) لابن حجر الهيتمي: ويسن الخشوع في كل صلاة بقلبه بأن لا يحضر فيه غير ما هو فيه وإن تعلق بالآخرة، وبجوارحه بأن لا يعبث بأحدها، والمراد من الخشوع المذكور في الآية خشوع القلب والجوارح كما هو ظاهر، وإنما يسن الخشوع لثناء الله تعالى في كتابه العزيز، ولانتفاء ثواب الصلاة بانتفائه كما دلت عليه الأحاديث الصحيحة، ولأن لنا وجها اختاره جمع أنه شرط للصحة، لكن في البعض(٣)، فيكره الاسترسال مع حديث النفس، والعبثُ كتسوية ردائه أو عمامته لغير ضرورة من تحصيل سنة أو دفع مضرة. ومما يُحصّل الخشوع استحضار المصلي أنه بين يدى ملك الملوك الذي يعلم السر وأخفى يناجيه، وأنه ربما تجلى عليه بالقهر لعدم قيامه بربوبيته فردّ عليه صلاته اهـــ.

---

[١] الجامع الصغير للسيوطي.

[٢] الترغيب والترهيب في باب الترغيب في الصلاة مطلقا، وفضل الركوع والسجود والخشوع.

[٣] أي بعض الصلاة، فيشترط في هذا الوجه حصول الخشوع في بعضها فقط وإن انتفى في الباقي اهـــ رشيدي.= =وممن ذهب إلى وجوب الخشوع الإمام الرازي، وأطال في الاستدلال له بثمانية خصال اهـــ تفسير الرازي.

وفي (البداية والنهاية) روي أنّهم قطعوا رجله-يعني رِجْل عروة بن الزبير التابعي الجليل- وهو في الصلاة فلم يشعر لشغله بالصلاة. ثم قال ابن كثير: ذكر غير واحد أن الأكلة وقعت في رجله، فدخل على الوليد فجمع له الأطباء العارفين بذلك، فأجمعوا على أنه يقطعها وإلا أكلت رجله كلها إلى وركه، وربما ترقت إلى الجسد فأكلته، فطابت نفسه بذلك، وقالوا له: ألا نسقيك مُرْقِدًا حتى يذهب عقلك فلا تحسّ بالألم، فقال: لا، ولكن إن كنتم لا بد فاعلين ذلك فافعلوا ذلك وأنا في الصلاة، فإني لا أحسّ بذلك ولا أشعر به، فقطعوا رجله من فوق الأكلة وهو قائم يصلي فما اختلج. وقال الأوزاعي: لما قطعت رجل عروة قال: اللهم إنك تعلم أني لم أمش بـــها إلى سوء قط(١).

وفي (صفة الصفوة) و(حلية الأولياء) أن زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب كان إذا توضأ يصفرّ، فيقول له أهله: ما هذا الذي يعتادك عند الوضوء؟ فيقول: تدرون بين يدي من أقوم؟ وكان إذا قام إلى الصلاة أخذته رعدة، فقيل له: مالك؟ فقال: أتدرون بين يدي من أقوم ومن أناجي؟ وقد وقع حريق في بيت فيه علي بن الحسين وهو ساجد، فجعلوا يقولون له: يا ابن رسول الله النارَ يا ابن رسول الله النارَ، فما رفع رأسه حتى أُطْفِئَتْ، فقيل له: ما الذي ألهاك عنها؟ قال: ألهتني عنها النار الأخرى(٢).

وفي (تحفة المحتاج) للهيتمي: ويسن تدبر القراءة في الصلاة أي تأمل معانيها أي إجمالا لا تفصيلا كما هو ظاهر؛ لأنه يشغله عما هو بصدده؛ لأن التدبر يكمل به الخشوع والأدب اهـــ.

وفي (نِهاية المحتاج) للرملي: يسن ترتيل القراءة وهو التأني فيها، فإفراط الإسراع مكروه، وحرف الترتيل أفضل من حرفي غيره اهـــ. يعني إن نصف السورة مثلا مع الترتيل أفضل من تمامها بدونه .

ومن غرر الحكم التي توجب البكاء على النفس وشدة الندم والحث على الخشوع والتدبر ما نظمه الشيخ إسماعيل بن المقري رحمه الله :

تصلي بلا قلب صلاة بمثلها يصير الفتى مستوجبا للعقوبة

[1] البداية والنهاية ج٩ص١٠٢.

[2] صفة الصفوة وحلية الأولياء في ترجمة الإمام زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم.

تصلي وقد أتممتها غير عالم تزيد احتياطا ركعة بعد ركعة
فويلك تدري من تناجيه معرضا وبين يدى من تنحني غير مخبت
تخاطبه إياك نعبد مقبلا على غيره فيها لغير ضرورة
ولو ردّ من ناجاك للغير طرفه تميزت من غيظ عليه وغَيْرَة
أما تستحي من مالك الملك أن يَرَى صدودك عنه يا قليل المروءة
صلاة أقيمت يعلم الله أنــها بفعلك هذا طاعة كالخطيئة
ذنوبك في الطاعات وهي كثيرة إذا عدّدت تكفيك من كل زلة
سبيلك أن تستغفر الله بعدها وأن تتلافى (١) الذنب منها بتوبة
فيا عاملا للنار جسمك ليّن فجربه تمرينا بحر الظهيرة
وجربه في لسع الزنابير تجتري على نَهش حيات هناك عظيمة
فإن كنت لا تقوى فويلك ما الذي دعاك إلى إسخاط رب البرية
تبارزه بالمنكرات عشية وتصبح في أثواب نسك وعفة
فأنت عليه منك أجرأُ على الورى بما فيك من جهل وخبث طوية
تقول مع العصيان ربي غافر صدقت ولكن غافر بالمشيئة
وربك رزاق كما هو غافر فلم لم تصدق فيهما بالسوية
فإنك ترجو العفو من غير توبة ولست ترجي الرزق إلا بحيلة
على أنه بالرزق كفل نفسه ولم يتكفل للأنام بجنة
فَلَمْ تَرْضَ إلا السعي فيما كُفِيْتَهُ وإهمالَ ما كُلِّفْتَه من وظيفة
تسيء به ظنا وتحسن تارة على حسب ما يقضي الهوى في القضية (٢)

---

[١] كذا في النسخة التي نقلت هذه الأبيات منها، والمعنى: وأن تصادف وتلاقي الذنب بتوبة . والله أعلم.

[٢] نقلتها من شرح تائية السلوك إلى ملك الملوك، وهي قصدية طويلة وكلها غرر، ومنها:

إلى كم تمادي في غرور وغفلة وكم هكذا نوم إلى غير يقظة
لقد ضاع عمر ساعة منه تشتري بملء السما والأرض أية ضيعة
أتنفق هذا في هوى هذه التي أبَى الله أن تسوي جناح بعوضة
أترضى من العيش الرغيد تعيشه مع الملإ الأعلى بعيش البهيمة
فيادرة بين المزابل ألقيت وجوهرة بيعت بأبخس قيمة
أفان بباق تشتريه سفاهة وسخطا برضوان ونارا بجنة
أأنت صديق أم عدو لنفسه فإنك ترميها بكل مصيبة

وَبَادِرْ إِلَى الخَيْرَاتِ وَاطْلُبْ مَظِنَّةً لَهَا مِن جِهَاتِ الكَوْنِ فِيْ كُلِّ طَرْفَةِ

أي بادر إلى الخيرات واطلبها من جميع مظانّها في كل وقت وحين، واعلم أن الخيرات الموصلة إلى الله كثيرة، وطرقها غير محصورة، فقد قيل: الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق[١].

كثرة الأجور بتنويع النيات

اعلم أنه قد يكون لعمل واحد ثواب أعمال كثيرة بالإتيان فيه بنيات مختلفة متنوعة، فقد قال الإمام الغزالي في كتاب (الأربعين في أصول الدين): اجتهد أن تستكثر من نِيَّتِك في جميع أعمالك حتى تنوي بعمل واحد بِنِيات كثيرة، ولو صدقت رغبتك هديت لطريقه، ويكفيك مثال واحد، وهو أن الدخول في المسجد والقعود فيه عبادة، ويمكن أن تنوي فيه ثمانية أمور:

أولها: أن تعتقد أنه بيت الله عز وجل، وأن داخله زائر الله تعالى، فتنوي ذلك، قال عليه الصلاة والسلام: من قعد في المسجد فقد زار الله تعالى، وحق على المزور إكرام زائره.

وثانيها: نية المرابطة لقول الله تعالى: وصابروا ورابطوا، قيل: معناه انتظار الصلاة بعد الصلاة.

ولو فعل الأعدا بنفسك بعض ما فعلت لمستهم لها بعض رحمة
لقد بعتها هونا عليك رخيصة وكانت بـــهذا منك غير حقيقة
فويك استفق لا تفضحنها بمشهد من الخلق إن كنت ابن أم كريمة
فبين يديها موقف وصحيفة يعدّ عليها كل مثقال ذرة
كَلِفْتَ بـــها دنيا كثيرا غرورها تقابلنا في نصحها بالخديعة
إذا أقبلت ولت وإن هي أحسنت أساءت وإن صافت أتت بالكدورة
ولو نلت منها مال قارون لم تنل سوى لقمة في فيك منها وخرقة
فدعها وأهليها بقسم وخذ كذا بنفسك عنها فهي كل الغنيمة
ولا تغتبط منها بفرحة ساعة تعود بأحزان عليك طويلة
فعيشك فيها ألف عام وينقضي كعيشك فيها بعض يوم وليلة
عليك بما تجزى عليه من التقى فإنك في لَهو عظيم وغفلة

قوله: (كلفت بـــها دنيا) كذا في الأصل، ولعل معناه: كلفت بنفسك دنيا أي أولعت وأحببت دنيا كثيرا غرورها.

[١] الفتاوي الحديثية للهيتمي ص٦٦.

وثالثها: الاعتكاف، ومعناه كف السمع والبصر والأعضاء عن الحركات المعتادة، فإنه نوع صوم.

ورابعها: الخلوة ودفع الشواغل بلزوم السر للفكر في الآخرة، وكيفية الاستعداد لها.

وخامسها: التجرد للذكر وسماعه أو إسماعه لقوله صلى الله عليه وسلم: من غدا لمسجد يذكر الله تعالى أو يذكّر كان كالمجاهد في سبيل الله تعالى.

وسادسها: أن تقصد إفادة علم وتنبيه من يسيء الصلاة، ونَهيا عن منكر وأمرا بمعروف حتى يتيسر بسببه خيرات ويكون شريكا فيها.

وسابعها: أن تترك الذنوب حياء من الله عز وجل بأن تحبس نفسك في بيته حتى تستحيي منه أن تقارف ذنبا.

وثامنها: أن تستفيد أخا في الله، فإن ذلك عنيمة وذخيرة للدار الآخرة، والمسجد معشش أهل الدين المحبين لله وفي الله.

وقس على هذا سائر الأعمال، فباجتماع هذه النيات تزكو الأعمال، وتلتحق بأعمال المقربين، كما أنه بنقيضها تلتحق بأعمال الشياطين، كمن يقصد من القعود في المسجد التحدث بالباطل، والتفكه بأعراض الناس، ومجالسة أخدان اللهو واللعب، وملاحظة من يجتاز به من النسوان والصبيان، ومناظرة من ينازعه من الأقران على سبيل المباهاة والمراءاة باقتناص قلوب المستمعين لكلامه، وما يجرى مجراه.

وكذلك لا ينبغى أن يغفل في المباحات عن حسن النية، ومثال ذلك في المباحات أن من يتطيب يوم الجمعة يمكنه أن يقصد التنعم بلذته، والتفاخر بإظهار ثروته، أو التزويق للنساء وأخدان الفساد، ويتصور أن ينوي اتباع السنة، وتعظيم بيت الله تعالى، واحترام يوم الجمعة، ودفع الأذى عن غيره بدفع الرائحة الكريهة، وإيصال الراحة إليهم بالرائحة الطيبة، وحسم باب الغيبة إذا شموا منه رائحة كريهة، وإلى الفريقين الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم: من تطيب في الله جاء يوم القيامة وريحه أطيب من ريح المسك، ومن تطيب لغير الله جاء يوم القيامة وريحه أنتن من الجيفة(١).

---

[١] الأربعين في أصول الدين في العقائد وأسرار العبادات والأخلاق للإمام الغزالي ص٢٢٦- ٢٢٨.

وهذا كله من المبادرة إلى الخيرات وطَلَبِها من مظانـــها، المشار إليها بقوله: واطلب مظنة لها إلخ. والله الموفق.

تَمَسَّكْ بِحُبِّ الْمُصْطَفَىْ سَيِّدِ الوَرَىْ وَعَضُّوْا عَلَيْهِ بِالنَّوَاجِذِ إِخْوَتِي

أي كن متمسكا بحب الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم، وعضّ عليه بنواجذك.

واعلم أن محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم واجبة على كل مسلم ومسلمة، فقد روى البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: فو الذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده. وفي رواية أنس زيادة والناس أجمعين. ورواه أيضا مسلم عن أنس (١).

وقد كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم الناس حبا له صـــلى الله عليـــه وسلم، وقد ذكرت في (إقناع المؤمنين بتبرك الصالحين) أنه سئل علي بن أبي طالب رضي الله عنه كيف كان حبكم لرسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: كان والله أحب إلينا من أموالنا وأولادنا وآبائنا وأمهاتنا، ومن الماء البارد على الظمأ.

وكان أبوبكر رضي الله عنه طلب من رسول الله صلى الله عليه وسلم الصحبةَ معه في ذهابه إلى غار ثور في هجرته فقبِل النبي صلى الله عليه وسلم منه، فبكى فرحا وسرورا بذلك.

وفي (البداية والنهاية) قال ابن إسحاق: عن عائشة أم المؤمنين أنـــها قالت: أتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم-أي في بيت أبيها- وقال: إن الله قد أذن لي في الخروج والهجرة، قالت فقال: أبوبكر الصحبة يا رسول الله، قال: الصحبة ، قالت فوالله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أن أحدا يبكي من الفرح حتى رأيت أبابكر يومئذ يبكي اهـــ باختصار .

وفي (المواهب اللدنية) وشرحه للزرقاني روي أنه عليه الصلاة والسلام لما قال: حبب إلي من دنياكم ثلاث: النساء، والطيب، وجعلت قرة عيني في الصلاة، قال أبو بكر الصديق: وأنا يارسول الله حبب إلي من الدنيا النظر إلى وجهك، وجمع المال للإنفاق عليك، والتوسل بقرابتك، أي التوسل إليك بقرابتك كعلي والعباس وفاطمة اهـــ.

---

[١] ذكره البخاري في صحيحه في كتاب الإيمان، وذكره مسلم في باب وجوب محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر من الأهل والناس أجمعين.

وروي عن أبي بكر رضي الله عنه أنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم: والذي بعثك بالحق لإِسلام أبي طالب كان أقر بعيني من إسلامه -يعني أباه أبا قحافة- وذلك إن إسلام أبي طالب كان أقر لعينك.

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال للعباس رضي الله عنه: أن تسلم أحب إلي من أن يسلم الخطاب، لأن ذلك أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وروى البيهقي عن زارع وكان في وفد عبد القيس قال: فجعلنا نتبادر من رواحلنا فنُقَبِّل يد رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجله.

وروي عن عبدة بنت خالد بن معدان قالت: ما كان خالد يأوي إلى فراش إلا وهو يذكر من شوقه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإلى أصحابه من المهاجرين والانصار، يسميهم ويقول: هم أصلي وفصلي، وإليهم يحن قلبي، طال شوقي إليهم، فاجعل رب قبضي إليك حتى يغلبه النوم.

وعن ابن إسحاق أن امرأة من الأنصار قتل أبوها وأخوها وزوجها يوم أُحُدٍ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت: ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قالوا: خيرا، هو بحمد الله كما تحبين، قالت: أرنيه حتى أنظر إليه، فلما رأته قالت: كل مصيبة بعدك جلل.

ولما احتضر بلال رضي الله عنه نادت امرأته واحزناه، فقال: وا طرباه، غدا ألقى الأحبه محمدا وحزبه.

ويروى أن امرأة قالت لعائشة رضي الله عنها: اكشفي لي قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فكشفته لها، فبكت حتى ماتت.

وفي كتاب (حياة الصحابة): أخرج الطبراني عن حصين بن وحوح الأنصاري أن طلحة بن البراء رضي الله عنهما لما لقي النبي صلى الله عليه وسلم فجعل يلصق برسول الله صلى الله عليه وسلم ويقبل قدميه، قال: يا رسول الله، مرني بما أحببت ولا أعصي لك أمرا، فعجب لذلك النبي صلى الله عليه وسلم وهو غلام، فقال له عند ذلك: اذهب فاقتل أباك، فخرج موليا ليفعل، فدعاه فقال له: أقبل فإني لم أبعث بقطيعة رحم اهـــ.

وفي (المواهب اللدنية) للحافظ القسطلاني: كان السختياني إذا ذكر النبي صلى الله عنده بكى حتى نرحمه، وكان جعفر بن محمد كثير الدعابة والتبسم، وإذا ذكر عنده النبي صلى

الله عليه وسلم اصفر لونه، وكان عبد الرحمن بن قاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق إذا ذكر النبي صلى الله عليه وسلم ينظر إلى لونه كأنه قد نزف منه الدم وقد جف لسانه في فمه هيبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم. و"نزف" بضم النون وكسر الزاي أي سال عنه الدم ولم يبق منه شيء، وكان عبد الله بن الزبير إذا ذكر عنده النبي صلى الله عليه وسلم بكى حتى لا يبقى في عينه دموع، وكان الزهري محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن هشام من أهنأ الناس وأقربهم -أي في المودة- فإذا ذكر عنده النبي صلى الله عليه وسلم فكأنك ما عرفته ولا عرفك. وكان صفوان بن سليم -بضم السين- من المتعبدين المجتهدين، فإذا ذكر عنده النبي صلى الله عليه وسلم بكى، فلا يزال يبكي حتى يقوم الناس عنه ويتركوه.

وفي (الشفاء) للقاضي عياض: قال مصعب بن عبد الله: كان الإمام مالك إذا ذكر النبي صلى الله عليه وسلم يتغير لونه وينحني حتى يصعب ذلك على جلسائه، فقيل له يوما في ذلك: فقال: لو رأيتم ما رأيت لما أنكرتم عليّ ما ترون، ولقد كنت أرى محمد بن المنكدر وكان سيد القراء لا تكاد تسئله عن حديث أبدا إلا يبكي حتى نرحمه، ولقد كنت آتي عامر بن عبد الله بن الزبير، فإذا ذكر عنده النبي صلى الله عليه وسلم بكى حتى لا يبقى في عينيه دموعه.

وفي (المواهب اللدنية) أن عبد الله بن زيد بن عبد ربه الأنصاري الذي رأى الأذان كان يعمل في جنة له، فأتاه ابنه فأخبره أن النبي صلى الله عليه وسلم توفي، فقال: اللهم أذهب بصري حتى لا أرى بعد حبيبي محمد صلى الله عليه وسلم أحدا فكف بصره.

وكان الإمام مالك كما في (الشفاء) لا يركب بالمدينة دابة، وكان يقول: استحيي من الله تعالى أن أطأ تربة فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم بحافر دابة.

وفي (الإصابة في تمييز الصحابة) : وفي (الزهد) للبيهقي بسند صحيح عن عمر بن محمد ابن زيد بن عبد الله بن عمر سمعت أبي يقول: ما ذكر ابن عمر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا بكي، ولا مر على ربعهم إلا غمض عينيه . وقال في (مجمع الزوائد) بعد ذكره هذا: رواه الطبراني في (الأوسط) .

وبالجملة كان الصالحون من السلف والخلف معروفين بمحبته صلى الله عليه وسلم، وكان للصحابة رضي الله عنهم الحظ الأوفر والنصيب الكامل منها، فقد ملأ حبه صلى الله عليه وسلم قلوبهم ولم يترك فيها فراغا، وكانوا كما قال القائل:

تملّك بعض حبك كل قلبي فإن ترد الزيادة هات قلبا

روى الطبراني وابن مردويه عن عائشة وابن عباس رضي الله عنهم أن رجلا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: لأنت أحب إليّ من أهلي ومالي، وإني لأذكرك(١) فما أصبر عنك حتى أنظر إليك، وإني ذكرت موتي وموتك، فعرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبيين، وإن دخلتها لا أراك، فأنزل الله تعالى: ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا، فدعا به صلى الله عليه وسلم فقرأها عليه. وفي تفسير القرطبي: أنه لما قرأها صلى الله عليه وسلم دعا الله أن يعميه حتى لا يرى أحدا غيره في الدنيا فعمي مكانه اهـ .

ويحكى أنه رؤيت امرأة مسرفة على نفسها بعد موتها، فقيل لها: ما فعل الله بك قالت: غفر لي، قيل: بماذا؟ قالت: بمحبتي لرسول الله صلى الله عليه وسلم وشهوتي النظر إليه، فنوديت من اشتهى النظر إلى حبيبنا نستحيي أن نذله بعتابنا، بل نجمع بينه وبين من يحبه اهـ .

ومما تنشأ عنه محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم متابعته في أفعاله وأحواله كلها، والتمسك بسنته، وبذل المهجة في خدمة ملّته بالتعلم والعمل بها، ثم بتعليم الناس ودعوتهم إليها، والذب عن حمى الشريعة وحراسة أصولها وفروعها، وقمع المبتدعة وإزالة شبهها وإدحاض أباطيلها، فمن أكرمه الله بمتابعة حبيبه صلى الله عليه وسلم واقتفاء آثاره أعطاه الله ببركتها محبته صلى الله عليه وسلم، لأنه إذا تابعه واقتدى به في أموره تعلق به قلبه ويكثر تفكره فيه، ويكون بينه وبينه صلى الله عليه وسلم علاقة التابع والمتبوع، والخادم والمخدوم، ويدوم بينهما الاتصال الروحي والارتباط القلبي، فيدرك حينئذ محاسنه صلى الله عليه وسلم ويستحضر في ذهنه كمالاته الظاهرة والباطنة، وينطبع ذلك في نفسه ويستقر فيها، فيستحسن حينئذ أحواله صلى الله عليه وسلم من

---

[١] قوله: إني لأذكرك، يعني أتذكرك في ذهني وأتصورك، أو أذكر اسمك وصفاتك

أفعاله وأقواله وتصرفاته وأخلاقه، ورحمته وجوده ووقاره، وحيائه وحلمه وفصاحته وجوامع كلامه وغير ذلك من مزاياه العلية، وأوصافه السنية، وجمال صورته البهية، فيؤدي ذلك إلى محبته وتعظيمه، والتلذذ بذكر اسمه صلى الله عليه وسلم، ولا يخفى أن استحسان الشيء يقتضي حبه وميل القلب إليه، فتحقق لك إن شاء الله أن متابعته صلى الله عليه وسلم الصادقة تكون سببا قويا لمحبته عليه الصلاة والسلام، بل قد تكون أقوى الأسباب وأعلاها وأنفعها، رزقنا الله من متابعته حظا وافرا ونصيبا كاملا، وكما تكون المتابعة سببا للمحبة كذلك تكون المحبة الصادقة سببا للمتابعة والطاعة غالبا، فإن المحب يستحيي طبعا عن مخالفة محبوبه، فقد قيل :

تعصي الإله وأنت تظهر حبه   هذا لعمري في القياس شنيع

لو أن حبك صادقا لأطعته   إن المحب لمن يحب مطيع

فالمحبة والمتابعة متلازمتان، متى وجدت إحداهما ترتبت عنها الأخرى غالبا، فأيتهما سبقت عن أختها لحقتها الأخرى هذا ما ظهر، والعلم عند الله سبحانه وتعالى اهـ.

وهذه بنذة يسيرة لخصتها من كتابي إقناع المؤمنين بتبرك الصالحين، وقد بسطت القول في تعريف المحبة وعلاماتها وأسبابها وثوابها وما روي عن السلف الصالح من محبتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ومحبة الجمادات وشوقها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه، فمن أراد العثور على ذلك فعليه بذلك الكتاب .

إِذَا كُنْتَ مُشْتَاقاً بُلُوْغَ ذُرَى العُلا   فَكُنْ تَابِعاً طَهَ بِأَكْمَلِ قُدْوَةِ

بِأَقْوَالِهِ وَفِعْلِهِ بَلْ وَحَالِهِ   تَنَلْ كُلَّ خَيْرٍ بِالدَّوَامِ وَنِعْمَةِ

أي إذا كنت مشتاقا إلى بلوغ ذروة المجد وقِمَّتِه فكن تابعا للحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم، متأسيا به في أخلاقه وأعماله وأحواله كلها، فإنك إذا فعلت ذلك واقتديت به في ذلك كله يكون حركاتك وسكناتك وأعمالك وجميع تصرفاتك على أحسن الأحوال وأشرف الخصال، فتنال بذلك كل خير دنيوي وأخروي، فإنه ليس شيء يساوي أو يداني في الفضل والثواب بأعماله صلى الله عليه وسلم.

وقال العارف بالله أحمد بن عطاء الله السكندري في (تاج العروس): قد جمع الله الخير كله في بيت، وجعل مفتاحه في متابعته صلى الله عليه وسلم، فمن فتح له باب المتابعة فذلك

دليل على محبة الله له ، قال تعالى: قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني، وإذا طلبت الخير كله فقل: اللـــهم أني أسألك المتابعة لرسولك صلى الله عليه وسلم في الأقوال والأفعال، وقال الله تعالى حكاية عن الخليل عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم السلام: فمن تـــبعني فإنـــه مني، فمفهوم هذا أن من لم يتبعه ليس منه، وقال تعالى حكاية عن نوح عليه وعلى نبينـــا المصطفى أزكى الصلاة والسلام: إن ابني من أهلي فأجابه سبحانه بقوله تعالى: إنه لـــيس من أهلك إنه عمل غير صالح، فالمتابعة تجعل التابع كأنه جزء من المتبوع وإن كان أجنبيا، كسلمان الفارسي لقوله صلى الله عليه وسلم: سلمان منا أهل البيت، ومعلوم أن سلمان رضي الله عنه من أهل فارس، ولكن بالمتابعة قال عنه صلى الله عليه وسلم ذلك تعليما، فكما أن المتابعة تثبت الاتصال، كذلك عدمها يثبت الانفصال اهـــ.

ولقد أجاد الشيخ العلامة محمد بن عبد الله بن محمد السلميّ ابن أبي الفضل المرسي حيث قال:

من كان يرغب في النجاة فما له ... غير اتّباع المصطفـــى فيما أتـــى
ذاك السبيل المستقيـــم وغيـــره ... سُبُل الضلالة والغوايـــة والـــرَّدى
فاتْبَع كتابَ الله والسنَنَ الـــتي ... صحت فذاك إذا اتّبعتَ هو الهدى
ودع السؤال بلم وكيف فإنه ... باب يجر ذوي البصيرة للعمـــى
الدينُ ما قال النبيُ وصحبُـــه ... والتابعون ومَنْ مناهجَهم قَفَا (١)

وقال الجنيد البغدادي: الطريق إلى الله عز وجل مسدود على خلقه إلا على المقتفين آثار رسول الله صلى الله عليه وسلم كما قال الله عز وجل: {**لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة**}(٢).

وفي (إقناع المؤمنين بتبرك الصالحين) نقلا عن (المواهب اللدنية) وشرحه للزرقاني : لـــيس الشأن أن تحب الله فقط، بل الشأن أن يحبك الله، ولا يحبك إلا إذا اتبعت حبيبه صلى الله عليه وسلم ظاهرا وباطنا، وصدقته وأطعت أمره وأجبت دعوته، وآثرت طاعته على كل شيء، وإن لم تكن كذلك فلا تتعنّ، فلست على شيء، وتأمل قوله تعـــالى: فـــاتبعوني

[1] إقناع المؤمنين بتبرك الصالحين ص٣٩ .

[2] طبقات الشافعية الكبرى لابن السبكي، ترجمة الجنيد البغدادي.

يحببكم الله أي الشأن في أن الله يحبكم لا في أنكم تحبونه، وهذا لا ينالونـــه إلا باتبـــاع الحبيب صلى الله عليه وسلم انتهى باختصار.

وقال أبو عبد الله محمد بن خفيف: ما سمعت شيئا من سنن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا واستعملته حتى الصلاة على أطراف الأصابع، وهي صعبة (١).

نبذة فيمن اشتهر بمتابعته صلى الله عليه وسلم

وفي (إقناع المؤمنين بتبرك الصالحين) وكان كثير من السلف والخلف يكثر التبرك به صلى الله عليه وسلم وبكل ما له اتصال وتعلق به. وكان عبد الله بن عمر رضى الله عنهما معروفا بالتبرك بآثاره صلى الله عليه وسلم وتتبعها حتى ظن البعض أن به نوع خلل وخفة.

ففي (سير أعلام النبلاء) و(حلية الأولياء) لأبي نعيم أن عبد الله بن عمر رضى الله عنه كان يتبع أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وآثاره وحاله ويهتم به، حتى كان قد خيف على عقله من اهتمامه بذلك.

وعن نافع قال: لو نظرت إلى ابن عمر إذا اتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم لقلت هذا مجنون.

وقال ابن عمر: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو تركنا هذا الباب للنساء، قال نافع : فلم يدخل منه ابن عمر حتى مات .

وكان إذا رآه أحد ظن به شيئا مما يتبع آثار النبي صلى الله عليه وسلم .

وعن نافع أن ابن عمر كان في طريق مكة يأخذ برأس راحلته يثنيها ، ويقول : لعل خفا يقع على خف يعني خف راحلة النبي صلى الله عليه وسلم.

وكان سلمة يتحرى الصلاة عند الأسطوانة التي عند المصحف، فقلت له: يا أبا مسلم أراك تتحرى الصلاة عند هذه الأسطوانة، قال: رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يتحرى الصلاة عندها اهـــ.

وقال الإمام النووي في (التلخيص شرح الجامع الصحيح): قَلَّ أن يوجد نظير لعبد الله بن عمر رضي الله عنه في المتابعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم في كل شيء .

---

[١] فتح المغيث شرح ألفية الحديث للسخاوي باب آداب طالب الحديث.

وقال الإمام أحمد: ما كتبت حديثا إلا وقد عملت به حتى مرّ بي في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم احتجم وأعطى أباطيبة دينارا فأعطيت الحجام دينارا حين احتجمت(١).

احتجمت(١).

وفي (فتح المغيث) صلى رجل ممن يكتب الحديث بجنب ابن مهدي، فلم يرفع يديه، فلما سلم قال له: ألم تكتب عن ابن عيينة حديث الزهري عن سالم عن أبيه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يرفع يديه في كل تكبيرة؟ قال: نعم، قال: فما ذا تقول لربك إذا لقيك في تركك لهذا وعدم استعماله؟(٢).

وكان شيخ مشايخنا الشيخ عبد الرحمن بن عبد الله الشاشي المقدشي المشهور بالشيخ صوفي كثير الاجتهاد في اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم في أفعاله وأحواله كلها، وقد قال رحمه الله تعالى في قصيدته اللامية المسماة: النبذة اليقينية في معجزات خير البرية:

هذا لتشريعه معالم النهج ونتأسى به في كل ما فعلا (٣)

[١] فتح المغيث شرح ألفية الحديث للسخاوي باب آداب طالب الحديث.

[٢] فتح المغيث شرح ألفية الحديث للسخاوي باب آداب طالب الحديث .

[٣] والقصيدة طويلة تبلغ ٤٢٨ بيتا، وقبل هذا البيت:

تنبيك سيرته عظيم رتبته تنبيك أوصافه أن قد بأى وعلا

لابس بيض وخضر من ثيابهم وخاتم فضة في خنصر جعلا

وكان يمزح لكن لا يقول سوى حق ويفشي السلام لا لمن حظلا

يجلس محتبيا ما مدّ رجله قط والقرفصا وارتدى واعتم وانتعلا

وعاطسا يضع اليد على فمه وقصّ شاربه ولحيه هملا

فصل في احترام المشايخ

وَآدَابُ طُلاَّبِ العُلُوْمِ كَثِيْرَةٌ   كَصُحْبَةِ شَيْخِهِ بِتَعْظِيْمِ حُرْمَةِ

أي إن آداب طالبي العلم كثيرة، منها: السكينة والوقار، وصحبة شيخه باحترام وتواضع وغيرهما مما يشعر بتعظيمه، فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: تعلموا للعلم السكينة والوقار، وتواضعوا لمن تعلمون منه، رواه الطبراني في الأوسط.

وفي الإحياء وشرحه: ينبغي أن يتواضع المتعلم لمعلمه ويطلب الثواب والشرف بخدمته، قال الإمام عامر بن شراحيل الشعبي: صلى زيد بن ثابت على جنازة فقربت له بغلة ليركبها فجاء ابن عباس فأخذ بركابه تبركا وتشرفا، فقال زيد: خلّ عنه يا بن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال ابن عباس: هكذا أمرنا أن نفعل بالعلماء، فقبّل زيد بن ثابت يده وقال: هكذا أمرنا أن نفعل بآل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقال صلى الله عليه وسلم: ليس من أخلاق المؤمن التملق إلا في طلب العلم (١).

وفي (مقدمة المجموع) ينبغي للمتعلم أن يتواضع للعلم والمعلم فبتواضعه يناله، وقد أمرنا بالتواضع مطلقا فهنا أولى، وقد قالوا:

العلم حرب للفتى المتعالي   كالسيل حرب للمكان العالي

وينقاد لمعلمه، ويشاوره في أموره، ويأتمر بأمره، كما ينقاد المريض لطبيب حاذق ناصح، وهذا أولى لتفاوت مرتبتهما، وقالوا: لا يأخذ العلم إلا ممن كملت أهليته وظهرت ديانته، وتحققت معرفته واشتهرت صيانته وسيادته، فقد قال ابن سيرين ومالك وخلائق من السلف: هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم (٢).

وفي (تذكرة السامع) ينبغي أن لا يخاطب شيخه بتاء الخطاب وكافه، ولا يناديه من بعد بل يقول: يا سيدي ويا أستاذي. وقال الخطيب: يقول: أيها العالم وأيها الحافظ ونحو ذلك، ولا يسميه في غيبته باسمه إلا مقرونا بما يشعر بتعظيمه كقوله: قال الشيخ أو الأستاذ كذا(٣) اهـ.

---

[١] شرح الإحياء جـ١ص٣١٢.

[٢] مقدمة المجموع باب أداب المتعلم .

[٣] تذكرة السامع ص١٩٠ .

ومن آدابه أن يقبّل يد شيخه، فعن جميلة أم ولد أنس بن مالك قالت: كان ثابت إذا أتى أنسا قال: يا جارية، هاتي لي طيبا أمسح يدي، فإن ابن أم ثابت لا يرضى حتى يقبل يدي، رواه أبو يعلى(١).

وقال علي بن أبي طالب: من حق العالم أن لا تكثر عليه السؤال، ولا تعنته في الجواب، ولا تلح عليه إذا كسل، ولا تأخذ بثوبه إذا نَهض، ولا تفشي له سرا، ولا تغتاب عنده أحدا، وأن تجلس أمامه، وإذا أتيته خصصته بالتحية، وسلمت على القوم عامة، وأن تحفظ سره ومغيبه، وإنما العالم بمنـــزلة النخلة تنتظر متى يسقط عليك منها شيء (٢).

ولقد أحسن من قال:

رأيت أحق الحق حق المعلم وأوجبه حفظا على كل مسلم

لقد حق أن يهدى إليه كرامة لتعليم حرف واحد ألف درهم

وقال بعضهم: من تأذى منه أستاذه يحرم بركة العلم، ولا ينتفع به إلا قليلا، كما قيل:

إن المعلم والطبيب كلاهما لا ينصحان إذا هما لم يكرما

فاصبر لدائك إن جفوت طبيبه واقنع بجهلك إن جفوت معلما

وعن أبي أمامة الباهلي، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من علَّم عبدا آية مـــن كتاب الله فهو مولاه، لا ينبغي أن يخذله ولا يستأثر عليه، رواه الطبراني في الكبير (٣).

وفي (تذكرة السامع): قال شعبة: كنت إذا سمعت من الرجل الحديث كنت له عبدا ما حيي(٤).

وروى الخطيب البغدادي عن أبي بكر محمد بن علي الأدموني النحوي قال: إذا تعلم الإنسان من العالم واستفاد منه الفوائد فهو له عبد، قال الله تعالى: {**وإذ قال موسى لفتاه**} وهو يوشع بن نون و لم يكن مملوكا له وإن كان متلمذا له متبعا له فجعله الله فتاه لذلك(٥).

---

[١] مجمع الزوائد للهيثمي في باب آداب الطالب من كتاب العلم، ج١ص١٧٢، وقال: جميلة هذه لم أر من ترجمها.

[٢] الفقيه والمتفقه ج ٢ص٩٩.

[٣] مجمع الزوائد باب معرفة حق العالم، قال الهيثمي: وفيه عبيد بن رزين اللاذقي، و لم أر من ذكره.

[٤] تذكرة السامع، ص١٩٠.

[٥] الفقيه و المتفقه ج٢ص٩٩.

وفي (تعليم المتعلم) حكي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: أنا عبد من علمني حرفا واحدا إن شاء باع وإن شاء أعتق وإن شاء استرق اهـــ .

وقد كان الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه يقول: شر الناس اللئيم، إذا ارتفع جفا أقاربه، وأنكر معارفه ونسي فضل معلمه، ولأجل ذلك ضربوا المثل وقالوا: كل شيء إذا زرعته قلعته إلا ابن آدم إذا زرعته قلعك(١).

وفي المجموع: كان بعض المتقدمين إذا ذهب إلى معلمه تصدق بشيء وقال: اللهم استر عيب معلمي عني، ولا تذهب بركة علمه مني(٢).

وكان الإمام النووي إذا ذَكَر الصالحين ذكرهم بتعظيم وتوقير واحترام، وذكر مناقبهم(٣).

ومنها: إذا أوقفه الشيخ على دقيقة من أدب وكان يعرفه من قبل فلا يظهر أنه كان عارفا به، بل يشكر على إفادته ذلك واعتنائه بأمره، فإن كان له في ذلك عذر وكان إعلام الشيخ به أصلح فلا بأس به، وإلا تركه إلا أن يترتب على ترك بيان العذر مفسدة فيتعين إعلامه(٤) اهـــ.

ومنها أن يكون الطالب خاليا عن العلائق والشواغل، فارغا عن كل ما يصرفه عن وِجْهته ومقصده، متجردا عن الكسب وتحمل المسئولية، غير متزوج، فقد قال الإمام النووي في مقدمة (المجموع): قال الخطيب البغدادي في كتاب (الجامع لآداب الراوي والسامع): يستحب للطالب أن يكون عزبا ما أمكنه؛ لئلا يقطعه الاشتغال بحقوق الزوجة والاهتمام بالمعيشة عن إكمال طلب العلم، واحتج بحديث خيركم بعد المائتين خفيف الحاذ، وهو الذي لا أهل له ولا ولد.

وعن إبراهيم بن أدهم رحمه الله: من تعود أفخاذ النساء لم يفلح، يعني اشتغل بـــهنّ، وهذا في غالب الناس لا الخواص.

---

[١] المنن الكبرى للشعراني ص٣٥٤

[٢] مقدمة المجموع ص٨٤.

[٣] المنهاج السوي في ترجمة الإمام النووي للسيوطي.

[٤] تذكرة السامع ص١٩٣.

وعن سفيان الثوري: إذا تزوج الفقيه فقد ركب البحر فإن ولد له فقد كسر به، وقال سفيان لرجل: تزوجت؟ فقال: لا، قال: ما تدري ما أنت فيه من العافية.

قال النووي: هذا كله موافق لمذهبنا؛ فإن مذهبنا أن من لم يحتج إلى النكاح استحب له تركه، وكذا إن احتاج وعجز عن مؤنته، وفي الصحيحين عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ما تركت بعدي فتنة هي أشد على الرجال من النساء (١).

وَبِرٌّ (٢) لَهُ وَاللِّيْنُ فِيْ كُلِّ حَالَةٍ   دُعَاءٌ لَهُ فِيْ الجَهْرِ أَيْضاً وَخُفْيَةِ

في هذا البيت ثلاث خصال من آداب الطالب مع شيخه، وهي البر واللين والدعاء له في السر والجهر، فأما البر فهو لغة الصلة والخير والاتساع في الإحسان، وقال الهيتمي في (الفتح المبين شرح الأربعين): قال العلماء: البر يكون بمعنى الصلة وبمعنى الصدق، وبمعنى اللطف والمبرّة وحسن العشرة والصحبة ولين الجانب واحتمال الأذى، وغير ذلك اهـ.

وروى الخطيب البغدادي بسنده في (الفقيه والمتفقه) عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: اطلبوا العلم واطلبوا مع العلم السنة ثوالحلم، لينوا لمن تُعلّمون ولمن تعلّمون منه، ولا تكونوا من جبابرة العلماء فَيغلبَ علمَكُم جهلُكُم(٣).

وقال النووي في مقدمة المجموع ما نصه: وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم: لينوا لمن تُعلّمون ولمن تَتعلّمون منه اهـ(٤) .

---

[1] مقدمة المجموع ص٨٢-٨٣.

[2] قوله: وبر وما عطف عليه بالجر معطوف على صحبة شيخه، ويجوز أن يكون مرفوعا خبرا لمبتدإ محذوف أي ومن آداب الطالب البر لشيخه.

[3] الفقيه والمتفقه ج ٢ص١١٣.

[4] مقدمة المجموع ص٧٤

المداراة والتملق

ينبغي لطالب العلم المداراة والتملق لشيخه، قال البخاري في صحيحه: يذكر عن أبي الدرداء: إنا لَنَكْشِرُ(١) في وجوه قوم وإن قلوبنا لتلعنهم(٢).

قال العسقلاني في الفتح: وزاد بعضهم: ونضحك إليهم. قال ابن بطال: المداراة من أخلاق المؤمنين، وهي خفض الجناح للناس، ولين الكلمة وترك الإغلاظ لهم في القول، وذلك من أقوى أسباب الأُلْفَةِ، وظن بعضهم أن المداراة هي المداهنة فغلط؛ لأن المداراة مندوب إليها، والمداهنة محرمة، وفسرها العلماء بأنـــها معاشرة الفاسق وإظهار الرضا بما هو فيه من غير إنكار عليه، والمداراة هي الرفق بالجاهل في التعليم، وبالفاسق في النهي عن فعله، وترك الإغلاظ عليه حيث لا يُظهر ما هو فيه، والإنكار عليه بلطف القول والفعل، ولا سيما إذا احتيج إلى تألفه ونحو ذلك اهـــ

وروى البخاري عن عروة بن الزبير أن عائشة أخبرته أنه استأذن على النبي صلى الله عليه وسلم رجل، فقال: ائذنوا له فبئس ابن العشيرة أو بئس أخو العشيرة، فلما دخل ألانَ له الكلام، فقلتُ له: يا رسول الله قُلتَ ما قُلتَ، ثم أَلَنْتَ له في القول، فقال: أي عائشة إن شر الناس منـــزلة عند الله من تركه -أو ودعه- الناس اتقاء فحشه.

وقال العسقلاني: وفي بعض طرقه: إنه منافق أُدَارِيْهِ عن نفاقه وأخشى أن يفسد عليّ غيره. وفي رواية مسروق عن عائشة: مرّ رجل برسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: بئس عبد الله وأخو العشيرة، ثم دخل عليه فرأيته أقبل عليه بوجهه كأنّ له عنده منـــزلة، أخرجه النسائي .

وروى البخاري عن عبد الله بن أبي مليكة أن النبي صلى الله عليه وسلم أهديت له أقبية من ديباج مزررة بالذهب، فقسمها في أناس من أصحابه، وعزل منها واحدا لمخرمة، فلما جاء قال: خبأت هذا لك، قال أيوب بثوبه أنه يريه إياه، وكان في خلقه شيء.

---

[١] الكشر بالشين المعجمة وفتح أوله ظهور الأسنان، وأكثر ما يطلق عند الضحك.

[٢] ذكره البخاري في باب المداراة مع الناس من كتاب الأدب.

قال العسقلاني في الفتح: قوله: "قال أيوب بثوبه وأنه يريه إياه" معناه: أشار أيوب بثوبه ليري الحاضرين كيفية ما فعل النبي صلى الله عليه وسلم عند كلامه مع مخرمة، ولفظ القول يطلق ويراد به الفعل(١).

وروي عن أبي هريرة أنه صلى الله عليه وسلم قال: رأس العقل المداراة، وأهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة(٢).وفي رواية: رأس العقل بعد الإيمان بالله التودد إلى الناس، وما يستغني رجل عن مشورة.

وفي رواية أخرى: رأس العقل بعد الإيمان بالله مداراة الناس(٣).

وفي (الجامع الصغير) إذا مررتم بأهل الشرة فسلموا عليهم تطفأ عنكم شرتُهم وثائرتُهم. قال العزيزي: أي عداوتُهم وفتنتهم، رواه البيهقي عن أنس بن مالك وهو ضعيف.

وقال ابن حجر الهيتمي: التملق والمداراة يراد بـــهما التواضع للغير وعدم الاعتراض عليه فيما يفعله أو يصدر عنه، وقد يضم إلى ذلك مدح أفعاله، والانتصار لصحة أحواله وأقواله، مع البشاشة له والإجلال والتعظيم، وحكم ذلك كله أنه إن ترتّب عليه إعانة على باطل أو تحسين ما قبّحه الشرع أو تقبيح ما حسنّه الشرع أو غير ذلك من المفاسد التي لا يدركها إلا العلماء الحكماء العالمون بالكتاب والسنة، الآخذون أنفسهم بالحق في كل نَفَس ولحظة، كان كل منهما حراما شديد التحريم إن تحققت المفسدة أو غلب على الظن وقوعها، وإلا كان مكروها، وإن لم يترتب عليه شيء من ذلك أبيح، وإن ترتّب عليه إعانة على الحق أو تألف لقبوله أو نحوهما من المصالح الخاصة والعامة كان مندوبا متأكد الندب، بل قد يرتقي الحال إلى الوجوب كما قال بعض أئمتنا في القيام، قال: فإنّ تَرْكَه الآن صار عَلَما على القطيعة ووقوع الفتنة، فيجب دفعا لذلك، ولا شك أن القيام إذا خشي من تركه ضرر أو فتنة أو تنافر القلوب أو نحو ذلك يكون من المداراة، وهي في نحو ذلك إما متأكدة الندب أو الوجوب، والكلام فيمن لم توجد فيه الصفات المقتضية لندب القيام من نحو علم أو صلاح أو قرابة أو شرف نسب أو صداقة، فافهم هذا التفصيل

---

[١] فتح الباري ج١٠ص٥٢٨-٥٢٩.

[٢] قال السيوطي في الجامع الصغير: رواه البيهقي، وقال العزيزي في شرحه على الجامع الصغير: قال الشيخ أي السيوطي رحمه الله: صحيح المتن ضعيف السند.

[٣] جامع الصغير للسيوطي.

المأخوذ من أفعاله صلى الله عليه وسلم وأقواله، فإنه ملتبس على كثير ممن لم يحط بالسنة وكلام الأئمة، فربما أفرط فمنع المداراة مطلقا، وربما فرّط فمدحها مطلقا، وكل من هذين خطأ، والصواب ما فصلتُه وقررتُه(١) اهـــ.

وقال أبو يوسف رحمه الله: خمسة يجب على الإنسان مداراتُهم وعدّ منهم العالم ليقتبس من علمه.

وفي (تذكرة السامع) ينبغي أن يدعو الطالب لشيخه مدة حياته ويرعى ذريته وأقاربه وأودّاءه بعد وفاته، ويتعاهد زيارة قبره والاستغفار له والصدقة عنه، ويسلك في السمت والهدي مسلكه، ويراعى في العلم والدين عادته، ويقتدي بحركاته وسكناته في عاداته وعبادته، ويتأدب بآدابه ولا يدع الاقتداء به، وأن يصبر على جفوة تصدر من شيخه أو سوء خلق، ولا يصدّه ذلك عن ملازمته وحسن عقيدته، ويتأول أفعاله التي يظهر أن الصواب خلافها على أحسن تأويل، ويبدأ هو عن جفوة الشيخ بالاعتذار والتوبة مما وقع والاستغفار وينسب الموجب إليه، ويجعل العتب فيه عليه، فإن ذلك أبقى لمودة شيخه وأحفظ لقلبه وأنفع للطالب اهـــ.

وقال أبويوسف تلميذ الإمام أبي حنيفة: إني لأدعو لأبي حنيفة قبل أبويّ، ولقد سمعت أباحنيفة يقول: إني لأدعو لحماد مع أبويّ اهـــ.

وفي تعليق أبي غدة على (رسالة المسترشدين): قال أبوحنيفة: ما صليت صلاة منذ مات حماد إلا استغفرت له مع والديّ، وإني لأستغفر لمن تعلمت منه أو علمني علما.

وقال الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه: ما بت منذ ثلاثين سنة إلا وأنا أدعو للشافعي وأستغفر له.

وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل: قلت لأبي: أي رجل كان الشافعي، فإني سمعتك تكثر من الدعاء له؟ فقال: يا بني: كان الشافعي كالشمس للدنيا، وكالعافية للناس، فانظر هل لهذا من خلف؟ أو عنهما من عوض؟.

---

[١] الفتاوي الحديثية لابن حجر الهيتمي ص٢٦.

وقال النووي في (مقدمة المجموع): ومن آداب الطالب أن يبتدئ درسه بالحمد لله والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم والدعاء للعلماء ومشايخه ووالديه وسائر المسلمين ويُبَكِّر بدرسه لحديث اللهم بارك لأمتي في بكورها[1] .

وقال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: من صنع إليكم معروفا فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له، حتى تروا أنكم قد كافئتموه، رواه عن ابن عمر النسائي، وأبو داود، واللفظ له في كتاب الزكاة باب عطية من سأل الله (٢).

وَتَوْقِــيْــرُهُ إجْلاْلُــهُ وَمَحَبَّــةٌ حَقِيْقِيّةٌ وَبِشْرُهُ فِــيْ التَّحِيَّةِ

أي ومن آدابه توقير الشيخ وإجلاله ومحبته الحقيقية والبشر وطلاقة الوجه عند سلامه ولقائه، روى الحافظ ابن عبد البر بسنده عن ابن طاووس عن أبيه قال: من السنة أن توقر العالم[3] .

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: عليك أن توقر العالم وتعظمه لله ما دام يحفظ أمر الله، وإن كانت له حاجة سبقت القوم إلى خدمته[4].

وقال المليباري في هداية الأذكياء:

ومعلما وقر ولست مجادلا (٥)

وقال الشيخ أبوغدة في تعليق له على (رسالة المسترشدين): وفي مناقب الإمام أبي حنيفة للموفق الخوارزمي: روي عن أبي حنيفة أنه قال: ما مددت رجلي نحو دار أستاذي حماد إجلالا له، وان بين داري وداره سبع سكك اهـــ.

---

[1] مقدمة المجموع باب آداب المتعلم.

[2] تعليق على رسالة المسترشدين لأبي غدة ص٢٠٣.

[3] جامع بيان العلم وفضله، في باب هيبة المتعلم للعالم ج١ص١٣٦.

[4] جامع بيان العلم وفضله، في باب آداب العالم والمتعلم ج١ص١٥٦.

[5] عجز بيت، وصدره:

وَجِّهْ كَلامَ القَومِ غَيْرَ مُخَطِّئِ

أي إذا طالعت كلام القوم الصوفية فاحمله على محمل حسن ولا تخطئه، ولا تعترض عليهم فيه فإن ذلك يكدّر ويُبْلِد الذهن ويخاف عليك سوء الخاتمة، نعوذ بالله من ذلك. قال سيدنا القطب الحبيب عبد الله الحداد:

وسلم لأهل الله في كل مشكل لديك لديهم واضح بالأدلة

اهـــ كفاية الأتقياء ومنهاج الأصفياء للسيد أبوبكر بن محمد شطا.

ومن آدابه محبته لشيخه كما يحب والده وولده أو أشد من ذلك، فإنه وارث رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولن يكمل إيمان أحد حتى يكون النبي صلى الله عليه وسلم أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين، فعلى الطالب أن يحب شيخه حبا من نوع حبه صلى الله عليه وسلم وإن لم يكن مثله ولا مقاربه؛ لأنه هو المبلغ عنه صلى الله عليه وسلم.

وينبغي للطالب أيضا أن يقابله بالبشر وطلاقة الوجه والسرور عند سلامه ولقائه؛ لأن هذا مطلوب شرعا عند تلاقي المؤمنين عموما وعند الأصدقاء والأحباب خصوصا، فعند المشايخ أجدر وأهمّ. والله أعلم.

وَمُفْتَرِشاً كُنْ فِيْ جُلُوْسِكَ عِنْدَهُ وَخَفِّضْ لَدَيْهِ الصَّوْتَ مَعْ كُلِّ هَيْبَةِ

أي كن مفترشا في جلوسك عند شيخك فإنه أقرب إلى الأدب مع شيخك والى التواضع، وهو جلوس التشهد الأول، واغضض صوتك عنده هيبة له وتعظيما، قال ابن حجر الهيتمي في شرح الهمزية: كان مجلسه صلى الله عليه وسلم مجلس علم وحياء، وخير وأمانة، لا ترفع فيه الأصوات، ولا تنتهك فيه الحرم، إذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطير(١)اهـ.

وفي (إتحاف السادة المتقين): قال السيوطي: قد أورد الديلمي في (مسند الفردوس) بسنده عن عبد العزيز بن سعيد عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم: من غض صوته عند العلماء كان يوم القيامة من الذين امتحن الله قلوبهم من أصحابي، ولا خير في التملق والتواضع إلا ما كان في الله أو طلب العلم (٢) اهـ .

وقال القرطبي في تفسير قوله تعالى: {**لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض**}: كره بعض العلماء رفع الصوت في مجالس العلماء تشريفا لهم؛ إذ هم ورثة الأنبياء اهـ.

وروى الخطيب البغدادي في (الفقيه والمتفقه) بسنده أن عبد الله بن عباس رضي الله عنه قال: مكثت سنة وأنا أريد أن أسأل عمر بن الخطاب عن آية لا أستطيع أن أسأله هيبة.

---

[١] المنح المكية في شرح الهمزية ص٢٩١.

[٢] إتحاف السادة المتقين شرح إحياء علوم الدين ج١ص ٣١٣

وذكر ابن عبد البر أن سعيد بن المسيب قال: قلت لسعد بن مالك رضي الله: إني أريد أن أسألك عن شيء وإني أهابك، فقال: لا تـــهبني يا ابن أخي، إذا علمت أن عندي علما فسلني(١).

وفي المجموع: قال الشافعي رحمه الله: كنت أصفح الورقة بين يدى مالك رحمه الله صفحا رقيقا هيبة له؛ لئلا يسمع وقعها.

وقال الربيع: والله ما اجترأت أن أشرب الماء والشافعي ينظر إليّ هيبة له (٢).

وَمُمْتَــثِــلاً لأَمْرِهِ كُنْ وَرَاضِياً بِهِ فَاَحْذَرَنْ خِلاْفَهُ قَــدْرَ ذَرَّةِ

أي كن أيها الطالب ممتثلا لأمر شيخك ونَهيه من غير تلعثم وتردد؛ فإنه لا يأمرك إلا بما ينفعك، ولا ينهاك إلا عما يضرك، وكن راضيا بذلك في قلبك، طيبة به نفسك غير مستثقل به، واحذرن خلافه في كل كبير وصغير وإن كان قدر ذرة.

قال البد بن جماعة في (تذكرة السامع) ينبغي أن ينقاد لشيخه في أموره ولا يخرج عن رأيه وتدبيره، بل يكون معه كالمريض مع الطبيب الماهر فيشاور فيما يقصد ويتحرى رضاه، ويبالغ في حرمته، ويتقرب إلى الله تعالى بخدمته، ويعلم أن ذله لشيخه عز، وخضوعه له فخر، وتواضعه له رفعة، ويقال: إن الشافعي عوتب على تواضعه للعلماء فقال:

أهين لهم نفسي فهم يكرمونــــها ولم تكرم النفس التي لا تُهينها(٣)

وينبغي لطالب العلم أن يتعامى عما قد يقع من أستاذه من شدة طبع وسوء خلق ونحـــو ذلك من كل ما تستثقل به النفس وتكرهه، فقد قال الإمام الشافعي رضي الله عنه: قيـــل لسفيان بن عيينة: إن قوما يأتونك من أقطار الأرض تغضب عليهم، يوشك أن يذهبوا أو يتركوك، فقال للقائل: هم حمقى إذن مثلك إن تركوا ما ينفعهم لسوء خلقي .

---

[1] جامع بيان العلم وفضله في باب هيبة المتعلم للعالم ج١ص١٣٥.

[2] مقدمة المجموع ص٨٤.

[3] تذكرة السامع ص١٨٨.

وفي (جامع بيان العلم): أن بلال بن أبي بردة قال: لا يمنعكم سوء ما تعلمون منا أن تقبلوا أحسن ما تسمعون منا، وقال الخليل بن أحمد: اعمل بعلمي وإن قَصَّرْتُ في عملي، ينفعك علمي، ولا يضررك تقصيري(١).

وينبغي له أيضا أن لا يأنف من تأديب أستاذه ولومه وزجره وقيده وحبسه وضربه، بل يسرّ بذلك ويراه إحسانا له من أستاذه، ففي (جامع بيان العلم وفضله): أن بعضهم قال:

ولطمة عالم في الخد مني ألذ لديّ من شرب الرحيق (٢)

وَسَلِّمْ لَهُ اخْتِيَارَ فَنٍّ تُرِيْدُهُ فَإِنّ لَهُ فِي ذَاكَ أَعْظَمَ خِبْرَةِ

أي أطع واستسلم لشيخك في اختياره لك الفنون التي تتعلمها؛ فإن له التجربة والخبرة في ذلك. ففي (تعليم المتعلم): ينبغي لطالب العلم أن لا يختار نوع علم بنفسه، بل يفوِّض أمره إلى الأستاذ، فإن الأستاذ قد حصل له التجارب في ذلك، فكان أعرف بما ينبغي لكل أحد وما يليق بطبيعته، وكان طلبة العلم في الزمان الأول يفوِّضون أمورهم في التعلم إلى أساتذتهم، فكانوا يصلون إلى مقاصدهم ومرادهم، والآن يختارون بأنفسهم، فلا يحصل مقصودهم من العلم والفقه.

وحكي أن محمد بن إسماعيل البخاري رحمه الله تعالى كان بدأ بكتاب الصلاة على محمد بن الحسن، فقال له محمد رحمه الله تعالى: اذهب وتعلّم علم الحديث، لِمَا رأى أن ذلك العلم أليق بطبعه، فطلب علم الحديث فصار فيه مقدَّما على جميع أئمة الحديث اهـ .

وقال الغزالي: لا ينال العلم إلا بالتواضع وإلقاء السمع. قال: ومهما أشار عليه شيخه بطريق في التعلم فليقلده وليدع رأيه، فخطأ أمر شيخه أنفع له من صوابه في نفسه(٣)اهـ.

---

[١] جامع بيان العلم ج١ص١٥٩.

[٢] جامع بيان العلم في باب فضل النظر في الكتب، ج٢ص٢٤٨، والبيت من الوافر.

[٣] تذكرة السامع، ص١٨٨.

خاتمة

اعلم أن مشايخك هم آباؤك في الدين، وأن لهم عليك مثلَ حقوق الوالدين من البر والإحسان إليهم والاحترام والطاعة والانقياد والدعاء في حياتـــهم وبعد مماتـــهم، قال الإمام النووي رحمه الله في (تـــهذيب الأسماء واللغات): إن سلسلة الفقه يعني السند من المطلوبات المهمات والنفائس الجليلات التي ينبغي للمتفقه والفقيه معرفتها، ويقبح به جهالتها، فإن الشيوخ في العلم آباء في الدين، ووصلة بينه وبين رب العالمين، وكيف لا يقبح جهل الأنساب والوصلة بينه وبين ربه الكريم الوهاب مع انه مأمور بالدعاء لهم وبرهم وذكر مآثرهم والثناء عليهم وشكرهم اهـــ .

وقال حجة الإسلام أبو حامد الغزالي فى الإحياء: حق المعلم -يعنى الدال على الخير والآخرة- أعظم من حق الوالدين، فإن الوالد سبب الوجود الحاضر والحياة الفانية، والمعلم سبب الحياة الباقية اهـــ .

وقال الرازي في تفسيره: العالم أرأف بالتلميذ من الأب والأم؛ لأن الآباء والأمهات يحفظونه من نار الدنيا وآفاتـــها، والعلماء يحفظونه من نار الآخرة وشدائدها.

وقال بعضهم : أبو الإفادة أنفع من أبى الولادة .

ولقد أجاد القائل :

أقدم استاذى على فضل والدى وإن كان لى من والدى البر واللطف

فهذا مربى الروح والروح جوهر وهذا مربى الجسم وَهْوَ لها صَدف(١)

وفي كتاب (صفحات من صبر العلماء) قال الإمام الشافعي: الحر: من راعى وداد لحظة وانتمى إلى من أفاده لفظة(٢).

وفي (فتح المغيث) للسخاوي قال طاووس: من السنة أن يوقر العالم، لقوله صلى الله عليه وسلم: ليس منا من لم يوقر كبيرنا، ولا شك أنه بمنـــزلة الوالد وأعظم، وإجلاله من إجلال العلم (٣)

---

[١] وفي بعض النسخ والجسم كالصدف بدل قوله: وهو لها صدف.

[٢] صفحات من صبر العلماء لأبي غدة ص٢٤٨.

[٣] فتح المغيث شرح ألفية الحديث للسخاوي ج٢ص٢٤.

وذكرت في (إقناع المؤمنين) أن الشيخ أبا إسحاق الشيرازي كان يقول: من قرأ عليّ مسئلة فهو ولدي اهـــ.

وأما رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو الوالد الأعظم، والأب الأكرم، فحقوقه عليك أعظم من جميع الحقوق وأوجب، فكما أن زوجاته صلى الله عليه وسلم أمهات للمؤمنين كذلك هو أب رؤوف رحيم للمؤمنين، فقد قال الإمام النووي في (تَهذيب الأسماء واللغات): قال البغوي من أصحابنا: ويقال للنبي صلى الله عليه وسلم: أبو المؤمنين والمؤمنات، و نقل الواحدي عن بعض أصحابنا أنه لا يقال ذلك، لقوله تعالى: **{ما كان محمد أبا أحد من رجالكم}** قال: ونصّ الشافعي على جوازه، أي أبوهم في الحرمة، قال: ومعنى الآية: ليس أحد من رجالكم ولد صلبه . وفي الحديث الصحيح في سنن أبي داود وغيره أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إنما أنا لكم مثل الوالد (١)اهـــ.

وفي (مجمع الزوائد) عن عبادة بن الصامت، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ليس من أمتي من لم يجل كبيرنا ويرحم صغيرنا ويعرف لعالمنا حقه، رواه أحمـــد والطـــبراني في الكبير، وإسناده حسن.

وعن أبي أمامة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ثلاثة لا يستخف بِهم إلا منافق: ذو شيبة في الإسلام، وذو العلم، وإمام مقسط، رواه الطبراني في الكبير من رواية عبيد الله ابن زحر، عن علي بن يزيد، وكلاهما ضعيف.

وعن أبي مالك الأشعري أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: لا أخاف علـــى أمتي إلا ثلاث خلال، أن يكثر لهم من الدنيا فيتحاسدون فيقتتلو، وأن يفتح لهم الكتـــاب يأخذه المؤمن يبتغي تأويله وليس يعلم تأويله إلا الله، والراسخون في العلم يقولون: **{آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألباب}** وإن يروا ذا علمهـــم فيضـــيعونه ولا يبالون عليه، رواه الطبراني في الكبير، وفيه محمد بن إسماعيل بن عياش، عن أبيه و لم يسمع من أبيه اهـــ.

---

[١] تـــهذيب الأسماء واللغات في فصل خصائص رسول الله صلى الله عليه وسلم .

أهمية تلقي العلم من أفواه المشايخ

قال أبو الدرداء: إنما العلم بالتعلم، وإنما الحلم بالتحلم، ومن يتحرى الخير يعطه، ومن يتوقى الشر يوقه (١).

وفي (مجمع الزوائد) للهيثمي عن ابن مسعود أنه كان يقول: فعليكم بهذا القرآن، فإنه مأدبة الله، فمن استطاع منكم أن يأخذ من مأدبة الله فليفعل، فإنما العلم بالتعلم، رواه البزار في حديث طويل، ورجاله موثقون.

وفي (إتحاف السادة المتقين): قد أجمع العلماء على فضل التعلم من أفواه الشيوخ، فالقراءة على العلماء أجدى وأفضل من قراءة الإنسان لنفسه، وقد قال العلماء: لا تأخذ العلم من صحفي ولا من مصحفي، يعني لا تقرأ القرآن على من قرأ من المصحف ولا الحديث وغيره على من أخذ ذلك من الصحف(٢).

وفي (مقدمة المجموع): قالوا: وينبغي لطالب العلم أن لا يأخذ العلم إلا ممن كملت أهليته، وظهرت ديانته، وتحققت معرفته، واشتهرت صيانته وسيادته، ولا يكفي في أهلية التعليم أن يكون كثير العلم، بل ينبغي مع كثرة علمه بذلك الفن كونه له معرفة في الجملة بغيره من الفنون الشرعية، فإنها مرتبطة.

وقالوا: ولا يأخذ العلم ممن كان أخذه له من بطون الكتب من غير قراءة على شيوخ أو شيخ حاذق، فمن لم يأخذه إلا من الكتب يقع في التصحيف، ويكثر منه الغلط والتحريف(٣) اهـ.

وفي (مجمع الزوائد): عن ابن عباس قال: خطب عمر بن الخطاب الناس بالجابية، وقال: أيها الناس من أراد أن يسأل عن القرآن فليأت أُبَيَّ بن كعب، ومن أراد أن يسأل عن الفرائض فليأت زيد بن ثابت، ومن أراد أن يسأل عن الفقه فليأت معاذ بن جبل، ومن أراد أن يسأل عن المال فليأتني فإن الله جعلني له واليا وقاسما رواه الطبراني في الأوسط، قال الهيثمي: وفيه سليمان بن داود بن الحصين، لم أر من ذكره (٤).

---

[١] جامع بيان العلم وفضله في فصل الإنصاف في العلم، ج١ص١٦٤.

[٢] إتحاف السادة المتقين، ج١ص٦٦.

[٣] مقدمة المجموع ص٨٣-٨٤.

[٤] مجمع الزوائد للهيثمي، في باب أخذ كل علم من أهله من كتاب العلم.

قال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى: من تفقه من الكتب ضيع الأحكام(١).

وقال الحافظ أبو بكر الخطيب البغدادي:لا يؤخذ العلم إلا من أفواه العلماء.

وقال الشيخ محمد عوامه في كتاب (أدب الاختلاف في مسائل العلم والدين): قال إمام الحرمين:

أخي لن تنال العلمَ إلا بستةٍ سأنبيك عن تفصيلها ببيانِ

ذكاءٍ وحرصٍ وافتقارٍ وغربةٍ وتلقينِ أستاذٍ وطولِ زمانِ (٢)

ثم قال الشيخ عوامه: ذلك أنه بالتلقي عن الأستاذ يحصل الطالب على خيرين، يحصل على العلم الصافي المحقَّق، ويحصل على الأدب مع العلماء والشيوخ؛ لأنه سيلتزم الأدب مع معلمه، ومنه يَتَعَرَّفُ على قدر العلماء .

و لم يكونوا يلتفتون إلى من لم يكن له شيوخ في العلم ولا يقيمون له وزنا ولا اعتبارا، ولا يرون فيه أهلية التكلم معه؛ لأنه محل الخطل والغلط، ففي (الإلماع) للقاضي عياض، و(الصلة) لتلميذه ابن بشكوال بسندهما إلى ابن الفَرَضي أن صالح بن الإمام أحمد قال: لقد التفت المعتصم إلى أبي فقال له: كَلِّمْ ابن أبي دؤاد، فأعرض عنه أبي بوجهه وقال: كيف أكلم من لم أره على باب عالم قط؟!.

وقال القاضي عياض رحمه الله في ترجمة أبي جعفر الداودي: بلغني أنه كان ينكر على معاصريه من علماء القيروان سكناهم في مملكة بني عُبَيْد وبقاءهم بين أظهرهم وأنه كتب إليهم مرة بذلك، فأجابوه: أسكت لا شيخ لك. أي لأن درسه كان وحده و لم يتفقه في أكثر علمه عند إمام مشهور، وإنما وصل إلى ما وصل بإدراكه، ويشيرون أنه لو كان له شيخ يفقهه حقيقة الفقه لعلم أن بقاءهم مع من هناك من عامة المسلمين تثبيت لهم على الإسلام، فانظر إلى جوابِهم: أسكت لا شيخ لك، ولهذا كله –وغيره- كان كل من أخذ العلم عن السطور ضالا مضلا، قال النووي رحمه الله: من رأى المسئلة في عشرة كتب

---

[١] مقدمة المجموع باب آداب المتعلم.

[٢] قال الشيخ محمد عوامه: هذان البيتان اشتهرا على لسان العلماء ينسبان إلى الإمام الشافعي رضي الله عنه، وهما لإمام الحرمين شافعي عصره رحمه الله. وقال في تعليقه على هذا الكتاب: إن الحافظ ابن النجار رحمه الله أسند هذين البيتين إلى إمام الحرمين في ذيل تاريخ بغداد ج١ص٨٩ مع مغايرة يسيرة، وبمثل لفظ ابن النجار ذكرهما السبكي في طبقاته ج٥ص٢٠٨.

مثلا لا يجوز له الإفتاء بِها؛ لاحتمال أن تلك الكتب ماشية على قول أو طريق ضـــعيف. فأين المتبجح بأنه ليس له إلا شيخ واحد وبالإجازة لا بالتلقي اهــ ملخصا(١).

تنبيه في فضائل مجالسة العلماء والنظر إليهم

وفي مجمع الزوائد عن أبي أمامة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن لقمان قـــال لابنه: يا بني عليك بمجالسة العلماء، واسمع كلام الحكماء، فإن الله يحيى القلب الميت بنور الحكمة، كما يحيي الأرض الميتة بوابل المطر، رواه الطبراني في الكبير، وفيه عبيد الله بـــن زحر، عن علي بن يزيد، وكلاهما ضعيف لا يحتج به.

وعن أبي جحيفة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: جالسوا الكـــبراء، وســـائلوا العلماء وخالطوا الحكماء، رواه الطبراني في الكبير من طريقين، إحداهما هذه والأخـــرى موقوفة، وفيه عبد الملك بن حسين أبو مالك النخعي، وهو منكر الحـــديث، والموقـــوف صحيح الإسناد.

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا قالوا: يارسول الله ما رياض الجنة؟ قال: حلق العلم، رواه الطبراني في الكبير، وفيه رجل لم يسم.

وعن عبد الله بن مسعود أنه كان يقول: المتقون ساده، والفقهاء قاده، ومجالستهم زياده. قلت: هذا بعض حديث طويل، رواه الطبراني في الكبير، ورجاله موثقون .

وعن سهل التستري: من أراد النظر إلى مجالس الأنبياء فلينظر إلى مجالس العلماء، فاعرفوا لهم ذلك .

وذكر الفخر الرازي في تفسيره عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن الرجل ليخرج من منـــزله وعليه من الذنوب مثل جبل تـــهامة، فإذا سمع العلم وخاف واسترجع على ذنوبه انصرف إلى منـــزله وليس عليه ذنب، فلا تفارقوا مجالس العلماء؛ فإن الله لم يخلق تربة على وجه الأرض أكرم من مجالس العلماء(٢).

---

[١] أدب الإختلاف في مسائل العلم والدين للشيخ محمد عوامه ص١٦١-١٦٥ تحت عنوان قوارب النجاة وسبُل الخلاص من الواقع المؤلم.

[٢] تفسير الفخر الرازي.

فائدة في فضيلة التعلم في المساجد

ومن المهم اختيار الأماكن الفاضلة لتعلم العلم كالمساجد والربط ونحوهما، وعن أبي أمامة عن النبي صلى الله عليه وسلم: من غدا إلى المسجد لا يريد إلا أن يتعلم خيرا أو يعلمه كان له كأجر حاج تاما حجته، رواه الطبراني في الكبير بإسناد لا بأس به.

وعقد الخطيب البغدادي في (الفقيه والمتفقه) مبحثا في فضل تدريس الفقه في المساجد، فروى بسنده عن أبي الأحوص قال: أدركنا الناس وما مجالسهم إلا المساجد.

وقال: يستحب للفقيه أن لا يخل بعقد الحلقة في المسجد الجامع في أيام الجمعات.

وروى أيضا بسنده عن معاوية بن قرة قال: أدركت ثلاثين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم من مزينة ليس فيهم إلا من طعن أو طعن أو ضرب أو ضرب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كان يوم الجمعة اغتسلوا ولبسوا من صالح ثيابهم وشموا من طيب نسائهم ثم أتوا الجمعة وصلوا ركعتين ثم جلسوا يُبِثّون العلم والسنة حتى يخرج الإمام(١) اهـ.

وقال جعفر بن برقان: كتب إلينا عمر بن عبد العزيز وقال في كتابه: مر أهل الفقه من جندك فلينشروا ما علّمهم الله في مساجدهم ومجالسهم والسلام(٢).

وقال سفيان بن عيينة قال: مررت بأبي حنيفة وهو مع أصحابه في المسجد وقد ارتفعت أصواتهم، فقلت: يا أبا حنيفة هذا في المسجد والصوت لا ينبغي أن يرفع فيه؟ فقال: دعهم فإنهم لا يفقهون إلا بهذا(٣) .

وقال النووي في المجموع: يستحب عقد حلق العلم في المساجد وذكر المواعظ والرقائق ونحوها، والأحاديث الصحيحة في ذلك كثيرة مشهورة(٤).

---

[١] الفقيه والمتفقه ج٢ص١٢٩-١٣٠.

[٢] علو الهمة ص٢٧١.

[٣] جامع بيان العلم وفضله في فصل رفع الصوت في المسجد وغير ذلك من آداب العلم، ج١ص١٦٩.

[٤] المجموع شرح المهذب في فصل المساجد وأحكامها، ج٢ص١٧٧.

الصبر على ضيق المعيشة

وَكُنْ بِالْيَسِيْرِ قَانِعاً رَاضِياً بِمَا حَبَاكَ الإلَـهُ مِنْ قَلِيْلٍ كَلُقْمَةِ

أي كن أيها الطالب قانعا باليسير من المعيشة راضيا بما أعطاكه الله تعالى منها وإن كان قليلا كلقمة، قال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى: لا يصلح طلب العلم إلا لمفلس، فقيل: ولا الغني المكفيِّ؟ قال: ولا الغني المكفيِّ. وقال مالك بن أنس رحمه الله: لا يبلغ أحد من هذا العلم ما يريد حتى يضرّ به الفقر ويؤثره على كل شيء.

وقال إبراهيم الآجري: من طلب العلم بالفاقة ورث الفهم (١).

وقال الشافعي أيضا: ما أفلح في العلم إلا من طلبه بالقلة، وقال أيضا: ما فزعت من فقر قطّ (٢) .

وقال الجنيد البغدادي: ما أخذنا النصوص من القال والقيل ولكن عن الجوع وترك الدنيا وقطع المألوف(٣).

ولما آثر أحمد بن حنبل رضي الله عنه طلب العلم وكان فقيرا بقي أربعين سنة يتشاغل به ولا يتزوج، فينبغي للفقير أن يصبر على فقره كما فعل أحمد، فما شاع له الذكر الجميل ولا ترددت الأقدام إلى قبره إلا لمعنى عجيب، وتَلْمَحُ قبورَ أكثر العلماء لا تعرف ولا تزار، ترخصوا وتأولوا وخالطوا السلاطين فذهبت بركة العلم ومحى الجاه، ووردوا عند الموت حياض الندم، فالصبر الصبر أيها الطالب للفضائل، فإن لذة الراحة بالهوى أو بالبطالة تذهب ويبقى الأسى(٤) اهـــ.

وقال الشيخ عبد الفتاح أبو غدة في كتابه (صفحات من صبر العلماء): إن القائمين بأمور الدين من القضاء والفتيا والتدريس والإمامة والخطابة والأذان ونحو ذلك لا تعظم ثروتُهم في الغالب، لأن عامة الخلق لا تضطر إليهم، وإنما يحتاج إلى ما عندهم الخواص ممن أقبل على دينه، وإن احتيج إلى الفتيا والقضاء في الخصومات فليس على وجه الإضطرار والعموم، فيقع الاستغناء عن هؤلاء في الأكثر، وهم لشرف بضائعهم أعزة على الخلق

---

[١] مقدمة المجموع في باب آداب المتعلم، ص٨٢.

[٢] مقدمة المجموع ص٤٠ .

[٣] طبقات الشافعية الكبرى لابن السبكي، ترجمة الجنيد البغدادي.

[٤] صيد الخاطر، في فصل تكاليف المجد ص٣٨٩.

وعند نفوسهم، فلا يخضعون لأهل الجاه حتى ينالوا منهم حظا يستدرون به الرزق، بل ولا تفرغ أوقاتـــهم لذلك، لما هم فيه من الشغل بـــهذه البضائع الشريفة المشتملة على إعمال الفكر والبدن، بل ولا يسعهم ابتذال أنفسهم لأهل الدنيا، لشرف بضائعهم، فهم بمعزل عن ذلك، فلذلك لا تعظم ثروتـــهم في الغالب .

ولقد باحثت بعض الفضلاء في هذا المعنى فأنكر ذلك عليّ، فوقع بيدي أوراق مخزقة من حسابات الدواوين بدار "المأمون" تشتمل على كثير من الدخل والخرج، وكان فيما طالعت فيه أرزاق القضاة والأئمة والمؤذنين، فوقفته عليه، وعلم منه صحة ما قلته ورجع إليه، وقضينا العجب من أسرار الله في خلقه وحكمته في عوالمه، والله الخالق القادر لا رب سواه(١) اهـــ.

وقال أبو غده أيضا: قال أحمد عمر المزجد الزبيدي المتوفى سنة ٩٣٠هـــ:

قلت للفقر أين أنت مقيم ... قال لي في عمائم الفقهاء (٢)

إن بيني وبينهم لإخـــاء ... وعزيز عليّ قطع الإخاء

انتهى (٣)

وقال شعبة بن الحجاج: إذا رأيتم المحبرة في يد إنسان فارحمه، وإن كان في كمك شيء فأطعمه(٤) اهـــ.

فَكَمْ مِنْ إِمَامٍ طَبَّقَ (٥) الأَرْضَ عِلْمُهُ ... تَعَلَّمَ فِيْ جُـــوْعٍ وَأَضْيَقِ عِيْشَةِ

أي كم من إمام من أئمة المسلمين عم الأرض علمه، وقد تعلم العلم في جوع وأضيق معيشة كالإمام الشافعي رحمه الله تعالى؛ فإنه قال: كنت يتيما في حجر أمي فدفعتني إلى الكتاب و لم يكن عندها ما تعطـــي المعلم، وكان المعلم قد رضي مني أن أخلفه إذا قـــام،

---

[١] صفحات من صبر العلماء، ص١٤٥-١٤٦.

[٢] وفي بعض النسخ: في محابر العلماء .

[٣] صفحات من صبر العلماء، ص١٥٥.

[٤] جامع بيان العلم ج٢ص١٦٢.

[٥] في القاموس: طبق الشيء تطبيقا عَمَّ.

فلما جمعت القرآن دخلت المسجد، فكنت أجالس العلماء وكنت أسمع الحديث والمسألة فأحفظها، فلم يكن عند أمي ما تعطيني أشتري به القراطيس، فكنت أنظر إلى العظم فآخذه فأكتب، فإذا امتلأ طرحته في جرة فاجتمع عندي حبّان (١). وقال الإمام الشافعي أيضا: كنت وأنا في الكتاب أسمع المعلم يلقن الصبي الآية فأحفظها أنا، ولقد كان الصبيان يكتبون إملاءهم، فإلى أن يفرغ المعلم من الإملاء عليهم كنت قد حفظت جميع ما أملى، فقال لي ذات يوم: ما يحل لي أن آخذ منك شيئا، قال: ثم لما أن خرجت من الكتاب كنت ألتقط الخزف والرقوق.(٢) وكَرَب النخل(٣) وأكتاف الجمال أكتب فيها الحديث، وأجيء الدواوين وأستوهب منها الظهور فأكتب فيها حتى كان لأمي حبان فملأتُهما أكتافا وخزفا، وكربا مملوءة حديثا(٤).

ومما نسب إلى الإمام الشافعي رحمه الله تعالى قوله:

علىّ ثياب لو تباع جميعها بفلس لكان الفلس منهنّ أكثرا

وفيهنّ نفس لو تقاس جميعها نفوس الورى كانت أجل وأكبرا

وما ضر نصل السيف إخلاق غمده إذا كان عضبا حيث وجهته فرى

وقال أيضا رحمه الله تعالى: لا يطلب أحد هذا العلم بالملك وعِزِّ النفس فيفلح، ولكن من طلبه بذل النفس، وضيق العيش، وخدمة العلماء أفلح.

وفي حكمة لقمان الحكيم: يا بني إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة، وخرست الحكمة، وقعدت الأعضاء عن العبادة. وقال سفيان الثوري: بقلة الطعام يملك سهر الليل. وقال سحنون: لا يصلح العلم لمن يأكل حتى يشبع. وقال سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إياكم والبطنة، فإنـــها مكسلة عن الصلاة، مفسدة للجسم، مؤدية إلى السقم، وعليكم بالقصد في قوتكم، فهو أبعد من السرف، وأصح للبدن، وأقوى على العبادة، وإن العبد لن يهلك حتى يُؤْثِرَ شهوته على دينه(٥) .

---

[1] والحبان تثنية حب وهو الجرة الضخمة، والجمع أحبان وحِبَبَة وحِباب . لسان العرب.

[2] جمع رق: وهو جلد رقيق يكتب فيه.

[3] الكرب أصول السعف، العراض التي تيبس فتصير مثل الكتف واحدها كرَبة لسان العرب

[4] مناقب البيهقي، ج١ص٩٢-٩٥.

[5] تعليق على كتاب قيمة الزمن ١٠٩-١١٠.

وفي (طبقات الحنابلة) أن الإمام الشافعي قال: أحمد بن حنبل إمام في ثمان خصال، منها الزهد والفقر، وسيأتي بتمامها إن شاء الله تعالى في ترجمته في مبحث التمسك بالمذاهب الأربعة.

وفي (صفحات من صبر العلماء) قال أبوبكر الخلال: سمعت أبا زرعة الصغير يحكي عن إبراهيم بن يعقوب قال: كان أحمد بن حنبل يصلي، فسها يوما في صلاته، فسئل عنه، فأخبر أنه لم يطعم شيئا منذ ثلاث.

وفيه أيضا: قال الحافظ ابن رجب الحنبلي في كتابه (ذيل طبقات الحنابلة) أن الحافظ المعمر أبابكر محمد بن عبد الباقي قال: كنت مجاورا بمكة حرسها الله، فأصابني يوما من الأيام جوع شديد، لم أجد شيئا أدفع به عني الجوع، فوجدت كيسا من إبريسم مشدودا بشرابة من إبريسم أيضا، فأخذته وجئت به إلى بيتي، فحللته فوجدت فيه عقدا من لؤلؤ لم أر مثله، فخرجت فإذا بشيخ ينادي عليه، ومعه خرقة فيها خمسمائة دينار، وهو يقول: هذا لمن يرد علينا الكيس الذي فيه اللؤلؤ، فقلت: أنا محتاج، وأنا جائع، فآخذ هذا الذهب فأنتفع به، وأردّ عليه الكيس، فقلت له: تعال إليّ فأخذته وجئت به إلى بيتي، فأعطاني علامة الكيس وعلامة الشرابة وعلامة اللؤلؤ وعدده والخيط الذي هو مشدود به، فأخرجته ودفعته إليه، فسلّم إليّ خمسمائة دينار، فما أخذتُها، وقلت: يجب عليّ أن أعيده إليك، ولا آخذ له جزاء، فقال لي: لا بد أن تأخذ وألحّ عليّ كثيرا، فلم أقبل ذلك منه، فتركني ومضى.

وأما ما كان مني فإني خرجت من مكة وركبت البحر، فانكسر المركب وغرق الناس، وهلكت أموالهم وسلمت أنا على قطعة من المركب، فبقيت مدة في البحر لا أدري أين أذهب؟! فوصلت إلى جزيرة فيها قوم، فقعدت في بعض المساجد، فسمعوني أقرأ، فلم يبق في تلك الجزيرة أحد إلا جاء إليّ وقال: علمني القرآن، فحصل لي من أولئك القوم شيء كثير من المال. ثم إني رأيت في ذلك المسجد أوراقا من مصحف، فأخذتُها أقرأ فيها، فقالوا لي: تحسن تكتب؟ فقلت: نعم، فقالوا: علّمنا الخط، فجاؤوا بألادهم من الصبيان والشباب، فكنت أعلّمهم، فحصل لي أيضا من ذلك شيء كثير، فقالوا لي بعد ذلك:

عندنا صبية يتيمة، ولها شيء من الدنيا، نريد أن تتزوج بـــها، فامتنعتُ، فقالوا: لا بد، وألزموني فأجبتهم إلى ذلك.

فلما زفوها إليّ مددت عينيّ أنظر إليها، فوجدت ذلك العقد بعينه معلقا في عنقها، فما كان لي حينئذ شغل إلا النظر إليه، فقالوا: يا شيخ كسرت قلب هذه اليتيمة من نظرك إلى هذا العقد، ولم تنظر إليها، فقصصت عليهم قصة العقد، فصاحوا وصرخوا بالتهليل والتكبير، حتى بلغ إلى جميع أهل الجزيرة، فقلت: ما بكم؟ فقالوا: ذلك الشيخ الذي أخذ منك العقد أبو هذه الصبية، وكان يقول: ما وجدت في الدنيا مسلما كهذا الذي رد عليّ هذا العقد، وكان يدعو ويقول: اللهم اجمع بيني وبينه حتى أزوجه بابنتي، والآن قد حصلت، فبقيت معها مدة، ورزقت منها ولدين، ثم إنـــها ماتت فورثت العقد أنا وولداي، ثم مات الولدان فحصل العقد لي، فبعته بمائة ألف دينار، وهذا المال الذي ترونه معي من بقايا ذلك المال(١).

قال التاج السبكي في (طبقات الشافعية الكبرى) في ترجمة الإمام أبي إسحاق الشيرازي إبراهيم بن علي: قال أبو العباس الجرجاني: كان أبو إسحاق الشيرازي لا يملك شيئا من الدنيا، فبلغ به الفقر مبلغه، حتى كان لا يجد قوتا ولا ملبسا، ولقد كنا نأتيه فيقوم لنا نصف قومة، ليس يعتدل قائما من العري كى لا يظهر منه شيء، قيل: وكان إذا بقي مدة لا يأكل شيئا جاء إلى صديق له باقلاني، فكان يثرد له رغيفا، فربما أتاه وقد كان فرغ من بيع الباقلاء فيقف أبو إسحاق ويقول: تلك إذًا كرة خاسرة ويرجع(٢).

وقال ابن السبكي في ترجمة الفقيه الشافعي المقرئ المحدث المتعبد الزاهد أبي الحسن علي بن أحمد بن الحسين بن محمويه: قال السمعاني: كان له عمامة وقميص بينه وبين أخيه إذا خرج هذا قعد ذاك في البيت، وإذا خرج ذاك قعد هذا في البيت، سمعته يقول: وقد دخلت عليه داره مع على بن الحسين الغزنوي الواعظ، مسلما عليه، فوجدناه عريانا متأزرا بمئزر،

---

[١] صفحات من صبر العلماء ص٢٢٢-٢٢٤.

[٢] أنظر طبقات الشافعية الكبرى في ترجمة أبي إسحاق الشيرازي.

فاعتذر من العري، وقال: نحن إذا غسلنا ثيابنا نكون كما قال القاضي أبو الطيب الطبري:

قوم إذا غسلوا ثياب جمالهم لبسوا البيوت إلى فراغ الغاسل(١)

قال الحافظ الذهبي في (تذكرة الحفاظ): إن الإمام الحافظ الجوال أبا علي الحسن بن علي البلخي الوخشي قال يوما: سمعت ورحلت وقاسيت المشاق والذل ورجعت إلى -وخش- وهي قرية من أعمال بلخ- وما عرف أحدهم قدري، ولا فهم ما حصلته، فقلت: أموت ولا ينتشر ذكري، ولا يترحل أحد علي، فسهل الله ووفق نظام الملك حتى بنى هذه المدرسة في وخش، وأجلسني فيها حتى أحدث، ولقد كنت بعسقلان أسمع من ابن مصحح وغيره، فضاقت عليّ النفقة وبقيت أياما بلا أكل، فأخذت لأكتب، فعجزت، فذهبت إلى دكان خباز، وقعدت بقربه لأشم رائحة الخبز وأتقوى بِها، ثم فتح الله عليّ(٢) اهـ.

وفي كتاب (صفحات من صبر العلماء): قال الحافظ الذهبي في (العبر في خبر من غبر) وفي (ميزان الاعتدال): قال بكر بن حمدان: سمعت الحافظ عبد الرحمن بن يوسف بن خراش يقول: شربت بولي في هذا الشأن -يعني طلب الحديث- خمس مرات(٣) .

وفي مقدمة (إعانة الطالبين حاشية فتح المعين) ومقدمة (الفتاوي الفقهية) التي وضعها بعض العلماء أن الشيخ ابن حجر الهيتمي كان يقول: قاسيت في الجامع الأزهر من الجوع ما لا تحتمله الجبلة البشرية لولا معونة الله وتوفيقه بحيث إني جلست فيه نحو أربع سنين ما ذقت اللحم إلا في ليلة دعينا لأكل، فإذا هو لحم يوقد عليه ثم جيء به فإذا هو لحم يابس كما هو نيئ فلم استطع منه لقمة، وقاسيت أيضا من الإيذاء من بعض أهل الدروس التي كنا نحضرها ما هو أشد من ذلك الجوع إلى أن رأيت شيخنا ابن أبي الحمائل قائما بين يدي سيدي أحمد البدوي، فجيء باثنين كانا أكثر إيذاء لي فضربهما بين يديه ومزقا كل ممزق، وكذلك أوذي بمكة كثيرا فصبر فكفاه الله شر المؤذين (٤) اهـ.

---

[١] صفحات من صبر العلماء ص٢٤٩.

[٢] ٢٣٠تذكرة الحفاظ ج٤ص١١٧٣.

[٣] صفحات من صبر العلماء ص٢٢٩-٢٣٠.

[٤] إعانة الطالبين حاشية فتح المعين، ج ١ص ١٨، ومقدمة الفتاوي الفقهية ص .

وقال أبو الدرداء: ما لي أرى علماءكم يموتون وجهالكم لا يتعلمون، لقد خشيت أن يذهب الأول، ولا يتعلم الآخر، ما لي أراكم شباعا من الطعام جياعا من العلم[1].

وَإِنْ أَنْتَ لاْ تَرْضَى بِذَلِكَ فَاكْتَسِبْ وَكُنْ جَاهِلاً أَعْمَى يَعِيْشُ بِذِلَّةِ

أي لا تترك أيها الطالب تعلم العلم وطَلَبَهُ لضيق المعيشة، وإذا لم ترض نفسك بذلك و لم تستطع الصبر على شدة الجوع فاكتسب المال لبطنك، واصبر على العمى عن أمر دينك، وذل الجهل في طول حياتك، قال العلامة ابن حجر الهيتمي رحمه الله:

إذا أنت لا ترضى بأدنى معيشة مع الجد في نيل العلى والمآثر
فبادر إلى كسب الغنى مترقبا عظيم الرزايا وانطماس البصائر

و لقد أجاد القائل:

ومن ينفق الساعات في جمع ماله مخافة فقر فالذي فعل الفقر

وما أحسن قول من قال:

شغلنا بكسب العلم عن مكسب الغنى كما شغلوا عن مكسب العلم بالوفر
وصار لهم حظ من الجهل والغنى وصار لنا حظ من العلم والفقر

وقال أبو العتاهية:

ألم تر أن الفقر يرجى له الغنى وأن الغنى يخشى عليه من الفقر

وقال محمود الوراق:

يا عائب الفقر أما تنـــزجر عيب الغنى أكبر لو تعتبر
من شرف الفقر ومن فضله على الغني لو صح منك النظر
أنك تعصي الله تبغي الغنى ولست تعصي الله كي تفتقر [2]

وكان إبراهيم بن الأدهم ينشد:

وما هي إلا جوعة قد سددتـــها وكل طعام بين جنبي واحد

وكان أحمد رحمه الله تعالى يقول: الدنو من المترفين فتنة، والجلوس معهم فتنة، وإن لكل شيء كرما، وكرم القلب الرضا عن الله تعالى.

---

[1] جامع بيان العلم، في باب إنكار أهل العلم ما يجدونه من الأهواء والبدع، ج٢ص١ص١٤٦.

[2] صفحات من صبر العلماء، ص ١٦١.

وعن يونس بن عبد الأعلى قال: قال لي الشافعي رضي الله عنه: يا أبا موسى قد أنست الفقر حتى لا أستوحش منه، وقال لي: يا أبا موسى أزين شيء بالعلماء الفقر مع القناعة، والرضا بـــهما، وسمعته يقول: فقر العلماء فقر اختيار، وفقر الجهال فقر اضطرار (١).

وقد جعل بعض العلماء الفقيه هو الفقير بعينه فقال: وإنما استدرات راء الفقيه فصارت هاء مشيرا إلى التلازم بين الفقيه والفقير.

وقد أحسن من قال:

إن الفقيه هو الفقير وإنما راء الفقير تجمعت أطرافها

ولهذا كان ينصح الإمام ابن هشام النحوي المصري طلبة العلم بالصبر على مشاق العلم والتحصيل، ومنها الفقر، إذ الصبر شرط في نيل كل عزيز غال، فيقول:

ومن يصطبر للعلم يظفر بنيله ومن يخطب الحسناء يصبر على البذل

ومن لم يذل النفس في طلب العلا يسيرا يعش دهرا طويلا على ذل

هذا وقد حفلت كتب الأدب والتاريخ والتراجم والأخلاق بأقوال كثير من العلماء في فقرهم وجوعهم وغربتهم وصبرهم على شدائدهم الخانقة، واستهانتهم بـــها، وعدم إكتراثهم بـــها، تمسكا منهم بمثوبة الصبر المكتسب فيه الأجر، والذي كانوا فيه من الفائزين، فمما قاله قائلهم يتصبّر على الفقر والعدم:

الجوع يُدفع بالرغيف اليابس فعلام أُكْثِر حسرتي ووساوسي؟!

والموت أَنْصَفَ حين ساوى حُكْمَهُ بين الخليفة والفقير البائس (٢)

وقال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى:

ومن لم يذق مُرَّ التعلم ساعة تجرع ذل الجهل طول حياته

ومن فاته التعليم وقت شبابه فكبر عليه أربعا لوفاته

حياة الفتى والله بالعلم والتقى إذا لم يكونا لا اعتبار لذاته

---

[١] صفحات من صبر العلماء، ص١٥١.

[٢] صفحات ص١٥٣.

وقال محمد بن مظفر النحوي:

ومن قلّ فيما يتقيه اصطباره فقد قلّ فيما يرتجيه نصيبه (١)

ومما ينسب إلى الإمام الشافعي رضي الله عنه قوله:

أمطري لؤلؤا سماء سرنديـــ ـــب وفيضي آبار تكرور تبرا (٢)

أنا إن عشت لست أعدم قوتا وإذا مت لست أعدم قبرا

همتي همة الملوك ونفسي نفس حر ترى المذلة كفرا

وإذا ما قنعت بالقوت عمري فلما ذا أزور زيدا وعمرا (٣)

وروي عن ابن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما قال: تجشأ رجل عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال: كُفَّ عنا جشاءك؛ فإن أكثرهم شبعا في الدنيا أطولهم جوعا يوم القيامة، رواه الترمذي وابن ماجه، ورمز السيوطي لحسنه .

وأجاد القائل:

ومن الدليل على القضاء وحكمه بُؤْسُ اللبيب وطيب عيش الأحمق

لكنَّ مَن رُزِقَ الحِجَا حُرِم الغنى ضدان يفترقان أيَّ تَفَرُّقِ

واعلم أن طباع كثير من الناس مجبولة على ازدراء الفقراء وذوي الإملاق والمسكنة، فقد قال بعضهم:

وكان بنو عمي يقولون مرحبا فلما رأوني معسرا مات مرحبا

وقال آخر:

إذا ما رأوني موسرا قالوا مرحبا وإذ ما رأوني ملفجا مات مرحبا

وقد قيل: إن الفقر يظهر العيوب ويقلل الأصدقاء، وقيل في ذلك:

إذا قلّ مال المرء قلّ صديقه وأوْمَت إليه بالعيوب الأصابع

---

[١] صفحات ص٢١٢.

[٢] سرنديب : جزيرة كبيرة في أقصى بلاد الهند بالجنوب، وتكرور: اسم بلاد بأقصى جنوب المغرب .

[٣] صحفات من صبر العلماء، ١٥٣-١٥٤.

وقال الأديب الوزير يحيى بن هبيرة شيخ الإمام ابن الجوزي:

إذا قلّ مال المرء قلّ صديقه　　وقُبِّح منه كل ما كان يجمل

وقال بعضهم:

فصاحة سحبان وخط ابن مقلة　　وحكمة لقمان وعفة مريم

إذا اجتمعت في المرء والمرء مفلس　　ونودي عليه لا يباع بدرهم

فينبغي لطالب العلم أن لا يكترث بذلك، بل يتحمل على تحقيرهم ويصبر على جفوتهم فإنه يكون بعد ذلك إن شاء الله إماما يحبونه ويحترمونه ويعظمونه لاحتياجهم إلى علمه، ويتسابقون إلى خدمته وامتثال أمره، ويطلبون منه صالح دعائه.

قال ابن عبد البر: ولبعض الأدباء:

رأيت العلم صاحبه شريف　　وإن ولدته آباء لئام

وليس يزال يرفعه إلى أن　　يُعَظِّم قدرَه القومُ الكرام

ويتّبعونه في كل أمر　　كراع الضأن تتبعه السَّوام [١]

ويحمل قوله في كل أفق　　ومن يك عالما فهو الإمام

فلو لا العلم ما سعدت نفوس　　ولا عرف الحلال ولا الحرام

فبالعلم النجاة من المخازي　　و بالجهل المذلة والرغام [٢]

هو الهادي الدليل إلى المعالي　　ومصباح يضيء به الظلام

كذاك عن الرسول أتى عليه　　من الله التحية والسلام [٣]

---

[١] قال في لسان العرب: السوام والسائمة بمعنى، وقال أيضا: السَّوم كل ما رعى من المال في الفلوات.

[٢] الرغام: التراب. المعجم الوسيط

[٣] جامع بيان العلم وفضله في باب جامع في فضل العلم ص٩٤.

فصل في آداب متفرقة

تَخَلَّقْ بأَخْلاقِ حِسَاْنٍ فَإِنَّهُ يَنَاْلُ الفَتَى فِيْهَا نـــهَايَةَ رُتْبَةِ
وَكُنْ مُشْفِقاً لِلْخَلْقِ وَارْحَمْ لِكُلِّ مَنْ يُوَحِّدُ رَبِّيْ مِنْ كَبِيْرٍ وَصِبْيَةِ

أي تَخَلَّق بالأخلاق الحسنة، فإنك تنال بـــها أرفع درجة ونـــهاية رتبة، وكن على الخلق مشفقا، وارحم لكل المسلمين صغيرهم وكبيرهم، واعلم أن التخلق بالخُلق الحسن من حكمة بعثة النبي صلى الله عليه وسلم، فقد قال عليه الصلاة والسلام: إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق(١)

وفي (الشفاء) للقاضي عياض أنه صلى الله عليه وسلم قال: بعثت لأتمم مكارم الأخلاق(٢).

وفي المشكاة عن جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إن الله بعثني لتمام مكارم الأخلاق، وكمال محاسن الأفعال، رواه في (شرح السنة)(٣) .

وقال النووي في (رياض الصالحين): روى الترمذي عن عبد الله بن المبارك رحمه الله في تفسير حسن الخلق قال: هو طلاقة الوجه وبذل المعروف وكف الأذى.

وقال ابن علان في (دليل الفالحين): قد جمع جماعة محاسن الأخلاق في قوله تعالى: {**خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين**} وقال الحافظ: هو اختيار الفضائل وترك الرذائل، وقال السيوطي: قال الباجي: هو أن يظهر منه لمن يجالسه أو ورد عليه البشر والحلم والإشفاق والصبر على التعليم والتودد إلى الصغير والكبير (٤).

وقال الهيتمي في (فتح المبين): جِمَاعُ حسن الخلق كما ذكره الترمذي وغيره ينحصر في طلاقة الوجه للناس وكف الأذى عنهم، وبذل المعروف لهم، وهو معنى قول بعضهـــم:

---

[1] قال السيوطي في الجامع الصغير: رواه ابن سعد والبخاري في أدب المفرد والحاكم والبيهقي عن أبي هريرة، ورمز له بالصحة .

[2] قال الشهاب الخفاجي في (نسيم الرياض شرح شفاء القاضي عياض): حديث صحيح، رواه أحمد عن معاذ، والبزار عن أبي هريرة رضي الله عنه بـــهذا اللفظ. وقال علي القارئ في شرح الشفاء: ورواه مالك في الموطأ ولفظه: بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: بعثت لأتمم مكارم الأخلاق. نسيم الرياض ج١ص٤٧١.

[3] مشكاة المصابيح في كتاب الفضائل والشمائل، باب فضائل سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم.

[4] دليل الفالحين شرح رياض الصالحين" ج٣ ص٨٧.

هو كظم الغيظ لله وإظهار الطلاقة والبشر إلا لمبتدع أو فاجر، والعفو عن الزالّين إلا تأديبا، وكف الأذى عن كل مسلم أو مُعاهَدٍ إلا تغييرا لمنكر أو أخذا بمظلمة من غير تَعَدٍّ، وجمع بعضهم ذلك كله في قوله: هو أن تفعل معهم ما تحب أن يفعلوه معك، فتجتمع القلوب ويتفق السر والعلانية، وحينئذ تأمن كل كيد وشر، وذلك جمع الخير وملاك الأمر إن شاء الله تعالى(١).

وقال الله تعالى: {**وإنك لعلى خلق عظيم**} وقال ابن علان في (دليل الفالحين): سئلت عائشة رضي الله عنها عن خلقه صلى الله عليه وسلم فقالت: كان خلقه القرآن، أي آدابه وأوامره، وقال الجنيد: سمي خلقه عظيما إذ لم يكن همه سوى الحق سبحانه، عَاْشَرَ الخلق بخلقه، وزايلهم بقلبه، فكان ظاهره مع الخَلْقِ، وباطنه مع الحق، وقيل وصف خلقه صلى الله عليه وسلم بالعظم إشارة إلى أنه كان يؤدي كل مقام من رفق وغلظ حقه، فكان بالمؤمنين رءوفا رحيما، وكان يغلظ على الكفار وينتقم لله سبحانه(٢).

وقد وردت أحاديث كثيرة في فضائل حسن الخلق.

فمنها ما روي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس خُلُقا متفق عليه.

وعن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن البر والإثم فقال: البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس، رواه مسلم.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم فاحشا ولا متفحشا، وكان يقول: إن من خياركم أحسنكم أخلاقا، متفق عليه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكثر ما يدخل الناس الجنة، قال: تقوى الله، وحسن الخلق، وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار، فقال: الفم والفرج، رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح .

---

[١] الفتح المبين لشرح الأربعين النووية لابن حجر الهيتمي ص١٦٧.

[٢] دليل الفالحين ج٣ ص٧٦.

وعن أبى الدرداء رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن، وإن الله يُبْغِضُ(١) الفاحش البذيء(٢)، رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح(٣) .

وفي (الترغيب والترهيب): عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن من أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا، وألطفهم بأهله، رواه الترمذي والحاكم، وقال: صحيح على شرطهما، كذا قال، وقال الترمذي: حديث حسن، ولا نعرف لأبي قلابة سماعا من عائشة.

وعنها رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إن المؤمن ليدرك بحسن الخلق درجة الصائم والقائم، رواه أبو داود وابن حبان في صحيحه، والحاكم وقال: صحيح على شرطهما، ولفظه: إن المؤمن ليدرك بحسن الخلق درجات قائم الليل، وصائم النهار. ورواه الطبراني من حديث أبي أمامة إلا أنه قال: إن الرجل ليدرك بحسن خلقه درجة القائم بالليل الظامىء بالهواجر.

وعن أنس رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إن العبد ليبلغ بحسن خلقه عظيم درجات الآخرة وشرف المنازل، وإنه لضعيف العبادة، وإنه ليبلغ بسوء خلقه أسفل درجة في جهنم، رواه الطبراني ورواته ثقات سوى شيخه المقداد بن داود، وقد وثق.

وعن صفوان بن سليم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ألا أخبركم بأيسر العبادة، وأهونـــها على البدن: الصمت، وحسن الخلق، رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الصمت مرسلا.

---

[١] قوله يبغض بضم التحتية من الإبغاض، قال في المصباح: ولا يقال: بغضته بغير ألف ويقال: أبغضته وبغضه الله بتشديد الغين، دليل الفالحين ج٣ ص٨١.

[٢] قال النووي: البذيء هو الذي يتكلم بالفحش ورديء الكلام، وقال المنذري في الترغيب والترهيب: البذيء بذال معجمة ممدودا هو المتكلم بالفاحش ورديء الكلام. وقال ابن علان في دليل الفالحين ج٣ ص٨١: البذي بفتح الموحدة وكسر المعجمة وتشديد التحية على وزن فعيل.

[٣] رياض الصالحين باب حسن الخلق.

وعن العلاء بن الشّخّير رضي الله عنه أن رجلا أتى النبي صلى الله عليه وسلم من قبل وجهه فقال: يار رسول الله صلى الله عليه وسلم أي العمل أفضل؟ فقال: حسن الخلق، ثم أتاه عن يمينه، فقال: أي العمل أفضل؟ فقال: حسن الخلق، ثم أتاه عن شماله، فقال: يارسول الله أي العمل أفضل؟ قال: حسن الخلق، ثم أتاه من بعده، يعني من خلفه، فقال: أي العمل أفضل؟ فالتفت إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: مالك لا تفقه حسن الخلق هو أن لا تغضب إن استطعت، رواه محمد بن نصر المروزي في كتاب الصلاة مرسلا هكذا.

وعن أبي أمامة رضي الله عنه: قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقا، وببيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب، وإن كان مازحا، وببيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه، رواه أبو داود واللفظ له، وابن ماجه والترمذي، وقال: حديث حسن.

وعن جابر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إن من أحبكم إلي وأقربكم مني مجلسا يوم القيامة أحسنكم أخلاقا.. الحديث، رواه الترمذي، وقال: حديث حسن.

وروي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: أوحى الله إلى إبرهيم عليه السلام: يا خليلي حسّن خلقك ولو مع الكفار تدخل مدخل الأبرار، وإن كلمتي سبقت لمن حسَّن خُلُقَه أن أظله تحت عرشي، وأن أسقيه من حظيرة قدسي، وأن أدنيه من جواري، رواه الطبراني.

وعنه أيضا رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ما حسن الله خلق رجل وخلقه فتطمعه النار أبدا، رواه الطبراني في الأوسط.

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ألا أخبركم بأحبكم إلي، وأقربكم مني مجلسا يوم القيامة؟ فأعادها مرتين أو ثلاثا. فقالوا: نعم يا رسول الله، قال: أحسنكم خلقا، رواه أحمد وابن حبان في صحيحه.

وعن أنس رضي الله عنه قال: لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا ذر فقال: يا أباذر ألا أدلك على خصلتين هما أخف على الظهر، وأثقل على الميزان من غيرهما؟ قال: بلى

يارسول الله قال: عليك بحسن الخلق، وطول الصمت، فوالذي نفسي بيده ما عمل الخلائق بمثلهما رواه ابن أبي الدنيا والطبراني والبزار وأبو يعلى بإسناد جيد رواته ثقات، واللفظ له.

وعن أسامة بن شريك رضي الله عنه قال: كنا جلوسا عند النبي صلى الله عليه وسلم كأنما على رءوسنا الطير، ما يتكلم منا متكلم، إذ جاءه أناس فقالو: مَنْ أَحَبُّ عباد الله إلى الله تعالى؟ قال: أحسنهم خلقا، رواه الطبراني ورواته محتج بـــهم في الصحيح، وابن حبان في صحيحه.

وروى مالك عن معاذ قال: كان آخر ما أوصاني به رسول الله صلى الله عليه وسلم حين وضعت رجلي في الغرز أن قال: يا معاذ أحسن خلقك للناس.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: اللهم كما أحسنت خَلْقي فأحسن خُلُقِيْ، رواه أحمد، ورواته ثقات.

وري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن أحبكم إلي أحاسنكم أخلاقا، الموطئون أكنافا، الذين يألفون ويؤلفون، وإن أبغضكم إلي المشاءون بالنميمة، المفرقون بين الأحبة، الملتمسون للبرآء العيب، رواه الطبراني في الصغير والأوسط، ورواه البزار من حديث عبد الله بن مسعود باختصار.

وروي عن أنس رضي الله عنه قال: قالت أم حبيبة: يا رسول الله المرأة يكون لها زوجان ثم تموت فتدخل الجنة هي وزوجاها، لأيهما تكون للأول أو للآخر؟ قال: تُخَيَّرُ، أحسنهما خُلُقا كان معها في الدنيا يكون زوجها في الجنة، يا أم حبيبة ذهب حسن الخلق بخير الدنيا والآخرة، رواه الطبراني والبزار باختصار، ووراه الطبراني في الكبير والأوسط من حديث أم سلمة في آخر حديث طويل.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أيضا قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم، ولكن يسعهم منكم بسط الوجه، وحسن الخلق، رواه أبو يعلى والبزار من طرق أحدها حسن جيد.

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الخلق الحسن يذيب الخطايا كما يذيب الماء الجليد(١)، والخلق السوء يفسد العمل كما يفسد الخل العسل، رواه الطبراني في الكبير والأوسط والبيهقي.

وعن رافع بن مَكِيْث وكان ممن شهد الحديبية رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: حسن الخلق نماء، وسوء الخلق شؤم، والبر زيادة في العمر، والصدقة تدفع ميتة السوء، رواه أحمد وأبو داود باختصار وفي إسنادهما راو لم يسم، وبقية إسناده ثقات.

وري عن جابر رضي الله عنه قال: قيل: يا رسول الله ما الشؤم؟ قال: سوء الخلق، رواه الطبراني في الأوسط.

وروي عن عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ما من شيء إلا له توبة إلا صاحب سوء الخلق، فإنه لا يتوب من ذنب إلا عاد في شر منه، رواه الطبراني في الصغير والأصبهاني، وفي رواية للأصبهاني عن رجل من أهل الجزيرة لم يسمه عن ميمون بن مهران قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما من ذنب أعظم عند الله عز وجل من سوء الخلق، وذلك أن صاحبه لا يخرج من ذنب إلا وقع في ذنب، وهذا مرسل.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يدعو يقول: اللهم إني أعوذ بك من الشقاق والنفاق وسوء الأخلاق، رواه أبو داود والنسائي.

وروي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن هذه الأخلاق من الله، فمن أراد الله به خيرا منحه خلقا حسنا، ومن أراد به سوء منحه خلقا سيئا، رواه الطبراني في الأوسط(٢).

---

[١] قال في القاموس وشرحه: الجليد ما يسقط من السماء على الأرض من الندى فيجمد، وفي الحديث: حسن الخلق يذيب الخطايا كما تذيب الشمس الجليد .

[٢] الترغيب والترهيب، باب الترغيب في الخلق الحسن وفضله من كتاب الأدب.

وفي (الجامع الصغير) روى الحرث(١) وابن السني وأبو نعيم في الطب عن أبي هريرة رضي الله عنه حديث من ساء خلقه عذّب نفسه(٢)، ومن كثر همه سقم بدنه، ومن لاحى الرجال ذهبت كرامته وسقطت مروؤته اهـــ.

وقيل لذي النون المصري: من أكثر الناس هما؟ قال: أسوأهم خلقا(٣) اهـــ

وفي الرسالة للقشيري: الخلق الحسن أفضل مناقب العبد، وبه يظهر جواهر الرجال، والإنسان مستور بخَلقه مشهور بخُلُقه(٤).

وينبغي الاهتمام بتحسين الخُلُقِ وإكثار الدعاء بـــها، فقد كان من دعائه صلى الله عليه وسلم: اللهم كما حسّنت خَلقي فحسن خلقي، وكان عليه الصلاة والسلام إذا قام إلى الصلاة قال: أللهمّ أنت الملك لا إله إلا أنت، أنت ربي وأنا عبدك، ظلمت نفسي واعترفت بذنبي فاغفر لي ذنوبي جميعا، لا يغفر الذنوب إلا أنت، واهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت(٥).

---

[1] أي ابن أسامة في مسنده كما في الفيض القدير.

[2] قال المناوي في شرح هذا الحديث: روى البيهقي في "الشعب" عن الفضيل أنه قال: لا تحالف إلا حسن الخلق فإنه لا يأتي إلا بخير ولا تحالف سيء الخلق فإنه لا يأتي إلا بشر، وقال أبو حازم سيء الخلق أشقى الناس به نفسه هي منه في بلاء ثم زوجته ثم ولده.

[3] قال شيخ الإسلام زكريا الأنصاري في شرحه على الرسالة: أي لأن من ساء خلقه عدم الصبر على ما ابتلي به وساءت معاملته لمن يعامله من الخلق ولا يزال في هم وكرب فيما يخالف غرضه، فسوء الخلق يرجع ضرره على صاحبه في دينه ودنياه، وحسن الخلق يكون صاحبه في تنعم وراحة في دنياه وأخراه. الرسالة القشيرية مع شرحها ج٣ص٣٣٤.

[4] الرسالة القشيرية في باب حسن الخلق.

[5] وهذا بعض حديث، وكماله: عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا قام إلى الصلاة قال: وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له، وبذلك أمرت وأنا من المسلمين، أللهم أنت الملك لا إله إلا أنت، أنت ربي وأنا عبدك، ظلمت نفسي واعترفت بذنبي فاغفر لي ذنوبي جميعا، لا يغفر الذنوب إلا أنت، واهدني لأحسن الأخلاق، لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها، لا يصرف عني سيئها إلا أنت، لبيك وسعديك، والخير كله بيديك، والشر ليس إليك، أنا بك وإليك، تباركت وتعاليت، أستغفرك وأتوب إليك. اهـــ المجموع للإمام النووي رحمه الله ج٣ص١٨٩-١٩٠.

وقال الإمام القشيري في الرسالة: قال وهب: ما تخلق عبد بخلق حسن أربعين صباحا إلا جعله الله طبيعة فيه. ثم قال الشيخ زكريا الأنصاري في شرحه لهذا الكلام ما نصه: فمن جاهد نفسه لينقلها من خلق ذميم إلى خلق حميد وصبر على ذلك أربعين يوما صار له عادة حسنة، ووجد بركة ذلك الخلق في الدنيا والأخرى(١).

وَكُنْ لاَبِساً بِيْضَ الثِّيَاْبِ وَعِمَّةً

أي وكن لابسا بيض الثياب والعمامة، قال النووي في (المجموع): قال الشافعي والأصحاب: أفضل الثياب البيض، لحديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: البسوا من ثيابكم البياض فإنّها من خير ثيابكم وكفنوا فيها موتاكم، رواه أبو داود والترمذي وقال: حديث صحيح.

والتعمم لجميع الصلوات سنة لحديث ركعتان بعمامة خير من سبعين ركعة بلا عمامة، قال في (الجامع الصغير): رواه الديلمي في مسند الفروس عن جابر وهو ضعيف، ولخبر: إن الله وملائكته يصلون على أصحاب العمائم يوم الجمعة.

وعن سمرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: البسوا البياض فإنها أطهر وأطيب، وكفنوا فيها موتاكم، رواه النسائي والحاكم في المستدرك، وقال: حديث صحيح اهـ(٢).

وقال السيوطي في (الجامع الصغير): روى حديث سمرة أحمد في مسنده والترمذي والنسائي وابن ماجه والحاكم، وهو حديث صحيح .

وفي (فتح المعين بشرح قرة العين): قال الشيخان: من تعمم فله فعل العذبة وتركها ولا كراهة في واحد منهما، زاد النووي لأنه لم يصح في النهي عن ترك العذبة شيء.

لكن قد ورد في العذبة أحاديث صحيحة وحسنة، وقد صرحوا بأن أصلها سنة، قال شيخنا يعني ابن حجر: وإرسالها بين الكتفين أفضل منه على الأيمن، ولا أصل في اختيار ارسالها على الأيسر انتهى ما نقلته من فتح المعين .

---

[١] الرسالة القشيرية وشرحها أحكام الدلالة على تحرير الرسالة لزكريا الأنصاري.

[٢] المجموع، في باب ما يكره لبسه وما لا يكره .

وَلاْزِمْ بِأَقْلاْمٍ سِوَاْكٍ وَسُبْحَةِ

يعني لازم أيها الطالب كتابة العلم وتقييده بقلمك(١) وبالسواك والسبحة أيضا، فأما القلم فهو نعمة عظيمة من نعم الله تعالى، وقد ذكره الله في أول سورة نزلت من القرآن، قال تعالى: {**اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علّم بالقلم**}.

وقال الحافظ السيوطي في (الدر المنثور): أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله تعالى: {**الذي علّم بالقلم**} قال: القلم نعمة من الله عظيمة، لو لا القلم لم يقم دين و لم يصلح عيش، وفي قوله تعالى: {**علم الإنسان ما لم يعلم**} قال: الخطّ .

وقال الإمام الفخر الرازي في تفسير قوله تعالى: {**علّم بالقلم**}: في المراد منه قولان أحدهما الكتابة التي تعرف بها الأمور الغائبة، وجُعِل القلم كناية عنها، والثاني: أن المراد علّم الإنسان الكتابة بالقلم، والمراد التنبيه على فضيلة الكتابة، يروى أن سليمان عليه السلام سأل عفريتا عن الكلام فقال: ريح لا يبقى، قال: فما قَيده؟، قال: الكتابة. فالقلم صَيّاد يصيد العلوم يُبكي ويُضحك وبحركته تبقى العلوم على مر الليالي والأيام، والقلم لا ينطق ثم يُسمع الشرق والغرب، فسبحانه من قادر بسوادالكتابة جَعَل الدين منورا، والقلم ينوب عن اللسان واللسان لا ينوب عن القلم، وقوله تعالى: {**علم الإنسان ما لم يعلم**} يحتمل أن يكون المراد عَلّمَه بالقلم وعَلَّمه أيضا غير ذلك .

وقال الرازي في تفسير قوله تعالى: {**ن والقلم وما يسطرون**}: القلم الذي أقسم الله به هو الجنس وهو واقع على كل قلم يَكتب به مَنْ في السماء ومن في الأرض، قال تعالى: {**وربك الأكرم الذي علّم بالقلم**}، فمنّ بتيسير الكتابة بالقلم كما منّ بالنطق، فقال: {**خلق الإنسان علمه البيان**} وهو يُنْزِل الغائب مَنْزلة المخاطب، فيتمكن المرء من تعريف البعيد به ما يتمكن باللسان من تعريف القريب اهـ .

---

[١] المراد بالأقلام الكتابة أي لازم أيها الطالب كتابة العلم، ففيه كناية حيث أطلق القلم وأريد لازمه وهو الكتابة كما هو شأن الكناية عند البيانيين.

وفي (الفتاوي الحديثية): روى ابن النجار عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إن من حق الولد على والده أن يعلمه الكتاب أي الكتابة، وأن يحسن اسمه، وأن يزوجه إذا بلغ اهـ(١).

وفي (فتح المغيث) للسخاوي قيل لبعضهم: إلى متى تكتب الحديث أفلا تعمل ؟ فقال: والكتابة من العمل (٢).

وفي (طبقات الشافعية) لابن السبكي و(تاريخ بغداد) أن الإمام محمد بن جرير بن يزيد بن كثير أباجعفر الطبري مكث أربعين سنة يكتب في كل يوم منها أربعين ورقة(٣).

وفي (تحفة المحتاج): كتابة العلم مستحبة، وقيل: واجبة، وهو وجيه في الأزمنة المتأخرة، وإلا لضاع العلم، وإذا وجبت كتابة الوثائق لحفظ الحقوق فالعلم أولى اهـ بلفظه.

وقد أجاد القائل:

من لم يخطّ ولم يقرأ رسالته   قرِّب له إبلا يرعاها أو غنما (٤)

وقال الخليل بن أحمد رحمه الله: ما سمعت شيئا إلا كتبته، ولا كتبته إلا حفظته، وما حفظته إلا نفعني، مَنْ أكثر مِن مُذاكرة العلماء لم ينس ما علم واستفاد ما لم يعلم(٥).

وقال بعضهم:

لمحبرة تجالسني نهاري   أحب إلىّ من أنس الصديق
وَرِزْمَةُ كاغَدٍ (٦) في البيت عندي   أحب إلى من عِدْلِ (٧) الدقيق (٨)

---

[١] الفتاوي الحديثية ص٧.

[٢] فتح المغيث شرح ألفية الحديث للسخاوي ج٢ص٣٢٤.

[٣] طبقات الشافعية لابن السبكي ج٢ص١٣٦، و(تاريخ بغداد) ج٢ص ١٦٣.

[٤] البيت من البسيط وفيه كسر.

[٥] جامع بيان العلم ج١ص١٧٩.

[٦] ورزمة كاغَد أي قراطيس شد بعضها ببعض، وفي لسان العرب والقاموس المحيط الرزمة بالكسر من الثياب ما شد في ثوب واحد، وقال شَمِرٌ: الرزمة قدر ثلث الغِرارة أو ربعها من تمر أو دقيق.

[٧] وفي لسان العرب: العدل نصف الحِمل يكون على أحد جنبي البعير، قال الأزهري: العِدل اسم حِمل معدول بحِمل أي مسوّى .

[٨] جامع بيان العلم في باب فضل النظر في الكتب، ج٢ص٢٤٨.

وقال بعضهم:

والعالم المدعو حبرا إنما سماه باسم الحبر حمل المحبر

وبضمّر الأقلام يبلغ أهلها ما ليس يبلغ بالجياد الضمر (١)

وأما السواك فقد قال النووي في (المجموع): قال أهل اللغة: السواك بكسر السين، ويطلق السواك على الفعل وهو الاستياك، وعلى الآلة التي يستاك بها، ويقال في الآلة أيضا: مِسواك بكسر الميم، يقال: ساك فاه يسوكه سوكا، والسواك مذكر، وغلط من قال: إنه مؤنث، وذكر صاحب المحكم أنه يؤنث ويذكر لغتان، والسواك في اصطلاح الفقهاء استعمال عود أونحوه في الأسنان لإذهاب التغير ونحوه والله أعلم.

وقال النووي أيضا في (المجموع): السواك سنة ليس بواجب في مذهبنا ومذهب العلماء كافة إلا ما حكى الشيخ أبو حامد وأكثر أصحابنا عن داود أنه أوجبه، وحكى الحاوي: أن داود أوجبه ولم يبطل الصلاة بتركه، قال: قال إسحاق بن راهويه: هو واجب فإن تركه عمدا بطلت صلاته، وهذا النقل عن إسحاق غير معروف ولا يصح عنه.

وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة، وفي رواية للبخاري: مع كل صلاة، وفي (خلاصة الأحكام) للنووي: وفي رواية صححها ابن خزيمة والحاكم وذكرها البخاري في صحيحه في كتاب الصيام تعليقا: "مع كل وضوء"(٢).

وروى مسلم عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا دخل بيته بدأ بالسواك.

وروت عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: السواك مطهرة(٣) للفم، للفم، مرضاة للرب، قال النووي في المجموع: حديث عائشة صحيح، رواه أبوبكر محمد بن إسحاق بن خزيمة إمام الأئمة في صحيحه والنسائي والبيهقي في سننهما وآخرون بأسانيد صحيحة، وذكره البخاري في صحيحه في كتاب الصيام تعليقا، وهذا التعليق

---

[١] آخر كتاب جامع بيان العلم .

[٢] خلاصة الأحكام في مهمات السنن وقواعد الأحكام، ج١ص٨٣.

[٣] والمطهرة بفتح الميم وكسرها لغتان وهي كل إناء يتطهر به شبه السواك بها لأنه ينظف الفمّ.

صحيح لأنه بصغية الجزم، وتعليقات البخاري إذا كانت بصغية الجزم فهـــي صــــحيحة اهــــ.

وروت عائشة أيضا رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: صلاة بسواك خير من سبعين صلاة بغير سواك، قال النووي في المجموع : هذا الحديث، رواه البيهقي مـــن طرق، وضعفها كلها، وكذا ضعفه غيره، وذكره الحاكم في المستدرك وقال: هو صحيح على شرط مسلم وأنكروا ذلك على الحاكم وهو معروف عندهم بالتساهل في التصحيح، والبيهقي أتقن في هذا الفن من شيخه الحاكم، وقد ضعفه والله أعلم.

ومعنى هذا الحديث: أنّ ثوابـــها أكثر من ثواب سبعين صلاة بغير سواك.

وروى العباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: استاكوا لا تدخلوا عليّ قُلْحا(١)، قال النووي: حديث العباس ضعيف، رواه أبوبكر بن أبي خيثمة في تاريخه ثم البيهقـــي عـــن العباس، وإسنادهما ليس بقوي، قال البيهقي: هو حديث مختلف في إسناده، وضعفه أيضا غيره، ويغني عنه في الدلالة حديث: السواك مطهرة للفم.

وعن حذيفة رضي الله عنه: كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا قام من النوم يشوص فاه، متفق عليه. ولمسلم يشوص فاه بالسواك .

وعن أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثرت عليكم في السواك، رواه البخاري.

وروى مسلم عن شريح بن هانئ: قلت لعائشة: لأي شيء كان يبدأ النبي صلى الله عليه وسلم إذا دخل بيته قالت: بالسواك.

وعن أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعري: دخلت على النبي صـــلى الله عليـــه وســـلم وطرف السواك على لسانه، متفق عليه، وفي رواية البخاري: فوجدته يستن بسواك بيـــده يقول: أع أع، والسواك في فيه كأنه يتهوّع.

---

[1] قال النووي: بضم القاف وإسكان اللام والحاء المهملة جمع أقلح وهو الذي على أسنانه قلح بفتح القاف واللام وهو صفرة ووسخ يركبان الأسنان اهـــ وظاهر هذا الحديث أن تشريع السواك معقول المعنى وأنه ليس تعبديا، لكن قال إمام الحرمين أبو المعالي عبد الملك بن أبي محمد الجويني في نـــهاية المطلب في باب السواك ما حاصله: الغرض من استعمال السواك إزالة قلح الأسنان، وفيه فيما أظن تثوب–أي طلب الثواب– خفي من التعبد، فإن من أزال قلح أسنانه بغير السواك فما أراه مقيما سنة الاستياك، ولو كان الرجل نقي الأسنان قويم الطبيعة لا يغشاها قلح فسنة الاستياك لا تسقط عنه، وهذا يقرب التعبد فيه قليلا اهـــ. فثبت بـــهذا أنه معقول المعنى، وفيه شوب تعبد .

وروى مسلم عن عائشة رضي الله عنها في حديث طويل: كنا نُعِدُّ لرسول الله صـــلى الله عليه وسلم سواكه وطَهوره، فيبعثه الله ما شاء أن يبعثه من الليـــل، فيتســـوك ويتوضـــأ ويصلي.

وعن عائشة قالت: دخل عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنه ومعه سواك يســـتن بـــه، فنظر إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت له: أعطني هذا السواك، فأعطانيه فقصمته ثم مصصته فأعطيته رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستن به وهو مستند إلى صـــدري، رواه البخاري. قصمته بالمهملة وروي بالمعجمة.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: أراني في المنام أتســـوك بسواك، فجاءني رجلان أحدهما أكبر من الآخر، فناولت السواك الأصغر منهما، فقيل لي: كبر، فدفعته إلى الأكبر منهما، متفق عليه، رواه مسلم مسندا والبخاري تعليقا.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان نبي الله صلى الله عليه وسلم يســـتاك فيعطـــيني السواك لأغسله، فأبدأ به فأستاك ثم أغسله فأدفعه إليه، رواه أبو داود بإسناد جيد.

وعن عائشة رضي الله عنها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: عشر من الفطرة، قـــص الشارب وإعفاء اللحية والسواك واستنشاق الماء وقص الأظفار وغسل الـــبراجم ونتـــف الإبط وحلق العانة وانتقاص الماء. قال مصعب بن شيبة: ونسيت العاشـــر إلا أن تكـــون المضمضة، وقال وكيع: انتقاص الماء: الاستنجاء، رواه مسلم.

وقال النووي في المجموع: أما الأحوال التي يتأكد استحباب السواك فيها فخمسة: أحدها عند القيام إلى الصلاة، سواء صلاة الفرض والنفل، وسواء صلى بطهارة ماء أو تـــيمم أو بغير طهارة، كمن لم يجد ماء ولا ترابا وصلى على حسب حاله، صرح به الشـــيخ أبـــو حامد والمتولي وغيرهما، والثاني: عند اصفرار الأسنان، ودليله حديث السواك مطهرة، وأما الاحتجاج بحديث العباس فلا يصح لأنه ضعيف كما سبق، والثالث: عند الوضوء اتفـــق عليه أصحابنا، وممن صرح به صاحبا الحاوي والشامل، ودليل استحبابه عنـــد الوضـــوء حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لو لا أن أشـــق على أمتي لأمرتُهم بالسواك مع الوضوء، وهو حديث صحيح، رواه ابن خزيمة والحـــاكم

في صحيحيهما وصححاه، وأسانيده جيدة، وذكره البخاري في صحيحه في كتاب الصيام تعليقا بصيغة الجزم.

الرابع: عند قراءة القرآن، ذكره الماوردي والروياني وصاحب البيان والرافعي وغيرهم.

والخامس: عند تغير الفم، وتغيره قد يكون بالنوم، وقد يكون بأكل ما له رائحة كريهة، وقد يكون بترك الأكل والشرب، وبطول السكوت، قال صاحب الحاوي: ويكون بكثرة الكلام، والله أعلم.

وهذه الأحوال الخمسة هي التي ذكرها أصحابنا، وفي صحيح مسلم عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا دخل بيته بدأ بالسواك والله أعلم.

وإذا أراد أن يصلي ذات تسليمات كالتراويح والضحى وأربع ركعات سنة الظهر أو العصر والتهجد ونحو ذلك استحب أن يستاك لكل ركعتين، لقوله صلى الله عليه وسلم لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة أو مع كل صلاة، وهو حديث صحيح كما سبق.

وقال النووي فيه: لا يكره السواك في حال من الأحوال لأحد إلا للصائم بعد الزوال؛ فإنه يكره. وقيل: لا يكره .

وقال النووي في (خلاصة الأحكام في مهمات السنن وقواعد الأحكام): من الأحاديث الضعيفة في هذا الباب: حديث إذا شربتم فاشربوا مصا، وإذا استكتم فاستاكوا عرضا، وفي رواية أنه كان يستاك عرضا ويشرب مصا، ويقول: هو أهنأ وأمرأ وأبرأ.

وعن أنس مرفوعا: يجزي من السواك الأصابع(١).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: َلأن أصلى ركعتين بسواك أحب إ لي من أن أصلى سبعين ركعة بغير سواك، رواه أبو نعيم في كتاب السواك بإسناد جيد.

وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ركعتان بالسواك أفضل من سبعين ركعة بغير سواك، رواه أبو نعيم أيضا بإسناد حسن(٢).

---

[1] خلاصة الأحكام، ج١، ص٨٨.

[2] الترغيب والترهيب، ج١، ص١١٢.

وروي أنه صلى الله عليه وسلم قال: ركعتان بسواك خير من سبعين ركعة بغير سـواك. قال السيوطي في (الجامع الصغير): رواه الدارقطني عن أم الدرداء وهـو حسـن، ورواه الديلمي في مسند الفردوس عن أبي هريرة بلفظ: ركعتان بسواك أفضل من سبعين ركعة بغير سواك، وهو حديث حسن.

وفي (إعانة الطالبين): للسواك فوائد كثيرة أوصلها بعضهم إلى نَيِّف وسبعين، منها: أنـه يطهر الفم ويرضي الرب ويبيض الأسنان ويطيب النكهة ويسوي الظهر ويشد اللثة ويبطئ الشيب ويصفي الخلقة ويزكي الفطنة ويضاعف الأجر ويسهل النـزع ويذكر الشـهادة عند الموت، وإدامته تورث السعة والغنى وتيسير الرزق، وتطيب الفم وتسـكن الصـداع وتذهب جميع ما في الرأس من الأذى والبلغم، وتقوي الأسنان، وتجلي البصر، وتزيـد في الحسنات، وتفرح الملائكة، وتصافحه لنور وجهه، وتشيعه إذا خرج للصـلاة، ويعطـى الكتاب باليمين، وتذهب الجذام، وتنمي المال والأولاد، وتؤانس الإنسان في قبره، ويأتيـه ملك الموت عليه السلام عند قبض روحه في صورة حسنة اهـ.

وقال ابن حجر الهيتمي في (تحفة المحتاج بشرح المنهاج): القياس أنه لو ترك السـواك أول الصلاة سن له تداركه أثناءها بفعل قليل كما يسن له دفع المار بين يديه بشرطه(١) .

لطيفة: روي أن سيدنا عليا رضي الله عنه رأى السيدة فاطمة تستاك فقال:

حظيت يا عود الأراك بثغرها ... ما خفت يا عود الأراك أراك

لو كنت من أهل القتال قتلتكا ... ما فاز مني يا سواك سواك

خاتمة

لقد ذكرنا أن الركعتين بالسواك أفضل من سبعين ركعة بلا سواك، وكذلك العمامة، فهذان مائة وأربعون فضلية في ركعتين يصليهما العبد في دقائق قليلة، وهذا الفضل في الفروض والنوافل، فكم في اليوم والليلة من الركعات؟! وكم في الصلوات الخمس المكتوبة وحدها، وكم في رواتبها المؤكدة وغير المؤكدة، وكم في الضحى والوتر والنوافل المطلقة وغيرها؟! ولا يَدرِي مقدار كل فضيلة منها إلا الذي تفضّل بـها جل جلاله، فانظر إلى سعة رحمته تعالى وجزيل عطائه، وعظيم لطفه وإحسانه، في هذا العمل اليسير. فالذي

[١] وفي نـهاية المحتاج أن هذا إذا تركه نسيانا، وخالفهما الشربيني في المغني فقال: الظاهر هنا عدم الاستحباب.

ينبغي لطالب العلم أن يعتني بـــهما ويجتهد فيهما ولا يرغب عن هذه العطايا الإلهية، والمواهب الربانية، ومن كان من التجار عنده بضاعة يربح منها في مقدار صلاة ركعتين مائة وأربعين دينارا سرّ بذلك ويراه تقدُّما كبيرا في تجارته، فترتفع همته ويجتهد في السعي إلى الزيادة، ولا يضيع هذه الفرصة الغالية، ولا يشك عاقل أن فضيلتي العمامة والسواك في ركعتين أعظم وأكثر نفعا من دنانيره، فمن تركهما كسلا واستخفافا فقد شهد على نفسه بالرعونة، وأنه لا يبالي بما يفوته من هذا الربح العظيم(١).

وأما السبحة فهي كما في القاموس وشرحه: خرزات للتسبيح، وإنما حدثت في الصدر الأول إعانة على الذكر وتذكيرا وتنشيطا اهـــ.

وفي (تـــهذيب الأسماء واللغات) للإمام النووي: السبحة بضم السين وإسكان الباء خرز منظومة يسبح بـــها يعتادها أهل الخير اهـــ.

تنبيه: كثر الكلام في السبحة هل لها أصل في السنة أم لا؟ وهل الأفضل عدّ الأذكار بـــها أو بالأصابع؟ فمنعها البعض محتجين بأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يأخذها ولم يستعمل بـــها لحساب الأذكار وعدها، فهي بدعة منهي عنها، والحق الذي لا محيد عنه أنّها جائزة بل هي مطلوبة مستحسنة لدى المحبين للأذكار المكثرين لها في الليل والنهار، وقد تكلم عليها كثير من الأئمة الأخيار، منهم الإمام النووي فقال في كتاب (تـــهذيب الأسماء واللغات) يعتادها أهل الخير .

وقال القاري في (المرقاة شرح المشكاة) في الكلام عن حديث صفية الآتي: إن هذا الحديث أصل صحيح لتجويز السبحة بتقريره صلى الله عليه وسلم؛ إذ لا فرق بين المنظومة والمنثورة، ولا يعتد بقول من عدّها بدعة، وقد قال المشايخ: إنـــها سوط الشيطان، وقال أيضا في شرح حديث يسيرة رضي الله عنها الآتي: إن في هذا الحديث جواز عد الأذكار ومأخذ سبحة الأبرار، وقال في موضع آخر من المرقاة: جاء بسند ضعيف عن علي رضي الله عنه مرفوعا نعم الذكر المسبحة اهـــ. هكذا رأيته في نسخة المرقاة ويأتي عن المنحة للسيوطي وعن (تحفة أهل الفتوحات) ما يخالفه لفظا والله أعلم بالصواب، ومعناه حينئذ

---

[١] وإنما أطلت الكلام في فضائل العمامة والسواك بعض الإطالة ترغيبا لطلبة العلم فيهما، فقد رأيت في هذا العصر كثيرا منهم لا يهتم بـــهما ويتساهل فيهما .

نعم المذكر لذكر الله، والمسبحة بكسر الميم وفتح الحاء اسم لآلة التسبيح وهي المخصوص بالمدح والله أعلم .

وألف الحافظ الجلال السيوطي رحمه الله جزء لطيفا في السبحة سماه (المنحة في السبحة) فقال في أوله: فقد طال السؤال عن السبحة هل لها أصل في السنة ؟ فجمعت هذا الجزء متتبعا فيه ما رود فيها من الأحاديث والآثار .

١. أخرج ابن أبي شيبة وأبو داود والترمذي والنسائي والحاكم وصححه عن ابن عمر قال: رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يعقد التسبيح بيده.

٢. وأخرج ابن أبي شيبة وأبو داود والترمذي والحاكم عن يسيرة رضي الله عنها وكانت من المهاجرات قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: عليكن بالتسبيح والتهليل والتقديس ولا تغفلن فتنسين التوحيد، واعقدن بالأنامل فإنـــهن مسئولات ومستنطقات.

٣. وأخرج الترمذي والحاكم والطبراني عن صفية قالت: دخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين يديّ أربعة آلاف نواة أسبح بـــهن إلى آخر الحديث.

٤. وأخرج أبو داود والترمذي وحسنه والنسائي وابن ماجه وابن حبان والحاكم وصححه عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أنه دخل مع النبي صلى الله عليه وسلم على امرأة وبين يديها نوى أو حصى تسبح إلى آخر الحديث، وأخرج الديلمي في مسند الفردوس بسنده عن علي رضي الله عنه مرفوعا "نعم المذكر السبحة" .

وأخرج ابن سعد وابن أبي شيبة أن سعد بن أبي وقاص كان يسبح بالحصى، وأخرج عبدالله بن أحمد في (زوائد الزهد) أنه كان لأبي هريرة رضي الله عنه خيط فيها ألفا عقدة فلا ينام حتى يسبح به. وقال عكرمة: إن أبا هريرة كان له خيط فيه ألفا عقدة، فكان لا ينام حتى يسبح به ثنتى عشرة ألف تسبيحة .

وأخرج أحمد في (الزهد) أنه كان لأبي الدرداء رضي الله عنه نوى من نوى العجوة في كيس، فكان إذا صلى الغداة أخرجهن واحدة واحدة يسبح بـــهن حتى ينفدن .

وأخرج الإمام أحمد فيه أيضا أن أبا صفية –رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم– كان يسبح بالحصى.

وفي (معجم الصحابة) للبغوي و(تاريخ ابن عساكر) أن أبا صفية مولى النبي صلى الله عليه وسلم كان يوضع له نطع ويجاء بزنبيل فيه حصى فيسبح به إلى نصف النهار ثم يرفع، فإذا صلى الأولى أتى به فيسبح به حتى يمسي.

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه كان يسبح بالحصى.

وذكر الحافظ عبد الغني في (الكمال) أن أبا الدرداء عويمرا رضي الله عنه كان يسبح في اليوم مائة ألف تسبيحة.

وكان خالد بن معدان يسبح في اليوم أربعين ألف تسبيحة سوى ما يقرأ، ومن المعلوم المحقق أن المائة ألفا بل والأربعين ألفا لا يحصر بالأنامل، ولهذا كانا يعدان بآلة.

وأخرج ابن عساكر في تاريخه أنه كان في يد أبي مسلم الخولاني سبحة يسبح بِها، فقام والسبحة في يده، فاستدارت السبحة فالتفت على ذراعه وجعلت تسبح، فالتفت أبو مسلم والسبحة تدور في ذارعه وهي تقول سبحانك يا منبت النبات ويا دائم الثبات، فقال: هلم يا أم مسلم وانظري إلى أعجب الأعاجيب، فجاءت أم مسلم والسبحة تدور وتسبح، فلما جلست سكنت. وكان للشيخ أبي الوفاء كاكيش ومعناه بالعربية عبد الرحمن سبحة، وأعطاها لسيدي الشيخ محي الدين عبد القادر الكيلاني قدس الله أرواحهم، فكانت إذا وضعها على الأرض تدور وحدها حبة حبة .

وذكر ابن خلكان في (وفيات الأعيان) أنه رؤي في يد أبي القاسم الجنيد بن محمد سبحة، فقيل: أنت مع شرفك تأخذ بيدك سبحة؟ قال: طريق وصلت به إلى ربي لا أفارقه، قال -يعني ابن خلكان-: وقد رويت في ذلك حديثا مسلسلا إلى الحسن البصري، فذكره بسنده مسلسلا بالسبحة يقول كل واحد من رجال سنده: إني رأيت في يد شيخي سبحة، فقال آخرهم: رأيت أستاذي الحسن البصري وفي يده سبحة، فقلت: يا أستاذ مع عظم شأنك وحسن عبادتك وأنت إلى الآن مع السبحة؟ فقال لي: شيء كنا استعملناه في البدايات ما كنا نتركه في النهايات، أحب أن أذكر الله في قلبي وفي يدي ولساني. ثم قال أي السيوطي: فلو لم يكن في اتخاذ السبحة غير موافقة هؤلاء السادة، والدخول في سلكهم، والتماس بركتهم، لصارت بهذا الاعتبار من أهم الأمور وآكدها، فكيف بها وهي مذكرة بالله تعالى؛ لأن الإنسان قَلَّ أن يراها إلا ويذكر الله، وهذا من أعظم

فوائدها، وهي استعانة أيضا على دوام الذكر، كلما رآها ذكر أنّها آلة للذكر فقاده ذلك إلى الذكر، فياحبذا سبب موصل إلى دوام ذكر الله عز وجل، وكان بعضهم يسميها حبل الوصل، وبعضهم رابطة القلوب، ولم ينقل عن أحد من السلف ولا من الخلف المنع من جواز عد الذكر بالسبحة، بل كان أكثرهم يعدونه بـــها ولا يرون ذلك مكروها، ورؤي بعضهم يعد تسبيحا، فقيل: له أتعد على الله؟ قال: لا، ولكن أعد له.

وقال بعض العلماء: عقد التسبيح بالأنامل أفضل لحديث ابن عمر، ولكن يقال: إن المسبح إن أمن من الغلط كان عقده بالأنامل أفضل وإلا فالسبحة أولى انتهى. ما لخصته من تأليف الحافظ السيوطي.

قوله: يسيرة بضم الياء المثناة وفتح السين المهملة، وقوله: نطع أي الجلد المدبوغ، ففي المصباح النطع المتخذ من الأديم، وفيه أربع لغات فتح النون وكسرها وفتح الطاء وسكونـــها.

وقال ابن علان: قال ابن حجر الهيتمي في شرح المشكاة: ويستفاد من الأمر بالعقد المذكور في الحديث ندب اتخاذ السبحة، وزعم أنـــها بدعة غير صحيح إلا أن يحمل على تلك الكيفيات التي اخترعها بعض السفهاء من اتخاذها للزينة أو الرياء أو اللعب اهـــ.

وذكر ابن علان أنه ألف جزء لطيفا في السبحة سماه (إيقاد المصابيح لمشروعية اتخاذ المسابيح) وذكر فيه أن استعمال السبحة في عد الأذكار الكثيرة أفضل من العقد بالأنامل، وفي غير الكثيرة سيما الأذكار عقب الصلاة فالعقد بالأنامل فيها أفضل اهـــ.

وفي المرقاة قال ابن حجر الهيتمي: قيل: وعقد التسبيح بالأنامل أفضل من المسبحة، وقيل: إن أمن الغلط فالعقد أولى وإلا فهي أولى اهـــ.

ومما ألف في السبحة أيضا كتاب (تحفة أهل الفتوحات والأذواق في اتخاذ السبحة وجعلها في الأعناق) وقد أكثر مؤلفها النقول فيها، ومما قال فيها: إن السبحة لا لوم في اتخاذها ولا في جعلها في الأعناق، ثم شدد الإنكار على من جعلها بدعة وأطال في الاستدلال على رده بما يطول ذكره كحديث علي المرفوع: نعم المذكر السبحة، ثم قال: إن السبحة آلة الجهاد الأكبر يعني جهاد النفس، فينبغي احترامها وتعظيمها بجعلها في العنق إذا فرغ من استعمالها.

وفي (المنن) للشعراني أنه قال: لقد وقعت رجلي مرة على السبحة فكدت أهلك من ذلك إكراما لها، ونقل عن الإمام الساحلي أنه قال: لا بد لأهل الأوراد الكثيرة والأذكار المتواصلة من السبحة، إذ لا يمكنهم العدّ بالأصابع، ثم قال: وهذه حكمة السبحة، وذكر كثيرا من العلماء كانت لهم السبحة، منهم الإمام سحنون، فقد قال بعضهم: دخلت على سحنون وفي عنقه سبحة يسبح بـــها، وذكر الشعراني في طبقاته الصغرى: أن الشيخ أحمد الكعكي كانت له سبحة فيها ألف حبة فسرق إنسان منها سبع حبات، فرأي الشيخ النبي صلى الله عليه وسلم وقال له: يا أحمد، فلان سرق من سبحتك سبع حبات ولك كذا كذا يوما تصلي عليّ ناقصا عن العدد، فذهب إلى ذلك السارق، فقال صدق النبي صلى الله عليه وسلم وأخرجها له، وكان للشيخ الأكبر سيدي عبد السلام بن مشيش سبحة عظيمة، ومعلوم أن التقليد في الفروع مأمور به شرعا بقوله تعالى: {**فاسئلوا أهل الذكر**} الآية، وكل من قلد عالما لقي الله سالما، انتهى ما لخصته من (تحفة أهل الفتوحات).

وفي (طبقات الشافعية الكبرى) للمحقق تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي: أن الشيخ الإمام إبراهيم بن علي أبا إسحاق الشيرازي بلغ في بعض أسفاره إلى بلدة "شأوه" من بلاد العجم فخرج إليه صوفيات البلد ومع كل منهن سبحة، فألقت كل منهن سبحتها إلى المحفة، وقصدهن أن يلمسها لتحصل لهن البركة، فجعل يمرها على يديه وجسده ويتبرك بـــهن، ويقصد في حقهن ما قصدن في حقه اهـــ.

المحفة كما في اللسان رحل يحف بثوب ثم تركب فيه المرأة، وقيل: المحفة مركب النساء كالهودج إلا أن الهودج يقبب والمحفة لا تقبب أي لا تجعل لها قبة اهـــ.

وكان لسيدي الشيخ علي ميه سبحة فيها ألف حبة، وقد رأيتها والحمد لله في بيت سيدي الشيخ أبي علي بن الشيخ محمد بن الشيخ علي ميه، وقد أخبرني من أثق به أنه كان عند الشيخ حسين بن الشيخ عبد من خلفاء سيدي الشيخ علي ميه، فنام الشيخ فلمع كل حبة من حبات سبحته نورا واستدارت السبحة من أولها إلى آخرها وهي تقول: لآ إله إلا الله محمد رسول الله في كل لمحة ونفس عدد ما وسعه علم الله، وكان هناك جماعة فرأى كل منهم ذلك وعجبوا، ولما تم دورانـــها استيقظ الشيخ وعادت السبحة إلى حالتها الأولى.

فالحاصل أن اتخاذ السبحة مطلوب محبوب، وللوسائل حكم المقاصد، ولا يشك عاقل منصف أن المقصود منها التوسل إلى إكثار ذكر الله تعالى وترغيب النفوس فيه، وتَهييج الهمم إلى دوام الأوراد ودفع الكسل والملل عنها، إذ لا يخفى على عاقل أن حساب الأوراد الكثيرة بالأنامل يورث الفتور ويضعف القلوب، ويخرس الفطنة ويشغلها عن التدبر المطلوب فيها، ولا شك أن تكليف الناس على جمع الأحجار لحساب الأذكار يكون سببا للإهمال والإعراض عن الأوراد، فعياذا بالله أن نكون من المعوقين المثبطين عباد الله عن عبادته، فتحذير الناس عن السبحة بادعاء أنّها بدعة تعسف وتنطع وغلو في الدين، وفي ديننا من السماحة والسهولة ما لا يخفى على ذي بصيرة، فقد وضع الله عنا الأغلال التي كانت على من قبلنا فله الحمد والمنة .

واعلم أن العمل بالحديث الضعيف في الفضائل جائز باتفاق العلماء بشروط معلومة، فحديث على رضي الله عنه المذكور يكفينا دليلا وحجة لاتخاذ السبحة، ومعلوم أن الأمة استحسنتها من عهد التابعين إلى عصرنا هذا، ولم ينقل عمن يعتد بخلافه منعها ولله در من قال:

وليس كل خلاف جاء معتبرا ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ إلا خلاف له حظ من النظر

وكل ما استحسنه المسلمون فهو عند الله حسن إذ لا تجتمع هذه الأمة على ضلالة كما قال من لا ينطق عن الهوى صلى الله عليه وسلم، فالحسن البصري كان له سبحة وكان من أكابر التابعين، وكذا خالد بن معدان الكلاعي تابعي جليل توفي سنة خمس وأربعين ومائة، وكان لمعروف الكرخي سبحة، وكذا سري بن مغلس السَقَطِي وغيرهم من خلائق لا يحصون، بل لا فرق بينها وبين الحَصَى والنوى التي كانت صفية رضي الله عنها تسبح بها، وأقرها على ذلك النبي المصطفى صلى الله عليه وسلم، وكذلك لا فرق بينها وبين العقد التي في خيط أبي هريرة رضي الله عنه، ولم ينقل أن أحدا من الصحابة رضي الله عنهم أنكر عليه ورمى عليه بالتبدع باتخاذ هذه العقد، ومعلوم أنهم رضوان الله عليهم لا يسكتون على منكر ولا يخافون في الله لومة لائم، فما أشبه هذا بالإجماع السكوتي .

فإذا علمت ذلك علمت أن هؤلاء المانعين في هذه الأيام عن اتخاذ السبحة معاندون مغرورن، وعن الصواب مبعدون، وهم قطاع الطريق عن السائرين إلى الله،

المكثرين بالأذكار آناء الليل وأطراف النهار، {**ياأهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجا وأنتم شهداء وما الله بغافل عما تعملون**} والله سبحانه وتعالى الموفق، وهو الهادي إلى طريق الرشاد والصواب .

وَكُنْ هَيِّناً وَلَيِّناً مُتَوَاضِعاً حَلِيْماً زَكِيّاً عَنْ عُيُوْبٍ وَخِسَّةِ

أي كن أيّها الطالب هينا لينا متواضعا حليما، وهذه الصفات متقاربة، ويتأكد على الطالب أن يتخلق ويهتم بها، روى الخطيب البغدادي عن هشام بن عروة عن أبيه قال: مكتوب في الحكمة: ليكن وجهك بسطا وكلمتك طيبة تكن أحب إلى الناس من الذي يعطيهم العطاء، وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب: من لانت كلمته وجبت محبته(١).

وفي (الترغيب والترهيب) عن عياض بن حَمّاد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله أوحى إليّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغي أحد على أحد، رواه مسلم وأبو داود وابن ماجه .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله، رواه مسلم والترمذي.

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لا أعلمه إلا رفعه قال: يقول الله تبارك وتعالى: من تواضع لي هكذا –وجعل يزيد(٢) باطن كفه إلى الأرض وأدناها– رَفَعْتُهُ هكذا –وجعل باطن كفه إلى السماء، ورفعها نحو السماء، رواه أحمد والبزار ورواتُهما محتج بهم في الصحيح .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ما من آدمي إلا في رأسه حَكَمَة(٣) بيد ملك، فإذا تواضع قيل للملك: ارفع حكمته، وإذا تكبر قيل للملك: ضع حكمته، رواه الطبراني والبزار بنحوه من حديث أبي هريرة، وإسنادهما حسن.

---

[١] الفقيه والمتفقه ج٢ص١١٣.

[٢] هو أحد رواة الحديث.

[٣] الحَكَمة بفتح الحاء المهملة والكاف: هي ما تُجعل في رأس الدابة كاللجام ونحوه.

وروي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من تواضع لأخيه المسلم رفعه الله، ومن ارتفع عليه وضعه الله، رواه الطبراني في الأوسط(١).

وفي (جامع بيان العلم): قالوا: المتواضع من طلاب العلم أكثر علماً كما أن المكان المنخفض أكثر البقاع ماء(٢) .

وروى الخطيب البغدادي بسنده عن أبي عون الأنصاري قال: ما تكلم الناس بكلمة صعبة إلا وإلى جانبها كلمة ألين منها تجري مجراها.

وروى الخطيب البغدادي في (الفقيه والمتفقه) بسنده عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه قال: العلم ذو فضائل كثيرة، فرأسه التواضع، وسلاحه لين الكلمة، وفرسه المداراة، ومالكه الأدب(٣).

وفي (تنائج الأفكار شرح الرسالة القشيرية): حكي أن إبراهيم بن أدهم خرج إلى بعض البراري فاستقبله جندي، فقال: أين العمران؟ فأشار إلى المقبرة، فضرب رأسه وأوضحه، فلما جاوزه قيل له: إنه إبراهيم بن أدهم زاهد خراسان، فجاء يعتذر إليه فقال: إنك لما ضربت رأسي سألت الله تعالى لك الجنة، فقال: لم؟ فقال: علمت أني أوجر عليه، فلم أُرِدْ أن يكون نصيبي منك الخير ونصيبك مني الشر.

وشتم رجل الأحنف بن قيس وكان يتبعه ويسبه ولا يكافئه عليه، فلما قرب من الحي أي قومه وقف وقال له: يافتى إن بقي في قلبك شيء تقوله فيّ فقله كي لا يسمعك بعض سفهاء الحي فيجيبوك، وفي نسخة فيؤذوك.

---

[١] الترغيب والترهيب في باب الترغيب في التواضع والترهيب من الكبر والعجب والاحتقار ج٣ص٣٣٧-٣٣٩.

[٢] جامع بيان العلم ج١ص١٧٢.

[٣] وهذا بعض أثر طويل، وكماله عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه قال: إن العلم ذو فضائل كثيرة، فرأسه التواضع، وعينه البراءة من الحسد، وأذنه الفهم، ولسانه الصدق، وحفظه الفحص، وقلبه حسن النية، وعقله معرفة الأشياء والأمور الواجبة، ويده الرحمة، ورجله زيارة العلماء، وهمته السلامة، وحكمته الورع، ومستقره النجاة، وقائده العافية، ومركبه الوفاء، وسلاحه لين الكلمة، وسيفه الرضا، وفرسه المداراة، وجيشه محاورة العلماء، ومالكه الأدب وذخيرته اجتناب الذنوب، وزاده المعروف، وماؤه الموادعة، ودليله الهدى، ورفيقه صحبة الأخيار، فيكون قد أخذ فقهه من أفواه العلماء لا من الصحف. الفقيه والمتفقه ج٢ص٩٧.

وكان لبعض النساك أي العُبَّاد شاة فرآها على ثلاث قوائم والرابعة قطعت، فقال: من فعل هذا بـــها؟ فقال غلام له: أنا، فقال: لم؟ فقال: لأغمك بـــها، فقال: لا بل أنا لأغمنّ من أمرك بذلك وهو الشيطان، اذهب فأنت حر لوجه الله تعالى (١).

وقال ابن عبد البر: قال عطاء بن يسار:ما أُوْوِي شيء إلى شيء أزين من حلم إلى علم.

وقال بقية عن إبراهيم بن أدهم ومحمد بن عجلان: ما من شيء أشد على الشيطان من عالم حليم إن تكلم تكلم بعلم، وإن سكت سكت بحلم (٢).

ويروى في كتب الأدب أن مَعْن بن زائدة كان أميرا على العراق وكان حليما كريما يضرب به المثل فيهما، فقدم عليه أعرابي يمتحن حلمه فقال له:

أتذكر إذ لحافك جلد شاة   وإذ نعلاك من جلد البعير

قال: نعم، أذكر ذلك ولا أنساه، فقال:

فسبحان الذي أعطاك ملكا   وعلّمك الجلوس على السرير

قال: سبحانه وتعالى، قال:

فلست مسلّما إن عشتُ دهرا   على معن بتسليم الأمير

قال: يا أخا العرب السلام سنة، قال:

سأرحل عن بلاد أنت فيها   ولو جار الزمان على الفقير

قال: يا أخا العرب إن جاورتنا فمرحبا بك، وإن رحلت فمصحوب بالسلامة.

قال:

فجد لي يا ابن ناقصة بشيء   فإني قد عزمت على المسير

قال: أعطوه ألف دينار يستعين بـــها على سفره، فأخذها وقال:

قليل ما أتيت به وإني   لأطمع منك بالمال الكثير

قال: اعطوه ألفا آخر، وقال:

سألت الله أن يبقيك ذخرا   فما لك في البرية من نظير

---

[١] الرسالة القشيرية للإمام القشيري في باب الخلق.

[٢] جامع بيان العلم وفضله باب جامع في آداب العالم والمتعلم، ج١ص١٥٢.

فقال: اعطوه ألفا آخر، فقال الأعرابي: أيها الأمير ما جئت إلا مختبرا حلمك، لما بلغني عنه، فلقد جمع الله فيك من الحلم ما لو قسم على أهل الأرض لكفاهم، فقال معن: يا غلام كم أعطيته على نظمه؟ قال: ثلاثة آلاف دينار، فقال: اعطه على نثره مثلها، فأخذها ومضى في طريقه شاكرا.

وقيل للأحنف بن قيس وهو ممن يضرب بِهم المثل في الحلم: ممن تعلمت الحلم؟ قال: من قيس بن عاصم، قيل: فما بلغ من حلمه؟ قال: بينما هو جالس في داره إذ أتت جارية بسفود عليه شواء، فسقط السفود(١) من يدها على ابن له فعقره فمات، فدهشت الجارية فقال: لا يُسكِن روعَها إلا العتق، فقال: أنت حرة لا بأس عليك (٢).

وقوله: (**زكيا عن عيوب وخسة**) أي يكون الطالب زكيا نقيا عن كل ما يعاب به الإنسان من قول أو فعل أو حركة أو حضور المجالس التي لا تليق بأمثاله ونحو ذلك.

ويجتنب أيضا عن الخسة والدناءة والذل والمهانة، ومن كل ما يؤدي إلى الإزدراء والاحتقار، فقد ورد في الحديث: إن الله تعالى يحب معالي الأمور وأشرافها، ويكره سفسافها(٣).

وكثير من الناس إنما يأخذون الدين من أحوال العلماء وأعمالهم، ويعتقدون أن الدين هو ما يرونه فيهم فيقتدون بـــهم ويتشبثون بأوصافهم، فينبغي حينئذ أن تكون أعمالهم موزونة بميزان الشريعة المطهرة، مقيدة بالكتاب والسنة النبوية، فيكونون سببا في هداية من عاشرهم وخالطهم، بل ومن رآهم أو علم أوصافهم وأحوالهم .

تتمة

قد يلتبس على طالب العلم التواضع والحلم بغيرهما فيظن أنه من التواضع والحلم مع أنه ليس منهما، فينبغي له أن يعلم أنه ليس من التواضع الملاينة والملاطفة للفسقة والمبتدعة وأعداء الدين، بل يعامل كلا منهم ما تقتضي به الشريعة من قمعهم وإنكار منكرهم وإغلاظ القول فيهم، وإدحاض أباطيلهم، ورد كيدهم في نحورهم، وتبيين أخطائهم،

---

[١] السّفّود: الحديدة التي يشوى بـــها اللحم . مختار الصحاح.

[٢] تعليق مصطفى محمد عماره على كتاب الترغيب والترهيب في باب الترهيب من الغضب والترغيب في دفعه وكظمه .

[٣] قال السيوطي في الجامع الصغير: رواه الطبراني عن الحسين بن علي، ورمز له بالحسن .

وغلطاتـــهم للناس، فللتواضع مواطن، وللحلم مواضع، ولكل مقام له مقال، والحكيم من وضع كل شيء في موضعه، فقد قال صلى الله عليه وسلم: إذا رأيتم المتواضعين من أمتي فتواضعوا لهم، وإذا رأيتم المتكبرين فتكبروا عليهم، فإن ذلك لهم مذلة وصغار، وهو حديث غريب[1].

ولله در القائل:

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته   وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

فالبغض على من عصى الله وزجره والإنكار عليه مطلوب محبوب، بل هو مأمور، فقد كان صلى الله عليه وسلم يغضب عند ارتكاب المنهيات، وفعل المحرمات، وكان حالتئذ لا يقوم أحد لغضبه، وقد ورد أنه صلى الله عليه وسلم قال: هل الدين إلا البغض في الله والحب في الله[2]. ولما عبد قوم موسى صلى الله على نبينا وعليه وسلم العجل من بعده غضب عليهم، وألقى ألواح التوراة غضبا لله تعالى، ولقد أحسن من قال:

إذا قيل حلم قل فللحلم موضع   وحلم الفتى في غير موضعه جهل

وقال آخر:

ولا خير في حلم إذا لم يكن له   بوادر تحمي صفوه أن يكدرا

وقال آخر:

فلو كنتُ محتاجا إلى الحلم إنني   إلى الجهل في بعض الأحايين أحوج
وما كنت أرضى الجهل خدنا وصاحبا   ولكنني أرضى به حين أحرج
ولي فرس للحلم بالحلم ملجم   ولي فرس للجهل بالجهل مسرج
فمن شاء تقويمي فإني مقوم   ومن شاء تعويجي فإني معوج

وقال ابن الوردي في لاميته:

لا يغرنك لين من فتى   إن للحيات لينا يعتزل
أنا مثل الماء سهل سائغ   ومتى سخن آذى وقتل

اهـــ.

---

[1] الزواجر عن اقتراف الكبائر ج١ص٧٢.

[2] ذكرنا في مبحث العجب أن هذا الحديث رواه الحاكم وأبونعيم في الحلية. ورواه أيضا السيوطي في الجامع الصغير.

وقال آخر:

وبعض الحلم عند الجهل للذلة إذعان   وفي الشر نجاة يوم لا ينجيك إحسان

وَكُنْ بَاذِلاً جُهْدًا كَبِيْراً بِحِفْظِ مَا   تَرَاهُ مُهِمّاً مِنْ عُلُوْمٍ وَحِكْمَةِ

المراد من هذا البيت أمر طالب العلم ببذل جهده في حفظ العلوم المهمة والحكم المفيدة، وذلك من أهم المهمات، وأشرف خصال الطالب، ومن أعظم أسباب النجاح، وبلوغ المآرب والمطالب، وقالوا: من حفظ المتون حاز الفنون، وقد كان السلف ومَن بعدهم من أهل العلم يهتمون بالحفظ، ويبذلون فيه قصارى جهدهم، ونـــهاية وسعهم.

ذكر عدد من العلماء المكثرين للحفظ

اعتنى كثير من المتقدمين والمتأخرين بالحفظ، وقد يسر الله لهم ذلك بما جعله فيهم من الذكاء الخارق، والعزم القوي، والهمة العلية، ففي (فتح المغيث) للسخاوي و(الأعلام) للزركلي أن ابن عباس رضي الله عنه كان آية في الحفظ، أنشده ابن أبي ربيعة قصيدته التي مطلعها: أمن آل نُعْمٍ أنت غاد فمبكر، فحظفها في مرة واحدة، وهي ثمانون بيتا، وكان إذا سمع النوادب سد أذنيه بأصابعه مخافة أن يحفظ أقوالهن(١).

وروى الحافظ أبونعيم الأصبهاني بسنده عن زيد بن ثابت قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: يازيد هل تحسن السريانية؟ فقلت: لا، قال: فَتَعَلَّمْهَا فإنه يأتينا كتب، قال: فَتَعَلَّمْتُهَا في سبعة عشر يوما (٢)اهـــ .

وروى ابن سعد بسنده عن زيد بن ثابت أيضا قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنه يأتيني كتب من أناس لا أحب أن يقرأها أحد فهل تستطيع أن تَعَلَّمَ كتاب العبرانية أو قال: السريانية، فقلت: نعم، قال: فتعلمتها في سبع عشرة ليلة .

ورَوَى ابن سعد أيضا عن زيد بن ثابت أنه قال: لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة قال لي: تَعَلَّم كتاب اليهود فإني والله ما آمن اليهود على كتابي، قال: فتعلمته في أقل من نصف شهر (٣)اهـــ .

وذكر هذه القصة ابن عبد البر في الاستيعاب في ترجمة زيد بن ثابت .

---

[١] الأعلام للزركلي ج٤ص٩٥ .

[٢] معرفة الصحابة لأبي نعيم الأصبهاني أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق المتوفى سنة ٤٣٠ ج٢ص٣٣٢.

[٣] الطبقات الكبرى لابن سعد في ذكرى مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم ج٢ص٣٥٨.

وقال السيوطي في مقدمة (تدريب الراوي) قال أبوزرعة الرازي: كان أحمد بن حنبل يحفظ ألف ألف حديث. وسيأتي في ترجمته إن شاء الله.

وأسند ابن عدي عن ابن شبرمة عن الشعبي قال: ما كتبت سوداء في بيضاء إلى يومي هذا ولا حدثني رجل بحديث قط إلا حفظته فحدث بـهذا الحديث اسحق بن راهويه فقال: تعجب من هذا؟ قلت: نعم، قال: ما كنت لأسمع شيئا إلا حفظته، وكأني أنظر إلى سبعين ألف حديث أو قال: أكثر من سبعين ألف حديث في كتبي.

وقال يزيد بن هارون: أحفظ خمسة وعشرين ألف حديث بإسناده ولا فخر، وأحفظ للشاميين عشرين ألف حديث(١) .

وقال محمد بن حمدويه: سمعت البخاري يقول: احفظ مائة ألف حديث صحيح وأحفظ مائتى ألف حديث غير صحيح.

وفي (سير أعلام النبلاء) قال عمر بن شبَّة: سمعت الأصمعي يقول: أحفظ ستة عشر ألف أرجوزة. وقال محمد بن الأعرابي: شهدت الأصمعي وقد أنشد نحوا من مائتى بيت، ما فيها بيت عرفناه(٢).

وحفظ ابن الأنباري النحوي مائة وعشرين تفسيرا، وقال ابن السبكي: قال الروياني: لو احترقت كتب الشافعي لأمليتها من حفظي. ثم قال ابن السبكي: ولا يعنى بكتبه منصوصاته فقط، بل منصوصاته وكتب أصحابه، هذا هو الذي يراد عند إطلاق كتب الشافعي (٣).

وقال الإمام النووي: حفظت التنبيه في أربعة أشهر ونصف، وحفظت ربع المهذب في باقي السنة.

وأما من كان يحفظ مائة ألف حديث مع أسانيدها وأحوال رواتـها من عدالتهم وضبطهم وتاريخ ولادتِهم ووفاتِهم وغير ذلك مما يتعلق بِهم فخلائق لا تعد ولا تحصى .

[١] مقدمة تدريب الراوي ج٢ص٤٩-٥٢.

[٢] هدي الساري مقدمة صحيح البخاري ، ذكر جمل من الأخبار الشاهدة لسعة حفظه وسيلان ذهنه.

[٣] والرُوْيَانِي هو: عبد الواحد بن إسماعيل بن أحمد بن محمد أبو المحاسن الرُويَاني صاحب البحر، ولد في ذي الحجة سنة خمس عشرة وأربعمائة، وتوفي سنة اثنين وخمسمائة، قتلته الملاحدة حسدا اهـ طبقات الشافعية الكبرى لابن السبكي ج٤ص٢٦٤-٢٦٥.

قال الإمام الشعراني: ومما أنعم الله تعالى به عليّ حفظ متون الكتب، فحفظت أولا أباشحاع، ثم الأجرومية في بلاد الريف، ثم لما جئت مصر حفظت كتاب المنهاج للنووي، ثم ألفية ابن مالك، ثم التوضيح لابن هشام، ثم جمع الجوامع، ثم ألفية العراقي، ثم تلخيص المفتاح، ثم الشاطبية، ثم قواعد ابن هشام، وغير ذلك من المختصرات، وحفظت هذه الكتب حتى صرت أعرف متشابـــهاتـــها كالقرآن من جودة الحفظ، ثم ارتفعت الهمة إلى حفظ كتاب الروض مختصر الروضة لكونه أجمع كتاب في مذهب الإمام الشافعي، فحفظت منه إلى أثناء باب القضاء على الغائب، فلقيني بعض أرباب الأحوال بباب الخرق خارج باب زويلة، فقال لي مكاشفا: قف على باب القضاء على الغائب ولا تقض على غائب بشيء . فما قدرت بعد ذلك على حفظ لوح واحد منه، لكنني طالعت الكتاب ودرسته نحو مائة مرة. ثم لقيني الشيخ أحمد البهلول رضي الله عنه، فقال لي مكاشفا: أقبل على الاشتغال بالله ويكفيك من العلم ما قد علمته، فشاورت في ذلك مشايخي، فقالوا: لا تدخل طريق القوم إلا بعد شرح محفوظاتك كلها على الأشياخ، فإذا فهمتها وتبحرت فيها فعليك بطريق القوم، وكان أشياخي كلهم من الجامعين بين العلم والعمل، والحمد لله رب العالمين.

وقال أيضا: كان ذهني بحمد الله سيالا لا يسمع شيئا وينساه(١).

وكان الإمام ابن شهاب الزهري حفظ القرآن في ثمانين ليلة، وحفظ سعد الدين علي بن محمد بن علي القرآن العظيم وهو ابن خمس سنين في سنتين، والحافظ السيوطي ختم القرآن العظيم وله من العمر دون ثمان سنين. وروى ليث عن الزهري قال: ما استودعتُ قلبي علما فنسيتُه.

وقال الحافظ السخاوي في (الجواهر والدرر): روي أن أبا مُحَلِّمٍ كان يقول: لزمت ابن عيينة فلم أفارق مجلسه، فقال لي: أراك حَسَنَ الملازمة، ولا أراك تحظى من ذاك بشيء، لأنك لا تكتب، فقلت: أنا أحفظ، فقال: فكل ما حدثت به حفظته؟، قلت:نعم، فأخذ دفتر إنسان بين يديه، فقال لي: أعد عليّ ما حدثت به اليوم، فما أخرمت منه حرفا، فأخذ مجلسا من الماضي فأمْرَرْتُه عليه، فقال: حدثنا الزهري عن عكرمة قال: قال ابن

---

[1] المنن الكبرى للشعراني ص٥٦-٦٠.

عباس رضي الله عنهما: يقال: إنه يولد في كل سبعين سنة من يحفظ كل شيء، قال ابن عيينة: أراك صاحب السبعين.

وعن ابن شهاب أنه كان يقول: إني لأمرّ بالبقيع، فأسد أذنيّ مخافة أن يدخل فيها شيء من الخنا، فوالله ما دخل أذنيّ شيء قط فنسيته، وعن الشعبي نحوه، وليس أحد اليوم على هذا، نعم بلغنا عن البلقيني أنه حفظ قصيدة من مرة واحدة، وهو نادر جدا، وحفظ الزين العراقي نصف (الحاوي الصغير) في اثنى عشر يوما(١).

وقال الإمام أسعد الميهني: سمعت الغزالي يقول: قُطعت علينا الطريق، وأخذ العَيارون جميع ما معي ومضوا، فتبعتهم فالتفت إليّ مقدَّمهم، وقال: ارجع ويحك وإلا هلكت، فقلت له: أسألك بالذي ترجو السلامة منه أن ترد عليّ تعليقتي فقط، فما هي بشيء تنتفعون به، فقال لي: وما هي تعليقتك؟ فقلت: كتب في تلك المخلاة هاجرت لسماعها وكتابتها، وعرفت علمها، فضحك وقال: كيف تدعي أنك عرفت علمها وقد أخذناها منك فتجردت من معرفتها وبقيت بلا علم؟ ثم أمر بعض أصحابه فسلم إليّ المخلاة، قلت: هذا مستنطق أنطقه الله تعالى ليرشدني به في أمري، فلما وافيت "طوس" أقبلت على الاشتغال ثلاث سنين حتى حفظت(٢) جميع ما علقته وصرت بحيث لو قطع الطريق عليّ لم أتجرد من علمي (٣).

وفي (فتح الملهم بشرح صحيح مسلم): نقل عن هشام الكلبي قال: حفظت ما لم يحفظه أحد، ونسيت ما لم ينسه أحد، حفظت القرآن في ثلاثة أيام، وأردت أن أقطع من لحيتي ما زاد على القبضة فقطعت من أعلاها (٤)اهـ.

---

[١] الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر ج١ص٨٤-٨٥.

[٢] قال الشيخ عبد الله عبد الحميد عرواني في تعليقه على كتاب (الأربعين في أصول الدين): يحاول التربويون الآن في عصرنا التقليل من شأن الحفظ، ويقولون: إنه من المهارات العقلية الدنيا تقليدا للغربيين، ناسين أن علماءنا الذين كانوا أساتذة وعباقرة العالم بدؤوا أول أمرهم بحفظ القرآن الكريم وسائر العلوم ثم تفتقت أذهانهم بعد ذلك بعجائب الفهوم والاستنباطات وأنواع العلوم.

[٣] إتحاف السادة المقتين ج١ص٧، وتعليق الشيخ عبد الله عبد الحميد عرواني على كتاب الأربعين في أصول الدين للغزالي.

[٤] فتح الملهم بشرح صحيح الإمام مسلم باب خصال الفطرة من كتاب الطهارة.

وأما في هذا الزمان فقد كلّت فيه الهمة والعزيمة، وقَلّ فيه الذكاء والفطنة، وضعفت فيه الأذهان، وكثر النسيان، فقَلّ بذلك الحفظ عن ظهر القلب، والله المستعان.

وكان صديقي وشيخي الشيخ محمد بن أحمد بن الشيخ محمود المشهور بالشيخ (أبا) الشاشي المقدشي أكثر مَنْ لقيته في الحفظ، فقد سمعت منه رحمه الله تعالى يقول: إني حفظت ثمانية عشر ألف حديث من الأحاديث النبوية(١)، وكثير من الطلبة في بلادنا يحفظون كتاب قطر الندى وشرحه كلاهما لابن هاشم النحوي، وألفية ابن مالك في النحو، وألفيتى العراقي والسيوطي في مصطلح الحديث، ومختصر ابن أبي جمرة في الحديث، والشاطبية في القراءات، ونحو ذلك من الفنون الأخرى، وكان من مشايخي مَنْ يحفظ عن ظهر قلبه كتاب إرشاد الغاوي في سبيل الحاوي لابن المقري، ولقد رأيت شبانا من إخواننا يحفظون رُبُعَيِ العبادات والبيوع من المنهاج للإمام النووي.

أهمّ أوقات الحفظ وأماكنه

قال الخطيب البغدادي: اعلم إن للحفظ ساعات ينبغي لمن أراد التحفظ أن يراعيها، وللحفظ أماكن ينبغي للمتحفظ أن يلزمها، فأجود الأوقات الأسحار، ثم بعدها وقت انتصاف النهار، وبعدها الغدوات دون العشيات، وحفظ الليل أصلح من حفظ النهار، قيل لبعضهم: بم أدركت العلم؟ قال: بالمصباح والجلوس إلى الصباح، وقيل لآخر: فقال بالسفر والسهر والبكور في السحر، وأجود أماكن الحفظ الغرف دون السفل، وكل موضع بعيد مما يلهي، وخلاء القلب فيه مما يفزعه فيشغله، وليس بالمحمود أن يتحفظ الرجل بحضرة النبات والخضرة، ولا على شطوط الأنْهار ولا على قوارع الطرق، فليس يعدم في هذه المواضع غالبا ما يمنع من خلو القلب وصفاء السر.

وأوقات الجوع أحمد للتحفظ من أوقات الشبع، وينبغي للمتحفظ أن يتفقد من نفسه حال الجوع، فإن بعض الناس إذا أصابه شدة الجوع و التهابه لم يحفظ، فليطفئ ذلك عن نفسه بالشيء الخفيف اليسير كمص الرمان وما أشبه ذلك، ولا يكثر الأكل، فقد قال صلى الله عليه وسلم: ما ملأ آدمي وعاء شرا من بطنه، بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه،

---

[١] توفى الشيخ (أبا) باليمن ضحوة الأحد الخامس عشر من شعبان سنة ١٤٢٩هـ، ثم نقل جثمانه بالطائرة إلى بلده مقديشو ودفن فيها بجنب ضريح جده من جهة أمه وشيخ مشايخه الإمام العلامة النحرير الفهامة العارف بالله الشيخ عبد الرحمن بن عبد الله الشاشي المعروف بالشيخ صوفي صاحب القبة المشهورة.

فإن كان لا محالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه(١). وقال الأصمعي: وعظ أعرابي أخا له فقال: يا أخي إياك والبطنة فإنها تعمي عن الفطنة.

وقال عمر بن هبيرة لملك الروم: ما تعدون الأحمق فيكم؟ قال: الذي يملأ بطنه من كل شيء يجد.

وقال بعض الأطباء: الدواء الذي لا داء فيه أن تقعد على الطعام وأنت تشتهيه وتقوم وأنت تشتهيه(٢).

وقال البخاري: لاأعلم أنفع للحفظ من نهمة الرجل ومداومة النظر(٣) .

وقال ابن عبد البر: سئل البخاري عن دواء للحفظ فقال: إدمان النظر في الكتب(٤) .

وفي الإحياء: قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ثلاث يزدن في الحفظ ويذهبن البلغم، السواك والصيام وقراءة القرآن(٥).

وفي (فتح الباري) قال سفيان الثوري وغيره: أول العلم الاستماع ثم الإنصات ثم الحفظ ثم العمل ثم النشر، وعن الأصمعي تقديم الإنصات على الاستماع(٦).

وقال الفضيل بن عياض: أول العلم الإنصات، ثم الاستماع، ثم الحفظ، ثم العمل، ثم النشر.

---

[١] أخرجه أيضا في مسنده والترمذي وابن ماجه والحاكم عن المقدام بن معدي كرب

[٢] الفقيه والمتفقه ج٢ص ١٠٢-١٠٦.

[٣] هدي الساري مقدمة صحيح البخاري ص٤٨٧-٤٨٨.

[٤] جامع بيان العلم ج٢ص٢٤٩.

[٥] إحياء علوم الدين للغزالي باب أسرار القرآن من كتاب أداب تلاوة القرآن.

[٦] فتح الباري ج١ ص٢١٧

وقال ابن المبارك: أول العلم النية، ثم الاستماع، ثم الفهم، ثم الحفظ، ثم العمل، ثم النشر(١).

فائدة في ذكر مقدار ما يحفظه المتعلم

قال الخطيب البغدادي في الفقيه والمتفقه: اعلم أن القلب جارحة من الجوارح تحتمل أشياء وتعجز عن أشياء، كالجسم الذي يحتمل بعض الناس أن يحمل مائتى رطل، ومنه من يعجز عن عشرين رطلا، ومنهم من يأكل من الطعام أرطالا، ومنهم من يتخمه الرطل فما دونه، فكذلك القلب، من الناس من يحفظ عشر ورقات في ساعة، ومنهم من لا يحفظ نصف صفحة في أيام، فإذا ذهب الذي مقدار حفظه نصف صفحة يروم أن يحفظ عشر ورقات تشبها بغيره لحقه الملل، وأدركه الضجر، ونسي ما حفظ، و لم ينتفع بما سمع، فليقتصر كل امرئ من نفسه على مقدار يبقى فيه ما لا يستفرغ كل نشاطه، فإن ذلك أعون له على التعليم (٢).

وقال بعض الحكماء: إن لهذه القلوب تنافرا كتنافر الوحش، فَأَلِّفُوْهَاْ لتحسن طاعتها ويدوم نشاطها، ولا ينبغي أن يمزج نفسه فيما يستفرغ مجهوده، وليعلم أنه إن فعل ذلك فتعلم في يوم ضعف ما يحتمل أضر به في العاقبة؛ لإنه إذا تعلم الكثير الذي لا طاقة له به وإن تهيأ له في يومه ذلك أن يضبطه وظن أنه يحفظه فإنه إذا عاد من غد وتعلم نسي ما كان تعلمه أولا وثقلت عليه إعادته.

فينبغي للمتعلم أن يشفق على نفسه من تحميلها فوق طاقتها ويقتصر من التعلم على ما يَبْقَى عليه حفظه ويثبت في قلبه، وينبغي أن يجعل لنفسه حدا كلما انتهي إليه وقف عنده حتى يستقر ما في قلبه ويريح بتلك الوقفة نفسه.

فعن عائشة رضي الله عنها: كانت عندي امرأة فدخل عليّ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: من هذه؟ فقلت: فلانة لا تنام الليل، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: مه عليكم بما تطيقون فو الله لا يمل الله حتى تملوا، قالت: وكان أحب الدين إليه الذي يدوم عليه صاحبه.

---

[١] جامع بيان العلم وفضله باب منازل العلم، ج١ص١٣٩.

[٢] الفقيه والمتفقه ج٢ ص١٠١

وعن وهب بن منبه قال: إن في حكمة آل داود: حق على العاقل أن لا يغفل عن أربـــع ساعات، ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يفضي فيها إلى إخوانه الذين يخبرونه بعيوبه، وساعة يخلي بين نفسه وبين لذتـــها فيما يحل ويجمل، فـــإن هـــذه الساعة عون على هذه الساعات .

وقال قسامة ابن زهير: روحوا القلوب تعي الذكر (١).

واعلم أن الحفظ وحده لا ينفع، بل لا بد من العمل والاستفادة من المحفوظ فقد قال الإمام الشافعي رحمه الله: العلم ما نفع، ليس العلم ما حفظ(٢).

وَمُبْتَدِئاً مِنْ كُلِّ فَنٍّ صِغَارَ كُتْـــ ـــبِهِ مِنْ مُتُوْنٍ أَوْ شُرُوْحٍ مُهِمَّةِ

أي كن أيها الطالب مبتدئا في تعلم العلم الكتب المختصرة من كل فن من فنون العلم؛ لتكون كالسلم إلى المبسوطات، ولا بد أن تكون في ابتداء دراستك مقتصرا على ما تحتمله طاقتك الابتدائية المحدودة، فقد قال الخطيب البغدادي في (الفقيه والمتفقه): قام أبوحنيفة فأتى حمادا فقال له: ما جاء بك؟ قال: أطلب الفقه، فقال: تعلم كل يوم ثلاث مسائل، ولا تزد عليها شيئا حتى يتفق لك شيء من العلم، فتعلم ولزم الحلقة حتى فقه، فكان الناس يشيرون إليه بالأصابع، فينبغي للطالب أن يتثبت في الأخذ ولا يكثر، بل يأخذ قليلا قليلا حسب ما يحتمله حفظه ويقرب من فهمه فإن الله تعالى يقول: {**وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤاك ورتلناه ترتيلا**} .

وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن هذا الدّين مـــتين فأوغل فيه برفق، ولا تبغض إلى نفسك عبادة الله فإن المنبتّ(٣) لا أرضا قطع ولا ظهـــرا أبقى.

---

[١] الفقيه والمتفقه، ج٢ص١٠٧-١٠٩.

[٢] سير أعلام النبلاء ج١٠ص٨٩.

[٣] وفي النهاية لابن الأثير: يقال للرجل إذا انقطع به في سفره وعطبت راحلته قد انبتَّ، من البت القطع، يقال: بته وأبته، يريد أنه بقي في طريقه عاجزا عن مقصده لم يقض وطره وقد أعطب ظهره اهـــ وفي المعجم الوسيط: انبت الرجل في السير جَهَد دابته حتى أعْيَتْ وفي الحديث: إن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى، يقال لمن يبالغ في طلب الشي ويُفَرِّط حتى ربما يُفَوِّته على نفسه.

وروى البخاري عن ابن عباس قال في تفسير قوله تعالى: {**كونوا ربانيين**}: حُلَمَاءَ فُقَهَاءَ، ويقال: الرباني الذي يربي الناس بصغار العلم قبل كباره اهـ .

وعن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إن الدين يسر ولن يُشآدّ الدينَ أحدٌ إلا غلبه فسدّدوا وقاربوا وأبشروا، واستعينوا بالغُدوة والروحة وشيء من الدُّلْجَة، رواه البخاري. قال الحافظ العيني في شرح هذا الحديث: المعنى لا يتعمق أحدكم في الدين فيترك الرفق إلا غلب الدينُ عليه وعجز ذلك المتعمق وانقطع عن عمله كله أو بعضه(١) .

وفي (الجامع الصغير) روى الإمام أحمد في مسنده عن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق، ورمز له السيوطي بالصحة.

وقال الحافظ الخطيب البغدادي رحمه الله: العلم كالبحار المتعذر كيلها، والمعادن التي لا ينقطع نيلها، فاشتغل بالمهم منه، فإنه من شغل نفسه بغير المهم أضر بالمهم(٢) اهـ.

معاملة النفس عند الفتور والملل

قال ابن المراغي: ينبغي أن يخادع الإنسان نفسه في الدرس .

قال أبوغدة: يعني بهذا أن الإنسان إذا أدركه ملل أو لحقه فتور فلا يحسن به أن يستجيب له ويقف عن متابعة الدرس والتحصيل، بل يعالج فتوره ويغالب ملله حتى يتغلب عليه، فينقشع الفتور والملل ويأتي النشاط والانبساط (٣).

مُطَالَعَةَ الكُتْبِ الَّتِيْ فِيْ فَضَائِلِ الـــ ـــعُلُوْمِ فَدَاوِمْهَا لإنْهَاضِ هِمَّةِ

أي داوم أيها الطالب مطالعة الكتب التي ذكرت فيها فضائل العلم وأهله، فإن ذلك يؤدي إلى محبة العلم والطموح إليه، فتعلو الهمة وتقوى العزيمة، فيزداد الاجتهاد في طلبه، والسعي إلى خوض بحاره، وقد وردت في فضائل العلم وأهله آيات وأحاديث وآثار كثيرة ذكرنا جملة منها في مقدمة هذا الشرح .

وقال العلامة ابن الجوزي في (صيد الخاطر): إني ما أشبع من مطالعة الكتاب، وإذا رأيت كتابا لم أره فكأني وقعت على كَنْز، ولقد نظرت في ثبت الكتب الموقوفة في المدرسة النظامة، فإذا به يحتوي على نحو ستة آلاف مجلد، وفي ثبت كتب أبي حنيفة وكتب

---

[١] عمدة القاري، باب الدين يسر، من كتاب الإيمان، ج١ص٢٣٧.

[٢] قيمة الزمن عند العلماء ص١٠٦.

[٣] قيمة الزمن ١٠٤-١٠٥.

الحميدي وكتب شيخنا عبد الوهاب بن ناصر، وكتب أبي محمد بن محمد بن الخشـــاب وكانت أحمالا، وغير ذلك من كل كتاب أقدر عليه، ولو قلت إني طالعت عشرين ألـــف مجلد كان أكثر وأنا بعد في الطلب، فاستفدت بالنظر فيها من ملاحظة سِيَر القوم وقـــدر هممهم وحفظهم وعباداتـــهم وغرائب علومهم ما لا يعرفه من لم يطالع، فصرت أستزري ما الناس فيه، وأحتقر همم الطلاب ولله الحمد اهـــ.(١)

تَعَوَّدْ بِسُرْعَةِ الكِتَابَةِ يَا فَتَى بِتَحْسِيْنِ خَطٍّ مِثْلَ خَطِّ ابنِ مُقْلَةِ

معنى هذا البيت أنه ينبغي لطالب العلم أن يكون سريع الكتابة مع تحسينها، وأن يتكلف بـــهما حتى يصير له ذلك سجية وطبيعة لا كلفة فيها، ذكر الشيخ عبد الفتاح أبوغدة أن القاضي أبابكر بن الطيب الباقلاني، كان ورده كل ليلة عشرين ترويحة، ولا ينام حتى يكتب خمسا وثلاثين ورقة من حفظه(٢).

ولحفظ الوقت وكسبه ذكروا قديما في أوصاف طالب العلم الذي يُؤَهَّلُ لتحصيل العلم ويرجى له النبوغ فيه: أنه ينبغي أن يكون سريع الكتابة، سريع القراءة، سريع المشي، وسرعة مشيه ليتمكن من الطواف على الشيوخ في وقت قليل، وأما سرعة كتابته وقراءته فلاختصار الوقت وحفظه لأعمال أخرى، وللازدياد من العلم فيه أيضا، وهذه الأوصاف لا شك أنـــها تساعد على زيادة التزود من العلم والشيوخ بأقل مدة من الزمن والعمر.

قال السيوطي رحمه الله:

حدثنا شيخنا الكِناني (٣) عن أَبِهِ صاحب الخطابه

أسرع أخا العلم في ثلاث الأكل والمشي والكتابه (٤)

قال أبوغدة: وكنت زدت عليها وصفا رابعا، وهو: أن يكون سريع الأكل، لأنه إذا لم يكن كذلك وكان بطيء الطعام طويل الغرام به فاته الوقت الذي جمعه بسرعة القراءة والكتابة والمشي، بطول وقت دخول الطعام وخروجه! ولم يحسن التصرف في وقته.

---

[١] صيد الخاطر، ص٣٨٨.

[٢] قيمة الزمن ٨٧.

[٣] وشيخه المشار إليه هنا هو الإمام قاضي القضاة عز الدين أحمد بن إبراهيم الكناني المصري الحنبلي رحمهما الله تعالى.

[٤] قيمة الزمن ١٠٩- ١١١.

وذكرت في (إقناع المؤمنين) أن الخطيب البغدادي ذكر في تاريخه أن الإمام أبا جعفر محمد ابن جرير الطبري مكث أربعين سنة يكتب في كل يوم منها أربعين ورقة، وقسم أقوام من تلامذته أوراق مصنفاته منذ بلغ الحلم إلى أن مات فصار لكل يوم أربع عشر ورقة(١).

وفي (كنـــز العمال) في مسند علي رضي الله عنه عن سعيد بن أبي سكينة قال: بلغني أن علي بن أبي طالب نظر إلى رجل يكتب بسم الله الرحمن الرحيم فقال: جودها فإن رجلا جودها فغفر له، رواه الختلي.

وعن علي قال: الخط علامة، فكل ما كان أبين كان أحسن، رواه الخطيب في (الجامع)(٢).

وفي (الجامع الصغير): الخط الحسن(٣) يزيد الحق وضحا، رواه الديلمي في مسند الفردوس عن أم سلمة.(٤)

قال المناوي في (الفيض القدير): وفي رواية وضوحا، وذلك لأنه أنشط للقارئ وأبعث على تجريد الهمة للتأمل والتدبر، وقيل: الخط وشي محبوك، وذهب مسبوك، متنـــزه الألحاظ، ومجتنى الألفاظ، ومن أمثالهم: ما الثمر اليانع تحت خضرة الورق بأحسن من الخط الرائع في بياض الورق، وقال الماوردي: تقول العرب: الخط أحد اللسانين، وحسنه أحد الفصاحتين. وقال حكيم الروم: الخط هندسة روحانية وإن ظهر بآلة جسدانية، وقال حكيم العرب: الخط أصل في الروح وإن ظهر بحواس الجسد، قالوا: وحسن الخط لسان اليد، وقال عبد الحميد: البيان في اللسان والبنان اهـــ .

وفي (مغني المحتاج): قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: الخط الحسن يزيد الحق وضوحا.

---

[١] إقناع المؤمنين بتبرك الصالحين ص٣٢٨.

[٢] كنـــز العمال ج١٠ص١٣٨-١٣٩.

[٣] قال المناوي: يعني الكتابة الحسنة .

[٤] قال الحافظ أبو الفيض الغماري في المداوي ج٣ ص٥٤٠ إن هذا الحديث في الأصل عن سلمة وكانت له صحبة ثم ساق الحديث اهـــ.

وابن مقلة كما في (سير أعلام النبلاء) هو أبو علي محمد بن علي بن حسن بن مقلة الوزير الكبير، ولد في شوال سنة اثنين وسبعين ومائتين، ومات في حادي عشر شوال سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة، واختلف فيه هل هو صاحب الخط المنسوب أو أخوه الحسن بن علي؟ والظاهر أن الحسن هو صاحب الخط، وكان أول من نقل هذه الطريقة المولدة من القلم الكوفي (١) اهـ.

وقال الشاعر لما سئل هل خط الملك أحسن أم خط ابن مقلة بعد أن رأي الخطين:

يخطط مولانا خطوط ابن مقلة   وينظمها نظم اللآلئ في السلك

فهذا عليه رونق (٢) الخط وحده   وهذا عليه رونق الخط والملك

وقال الذهبي في (سير أعلام النبلاء): كان نور الدين محمود بن الأتابك صاحب الشام مليح الخط كثير المطالعة يصلي في جماعة ويصوم ويتلو ويسبح ويتحرى في القوت ويتشبه بالعلماء والأخيار(٣) اهـ .

وقال ابن كثير في (البداية والنهاية): قد كان الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي حسن الخط كثير المطالعة للكتب الدينية متبعا للآثار النبوية (٤) اهـ .

وكان خط الشيخ محمد بن عبد الرحيم صفي الدين الهندي في غاية الرداءة، وكان رجلا ظريفا، فيحكى أنه قال: وجدت في سوق الكتب مرة كتابا بخط ظننته أقبح من خطي، فغاليت في ثمنه واشتريته لأحتج به على من يدعي أن خطي أقبح الخطوط، فلما عدت إلى البيب وجدته بخطي القديم(٥).

سرعة قراءة بعض العلماء

وفي مقدمة حاشية الحفني على (الجامع الصغير): قرأ الحافظ ابن حجر كتاب تاريخ البخاري الأصغر في مجلس واحد فضربوا به المثل وهو عشرون ألف حديث اهـ.

---

[١] سير أعلام النبلاء ج١٥ص٢٢٤

[٢] الرونق: الحسن.

[٣] سير أعلام النبلاء ج٢٠ص٥٣٣

[٤] البداية والنهاية، ج١٢ص٣٠٤.

[٥] طبقات الشافعية الكبرى لابن السبكي ج٥ص٢٤٠.

وفي (شرح الزرقاني على المواهب) قرأ الحافظ البغدادي (صحيح البخاري) على كريمة بمكة في خسمة أيام، وعلى إسماعيل الحيري في ثلاثة مجالس، ذكره الذهبي وقال: هو أمر عجب(١).

وفي (الضوء اللامع) للحافظ السخاوي أن مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزبادي صاحب (القاموس) قرأ صحيح مسلم على ناصر الدين أبي عبد الله محمد بن جهبل بدمشق تجاه نعل النبي صلى الله عليه وسلم في ثلاثة أيام اهـ ومثله في (شذرات الذهب)، وقال : وتبجح بذلك مجد الدين وقال:

قرأت بحمد الله جامع مسلم   بجوف دمشق الشام جوف لإسلام

على ناصر الدين الإمام ابن جهبل   بحضرة حفاظ مشاهير أعلام

وتم بتوفيق الإله وفضله   قراءة ضبط في ثلاثة أيام

فسبحان المانح الذي يؤتي فضله من يشاء اهـ .

وقال عبد الفتاح أبوغدة في (صفحات من صبر العلماء): إن الله تعالى أجرى سنته في علماء الإسلام أن يبارك لأحدهم في قراءته، والآخر في إلقائه وتفهيمه، والآخر في نسخه وجمعه، والآخر في عبادته، وسيدي أبو القاسم العبدوسي حافظ المغرب وقته ممن جمع الله له ذلك كله، وبارك له في قراءته وإلقائه ونسخه وجمعه وعبادته، قرأ البخاري في نهار يوم واحد(٢).

وَرَدِّدْ وَكَرِّرْ نَحْوَ عِشْرِيْنَ مَرَّةً   بِدَرْسِكَ كَيْ تَبْلُغْ مُنَاكَ بِسُرْعَةِ

أي كرر في إعادة درسك مرات كثيرة حتى تفهمه وتتضح لك مشكلاته ودقائقه، ويثبت في قلبك ويستقر في ذهنك، بحيث تأمن من نسيانه بعد، فقد قالوا: التكرار يعلم الجدار، وقالوا أيضا: التكرار يجعل الحمار فقيها. وذلك يختلف باختلاف الناس في سرعة الإدراك والفطنة والذكاء، وبصعوبة الدرس وسهولته، فرب درس يفهمه الطالب بإعادته مرات قليلة، وآخر لا يفهمه فهما تاما إلا بتكراره عشرين مرة أو أكثر .

---

١ شرح الزقاني على المواهب اللدنية ج١ص١٩٦ .

٢ صفحات ٣٨٣.

قال الإمام النووي: قال الشيخ أبو إسحاق الشيرازي رحمه الله: كنت أعيد كل درس مائة مرة، وإذا كان في المسألة بيت شعر يستشهد به حفظت القصيدة كلها من أجله(١) اهـــ

اهـــ وفي (إقناع المؤمنين) قال أبو إسحاق الشيرازي: كنت أعيد كل قياس ألف مرة، فإذا فرغت منه أخذت قياسا آخر وهكذا، وكنت أعيد كل درس ألف مرة، فإذا كان في المسئلة بيت يستشهد به حفظت القصيدة، وقيل: إنه كان يحفظ مسائل الخلاف كما يحفظ أحدكم الفاتحة اهـــ.

وقال الإمام النووي في (مقدمة المجموع): ومن آداب الطالب أن يصحح درسه الذي يتحفظه تصحيحا متقنا، ثم يحفظه حفظا محكما، ثم بعد حفظه يكرره مرات ليرسخ رسوخا متأكدا، ثم يراعيه بحيث لا يزال محفوظا جيدا ويداوم على تكرار محفوظاته، ولا يحفظ ابتداء من الكتب استقلالا بل يصحح على الشيخ فالاستقلال بذلك من أضر المفاسد، وإلى هذا أشار الشافعي رحمه الله بقوله: من تفقه من الكتب ضيع الأحكام(٢).

الأحكام(٢).

وَأَمَّا إِذَا أَعَدْتَّ يَا غِرُّ (٣) مَرّةً وتَتْرُكْهُ تَنْدَمَنْ وَتَحْيَى بِذِلَّةِ

أي أما إذا أعدت درسك مرة واحدة ثم تركته فإنك سوف تندم إذا نسيته وتتحسر بعد حين وتحيى بذل الجهل وهوانه.

مُطَالَعَةَ الْكُتْبِ الْمُفِيْدَةِ لازِمَنْ بِجِدٍّ وَفَهْمٍ مَعْ كِتَاْبَةِ نُكْتَةِ

أي لازم مطالعة الكتب النافعة مع الاجتهاد والفهم بما فيها من العبارات الدقيقة والمسائل العويصة، واكتب ما فيها من النكت المهمة، والفوائد البهية(٤) .

قال المزني: قرأت الرسالة يعني رسالة الإمام الشافعي خمسمائة مرة، مـــا مـــن مـــرة إلا واستفدت منها فائدة جديدة.

وقال أيضا: أنا أنظر في الرسالة من خمسين سنة ما أعلم أني نظرت فيها مرة إلا استفدت منها شيئا لم أكن عرفته (١).

---

[١] مقدمة المجموع ص٤٣.

[٢] مقدمة المجموع باب آداب المتعلم.

[٣] الغِرُّ بالكسر الشاب لا تجربة له، والغارّ الغافل. قاموس.

[٤] وهذا البيت أعم من البيت المتقدم في قولنا: مطالعة الكتب إلخ فهو من ذكر العام بعد الخاص

وفي كلام الأفودي في البدر السافر: أن الشيخ – يعني النووي – نوزع مرة في نقل عـــن الوسيط فقال: ينازعونني في الوسيط وقد طالعته أربعمائة مرة (٢)

وكان محمد بن الحسن الشيباني الكوفي البغدادي رحمه الله تعالى لا ينام الليل، وكان يضع عنده الدفاتر يعني الكتب، فإذا ملّ من نوع نظر في آخر، وكان يزيل نومه بالماء ويقول: إن النوم من الحرارة(٣) اهـــ .

وقد حكي عن ثعلب أحمد بن يحيى الشيباني الكوفي البغدادي أحد أئمة النحو واللغة والأدب والحديث الشريف والقراءات رحمه الله تعالى أنه كان لا يفارقه كتاب يدرسه، فإذا دعاه رجل إلى دعوة شرط عليه أن يوسع له مقدار مسورة–أي المتكأ من الجلد– يضع فيها كتابا ويقرأ (٤).

وقال الحافظ الذهبي في تذكرة الحفاظ: كان الخطيب البغدادي يمشي وفي يده جزء يطالعه.

وقال أبو غدة في كتابه (قيمة الزمن): وما ذلك إلا للحفاظ على الوقت وكسب الزمن أن يذهب فارغا أثناء المشي دون الاستفادة وانتفاع به في جنب العلم(٥).

وقال محمد السعيدي بن بركات النحوي: رأيت وأنا صبي أبا يوسف يعقوب بن خُرَّزَاذ ماشيا في طريق القرافة، شيخا أسمر كبير اللحية، مدور العمامة، وبيده كتاب وهو يطالع فيه في مشيه(٦) .

وقال أبو عمرو بن العلاء ما دخلت على رجل قط ولا مررت ببابه فرأيته ينظر في دفتر وجليسه فارغ إلا حكمت عليه واعتقدت أنه أفضل منه عقلا.

---

[١] تـــهذيب الأسماء واللغات ج١ص٦٩.

[٢] الإمام النووي لعبد الغني الدقر ص ، ٥٢

[٣] قيمة الزمن ٣٠-٣١.

[٤] قيمة الزمن ٤١.

[٥] قيمة الزمن ص٥١

[٦] قيمة الزمن ٥٢.

وكان عبد الله بن عبد الله بن عبد العزيز بن عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز لا يجالس الناس ونزل المقبرة، فكان لا يكاد يُرَى إلا وفي يده دفتر، فسئل عن ذلك، فقال: لم أر قط أوعظ من قبر، ولا أمتع من دفتر، ولا أسلم من وحدة.

وروى الحسن اللؤلؤي إن صح عنه أنه قال: لقد غَبَرَتْ(١) لي أربعون سنة ما قمت ولا نمت إلا والكتاب على صدري (٢).

وفي (مجمع الزوائد) عن أبي بردة بن أبي موسى قال: كنت إذا سمعت من أبي حدثيا كتبته، فقال: أي بني كيف تصنع؟ قلت: إني أكتب ما أسمع منك، قال: فأتني به، فقرأته عليـــه، فقال: نعم هكذا سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكني أخاف أن يزيد أو ينقص، رواه البزار، وهذه الطريق فيها خالد بن نافع، ضعفه النسائي وأبو زرعة وغيرهما .

وعن أبي هريرة قال: ما كان أحد أعلم بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم مني إلا ما كان من عبد الله بن عمرو، فإنه كان يكتب بيده ويعيه بقلبه، وكنت أعيـــه بقلـــبي ولا أكتب بيدي، استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الكتابة عنه فأذن له، رواه أحمد، وفي الصحيح بعضه بغير سياقه، خلا استئذانه في الكتابة وغير ذلك.

وعن رافع بن خديج قال: خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقـــال: تحـــدثوا، وليتبوأ من كذب عليّ مقعده من جهنم، قلت: يا رسول الله إنا نســـمع منـــك أشـــياء فنكتبها، قال: اكتبوا ولا حرج ، رواه الطبراني في الكبير، وفيه أبو مدرك، روى عن رفاعة بن رافع وعنه بقية، و لم أر من ذكره.

وعن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قَيِّدِ العلم، قلت: ومـــا تقييده؟ قال: الكتابة، رواه الطبراني في الأوسط.

وعن ثمامة قال: قال لنا أنس: قيدوا العلم بالكتابة، رواه الطبراني في الكبير ورجاله رجال الصحيح .

وعن أنس قال: شكا رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم سوء الحفظ، فقـــال: اســـتعن بيمينك ، رواه الطبراني في الأوسط، وفيه إسماعيل بن سيف، وهو ضعيف (٣).

---

[١] غَبَرَتْ أي ذهبت، وفي القاموس: غَبَرَ غُبُوْرا مَكَثَ وذهب، من الأضداد.

[٢] جامع بيان العلم في باب فضل النظر في الكتب، ج٢ص٢٤٩.

[٣] مجمع الزوائد، في باب كتابة العلم من كتاب العلم .

وعن عمر قال: قيدوا العلم بالكتاب، رواه الحاكم والدارمي(١) .

وقال النووي في (مقدمة المجموع): ينبغي لطالب العلم أن لا يحتقر فائدة يراها أو يسمعها في أيّ فن كانت، بل يبادر إلى كتابتها ثم يواظب على مطالعة ما كتبه(٢) اهـــ

وفي الحكمة: ما حُفِظَ فَرّ وما كُتِبَ قرَّ.

و لقد أحسن القائل:

العلم صيد والكتابة قيده   قيّد صيودك بالحبال الواثقة

فمن الحماقة أن تصيد غزالة   وتفكّها بين الخلائق طالقة

وفي (فتح المغيث): قال أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز في كتابه إلى أهل المدينة: انظروا ما كان من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فاكتبوه، فإني خشيت دروس العلم وذهاب العلماء.

وعن الشافعي قال: إن هذا العلم يند كما تند الإبل، ولكن الكتب له حماة والأقلام عليه رعاة

وقال السخاوي: الذي استقر عليه الأمر الإجماعُ على استحتاب الكتابة، بل قال شيخنا: إنه لا يبعد وجوبه على من خشي النسيان ممن يتعين عليه تبليغ العلم. ولا ينبغي الاقتصار على الكتابة حتى لا يصير له تصور ولا يحفظ شيئا، فقد قال الخليل:

ليس بعلم ما يَعِي القِمَطْر   ما العلم إلا ما وعاه الصدر

وقال آخر:

استودعَ العلمَ قرطاسا فَضَيَّعَه   وبئس مُستودَع العلم القراطيس (٣)

وقال بعضهم:

لمحبرة تجالسني نهاري   أحب إلَيّ من أنس الصديق

ورِزْمَةُ كاغَدٍ (٤) في البيت عندي   أحب إلى من عِدلِ (١) الدقيق

---

[١] كنــز العمال أدب الكتابة من كتاب العلم، قسم الأفعال. ج١٠ص١٣٧، .

[٢] مقدمة المجموع باب آداب المتعلم.

[٣] فتح المغيث ج٢ص١٤٥-١٤٦.

[٤] ورزمة كاغَد أي قراطيس شد بعضها ببعض، وفي لسان العرب والقاموس المحيط الرزمة بالكسر من الثياب ما شد في ثوب واحد، وقال شَمِرٌ: الرزمة قدر ثلث الغِرارة أو ربعها من تمر أو دقيق.

ولــطمة عالم في الخــدّ مــني ألذّ لديّ من شرب الرحيق (٢)

إذَا مَا دَهَاكَ الخَطْبُ وَالعُسْرُ فَاسْتَعِنْ بِصَبْرٍ دُعَاءٍ وَالصَّلاةِ بِخَشْيَةِ

أي إذا أصابك الأمر الشديد والعسر في طلب العلم فاستعن بالدعاء والتضرع إلى الله تعالى فإنه كاشف كل كربة، ومزيل كل محنة، ومانح كل منحة، واستعن أيضا بالصبر والصلاة مع رعاية آدابــها من الخشية والخشوع وغيرهما، فقد قال تعالى: {**ياءيها الذين آمنــوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين**} وقال عز وجل: {**واستعينوا بالصبر والصلاة وإنّها لكبيرة إلا على الخاشعين**} .

وقال ابن كثير في تفسيره: روى الإمام أحمد عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر صلى.

وروى ابن جرير عن حذيفة قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة.

وفي رواية: قال حذيفة: رجعت إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليلة الأحزاب وهو مشتمل في شملة يصلي، وكان إذا حزبه أمر صلى .

وقوله: **والدعاء**: أي استعن بالدعاء والالتجاء والتضرع إلى الله في جميع المهمات والشدائد، فإن الله يجيب دعوة الداعي إذا دعاه، قال الله تعالى: {**أدعوني أستجب لكم**}، والأحاديث الواردة في الدعاء كثيرة جدا، روى الترمذي عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: الدعاء مخ العبادة(٣) وروى أبوداود والترمذي والنسائي وابن ماجه عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: الدعاء هو العبادة. قال النووي في الأذكار: قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

ومعنى الحديث: الدعاء من أعظم العبادة، فهو كقوله: الحج عرفة أي ركنه الأعظم، قاله المناوي.

---

[١] في لسان العرب: العدل نصف الحِمل يكون على أحد جنبي البعير، قال الأزهري: العِدل اسم حِمل معدول بحِمل أي مسوّى .

[٢] جامع بيان العلم في باب فضل النظر في الكتب، ج٢ص٢٤٨.

[٣] قال العزيزي في شرح الجامع الصغير: قال الشيخ يعني السيوطي: هو حديث صحيح.

وفي الجامع الصغير: روى أبو يعلى والحاكم عن علي أنه صلى الله عليه وسلم قال: الدعاء سلاح المؤمن وعماد الدين ونور السموات والأرض.

وروى الحاكم عن ابن عمر أنه صلى الله عليه وسلم قال: الدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينـــزل، فعليكم عباد الله بالدعاء.

وروى أبو الشيخ عن أبي هريرة أنه صلى الله عليه وسلم قال: الدعاء يرد البلاء.

وروى الترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من سره أن يستجيب الله تعالى له عند الشدائد والكرب فليكثر الدعاء عند الرخاء[١].

أماكن الدعاء وأوقاتـــها

واعلم أن للدعاء أماكن وأوقات يستجاب فيها، فينبغي التحري بـــها، فمن الأوقات التي ترجى فيها الإجابة وقت السحر، وعند نزول المطر، وعند الفطر وغيرها، ومن أماكنها عرفة، ومزدلفة، وعند زمزم، وفي الطواف وعند قبور الصالحين، فإن الدعاء يستجاب عندها، كما ذكره إمام القراء الحافظ شمس الدين الجزري في (عدة الحصن الحصين)[٢]. وقال فيه أيضا: وإن لم يُجَبِ الدعاءُ عند النبي صلى الله عليه وسلم ففي أي موضع؟!! اهـــ.

وقال الحافظ الجزري أيضا في (الحصن الحصين): يستجاب الدعاء بين الجلالتين في الأنعام، حفظنا ذلك مجربا عن غير واحد من أهل العلم، ونص عليه الحافظ عبد الرزاق في تفسيره عن الشيخ العماد المقدسي اهـــ .

---

[١] قال العزيزي في شرح الجامع الصغير: ورواه الحاكم عن أبي هريرة أيضا. وهو حديث صحيح.

[٢] قال الشوكاني في تحفة الذاكرين شرح عدة الحصن الحصين ص٧١- ٧٢: أقول: وجه ذلك-أي إجابة الدعاء عند قبور الصالحين- أنه يكون في هذه المواضع المباركة مزيد اختصاص، فقد يكون ما لها من الشرف والبركة مقتضيا لعود بركتها على الداعي فيها، وفضل الله واسع وعطاؤه جم ، وقد ورد في الحديث الصحيح "هم القوم لا يشقى بـــهم جليسهم"، فجعل جليس أولئك القوم مثلهم مع أنه ليس منهم، وإنما عادت عليه بركتهم فصار كواحد منهم، فلا يبعد أن تكون المواضع المباركة هكذا، فيصير الكائن فيها الداعي لربه عندها مشمولا بالبركة التي جعلها الله فيها، فلا يشقى حينئذ بعدم قبول دعائه اهـــ. وقال أيضا في ص٧٤: إن بركة المكان تسري على الداعي كما تسري بركة الصالحين الذاكرين الله سبحانه على من دخل فيهم ممن ليس هو منهم كما يفيده قوله صلى الله عليه وسلم"هم القوم لا يشقى بـــهم جليسهم" اهـــ. ومن أراد اطلاع ما في مسئلة التوسل من مشروعيتها وأقوال العلماء فيها فعليه ما كتبته في إقناع المؤمنين بتبرك الصالحين.

وذكرالحافظ إبراهيم الحربي والحافظ أبو عبد الرحمن السلمي والحافظ الذهبي وابن خلكان والمرتضى الزبيدي أن قبر معروف الكرخي الترياق المجرب.

وروى الحافظ الخطيب البغدادي بسنده عن أبي الفضل عبيد الله بن عبد الرحمن بن محمد الزهري قال: سمعت أبي يقول: قبر معروف الكرخي مجرب لقضاء الحوائج .

وذكر الخطيب البغدادي وابن حجر الهيتمي أن الإمام الشافعي قال: إذا عرضت لي حاجة صليت ركعتين وجئت إلى قبر أبي حنيفة وسألت الله تعالى الحاجة عنده، فما تبعد عني حتى تقضى(١) .

وقال الذهبي: قال شيرويه: الدعاء عند قبر أبي بكر أحمد بن علي بن أحمد بن محمد بن الفرج بن لال الهمذاني الشافعي مستجاب. ثم قال الذهبي: والدعاء مستجاب عند قبور الأنبياء والأولياء وفي سائر البقاع، لكن سبب الإجابة حضور الداعي وخشوعه وابتهاله، وبلا ريب في البقعة المباركة(٢) اهـ .

وقال ابن الجوزي في (صيد الخاطر): لما كثر مرضي وعجزت عن طبّ نفسي لجأت إلى قبور الصالحين، وتوسلت في صلاحي، فاجتذبني لطف مولاي (٣).

وَكُنْ ذَا مُرُوْءَةٍ بَعِيْداً عَنِ الخَنَا وَلاْ تَقِفَنْ أَصْلاً مَوَاقِفَ تُهْمَةِ

أي كن ذا مروءة بعيدا عن الفحش، والمروءة كما في المصباح آداب نفسانية تحمل مراعاتُها الإنسان على الوقوف عند محاسن الأخلاق وجميل العادت.

---

[١] ذكرت ذلك كله بإسهاب في كتابي إقناع المؤمنين بتبرك الصالحين.

[٢] سير أعلام النبلاء ج ١٧ص ٧٦.

[٣] وهذا في ضمن كلام طويل ذكره في فصل الخلوة وحلاوة المناجاة، وقال فيه: كنت في بداية الصبوة قد ألهمت سلوك طريق الزهاد بإدامة الصوم والصلاة، وحُببت إليّ الخلوةُ، فكنت أجد قلبا طيبا، وكانت عين بصيرتي قوية الحدة، تتأسف على لحظة تمضي في غير طاعة، وتبادر الوقت في اغتنام الطاعات، ولي نوع أنس وحلاوة مناجاة، فانتهى الأمر إلى أن صار بعض ولاة الأمور يستحسن كلامي، فأمالني إليه، فمال الطبع، ففقدت تلك الحلاوة، ثم استمالني آخر، فكنت أتقي مخالطته ومطاعمه، لخوف الشبهات، وكانت حالتي قريبة، ثم جاء التأويل فانبسطت فيما يباح، فانعدم ما كنت أجد من استنارة وسكينة، وصارت المخالطة توجب ظلمة في القلب إلى أن عدم النور كله، فكان حنيني إلى ما ضاع مني يوجب انزعاج أهل المجلس، وكثر ضجيجي من مرضي، وعجزت عن طب نفسي، فلجأت إلى قبور الصالحين، وتوسلت في صلاحي، فاجتذبني لطف مولاي إلى الخلوة على كراهة مني، ورد قلبي عليّ بعد نفور عني، وأراني عيب ما كنت أوثره، فأفقت من مرض غفلتي اهـ صيد الخاطر ص٨١، بحذف يسير.

وقال الأجهوري: المروءة ملكة على اجتناب الكبائر وصغائر الخسة والرذائل المباحة، فلا يمشي حافيا ولا مكشوف الرأس إن لم يَلِقْ بأمثاله، ولا يأكل غير السوقي في السوق، ولا يبول قائما، وهكذا(١).

وقال النووي في (تـــهذيب الأسماء واللغات): قال الرافعي: اختلفت العبارات في المروءة، فقيل: صاحب المروءة من يصون نفسه عن الأدناس ولا يشينها عند الناس، وقيل: الذي يسير بسيرة أمثاله في زمانه ومكانه اهـــ .

وروى عن الشافعي أنه قال: للمروءة أركان أربعة: حسن الخلق، والسخاء، والتواضع، والنسك(٢).

وقال صلى الله عليه وسلم: إياك وما يسوء الأذن، رواه أحمد عن أبي الغادية، وأبو نعيم في كتاب المعرفة عن حبيب بن الحرث والطبراني عن عمة العاص بن عمر الطغاوي(٣) .

وقال عليه الصلاة والسلام: إياك وكل أمر يعتذر منه، رواه الضياء في المختارة عن أنس قال السيوطي في الجامع الصغير: حديث حسن.

وقال الجنيد البغدادي: المروءة احتمال زلل الإخوان.

وقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقفنّ مواقف التهم.

وعن علي رضي الله عنه أنه قال: إياك وما يسبق إلى القلوب إنكاره وإن كان عندك اعتذاره، فرب سامع نكرا لا تستطيع أن تسمعه عذرك.

وفي صحيح الترمذي أنه صلى الله عليه وسلم قال: إذا أحدث أحدكم في الصلاة فليأخذ أنفه ثم لينصرف. وذلك لئلا يقال عنه: أحدث.

واعلم أن المرؤءة قد ذهب أربابُها وانقرض أصحابُها ولم يبق منهم في هذا الزمان إلا الأفراد وقد صدق القائل حيث قال:

مررت على المروءة وهي تبكي ... فقلت عَلامَ تَنْتَحِبُ الفـــتاةُ
فقالت كيف لا أبكي وأهلي ... جميعا دون خلق الله ماتـــوا

---

[١] حاشية الشيخ عطية الأجهوري على شرح البيقونية للزرقاني ص١٦.

[٢] سير أعلام النبلاء ج١٠ص٩٨.

[٣] الجامع الصغير للسيوطي.

فنيبغي لطالب العلم التخلي عن الرذائل، والتحلي بالفضائل، والتجنب عن كل خارم للمروءة وما لا يليق بأهل العلم والعقل السليم، ولله در الإمام الشافعي حيث قال:

فدع عنك سوآت الأمور فإنّها　　　حرام على نفس التقي ارتكابُها

وقال السيوطي في (الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة): حديث من سلك مسالك التهم أتُّهِم، رواه الخرائطي في مكارم الأخلاق عن عمر بن الخطاب موقوفا بلفظ من أقام نفسه مقام التهمة فلا يلومنّ من أساء به الظن.

وفي (آداب الشافعي ومناقبه) أن الإمام الشافعي عاتب ابنه أبا عثمان وكان فيما قال له فوعظه به: يا بني والله لو علمت أن الماء البارد يثلم من مروءتي شيئا ما شربت إلا حارا. وفي رواية: ديني بدل شيئا(١) اهـ.

وقال الحسن بن علي رضي الله عنه:

الموت خير من ركوب العار　　　والعار خير من دخول النار

وَلاْ تَكُ ثَرْثَاراً (٢) يُضَيِّعُ وَقْتَهُ　　　بِقِيْلٍ وَقَالٍ وَاَلْمِزَاْحِ وَسَمْرَةِ (٣)

أي لا تكن كثير الكلام يضيع وقته بما لا يفيد ولا ينفع من المزاح وحديث الليل، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، رواه البخاري ومسلم.

وروى الترمذي في الشمائل عن الحسن بن علي قال: سألت خالي هند بن أبي هالة، وكان وصافا قلت: صف لي منطق رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم متواصل الأحزان، دائم الفكرة، ليست له راحة، طويل السكت، لا يتكلم في غير حاجة، يفتح الكلام ويختمه باسم الله، ويتكلم بجوامع الكلم، كلامه فصل، لا فضول ولا تقصير، ليس بالجافي ولا بالمهين، يُعظِّم النعمةَ وإن دَقَّت، لا يذم منها شيئا،

---

[١] آداب الشافعي ومناقبه لعبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي ص٦٤.

[٢] الثرثرة كثرة الكلام وترديده، والثرثار الصياح. القاموس المحيط.

[٣] سمرة: قال في القاموس وشرحه: السَّمْرَةُ الأحدوثة بالليل، والأحدوثة ما يتحدث به اهـ. وفي اللسان: قال الفراء: واحد الأحاديث أحدوثة ثم جعلوه جمعا للحديث اهـ .

غير أنه لم يكن يذم ذَوَاقا(١) ولا يمدحه، ولا تغضبه الدنيا، ولا ما كان لها، فإذا تُعُـدِّيَ الحق لم يقم شيء حتى ينتصر له، ولا يغضب لنفسه، ولا ينتصر لها، إذا أشار أشار بكفه كلها، وإذا تعجب قلَّبها، وإذا فرح غضَّ طرفه، جل ضحكه التبسم انتهى بحذف يسير.(٢).

وقال الهيتمي: روى أحمد والترمذي والنسائي: إن أحدكم ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت، فيكتب الله له بها رضوانه إلى يوم القيامة، وإن أحدكم ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت فيكتب الله تعالى عليه بها سخطه إلى يوم القيامة.

وروى الطبراني خَبَرَ: لا يبلغ عبد حقيقة التقوى حتى يحترز من لسانه.

وخبر: إنك لن تزال سالما ما سكتّ، فإذا تكلمت كتب لك أو عليك.

والأحاديث في ذلك كثيرة جدا، ومن ثم قال وهب بن منبه: أجمعت الحكماء على أن رأس الحكمة الصمت.

وقال الفضيل: لا حج ولا رباط ولا جهاد أشد من حبس اللسان.

وقال لقمان لابنه: لو كان الكلام من فضة لكان السكوت من ذهب. قال ابن المبارك معناه: لو كان الكلام بطاعة الله تعالى من فضة لكان السكوت عن معصية الله من ذهب.

وقال الشافعي في معنى قوله صلى الله عليه وسلم: فليقل خيرا: أن يتفكر فيما يريد أن يتكلم به فإذا ظهر له أنه خير محقق لا يترتب عليه مفسدة ولا يجر إلى كلام محرم أو مكروه أتى به (٣)اهـ.

و قال بعض الشعراء:

إذا تم عقل المرء قلّ كلامه وأيقن بحمق المرء إن كان مكثرا

وقال آخر:

النطق زين والسكوت سلامة فإذا نطقت فلا تكن مكثارا

---

(١) قال ابن حجر الهيتمي في أشرف الوسائل إلى فهم الشمائل: قوله ذواقا: فعال بمعنى مفعول من الذوق أي متذوقا مأكولا كان أو مشروبا .

(٢) ذكره الترمذي في باب كيف كان كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم.

(٣) الفتح المبين بشرح الأربعين للهيتمي.

ما إن ندمتُ على سكوتي مرة ولقد ندمت على الكلام مرارا (١)

وقال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى: من أحب أن يفتح الله قلبه أو ينوره فعليه بترك الكلام فيما لا يعنيه واجتناب المعاصي، ويكون له خبيئة فيما بينه وبين الله تعالى من عمل(٢).

التحذير من تضييع الأوقات والترغيب في حفظها

قال أبو غدة: قال الأستاذ محمد كرد في كتابه (كنوز الأجداد في ترجمة ابن جرير الطبري): ما أثر عنه أنه ضاع دقيقة من حياته في غير الإفادة والاستفادة.

وكان الحافظ ابن عساكر يحافظ على اللحظات من وقته، فجاد على المكتبة الإسلامية بتآليف، تعجز المجامع العلمية اليوم على طبعها! وقد كتبها وحده، وألفها بيده وقلمه، وحررها وحققها، وجمع أصولها، وانتخب منها، ونسقها ورتبها، وأخرجها للناس آية باقية ناطقة بأنه كان أعجوبة الأعاجيب في سعة الحفظ، ووفرة المعرفة، ونفاذ الهمة في القدرة على التأليف وكثرة المصنفات المدهشة(٣). وكان رحمه الله يحاسب نفسه على لحظة تذهب! لم يشتغل منذ أربعين سنة أي منذ أذن له شيوخه بالرواية والتحديث إلا بالجمع والتسميع حتى في نزهته وخلواته(٤).

وعدد شيوخه ألف وثلاثمائة شيخ، ومن النساء بضع وثمانون امرأة.

وقال الأديب المصري أحمد شوقي رحمه الله:

دقات قلب المرء قائلة له إن الحياة دقائق وثوان

فارفع لنفسك بعد موتك ذكرها فالذكر للإنسان عمر ثاني

وقال آخر:

أَذَانُ المرءِ حينَ الطفلُ يأتي وتأخير الصلاة إلى الممات

دليل أن محياه يسير كما بين الأَذَانِ إلى الصلاة

ولله در ابن المقرئ حيث قال:

---

[١] الترغيب والترهيب ج٣ص٣٣٤.

[٢] تهذيب الأسماء واللغات ج١ص٧٥.

[٣] قيمة الزمن ٩٣.

[٤] قيمة الزمن ٩٦.

لقد ضاع عمر ساعة منه تشتري   بملء السما والأرض أية ضيعة

وقال الإمام أحمد بن فارس الرازي اللغوي:

إذا كان يؤذيك حر المصيف [1]   ويبس الخريف وبرد الشتا

ويلهيك حسن زمان الربيع   فأخذك للعلم قل لي متى؟! [2]

ودخل الشيخ الطبيب علاء الدين مرة إلى الحمام التي في باب الزهومة، فلما كان في بعض تغسيله خرج إلى مسلخ الحمام-موضع نزع الثياب وخلعها- واستَدْعَى بدواة وقلم وورق، وأخذ في تصنيف مقالة في النبض إلى أن أنهاها، ثم عاد ودخل الحمام وكمل تغسيله اهـ وكان الشيخ علاء الدين طبيبا ماهرا، وعليه تخرج كثير من الأطباء بمصر والقاهرة[3].

وكان الإمام الجليل الذكي أبو يوسف الألمعي شديد الملازمة لشيخه الإمام أبي حنيفة، لازم مجلسه ١٧ سنة أو ٢٩ سنة[4]، ما فاته صلاة الغداة معه، ولا فارقه في فِطر ولا أضحى إلا من مرض. وروى محمد بن قدامة قال: سمعت شجاع بن مخلد، قال: سمعت أبا يوسف يقول: مات ابن لي، فلم أحضر جهازه ولا دفنه، وتركته على جيراني وأقربائي، مخافة أن يفوتني من أبي حنيفة شيء لا تذهب حسرته عني[5].

وكانت لمحمد بن سحنون سُرِيَّة أي جارية مملوكة يقال لها أم مدام، فكان عندها يوما، وقد شغل في تأليف كتاب إلى الليل، فحضر الطعام فاستأذنته فقال لها: أنا مشغول الساعة، فلما طال الليل عليها (الانتظار) جعلت تلقّمه الطعام وتمادى هو على ما هو فيه إلى أن أُذِّنَ لصلاة الصبح، فقال: شغلنا عنك الليلة يا أم مدام! هات ما عندك، فقالت: قد والله يا سيدي ألقمته لك، فقال: ما شعرت بذلك! [6].

---

[1] المصيف: ظرف زماني ميمي، أي حر زمان الصيف.

[2] قيمة الزمن ص١١٤-١١٦.

[3] قيمة الزمن ص٧٥.

[4] قوله: ١٧ أو ٢٩ سنة كذا في قيمة الزمن لأبي غدة، وجزم في البداية والنهاية أن أبا يوسف لازم شيخه ١٧ سنة.

[5] قيمة الزمن تحت عنوان: أبو يوسف يموت ابنه فيوكل بتجهيزه ودفنه ليحضر الدرس.

[6] قيمة الزمن تحت عنوان: ابن سحنون ألقمته جاريته العشاء ولم يشعر به لاشتغاله بالتأليف.

وَلاْ تُكْثِرَنَّ الالْتِفَــاتَ فَــإِنَّهُ أَمَارَةُ نُقْصَانٍ وَطَيْشٍ وَخِفَّةِ

في البيت النهي عن إكثار الالتفات إلى الوراء واليمين والشمال، فإن ذلك ليس من شـــأن أهل الوقار، ولا من دأب كمّل الرجال، وهو يدل على الخفة وعدم الهدوء، ففي كتـــاب (منتهى السول على وسائل الوصول إلى شمائـــل الرســـول صـــلى الله عليـــه وســـلم) أن النبي صلى الله عليه وسلم (كان إذا التفت التفت معا) أي بجميع أجزائه، فلا يلـــوي عنقه يمنة أو يسرة إذا نظر إلى الشيء، لما في ذلك من الخفة وعدم الصيانة، وإنما كان صلى الله عليه وسلم يقبل جميعا ويدبر جميعا؛ لأن ذلك أليق بجلالته ومهابته، وقـــال الحـــافظ العراقي في (ألفيته):

يُقبِل كلُّه إذا ما التَفَتَا وليس يَلوِي عُنقًا تَلَفُّتَا (١)اهـــ

وقال ابن حجرالهيتمي في شرح وصفه صلى الله عليه وسلم المذكور: أراد أنه لا يسارق النظر، وقيل: لا يلوي عنقه يمنة ولا يسرة إذا نظر إلى الشيء، وإنما يفعل ذلك الطـــائش الخفيف، ولكن كان صلى الله عليه وسلم يقبل جميعا ويدبر جميعا لما أن ذلك أليق بجلالته ومهابته(٢) اهـــ.

وقال الإمام الغزالي في (بداية الهداية) في مبحث آداب الصحبة: لا تنظر في عطفيـــك ولا تكثر الإلتفات إلى روائك. وقد يسبب الإلتفات وقوع النظر إلى عورات الأجنبيات، وإلى ما يشغل القلوب ويحركها من الزخارف الملهيات.

فينبغي لطالب العلم أن يقتدي برسول الله صلى الله، ويتصف بأوصاف الرجـــال، ذوي الفضل والكمال، فلا يكثر الالتفات إلى ورائه وجوانبه .

---

[١] ألفية العراقي في السيرة النبوية، باب ذكر صفته صلى الله عليه وسلم أي أوصافه الطاهرة.

[٢] أشرف الوسائل إلى فهم الشمائل في شرح الشمائل المحمدية للإمام الترمذي في باب ما جاء في خَلْقِ رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فصل في ترتيب الفنون وتقديم بعضها على بعض

وَتَقْدِيْمُ فَنِّ الفِقْهِ فَرْضٌ فَإِنَّمَا يَصِحُّ بِهِ كُلُّ الفُرُوْضِ وَسُنَّةٍ
كَصَوْمٍ صَلاةٍ وَالزَّكَاةِ وَحَجَّةٍ بِهِ عِلْمُ أَرْكَانٍ شُرُوْطٍ وَهَيْئَةِ

أي تعلم يا طالب العلم علم الفقه قبل الفنون الأخرى؛ فإن العبادات المفروضة والمسنونة مثل الصلاة والصيام والزكاة والحج والعمرة يجب على المكلف عند دخول وقتها العلم بما تصح به ليأتي به، وبما تفسد به ليحترز عنه، ولا يخفى أن فن الفقه هو الباحث عن الأركان والشروط في العبادات والمعاملات والجنايات والحدود والقضاء والميراث وغيرها، ولا يوجد ذلك مبينا مستوفى في الفنون الأخرى، وأهم شيء وأوجبه على المكلف صحة عباداته ومعاملاته، وقد تكفل بذلك الفقه لا غيره، قال ابن حجر الهيتمي في (الفتاوي الحديثية): مما يجب تعلمه عينا أركان الصلاة وشروطها ومبطلاتُها أي ظواهر ذلك بعد وجوبها وكذا قبله إن لم يتمكن بعده من التعلم وإدارك الفرض في وقته وكذا الصوم وكذا الزكاة إن كان له مال، وكذا الحج إن أراد فعله أو تَضَيَّق لنحو خوف موت أوعضب أو تلف مال، وكذا البيع إن أراده، ومثله سائر المعاملات كالنكاح، وكالقسم لمن معه أكثر من زوجة، فهذه كلها بعد الوجوب أو إرادة الفعل، ويجب عينا تعلم ظواهر شروطها وأركانها ومبطلاتها، وكذلك يجب عينا تعلم ظواهر حدود أمراض القلب وأسبابها وعلاجها كالحسد والعجب والرياء والسمعة والحقد والبغض، نعم مَن خُلِقَ سَلِيما منها أو أمكنه إزالتها من غير تعلم لا يلزمه تعلم ما ذكر من الحدود وما بعدها، إذ لا حاجة به إليه، والله سبحانه وتعالى أعلم اهـ.

وقال الإمام النووي في (الإيضاح في مناسك الحج): من أراد الحج فعليه أن يتعلم كيفيته، وهذا فرض عين؛ إذ لا تصح العبادة ممن لا يعرفها. وقال ابن حجر الهيتمي في حاشيته على الإيضاح: نقل الغزالي وغيره إجماع المسلمين على أنه لا يجوز لأحد أن يُقْدِمَ على فعل حتى يعلم حكم الله فيه، قال البلقيني: ووجوب ذلك بعد إحرام الحج لا قبله؛ لأن الأعمال إنما يدخل وقتها بعده، فلا فائدة في الوجوب قبله، نعم لو أيس ممن يتعلم منه بعده اتجه وجوب تقديم التعلم عليه. قال العز بن جماعة: ومن العجب أن أبناء الدنيا يسهل عليهم إنفاق الكثير ولو في الحرام دون اليسير في سفر من يصحبهم ليعلّمهم.

ويجب عليه أيضا أن يتعلم ما يحتاجه في سفره من نحو تيمم وقصر وجمع وصلاة على راحلة ومعرفة وقت وقِبْلَةٍ اهـــ.

وفرضية تقديم الفقه فيمن عزم على تعلم دينه وترتيب فنونه، وقد كان خالط المسلمين والعلماء كما هو عادة أكثر طلبة العلم، فإن كلامنا فيهم فهي نسبية لا مطلقة فلا يرد تقديم علم الأصول.

واعلم أن العلوم المحمودة شرعا كثيرة، منها ما هو فرض عين يجب على كـــل مكلـــف تعلمه، ومنها ما هو فرض كفاية، ومنها ما هو مندوب، فأما الواجب المفروض على كل مسلم مكلف فقد اختلفوا فيه، قال الإمام الغزالي في (الإحياء): اختلف الناس في العلـــم الذي هو فرض على كل مسلم، فتفرقوا فيه أكثر من عشرين فرقـــة، ولا نطيـــل بنقـــل التفصيل ولكن حاصله: أن كل فريق نَزَّلَ الوجوب على العلم الذي هو بصدده، فقـــال المتكلمون: هو علم الكلام إذ به يدرك التوحيد ويعلم به ذات الله سبحانه وصفاته، وقال الفقهاء: هو علم الفقه إذ به تعرف العبادات والحلال والحرام، وما يحرم من المعاملات وما يحل، وعنوا به ما يحتاج إليه الآحاد دون الوقائع النادرة، وقال المفسرون والمحدثون: هـــو علم الكتاب والسنة؛ إذ بـــهما يتوصل إلى العلوم كلها(١)، وقال المتصوفة: المراد به هذا العلم-أي علم التصوف-، فقال بعضهم: هو علم العبد بحاله ومقامه من الله عز وجـــل، وقال بعضهم: العلم بالاخلاص وآفات النفوس وتمييز لمة الملك من لمة الشـــيطان، وقـــال بعضهم: هو علم الباطن وذلك يجب على أقوام مخصوصين هم أهل ذلك، وقال أبو طالب المكي: هو العلم بما يتضمنه الحديث الذي فيه مباني الإسلام، وهو قوله صـــلى الله عليـــه وسلم: بني الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله إلى آخر الحديث؛ لأن الواجـــب هذه الخمس فيجب العلم بكيفية العمل فيها وبكيفية الوجوب. والذي ينبغي أن يقطع به المحصِّل ولا يستريب فيه ما سنذكره، وهو أن المراد بـــهذا العلم علم المعاملة، والمعاملـــة التي كلف العبد العاقل البالغ العمل بـــها ثلاثة: اعتقاد وفعل وترك، فإذا بلغ الرجل العاقل في الاحتلام أو السن ضحوة نـــهار مثلا فأول واجب عليه تعلّم كلمتي الشهادة وفهـــم

---

[١] قال الزبيدي في شرح الإحياء: هما قولان، فالمفسرون قالوا: هو علم الكتاب، وقال المحدثون: هو علم السنة، ولما كانت العلة متحدة جمعهما في قول واحد اهـــ.

معناهما ولو إجمالا وهو قول: لا إله إلا الله محمد رسول الله، وليس يجب عليه أن يحصل كشف ذلك لنفسه بالنظر والبحث وتحرير الأدلة، بل يكفيه أن يصدق به ويعتقده جزما من غير اختلاج ريب واضطراب نفس، وذلك قد يحصل بمجرد التقليد والسماع من غير بحث وبرهان، إذ اكتفى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أجلاف العرب بالتصديق والإقرار من غير تعلم دليل، فإذا فعل ذلك فقد أدى واجب الوقت، وكان العلم الذي هو فرض عين عليه في الوقت تعلم الكلمتين وفهمهما وليس يلزمه أمر وراء هذا في الوقت بدليل أنه لو مات عقيب ذلك مات مطيعا لله عز وجل غير عاص له، وإنما يجب غير ذلك بعوارض تعرض، وليس ذلك ضروريا في حق كل شخص بل يتصور الانفكاك عنها، وتلك العوارض إما أن تكون في الفعل وإما في الترك وإما في الاعتقاد.

أما الفعل فبأن يعيش من ضحوة نَهاره إلى وقت الظهر فيتجدد عليه بدخول وقت الظهر تعلم الطهارة والصلاة، فإن كان صحيحا وكان بحيث لو صبر إلى وقت زوال الشمس لم يتمكن من تمام التعلم والعمل في الوقت بل يخرج الوقت لو اشتغل بالتعلم فلا يبعد أن يقال: الظاهر أنه يجب عليه فيجب عليه تقديم التعلم على الوقت ويحتمل أن يقال: وجوب العلم الذي هو شرط العمل بعد وجوب العمل فلا يجب قبل الزوال، وهكذا في بقية الصلوات، فإن عاش إلى رمضان تجدد بسببه وجوب تعلم الصوم وهو أن يعلم أن وقته من الصبح إلى غروب الشمس، وأن الواجب فيه النية والإمساك عن الأكل والشرب والوقاع، وأن ذلك يتمادى إلى رؤية الهلال أو شاهدين، فإن تجدد له مال أو كان له مال عند بلوغه لزمه تعلم ما يجب عليه من الزكاة ولكن لا يلزمه في الحال، وإنما يلزمه عند تمام الحول من وقت الإسلام، فإن لم يملك إلا الإبل لم يلزمه إلا تعلم زكاة الإبل، وكذلك في سائر الأصناف. ثم ذكر الغزالي الحج، وقال: لا يلزم المبادرة إليه فإنه على التراخي، فلا يكون تعلمه على الفور إلى آخر ما ذكره.

وأما التروك فيجب تعلم علم ذلك بحسب ما يتجدد من الحال، وذلك يختلف بحال الشخص؛ إذ لا يجب على الأبكم تعلم ما يحرم من الكلام، ولا على الأعمى تعلم ما يحرم من النظر، ولا على البدوي تعلم ما يحرم الجلوس فيه من المساكن، فذلك أيضا واجب تعلمه بحسب ما يقتضيه الحال.

وأما الاعتقادات وأعمال القلوب فيجب علمها بحسب الخواطر، فإن خطر لـــه شـــك في المعاني التي تدل عليها كلمة الشهادة فيجب عليه تعلم ما يتوصل به إلى إزالة الشك، فإن لم يخطر له ذلك ومات قبل أن يعتقد أن كلام الله سبحانه قديم وأنه مرئي وأنه ليس محلا للحوادث إلى غير ذلك مما يذكر في المعتقدات فقد مات على الإسلام إجماعا، ولكن هذه الخواطر الموجبة للاعتقادات بعضها يخطر بالطبع وبعضها يخطر بالسماع من أهل البلـــد، فإن كان في بلد شاع فيه الكلام وتناطق الناس بالبدع فينبغي أن يصان في أول بلوغه عنها بتلقين الحق، فإنه لو ألقي إليه الباطل لوجبت إزالته عن قلبه، وربما عسر ذلك كما أنه لو كان هذا المسلم تاجرا وقد شاع في البلد معاملة الربا وجب عليه تعلم الحذر من الربـــا، وهذا هو الحق في العلم الذي هو فرض عين، ومعناه العلم بكيفية العمل الواجب، فمـــن علم العلم الواجب وقت وجوبه علم العلم الذي هو فرض عين.

وما ذكره الصوفية من فهم خواطر العدو ولمة الملك حق أيضا، ولكن ليس في حق كـــل أحد، إنما هو في حق من يتصدى له ويتعرض ممن هو في سلوك طريق الحـــق، وإذا كـــان الغالب في الأحوال أن الإنسان لا ينفك عن دواعي الشر والرياء والحسد وغير ذلك مـــن الأوصاف الذميمة فيلزمه أن يتعلم ما يرى نفسه محتاجا إليه. انتهى ملخصا(١).

أهمية الفقه وفضائله

قال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى: كنت أنظر في الشعر فارتقيت عقبة بمنى فإذا صـــوت من خلفي عليك بالفقه.

وعن الحميدي قال: قال الشافعي: خرجت أطلب النحو والأدب فلقيني مسلم بن خالـــد الزنجي فقال: يا فتى من أين أنت؟ قلت: من أهل مكة، قال: من أين منـــزلك؟ قلـــت: بشعب الخيف، قال: من أي قبيلة؟ قلت: من عبد مناف، فقال: بخ بخ لقد شرفك الله في الدنيا والآخرة ألا جعلت فهمك هذا في الفقه فكان أحسن بك. (٢)

---

[١] إحياء علوم الدين بزيادات يسيرة من شرحه إتحاف السادة المتقين للمرتضى الزبيدي، في باب بيان العلم الذي هو فرض عين من كتاب العلم.

[٢] تهذيب الأسماء واللغات، ج١ص٦٨-٦٩.

قال الخطيب في (الفقيه والمتفقه): اعلم أن العلوم كلها أبازير(١) للفقه، وليس دون الفقه الفقه علم إلا وصاحبه يحتاج إلى دون ما يحتاج إليه الفقيه؛ لأن الفقيه يحتـاج أن يتعلـق بطرف من معرفة كل شيء من أمور الدنيا والآخرة وإلى معرفة الجد والهـزل والخـلاف والضد والنفع والضر وأمور الناس الجارية بينهم والعادات المعروفة منهم اهـ(٢) .

قال الحافظ ابن الجوزي: ينبغي للشاب المبتدئ طلب العلم أن يأخذ من كل علم طرفـا ويجعل الفقه الأهمّ اهـ.

وقال النووي رحمه الله تعالى في (مقدمة المجموع): كان السلف لا يُعَلِّمُوْنَ الحديث والفقه إلا لمن حفظ القرآن، وإذا حفظه فليحذر من الاشتغال عنه بالحديث والفقه وغيرهما اشتغالا يؤدي إلى نسيان شيء منه أو تعريضه للنسيان، وبعد حفظ القرآن يحفظ من كل فن مختصرا ويبدأ بالأهمّ، ومن أهمها الفقه والنحو ثم الحديث والأصول ثم الباقي على ما تيسر (٣)

قال النووي أيضا: ينبغي أن يعتني من تأهل للتصنيف بعلم المذهب فإنه من أعظم الأنواع نفعا وبه يتسلط المتمكن على المعظم من باقي العلوم(٤).

وفي مقدمة المجموع:

عاب التفقه قوم لا خلاق لهم وما عليه إذا عابوه من ضرر
ماضر شمس الضحى والشمس طالعة أن لا يرى ضوءها من ليس ذا بصر (٥)

ومما قيل في الفقه:

إذا ما اعتز ذو علم بعلم فعلم الفقه أولى باعتزاز
فكم طيب يفوح ولا كمسك وكم طير يطير ولا كباز

---

[١] وفي القاموس وشرحه الأبزار كل حب يبذر للنبات، والبزور الحبوب الصغار مثل بزور البقول ومـا أشـبهها، والبزر إلقاء الأبازير في القدر، يقال: بزر برمتك أي ألق فيها الأبازير، والبزر ما يطيب به الغذاء اهـ.

[٢] الفقيه والمتفقه، في باب أوصاف المفتي، ج٢ص١٥٨.

[٣] مقدمة المجموع باب آداب المتعلم.

[٤] مقدمة المجموع باب آداب المتعلم.

[٥] مقدمة المجموع، باب الإفتاء.

وقال الشيخ عبد الفتاح بن صالح قريش اليافعي في كتابه (التمذهب): الفقه ثمرة الحديث، وهو أكثر ما يحتاجه الناس وأكثر ما يحتاجه المرء في نفسه، ولذا قال الإمام عبد الهادي ضياء الدين إبراهيم بن محمد بن القاسم الأهدل في مطلع منظومته بالقواعد الفقهية:

وبعد فالعلم عظيم الجدوى   لا سيّما الفقه أساس التقوى

فهو أهمّ سائر العلوم   إذ هو للخصوص والعموم

ولما أراد الإمام أبوحنيفة رضي الله عنه أن يطلب العلم وتخير بين العلوم اختار الفقه؛ لأنه أنفع العلوم، وأكثرها حاجة للناس، ومثلُ مَن يشتغل بالحديث دون الفقه كمن يهتم بالشجرة دون أن يأكل الثمر، ومن يأخذ الفقه من شروح الحديث كمثل من يأكل الثمر قبل أن تنضج، قال الحاكم في معرفة علوم الحديث: النوع العشرون من هذا العلم معرفة فقه الحديث إذ هو ثمرة هذه العلوم وبه قِوام الشريعة(١) اهـ .

نكتة

ومما يدل على فضيلة الفقه والفقهاء قوله صلى الله عليه وسلم: يأتي معاذ يوم القيامة بين يدى العلماء رَتْوَةً(٢)، وقوله صلى الله عليه وسلم: أعلم أمتي بالحلال والحرام معاذ بن جبل(٣). فالحديث الأول يدل على أنه يتقدم العلماء يوم يدعو الله كل أناس بإمامهم، والحديث الثاني يدل على أنه أعلمهم بالحلال والحرام، ومعلوم أن الفقه هو مبحث الحلال والحرام، فكأنه بَيَّنَ السبب الذي اقتضى تقدمه على العلماء، ولا شك أن فيهم من هو أفضل وأعلم بالتفسير والحديث منه، كالخلفاء الراشدين الأربعة وبقية العشرة المبشرين بالجنة، ولا يخفى أن على بن طالب الذي قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم: أنا مدينة العلم وعلي بابـها، وترجمان القرآن حبر هذه الأمة عبد الله بن عباس هما أعلم منه، وكذلك لا شك أن أبا هريرة وأم المؤمنين عائشة وابن عمر وابن عمرو وابن مسعود

---

[١] التمذهب ص٢٥٨-٢٥٩.

[٢] قال الهيتمي في الفتح المبين شرح الأربعين: أي رمية بسهم، وقيل: بحجر، وقيل: بميل، وقيل: مد البصر اهـ ص٣٤٩. وقال في هامش فتح المبين على الأربعين النووية: رواه ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني ١٨٣٣ عن سيدنا عمر رضي الله عنه.

[٣] قال في هامش فتح المبين على الأربعين النووية: أخرجه ابن حبان ص٧١٣١، والترمذي ٣٧٩٠، وابن ماجه ١٥٤ عن سيدنا أنس رضي الله عنه..

وأمثالهم كانوا أعلم منه بالحديث وأكثر رواية منه، ومن المعلوم أن المفضول قد يختص بمزية أو مزايا على من هو أفضل وأرفع درجة منه، فلا استغراب حينئذ على تقدمه واختصاصه بـــهذه المنقبة العلية والدرجة السنية في يوم يجتمع فيه الأولون والآخرون.

ففي تقديم معاذ رضي الله عنه في هذا اليوم على العلماء وفيهم من هو أفضل منه وأجل شرف كبير وفخر عظيم للفقه والفقهاء .

وكما يتقدم أعلم الصحابة بالحلال والحرام في القيامة كذلك يُقَدَّم شرعا علماء الحـــلال والحرام وهم الفقهاء بالإمامة في الصلوات، فقد قال أبو إسحق الشـــيرازي في المهـــذب: السنة أن يؤم القوم أقرؤهم وأفقههم، فإن زاد أحدهما في الفقه وزاد الآخـــر في القـــراءة فالأفقه أولى اهـــ .

وقال النووي في المجموع شرح المهذب: قال أصحابنا: الأسباب المرجحة في الإمامة ستة الفقه والقراءة والورع والسن والنسب والهجرة، وإذا تعارضت أسباب التقديم فالأصـــح أن الأفقه مقدم على الأقرإ والأورع وغيرهما، وبـــهذا قال أبوحنيفة ومالك والأوزاعـــي وأبو ثور اهـــ .

تنبيه في أن المحدث لا يستغني عن الفقه أصلا

اعلم أن الأثري المحدث العارف بعلوم الحديث المتنوعة، العالم بجليها ودقيقها، المتضلع من زلال حياضها الغواص في لجج بحارها، المستخرج من أصدافها جواهرها الكامنة ودررها الغالية لا يستغني عن الفقه وأربابه، فإنّهم أهل النظر والاستنباط من الكتاب والسنة ومعرفة كيفية الاستدلال بـــهما، وهم العالمون بالإجماع والقياس، وأما الفقيه وإن كان محتاجا إلى الحديث وعلومه المتنوعة ليكون عارفا بدرجة الحديث الذي يستدل به ويستنبط منه الأحكام الشرعية لكنَّ حاجة المحدث إلى الفقه أشد بكثير من حاجة الفقيه إلى الحديث، فإن من اعتنى بالحديث ومهر فيه وحفظ جملة من كتبه و لم يهتم بشيء من الفقه بل أعرض عنه بالكلية فجدير به أن يجهل عن البديهيات التي لا تخفى على مبتدئي طلبة علم الفقه، وأن تكثر غلطاته وأخطاؤه في صلاته وصيامه ونحوهما، وقد كثر في هذه الأزمنة من يدعي العمل بالسنة وأخذ الأحكام منها مع أنه لم يحفظ منها أصغر كتاب مثل الأربعين للإمام النووي، والفقيه هو المقدم في إمامة الصلوات وهو الذي يستفتى به في

العبادات والعقود والحدود والقضاء وفصل الخصومات. قال ابن حجر الهيتمي في (الفتاوي الحديثية): قال سفيان بن عيينة أو غيره: الحديث مضلة إلا للفقهاء، ومعناه: أن الحديث كالقرآن في أنه قد يكون عام اللفظ خاص المعنى وعكسه، ومنه ناسخ ومنسوخ، ومنه ما لم يصحبه عمل، ومنه مشكل يقتضي ظاهره التشبيه كحديث ينـــزل ربنا إلخ، ولا يعرف معنى هذه إلا الفقهاء بخلاف من لا يعرف إلا مجرد الحديث؛ فإنه يضل فيه كما وقع لبعض متقدمى الحديث بل ومتأخريهم كابن تيمية وأتباعهم، وبـــهذا يعلم فضل الفقهاء المستنبطين على المحدثين غير المستنبطين اهـــ.

وروى ابن السبكي في (طبقات الشافعية الكبرى) بسنده والهيتمي في (الفتاوي الحديثية) أن امرأة وقفت على مجلس فيه يحيى بن معين وأبو خيثمة وخلف بن سالم في جماعة يتذاكرون الحديث فسمعتهم يقولون: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، ورواه فلان وما حدث به غير فلان، فسألتهم عن الحائض هل تغسل الموتى وكانت غاسلة فلم يجبها أحد منهم، وكانوا جماعة وجعل بعضهم ينظر إلى بعض، فأقبل أبو ثور، فقالوا لها: عليكِ بالمقبل، فالتفتت إليه وقد دنا منها، فسألته، فقال: نعم تغسل لحديث القاسم عن عائشة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لها: إن حيضتك ليست في يدك؛ ولقولها: كنت أفرق رأس النبي صلى الله عليه وسلم بالماء وأنا حائض، فقال أبو ثور: فإذا فرقت رأس الحي فالميت أولى به، فقالوا: نعم، رواه فلان وأخبرناه فلان، ونعرفه من طريق كذا، وخاضوا في الروايات والطرق، فقالت المرأة: فأين أنتم إلى الآن (١) اهـــ.

وقال الهيتمي: كان الأعمش يسأل أبا حنيفة رضي الله عنهما عن المسائل فيجيبه، فيقول: من أين لك هذا؟ فيقول: أنت حدثتنا عن النخعي بكذا، أو عن الشعبي بكـــذا، فيقـــول الأعمش عند ذلك: يا معشر الفقهاء نحن الأطيار وأنتم الصيادون لها(٢)، وعن عطية قال: كنت عند شعبة فقال: يا أبا محمد إذا جاءتكم معضلة من تسألون عنها؟ فقلت في نفسي:

---

[١] طبقات الشافعية الكبرى لابن السبكي، ج١ص٢٢٩.

[٢] وروى ابن عبد البر بسنده عن عبيد الله بن عمرو قال: كنت في مجلس الأعمش، فجاءه رجل فسأله عن مسئلة فلم يجبه فيها، ونظر فإذا أبوحنيفة، فقال: يا نعمان قل فيها، قال: القول فيها كذا، قال: من أين؟ قال: ما حدثتناه، قال: فقال الأعمش: نحن الصيادلة وأنتم الأطباء اهـــ جامع بيان العلم وفضله ج٢ص١٦٠ باب ذكر من ذم الإكثار من الحديث دون التفهم له والتفقه فيه.

هذا رجل أعجبته نفسه، فقلت له: نتوجه إليك وإلى أصحابك حتى تفتوا، فما بقيت إلا قليلا حتى جاء سائل فقال: يا أبا بسطام رجل ضرب رجلا على أم رأسه، فادعى أنه ذهب بذلك شمه، فجعل يتشاغل عنه يمينا وشمالا، فأومأت للرجل أن يلح عليه، فالتفت إليّ وقال لي: يا أبا محمد ما أشرّ البغي على أهله، والله ما عندي فيه شيء أنت أنت، فقلت: يستفتيك وأنا أجيبه؟ فقال: إني سائلك، فقال: سمعت الأوزاعي والزهري يقولان: يدق الخردل دقا بالغا ويشم، فإن عطس فقد كذب، وإن لم يعطس فقد صدق، فقال: جئت بها والله ما يعطس رجل انقطع شمه.

وقال ابن عبد البر: أراد الأعمش الحج، فلما بلغ الحيرة قال لعلي بن مشهد: اذهب إلى أبي حنيفة حتى يكتب لنا المناسك.

وقال ابن وهب: كل صاحب حديث لا يكون له رأس في الفقه لا يفلح أبدا، ولولا أن الله تعالى أنقذنا بمالك لضللنا.

وقال بعضهم: لا أجهل من صاحب حديث إن لم يتفقه فيه.

وقال مالك رضي الله عنه لابني أخته بكر وإسمعيل: أراكما تحبان الحديث وتطلبانه قالا: نعم، قال: إن أحببتما أن تنتفعا به وينفع الله بكما فأقلا من الحديث وتفقها، أشار رضي الله عنه إلى أنه لا بد من معرفة الحديث لكن العمدة إنما هي على التفقه فيه(١) اهـ.

وروى ابن حجر الهيتمي في (الفتاوي الحديثية) والسيوطي في (تدريب الراوي) عن عمار بن محمد بن مخلد التميمي قال: سمعت أبا المظفر محمد بن أحمد بن حامد البخاري قال: لما عزل أبو العباس الوليد بن إبراهيم بن زيد الهمذاني عن قضاء الري ورد بخارى فنزل في جوارنا، فحملني معلمي أبو إبراهيم الختلي إليه وقال له: أسألك أن تحدث هذا الصبي بما سمعت من مشايخك، فقال: مالي سماع، قال: فكيف وأنت فقيه؟ قال: لأني لما بلغت مبلغ الرجال تاقت نفسي إلى معرفة الحديث، فقصدت محمد بن إسمعيل البخاري، وأعلمته مرادي، فقال لي: يا بني لا تدخل في أمر إلا بعد معرفة حدوده والوقوف على مقاديره، واعلم أن الرجل لا يصير محدثا كاملا في حديثه إلا بعد أن يكتب أربعا مع أربع، كأربع مثل أربع، في أربع عند أربع، بأربع على أربع، عن أربع لأربع، وكل هذه

---

(١) الفتاوي الحديثية، ص٢٤٢-٢٤٣.

الرباعيات لا تتم إلا بأربع مع أربع، فإذا تمت له كلها هان عليه أربع وابتلي بأربع، فـــإذا صبر على ذلك أكرمه الله في الدنيا بأربع، وأثابه في الآخرة بأربع، قلت له: فسر لي رحمك الله ما ذكرت من أحوال هذه الرباعيات، قال: نعم، أما الأربعة التي يحتاج إلى كتبها هي أخبار الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم وشرائعه، والصحابة ومقـــاديرهم، والتـــابعين وأحوالهم، وسائر العلماء وتواريخهم، مع أسماء رجالهم وكناهم وأمكنتـــهم وأزمنتـــهم، كالتحميد مع الخطب، والدعاء مع الرسائل، والبسملة مع الســـور، والتكـــبيرات مـــع الصلوات، مثل المسندات والمرسلات والموقوفات والمقطوعات، في صغره وفي إدراكه وفي شبابه وفي كهولته، عند شغله وعند فراغه وعند فقره وعند غناه، بالجبال والبحار والبلدان والبراري، على الأحجار والأصداف والجلود والأكتاف، إلى الوقت الذي يمكنه نقلـــه إلى الأوراق عمن هو فوقه، وعمن هو مثله، وعمن هو دونه، وعن كتاب أبيه الذي يتيقن أنه خطه دون غيره لوجه الله تعالى طلبا لمرضاته، والعمل بما وافق كتاب الله تعالى ونشرها بين طالبيها، والتأليف في إحياء ذكره بعده، ثم لا تتم له هذه الأشياء إلا بأربع هي من كسب العبد، معرفة الكتابة واللغة والصرف والنحو، مع أربع هن من محض عطـــاء الله تعـــالى، القدرة والصحة والحرص والحفظ، فإذا تمت هذه الأشياء هان عليه أربع، الأهـــل والمـــال والوطن والولد، وابتلى بأربع، شماتة الأعداء وملامة الأصدقاء وطعن الجهـــلاء وحســـد العلماء، فإذا صبر على هذه المحن الأربع أكرمه الله تعالى في الدنيا بأربع، بعـــز القناعـــة، وتـــهنئة النفس، ولذة العلم، وحسن الذكر(١)، وأثابه الله في الآخرة بأربع، بالشفاعة لمن أراد من أحبابه، وبظل العرش يوم لا ظل إلا ظله، وبسقي من أراد من حوض نبيه صـــلى الله عليه وسلم، وبجوار الرحمن(٢) في أعلى العليين في الجنة، فقد أخبرتك يا بني بمجملات جميع ما كنتُ سمعت من مشايخي متفرقا في هذا الباب، فأَقْبِلْ الآن على ما قصدتني له أو دَعْ، قال: فهالني قوله فسكت متفكرا، وأطرقت نادما، فلما رأى ذلك مني قال لي: فـــإذا لم تطق هذه المشاق كلها فعليك بالفقه الذي يمكنك فعلـــه وأنـــت ببيتـــك لا تحتـــاج لبعد الأسفار، ووطء الديار، وركوب البحار، وهو مع ذلك ثمرة الحديث، وليس ثـــواب

[١] وفي بعض النسخ: وبِهيبة اليقين وبحياة الأبد بدل قوله: تَهنئة النفس وحسن الذكر.

[٢] وفي بعض النسخ: وبجوار النبيين.

الفقه دون ثواب الحديث في الآخرة، ولا فن الفقيه بأقل من فن المحدث، قال: فلما سمعت ذلك نقص عزمي في طلب الحديث، وأقبلت على دراسة الفقه وتعلمه إلى أن صرت متقدما فيه، فلذلك لم يكن عندي ما أمليه على هذا الصبي، فقال له المعلم: إن هذا الحديث الذي لا يوجد عند غيرك خير للصبي من كلام كثير نجده عند غيرك انتهى. واستفيد من ذلك مزيد فضل الفقه، وأنه ثمرة الحديث وإن كان طلب الحديث أشدّ وتحصيله أشقّ .

وقال الشافعي رضي الله تعالى عنه: من تعلم الفقه عظمت قيمته، ومن تعلم الحديث قويت حجته، ومن تعلم الشعر والعربية رق طبعه، ومن تعلم الحساب جزل رأيه، ومن لم يصن نفسه لم ينفعه علمه(١).

وروى ابن عبد البر بسنده عن الربيع بن سليمان قال: سمعت الشافعي يقول: من حفظ القرآن عظمت حرمته، ومن طلب الفقه نَبُل قدره، ومن عرف الحديث قويت حجته، ومن نظر في النحو رق طبعه، ومن لم يصن نفسه لم يصنه العلم(٢).

قلت: لا شك أن الحديث والفقه هما أهم العلوم بعد كتاب الله تعالى، وأن الحديث مفسر للقرآن الكريم، قال تعالى: {**وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم**} وقال الإمام الشافعي رحمه الله: جميع ما تقوله الأمة شرح للسنة، وجميع السنة شرح للقرآن، وأن الفقه مستنبط ومستمد منهما، فهما أصلان والفقه فرعهما، وقد كثر الاختلاف في الأهمّ من الحديث والفقه، وما زال التنافس بين أصحابهما، فقيل: الحديث؛ لأنه الأصل، وقيل: الفقه؛ لأنه المبين المفسر للحديث، ولولا الفقه لم يعرف الفرق بين الأركان والشروط، ولا الفرق بين الأبعاض والهيئات للصلاة، ونحو ذلك من البديهيات، فضلا عن الدقائق الخفيات، والمشكلات المعضلات، ومعلوم أن منبع الفقه ومأخذه غير منحصر بفن الحديث فقط، بل مآخذه كثيرة، كالقرآن والحديث والإجماع والقياس بأنواعه وأقوال الصحابة والتابعين ومَن بعدهم من الأئمة، فلهذا تجد الفقه يذكر مسائل كثيرة أخذ قيودها وشروطها واحترازاتها من تلك المنابع المختلفة، فالفقيه يشرب في الحقيقة من أودية

---

[١] الفتاوي الحديثية، ص٢٤٢-٢٤٤ وتدريب الراوي ج٢ص١٥٦-١٥٩.

[٢] جامع بيان العلم ج١ص١٥٤.

كثيرة مباركة لا من واد الحديث الشريف فقط، فهو كالنحل تأكل من كـــل الثمـــرات وتسلك سبل ربـــها فيخرج من بطونـــها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس.

وممن تكلم عن ذلك الإمام الشهير والمحدث الكبير والفقيه المحقق أبو سليمان الخطابي فقال في مقدمة كتابه (معالم السنن شرح سنن أبي داود): رأيت أهل العلم في زماننا قد حصلوا حزبين، وانقسموا إلى فرقتين، أصحاب حديث وأثر، وأهل فقه ونظر، وكل واحدة منهما لا تتميز عن أختها في الحاجة، ولا تستغني عنها في درك ما تنحوه من البغية والإرادة، لأن الحديث بمنـــزلة الأساس الذي هو الأصل، والفقه بمنـــزلة البناء الذي هو له كـــالفرع، وكل بناء لم يوضع على قاعدة وأساس فهو منهار، وكل أساس خلا عن بناء وعمارة فهو قفر وخراب، ووجدت هذين الفريقين على ما بينهم من التداني في المحلين، والتقـــارب في المنـــزلين، وعموم الحاجة من بعضهم إلى بعض وشمول الفاقة اللازمة لكـــل منـــهم إلى صاحبه إخوانا متهاجرين، وعلى سبيل الحق بلزوم التناصر والتعاون غير متظاهرين، فأمـــا هذه الطبقة الذين هم أهل الأثر والحديث فإن الأكثرين منهم إنما وكدهم الروايات وجمع الطرق وطلب الغريب والشاذ من الحديث الذي أكثره موضوع أو مقلوب، لا يراعـــون المتون ولا يتفهمون المعاني، ولا يستخرجون ركازها وفقهها، وربمـــا عـــابوا الفقهـــاء وتناولوهم بالطعن وادعوا عليهم مخالفة السنن، ولا يعلمون أنّهم عن مبلغ ما أوتوه مـــن العلم قاصرون، وبسوء القول فيهم آثمون، وأما الطبقة الأخرى وهم أهل الفقه والنظر فإن أكثرهم لا يعرجون من الحديث إلا على أقله، ولا يكادون يميزون صحيحه من ســـقيمه، ولا يعرفون جيده من رديئه، ولا يعبأون بما بلغهم منه أن يحتجوا به على خصـــومهم إذا وافق مذاهبهم التي ينتحلونـــها، ووافق آراءهم التي يعتقدونـــها، وقد اصـــطلحوا علـــى مواضعة(١) بينهم في قبول الخبر الضعيف، والحديث المنقطع إذا كان ذلك قـــد اشـــتهر عندهم، وتعاورته(٢) الألسن فيما بينهم، من غير ثبت فيه، أو يقين علم به، فكان ذلـــك ضلة من الرأي وغبنا فيه، وهؤلاء وفقنا الله وإياهم لو حكى لهم عن واحد من رؤســـاء مذاهبهم وزعماء نحلهم قول يقوله باجتهاد من قبل نفسه طلبوا فيه الثقة، واســـتبرؤا لـــه

---

[١] أي على موافقة بينهم، ففي القاموس: المُواضعة الموافقة في الأمر.

[٢] أي تداولته الألسن كما في القاموس.

العهدة، فتجد أصحاب مالك لا يعتمدون من مذهبه إلا ما كان من رواية ابـــن القاســـم والأشهب وضربائهم من تلاد أصحابه، فإذا جاءت رواية عبد الله بن عبد الحكم وأضرابه لم تكن عندهم طائلا، وترى أصحاب أبي حنيفة لا يقبلون من الرواية عنه إلا ما حكاه أبو يوسف ومحمد بن الحسن والعلية من أصحابه والأجلة من تلامذته، فإن جاءهم عن الحسن بن زياد اللؤلؤي وذويه رواية قول بخلافه لم يقبلوه ولم يعتمدوه، وكذلك تجد أصـــحاب الشافعي إنما يُعَوِّلُون في مذهبه على رواية المزني والربيع بن سليمان المرادي، فإذا جـــاءت رواية حرملة والجيزي وأمثالهما لم يلتفتوا إليها، ولم يعتدوا بها في أقاويله، وعلى هذا عادة كل فرقة من العلماء في أحكام مذاهب أئمتهم وأستاذيهم، فإذا كان هذا دأبـــهم وكانوا لا يقنعون في أمر هذه الفروع ورواياتـــها عن هؤلاء الشيوخ إلا بالوثيقة والثبت، فكيف يجوز لهم أن يتساهلوا في الأمر الأهم، والخطب الأعظم، وأن يتواكلوا الروايـــة والنقـــل عن إمام الأئمة ورسول رب العزة الواجب حكمه، اللازمة طاعته، الذي يجـــب علينـــا التسليم لحكمه، والانقياد لأمره، من حيث لا نجد في أنفسنا حرجا ممـــا قضـــاه، ولا في صدورنا غلا من شيء مما أبرمه وأمضاه، أرأيتم إذا كان للرجل أن يتساهل في أمر نفســـه ويتسامح عن غرمائه في حقه فيأخذ منهم الزيف، ويغضي لهم عن العيب هل يجوز له أن يفعل ذلك في حق غيره إذا كان نائبا عنه كولي الضعيف ووصي اليتيم ووكيل الغائـــب، وهل يكون ذلك منه إذا فعله إلا خيانة للعهد وإخفارا للذمة، فهذا هو ذاك، ولكن أقواما عساهم استوعروا طريق الحق، واستطالوا المدة في درك الحظ، وأحبـــوا عجالـــة النيـــل فاختصروا طريق العلم، واقتصروا على حروف منتزعة عن معاني أصول الفقه سموها عللا، وجعلوها شعارا لأنفسهم في الترسم برسم العلم، واتخذوها جنة عند لقـــاء خصـــومهم، يتناظرون بـــها ويتلاطمون عليها، وعند التصادر عنها قد حكم للغالب بالحذق والتبريز، فهو الفقيه المذكور في عصره، والرئيس المعظم في بلده ومصره، هذا وقد دس لهم الشيطان حيلة لطيفة، وبلغ منهم مكيدة بليغة، فقال لهم:هذا الذي في أيديكم علم قصير وبضـــاعة مزجاة، لا تفي بمبلغ الحاجة والكفاية فاستعينوا عليه بالكلام، وصـــلوه بمقطعـــات منـــه واستظهروا بأصول المتكلمين يتسع لكم مذهب الخوض ومجال النظر، فصدق عليهم ظنه،

وأطاعه كثير منهم واتبعوه إلا فريقا من المؤمنين، فيا للرجال والعقول أنى يذهب بـــهم، أنى يختدعهم الشيطان عن حظهم وموضع رشدهم، والله المستعان انتهى كلام الخطابي.

واعلم أن التبحر في الفقه والحديث أمر متعسر على أكثر الناس ومعظمهم فقد قال القسطلاني في (إرشاد الساري): قال إمامنا الشافعي رحمه الله تعالى: تريد أن تجمع بين الفقه والحديث؟ هيهات(١) انتهى بحذف يسير.

وَعِلْمُ أصُوْلِ الدّيْنِ يَتْلُوْهُ فَالتَمِسْ بِجِدٍّ صَحِيْحَ الاعْتِقَادِ بِسُرْعَةِ

أي يتلو فن الفقه في الأهمية والفرضية علم أصول الدين فقد قال الإمام النووي رحمه الله تعالى في (مقدمة المجموع): وأما أصل واجب الإسلام وما يتعلق بالعقائد فيكفي فيه التصديق بكل ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم واعتقاده اعتقادا جازما سليما من كل شك، ولا يتعين على من حصل له هذا تعلم أدلة المتكلمين، هذا هو الصحيح الذي أطبق عليه السلف والفقهاء والمحققون من المتكلمين من أصحابنا وغيرهم، فإن النبي صلى الله عليه وسلم لم يطالب أحدا بشيء سوى ما ذكرنا، وكذلك الخلفاء الراشدون ومن سواهم من الصحابة فمن بعدهم من الصدر الأول، بل الصواب للعوام وجماهير المتفقهين والفقهاء الكف عن الخوض في دقائق الكلام مخافة من اختلال يتطرق إلى عقائدهم يصعب عليهم إخراجه، بل الصواب لهم الاقتصار على ما ذكرناه من الاكتفاء بالتصديق الجازم، وقد نص على هذه الجملة جماعات من حذاق أصحابنا وغيرهم.

وقد بالغ إمامنا الشافعي رحمه الله تعالى في تحريم الاشتغال بعلم الكلام أشد مبالغة، وأطنب في تحريمه وتغليظ العقوبة لمتعاطيه، وتقبيح فعله وتعظيم الإثم فيه، فقال: لأن يلقى الله العبد بكل ذنب ما خلا الشرك خير من أن يلقاه بشيء من الكلام، وألفاظه بـــهذا المعنى كثيرة مشهورة.

وقد صنف الغزالي رحمه الله تعالى في آخر أمره كتابه المشهور الذي سماه إلجام العوام عن علم الكلام وذكر أن الناس كلهم عوام في هذا الفن من الفقهاء وغيرهم إلا الشاذ النادر الذي لا تكاد الأعصار تسمح بواحد منهم والله أعلم.

---

[١] مقدمة إرشاد الساري شرح صحيح البخاري للحافظ القسطلاني ص٢٨.

ولو تشكك والعياذ بالله في شيء من أصول العقائد مما لا بد من اعتقاده، ولم يزل شكه إلا بتعليم دليل من أدلة المتكلمين وجب تعلم ذلك لإزالة الشك وتحصيل ذلك الأصل.

واختلفوا في آيات الصفات وأخبارها هل يخاض فيها بالتأويل أو لا؟ فقال قائلون: تتأول على ما يليق بـــها، وهذا أشهر المذهبين للمتكلمين، وقال آخرون: لا تتأول بل يمسك عن الكلام في معانيها ويوكل علمها إلى الله سبحانه وتعالى، ويعتقد مع ذلك تنـــزيه الله تعالى وانتفاء صفات الحادث عنه، فيقال مثلا: نؤمن أنا نعتقد أن الله تعالى {**ليس كمثله شيء**} وأنه منـــزه عن الحلول وسمات الحدوث، وهذه طريقة السلف أو جماهيرهم وهي أسلم. إذ لا يطالب الإنسان بالخوض في ذلك، فإذا اعتقد التنـــزيه فلا حاجة إلى الخوض في ذلك والمخاطرة فيما لا ضرورة بل لا حاجة إليه، فإن دعت الحاجة إلى التأويل لرد مبتدع ونحوه تأولوا حينئذ، وعلى هذا يحمل ما جاء عن العلماء في هذا والله أعلم(١).

وقال محيي السنة الإمام البغوي في مقدمة كتابه (التهذيب): وأولى العلم بالتعلم بعد معرفة الله تعالى بالوحدانية والصفات والإيمان بملائكته وكتبه ورسله علمُ الفقه ومعرفة أحكام الشرع؛ لأن الله تعالى خلق الخلق للعبادة، فقال جل ذكره:{**وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون**}، وأرسل الرسل إلى العباد وأنزل معهم الكتاب ليبينوا لهم الشرائع والأحكام، قال الله تعالى: {**كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه**} وقال تعالى: {**إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله**} وقال جل ذكره:{**كونوا ربانيين**} قال ابن عباس: حكماء وفقهاء اهـــ.

وقال الإمام اللقاني في الجوهرة:

وبعد فالعلم بأصل الدين ... محتم يحتاج للتبيين

وقال أيضا:

فكل من كلف شرعا وجبا ... عليه أن يعرف ما قد وجبا

لله والجائز والممتنعا ... ومثل ذا لرسله فاستمعا

إذ كل من قلد في التوحيد ... إيمانه لم يخل عن ترديد

---

(١) مقدمة المجموع، ص٦٢-٦٣.

ففيه بعض القوم يحكي الخلفا   وبعضهم حقق فيه الكشفا

فقال إن يجزم بقول الغير   كفى وإلا لم يزل في الضير

واجزم بأن أولا مما يجب   معرفة وفيه خلف منتصب

وقال ابن رسلان في (الزبد):

أول واجب على الإنسان   معرفة الإله باستيقان

وسئل ابن حجر الهيتمي ما الذي يجب علينا تعلمه واعتقاده بينوا لنا بيانا شافيا لا يُحتاج معه إلى مراجعة مُصَنَّف، ولكم الثواب الجزيل من الملك الجليل؟.

فأجاب بقوله: مما يجب على كل مكلف وجوبا عينيا لا رخصة في تركه أن يتعلم ظواهر الاعتقادات الواردة في الكتاب والسنة مع تنْزيه الله تعالى عما هو محال عليه مما يقتضي جسما أو جهة كالاستواء على العرش والآيات والأحاديث التي فيها ذكر الوجه واليد، فهذه ونحوها فيها مذهبان، مذهب السلف -وهو الأسلم- أن يفوض علم حقائقها إلى الله تعالى من التنـــزيه عما دلت عليه ظواهرها مما هو مستحيل على الله، ومذهب الخلف، وهو أن يخرج تلك النصوص عن ظواهرها وتحمل على محامل تليق به تعالى كحمل الاستواء على الاستيلاء، والوجه على الذات، والعين على تمام الرعاية والكلاءة والحفظ، واليد على النعمة والقدرة، وغير ذلك مما هو مبسوط في محاله من كتب العقائد وغيرها، فالمذهبان متفقان على التنْزيه عن ظواهر تلك النصوص المشكلة، وإنما اختلفوا هل يفوض علمها إلى الله تعالى ولا يتعرض لتأوليها؟ وهو مذهب السلف، أو يتعرض لتأويلها صونا لها عن خوض المبطلين وزيغ الملحدين؟ وهو مذهب الخلف، وأما بقية نصوص الكتاب والسنة مما دل على التوحيد والتقديس وسائر صفات الكمال كالعلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر والكلام والبقاء، وسائر صفات السلب كليس بجسم ولا جوهر ولا عرض ولا متحيز ولا في مكان ولا يحده زمان ولا يتصوره وهم -ليس كمثله شيء وهو السميع البصير- فهذه كلها يجب على كل أحد أن يتعلم ظواهرها، وكذلك يجب ذلك في نحوها ككون العبد لا يخلق أفعال نفسه خيرها وشرها، وإنما الخالق لذلك والموجد له هو الله وحده لا شريك له، وككونه تعالى يُرى في الآخرة، وككون عذاب القبر

وسؤال الملكين والصراط والحوض والميزان والحساب حقا، وأن الجنة والنار مخلوقتان اليوم، وسائر ما يتعلق بالمعاش والمعاد اهـــ .

وقال أيضا: الذي صرح به أئمتنا أنه يجب على كل أحد وجوبا عينيا أن يعرف صحيح الاعتقاد من فاسده، ولا يشترط فيه علمه بقوانين أهل الكلام لأن المدار على الاعتقاد الجازم ولو بالتقليد على الأصح، وأما تعليم الحجج الكلامية والقيام بـــها للرد على المخالفين فهو فرض كفاية، اللهم إلا إن وقعت حادثة وتوقف دفع المخالف فيها على تعلّم ما يتعلق بـــها من علم الكلام أو آلاته، فيجب عينا على من تأهل لذلك تعلّمه للرد على المخالفين .

وقيل للقاضي أبي الطيب: إن قوما يذمون علم الكلام، فأنشد:

عاب الكلام أناس لا خلاق لـــهم   ومـــا عليه إذا عابوه من ضــــرر

ما عاب (١) شمس الضحى في الأفق طالعة   أن لا يرى ضوءها من ليس ذا بصر

طالعة

وما قيل إنه بدعة لأنه لم ينظر فيه السلف مع أنه يورث المراء والجدال والشبهات رُدّ بأنه نظر فيه السلف قطعا، منهم عمر وابنه وعلي وابن عباس رضي الله عنهم، ومن التابعين عمر بن عبد العزيز وربيعة وابن هرمز، ومالك والشافعي رضي الله عنهم، وألف مالك رضي الله عنه فيه رسالة قبل أن يولد الشافعي رضي الله عنه، وإنما نسب للأشعري لأنه بين مناهج الأولين ولخص موارد البراهين ولم يُحْدِثْ فيه بعد السلف إلا مجرد الألقاب والاصطلاحات، وقد حدث مثل ذلك في كل فن من فنون العلم، والقول بأن السلف نـــهوا عن النظر فيه باطل، وإنما الذي نـــهوا عنه علم الجهمية والقدرية وغيرهم من أهل البدع وهم الذين ذمهم الشافعي وغيره من السلف.

وقال أيضا: لا ينبغي للإنسان الذي لم يحط بمقدمات العلوم الإلهية والبراهين القطعية أن يشتغل بمطالعة شيء من كتب العقائد المشكلة، فإنّها مزلة الأقدام للعوام، جالبة لوقوعهم في ورطة الحيرة والأوهام، بل ربما أدى بـــهم ذلك إلى الكفر الصريح والابتداع

---

[١] وفي مصادر أخرى: ما ضر بدل ما عاب.

القبيح(١)، فليترك العاقل ذلك إذا أراد سلامة دينه، فإن كان فاعـــلا ولا بد فليلزم شيخا شيخا عـــالـــما
بفن الكلام وغيره نصوحا سليم العقيدة، فليقرأ عليه في ذلك مبتدئا فيه إلى أن يحيط بشيء منه بقدر ما يصحح به عقيدته، ثم يترك التوغل في ذلك فإنه الضلال الأكبر كما أشار إليه إمامنا الشافعي رضي الله عنه وأرضاه وجعل الفردوس متقلبه ومثواه آمين(٢) اهـــ.
وقال اللقاني في (جوهرة التوحيد):

إذ كل من قلّد في التوحيد (٣) إيمانه لم يخل من ترديد
ففيه بعض القوم يحكي الخلفا وبعضهم حقق فيه الكشفا
فقال إن يجزم بقول الغير كفى وإلا لم يزل في الضير

قال الباجوري في حاشيته عليها: وحاصل الخلاف في التقليد في التوحيد أقوال ستة، أرجحها الاكتفاء بالتقليد مع العصيان إن كان فيه أهلية للنظر وإلا فلا عصيان، وحكى الآمدي اتفاق الأصحاب على انتفاء كفر المقلد، وأنه لا يعرف القول بعدم صحة إيمانه إلا لأبي هاشم الجبائي من المعتزلة.
والخلاف في إيمان المقلد إنما هو بالنظر لأحكام الآخرة وفيما عند الله، وأما بالنظر إلى أحكام الدنيا فيكفي فيها الإقرار فقط، فمن أقرّ جرت عليه الأحكام الإسلامية، و لم يحكم عليه بالكفر (٤).

---

[1] قال الباجوري في حاشيته على (السلم): وعلم الكلام المنهي عنه: فهو الكتب المشتملة على تخليطات الفلاسفة كالمطالع والطوالع والمواقف والمقاصد اهـــ.

[2] الفتاوي الحديثية، ص١٧٦-١٧٧ .

[3] قال الباجوري: التقليد هو الأخذ بقول الغير من غير أن يعرف دليله، وأما من عرف دليله كالتلامذة بعد أن يرشدهم الأشياخ للأدلة فهم عارفون لا مقلدون، وضرب لهم الشيخ السنوسي مثلا للفرق بينهم وبين المقلدين بجماعة نظروا للهلال، فسبق بعضهم لرؤيته فأخبرهم به، فإن صدقوه من غير معاينة كانوا مقلدين، وإن أرشدهم بالعلامة حتى عاينوه لم يكونوا مقلدين اهـــ.

[4] تحفة المريد على جوهرة التوحيد ص٢٢-٢٣.

وَخُضْ بَعْدَ ذَيْنِ فِيْ بُحُوْرِ الفُنُوْنِ (١) **مَعْ رِعَايَةِ تَرْتِيْبٍ بِإِمْعَانِ فِكْرَةِ**

أي اجتهد وخض بحر الفنون الأخرى الآتية بعد هذين الفنين المذكورين مع رعاية الترتيب، وتقديم الأهم فالأهم، قال الحافظ الخطيب البغدادي رحمه الله: العلم كالبحار المتعذر كيلها، والمعادن التي لا ينقطع نيلها، فاشتغل بالمهم منه، فإنه من شغل نفسه بغير المهم أضر بالمهم اهـ .

وَبَادِرْ إِلَىْ نَحْوٍ وَصَرْفٍ أُصُوْلِ فِقْـــهِنَا .

يعني بادر إلى تعلم فن النحو والصرف ....، فأما النحو: فهو علم يعرف به أحوال أواخر اللفظ إعرابا وبناء.

وواضعه: أبو الأسود الدؤلي بأمر سيدنا علي بن أبي طالب له بوضعه، وهو فن مهم لابد لكل طالب علم أن يتعلمه ليحترز به عن الخطإ في حركات الألفاظ العربية وفهم معاني كلماتـــها، ويحترز أيضا عن اللحن المغَيِّرِ للمعاني المقصودة من الألفاظ، والمخل لمحاسن العبارات.

وكان ابتداء هذا الفن واختراعه في عهد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد قال القرطبي في تفسيره (الجامع لأحكام القرآن): عن ابن أبي مليكة قال: قدم أعرابي في زمان عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: من يقرئني مما أنزل الله على محمد صلى الله عليه وسلم؟ قال: فأقرأه رجل "براءة" فقال: {**إن الله بريء من المشركين ورسوله**} بالجر، فقال الأعرابي: أو قد برأ الله من رسوله؟، فإن يكن الله برأ من رسوله فأنا أبرأ منه، فبلغ عمر مقالة الأعرابي فدعاه فقال: يا أعرابي أتبرأ من رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال: يا أمير المؤمنين إني قدمت المدينة ولا علم لي بالقرآن، فسألت من يُقرئني فأقرأني هذا سورة براءة فقال: إن الله بريء من المشركين ورسولِه، فقلت: أو قد برأ الله من رسوله إن يكن الله برأ من رسوله فأنا أبرأ منه، فقال عمر: ليس هكذا يا أعرابي، قال: فكيف هي يا أمير المؤمنين، قال: {**إن الله بريء من المشركين ورسولُه**}، فقال الأعرابي:

---

[١] في هذا البيت تشبيه فنون العلم بالبحار، وذكر الخوض ترشيح.

وأنا والله أبرأ مما برأ الله ورسوله منه، فأمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن لا يقرأ الناس إلا عالم باللغة، فأمر أبا الأسود فوضع النحو([1]) .

وقال الحافظ الذهبي: قال أبو داود السِّنْجِي: سمعت الأصمعي يقول: إن أخوف ما أخاف على طالب العلم إذا لم يعرف النحو أن يدخل في جملة قوله عليه السلام: من كذب عليّ فليتبوأ مقعده من النار(٢).

وعن أبي عكرمة قال: كان عمر بن الخطاب إذا سمع رجلا يخطئ فتح عليه، وإذا أصابه بلحن ضربه بالدرة (٣).

وفي (كنْز العمال) عن ابن شهاب أن عمر بن الخطاب كتب إلى أبي موسى الأشعري أن مر مَن قِبَلَكَ يتعلمِ العربية، فإنّها تدل على صواب الكلام، ومرهم برواية الشعر فإنه يدل على معاني الأخلاق، رواه ابن الأنباري.

وفيه أيضا: عن أبي الأسود الدؤلي قال: دخلت على علي بن أبي طالب فرأيته مطرقا متفكرا، فقلت: فيم تفكّر يا أمير المؤمنين؟ قال: إني سمعت ببلدكم هذا لحنا فأردت أن أضع كتابا في أصول العربية، فقلت: إذا فعلت هذا أحييتنا وبقيت فينا هذه اللغة، ثم أتيته بعد ثلاث فألقى إليّ صحيفة فيها: بسم الله الرحمن الرحيم، الكلام كله اسم وفعل وحرف، فالاسم ما أنبأ عن المسمى، والفعل ما أنبأ عن حركة المسمى، والحرف ما أنبأ عن معنى ليس باسم ولا فعل، ثم قال لي: تتبعه وزد فيه ما وقع لك، واعلم يا أبا الأسود أن الأشياء ثلاثة: ظاهر ومضمر وشيء ليس بظاهر ولا مضمر، وإنما يتفاضل العلماء في معرفة ما ليس بظاهر ولا مضمر، قال أبو الأسود: فجمعت عنه أشياء وعرضتها عليه فكان من ذلك حروف النصب، فذكرت منها إنّ وأنّ وليت ولعلّ وكأنّ ولم أذكر لكنّ، فقال لي: لم تركتها؟ فقلت: لم أحسبها منها، فقال: بلى هي منها، فزاد لي فيها، رواه أبو القاسم الزجاجي في أماليه (٤).

---

[1] مقدمة تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن.

[2] سير أعلام النبلاء ج١٠ص١٧٦-٢٧٧.

[3] كنْزل العمال ج١٠ص١٣٣.

[4] كنـــزل العمال في سنن الأقوال والأفعال، ج٧ص١٢٥.

وعن علي بن الجعد قال: سمعت شعبة يقول: مثل صاحب الحديث الذي لا يعرف العربية مثل الحمار عليه مخلاة لا علف فيها، وقال حماد بن سلمة: من طلب الحديث و لم يتعلم النحو أو قال: العربية فهو كمثل الحمار، تعلق عليه مخلاة ليس فيها شعير، وقيل للحسن: إن لنا إماما يلحن، قال: أخروه(١).

وأما الصرف فهو علم يعرف به أحوال أبنية الكلم التي ليست بإعراب ولا بناء. ويقال: علم يبحث فيه عن أبينة الكلم وأحوالها صحة وإعلالا.

وواضعه: معاذ بن مسلم.

وأما أصول الفقه فهو كما في (النفحات على شرح الورقات): علم يعرف به أحوال الأدلة والأحكام الشرعيتين من حيث إن له دخلا في إثبات الأحكام بالأدلة.

وفي (جمع الجوامع): هو دلائل الفقه الإجمالية، وقيل معرفتها، والأصولي العارف بِها وبطرق استفادتـــها اهـــ.

وواضعه: الإمام الشافعي رضي الله عنه.

....وَالحَدِيْثِ ذِيْ العُلُوْمِ اَلْسَنِيَّةِ

أي بادر إلى تعلّم الحديث الشريف ذي العلوم الرفيعة والأنواع الكثيرة، وهو أقواله صلى الله عليه وسلم وأفعاله وتقريراته، وقد قسموه إلى ثلاثة أقسام، قال السيوطي في ألفية الحديث:

والأكثرون قسموا هذي السنن   إلى صحيح وضعيف وحسن

قال السيوطي في مقدمة (تدريب الراوي): اعلم أن أنواع علوم الحديث كثيرة لا تعد، قال الحازمي في كتاب العجالة: علم الحديث يشتمل على أنواع كثيرة تبلغ مائة، كل نوع منها علم مستقل، لو أنفق الطالب فيه عمره لما أدرك نـــهايته، وقد ذكر ابن الصلاح منها وتبعه المصنف -أي النووي- خمسة وستين وقال: وليس ذلك بآخر الممكن في ذلك فإنه قابل للتنويع إلى ما لا يحصى(٢). وزاد عليها السيوطي في تدريبه وأنْهَاها إلى ثلاثة وتسعين نوعا.

---

[١] مقدمة تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن.

[٢] مقدمة تدريب الراوي ج٢ص٥٣.

وسئل العلامة شهاب الدين ابن حجر الهيتمي نفع الله به عن الجلوس لسماع الحديث وقراءته هل فيه ثواب أم لا؟

فأجاب بقوله: إن قصد بسماعه الحفظ وتعليم الأحكام أو الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم أو اتصال السند ففيه ثواب، وأما قراءة متون الأحاديث فقال الشيخ أبو إسحاق الشيرازي في شرح اللمع: إن قراءة متونـــها لا يتعلق بـــها ثواب خاص لجواز قراءتـــها وروايتها بالمعنى، قال ابن العماد: وهو ظاهر إذ لو تعلق بنفس ألفاظها ثواب خاص لما جاز تغييرها وروايتها بالمعنى، بخلاف القرآن فإنه معجز، وإذا كانت قراءته المجردة لا ثواب فيها لم يكن في استماعه المجرد عما مر ثواب بالأولى، وأفتى بعضهم بالثواب وهو الأوجه عندي، لأن سماعها لا يخلو من فائدة، لو لم يكن إلا عود بركته صلى الله عليه وسلم على القارئ والمستمع فلا ينافي ذلك قولهم: إن سماع الأذكار مباح لا سنة اهـــ(١)

وقال الشيخ عطية الأجهوري في حاشيته على الزرقاني على منظومة البيقونية: قال الإمام محمد بن محمد البديري الدمياطي في آخر شرحه للبيقونية ما نصه: وأما قراءة الحديث مجوَّدة كتجويد القرآن من أحكام النون الساكنة والتنوين والمدود والقصر وغير ذلك فهي مندوبة كما صرح به بعضهم، لكن سألت شيخي خاتمة المحققين الشيخ علي الشبراملسي تغمده الله تعالى بالرحمة حالة قراءتي عليه صحيح البخاري عن ذلك، فأجابني بالوجوب، وذكر لي أنه رأى ذلك منقولا في كتاب يقال له: (الأقوال الشارحة في تفسير الفاتحة)، وعلل الشيخ حينئذ ذلك بأن التجويد من محاسن الكلام ومن لغة العرب ومن فصاحة المتكلم، وهذه المعاني مجموعة فيه صلى الله عليه وسلم، فمن تكلم بحديثه صلى الله عليه وسلم فعليه مراعاة ما نطق به صلى الله عليه وسلم(٢).

وفي (فتح المغيث) للحافظ السخاوي: سأل أبو عمرو إسماعيل بن نجيد أبا عمرو بن حمدان وكان من عباد الله الصالحين بأي نية أكتب الحديث، قال: ألستم ترون أن عند ذكر الصالحين تنـــزل الرحمة؟ قال: نعم، قال: فرسول الله صلى الله عليه وسلم رأس الصالحين(٣).

---

[١] الفتاوي الحديثية، ص٣٣٨.

[٢] حاشية الشيخ عطية الأجهوري ص٨٤.

[٣] فتح المغيث شرح ألفية الحديث للسخاوي ج٢ص٣١٧.

متى يكتفي العالم بالحديث ومن هو المحدث والحافظ والحجة والحاكم؟

قال العلامة علي القاري: الحافظ هو من أحاط علمه بمائة ألف حديث، ثم بعده الحجة وهو من أحاط علمه بثلاثمائة ألف حديث، ثم الحاكم وهو الذي أحاط علمه بجميع الأحاديث المروية متنا وإسنادا، وجرحا وتعديلا وتاريخا، كذا قاله جماعة من المحققين.

وقال العلامة الجزري: الراوي ناقل الحديث بالاسناد، والمحدث من تحمل الحديث رواية واعتنى به دراية، والحافظ من روى ما يصل إليه ووعى ما يُحتاج لديه.

وقال العراقي: المحدث في عرف المحدثين من يكون له كتب وقرأ وسمع ووعى ورحل إلى المدائن والقرى، وحصّل أصولا من متون الأحاديث وفروعا من كتب المسانيد والعلل والتواريخ التي تقرب من ألف تصنيف انتهى. قال القاري: وكأنه تعريف المنتهي(١).

وقال السيوطي في مقدمة (تدريب الراوي): قد كان السلف يطلقون المحدث والحافظ بمعنى. والحقُّ أن الحافظ أخص.

وقال الشيخ فتح الدين بن سيد الناس: وأما المحدث في عصرنا فهو من اشتغل بالحديث رواية ودراية، وجمع رواة، واطلع على كثير من الرواة والروايات في عصره، وتميز في ذلك حتى عرف فيه حظه، واشتهر فيه ضبطه، فإن توسع في ذلك حتى عرف شيوخه وسيوخ شيوخه طبقة بعد طبقة بحيث يكون ما يعرفه من كل طبقة أكثر مما يجهله منها فهذا هو الحافظ.

وقال الشيخ تقي الدين السبكي: إنه سأل الحافظ جمال الدين المِزّي عن حد الحفظ الذي إذا انتهى إليه الرجل جاز أن يطلق عليه الحافظ؟ قال: يرجع إلى أهل العرف، فقلت: وأين أهل العرف؟ قليل جدا، قال: أقل ما يكون أن يكون الرجال الذين يعرفهم ويعرف تراجمهم وأحوالهم وبلدانـــهم أكثر من الذين لا يعرفهم ليكون الحكم للغالب، فقلت له: هذا عزيز في هذا الزمان، أدركتَ أنتَ أحدًا كذلك؟ فقال: ما رأينا مثل الشيخ شرف الدين الدمياطي، ثم قال: وابن دقيق العيد كان له في هذا مشاركة جيدة، ولكن أين السُّهَا

---

١ شرح شرح نخبة الفكر لعلي بن سلطان محمد القاري ص١٢١-١٢٢.

من الثرى، فقلت: كان يصل إلى هذا الحد؟ قال: ما هو إلا كان يشارك مشاركة جيدة في هذا أعني في الأسانيد، وكان في المتون أكثر لأجل الفقه والأصول.

وروى عن الزهري أنه قال: لا يولد الحافظ إلا في كل أربعين سنة(١).

وفي (صفحات من صبر العلماء) قال ابن الجوزي: قال أحمد بن محمد بن يس: سمعت أحمد بن منيع بن عبد الرحمن البغوي يقول: سمعت جدي يقول: مرّ أحمد بن حنبل جائيا من الكوفة وبيده خريطة(٢) فيها كتب، فأخذت بيده، فقلت: مرة إلى الكوفة ومرة إلى البصرة، إذا كتب الرجل ثلاثين ألف حديث لم يكفه؟، فسكت، ثم قلت ستين ألفا؟ فسكت، فقلت: مائة ألف؟ فقال: حينئذ يعرف شيئا، قال أحمد بن منيع: فنظرنا فإذا أحمد كتب ثلاثمائة ألف(٣) .

وذكر ابن السبكي في (معيد النعم ومبيد النقم) فرقا كثيرة من فرق العلماء، فمما قال فيه: ومنهم فرقة إذا رامت بلوغ الغاية في الحديث على زعمها اشتغلت بجامع الأصول لابن الأثير وإن ضمت إليه كتاب علوم الحديث لابن الصلاح أومختصره المسمى بالتقريب والتيسر للنووي ونحو ذلك فحينئذ ينادى من انتهى إلى هذا المقام بمحدث المحدثين وبخاري العصر، وما ناسب هذه الألفاظ الكاذبة، فإن من ذكرناه لا يعد محدثا بـــهذا القدر، إنما المحدث من عرف الأسانيد والعلل، وأسماء الرجال والعالي والنازل، وحفظ مع ذلك جملة مستكثرة وسمع الكتب الستة، ومسند أحمد بن حنبل، وسنن البيهقي، ومعجم الطبراني، وضم إلى هذا القدر ألف جزء من الأجزاء الحديثية، هذا أقل درجاته (٤).

جواز العمل بالحديث الضعيف

قال ابن علان في شرح الأذكار: ممن قال بجواز العمل بالحديث الضعيف الإمام أحمد بن حنبل وابن المبارك والسفيانان والعنبري وغيرهم، بل نقل الإجماع على ذلك الإمام

---

[١] مقدمة تدريب الراوي ج٢ص٤٥-٤٩.

[٢] الخريطة هي الكيس، له خيط يحيط بفمه، يشد فيغلق .

[٣] (صفحات من صبر العلماء) وقال الشيخ عبد الفتاح أبو غدة في تعليق له على كتابه هذا: فما قولك فيمن قرأ بعض أحاديث من سبل السلام لا تبلغ في السنوات الدراسية الأربع مائتين أو ثلاثمائة حديث ثم خرج يقول: إنه تخرج من قسم الحديث فما ذا يعرف هذا وما أكثر المحدثين المتخرجين على هذا المنوال في هذا الزمان !! اهـــ.

[٤] معيد النعم ومبيد النقم ص٨٢.

النووي، وعبارته في الجزء الذي جمعه في إباحة القيام: أجمع أهل الحديث وغيرهم على العمل في الفضائل ونحوها مما ليس فيه حكم ولا شيء من العقائد وصفات الله تعالى بالحديث الضعيف(١) اهـــ.

وقال الإمام النووي في أربعينه: وقد اتفق العلماء على جواز العمل بالحديث الضعيف في فضائل الأعمال، وقال أيضا في (الأذكار): قال العلماء من المحدثين والفقهاء وغيرهم: يجوز ويستحب العمل في الفضائل والترغيب والترهيب بالحديث الضعيف ما لم يكن موضوعا اهـــ. ومراده بالإجماع والاتفاق في العبارتين واحد كما قال ابن علان وأشار إليه الهيتمي، وقال الإمام ابن مهدي: إذا روينا عن النبي صلى الله عليه وسلم في الحلال والحرام والأحكام شددنا في الأسانيد وانتقدنا في الرجال، وإذا روينا في الفضائل والثواب والعقاب تساهلنا في الأسانيد وتسامحنا في الرجال اهـــ وكم من إمام قال مثل ما قاله ابن مهدي رحمهم الله، قال الشهاب الرملي في فتاويه: وفي معنى الترغيب والترهيب القصص ونحوها، وقال الهيتمي في المنح المكية: الحديث الضعيف يعمل في المناقب، قال بعض الحفاظ اتفاقا كالفضائل، وهذا إذا لم يعارضه غيره مما هو مقدم عليه(٢).

وفي (الإرشاد) للنووي: وكالترغيب والترهيب كل ما لا تعلق له بالأحكام والعقائد اهـــ. وللعمل بالحديث الضعيف شروط، قال السخاوي: سمعت شيخنا الحافظ ابن حجر العسقلاني رحمه الله تعالى مرارا يقول وكتبه لي بخطه: إن شرط العمل بالحديث الضعيف ثلاثة، الأول متفق عليه وهو أن يكون الضعف غير شديد، الثاني أن يندرج تحت أصل عام، الثالث أن لا يعتقد عند العمل به ثبوته، بل يعتقد الاحتياط.

وقال الشمس الرملي في آخر باب الوضوء: في هذا الشرط الأخير نظر.

وقال ابن علان: قال ابن قاسم في حاشية التحفة: وشرط بعضهم أن لا يعتقد السنية، وفيه نظر، بل لا وجه له؛ لأنه لا معنى للعمل بالضعيف في مثل ما نحن فيه إلا كونه مطلوبا طلبا غير جازم، وكل مطلوب طلبا غير جازم فهو سنة، وإذا كان سنة تعيّن اعتقاد سنيته اهـــ.

---

[١] الفتوحات الإلهية شرح الأذكار النووية ص٨٢ ج٢

[٢] انظر شرح ابن علان على الأذكار ج ص١٦٠.

والشرطان الأخيران ذكرهما ابن عبد السلام وصاحبه ابن دقيق العيد، وتبعهما كما مرّ العسقلاني، وما ذهب إليه الحافظ ابن العربي المالكي من أنه لا يعمل بالحديث الضعيف مطلقا يحمل على شديد الضعف المتفق على عدم العمل به كما ذكره ابن علان في شرح الأذكار(١).

فالحاصل أن الحديث الضعيف يعمل به في الفضائل ونحوها بشروطه المذكورة، وهذا هو المتفق عليه سلفا وخلفا.

فإذا علمت هذا فإياك أن يعوّقك أهل التشكيك والبطالة، ويثبّطك أولو الكسل والحرمان عن التمسك والعمل بالأحاديث الضعيفة المستوفية لشروط العمل بـــها؛ فإن في الأمر سعة، وفي المواهب الإلهية كثرة، ولا تكترث بتقولات طائفة شأنـــهم التضييق والتشديد والتنفير عن كثير من العبادات والطاعات، فذرهم في خوضهم يلعبون، وانبذهم في بحر الإهمال يعمهون، واعبد ربك حتى يأتيك اليقين، واسلك سبيل السادات، من أهل العنايات، والله الموفق.

كشف الغطاء عن المراد بقولهم: إذا صح الحديث فهو مذهبي

اعلم أن الإمام الشافعي رحمه الله تعالى قال: إذا وجدتم في كتابي خلاف سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقولوا: بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعوا قولي اهـــ(٢). وفي رواية: كل ما قلتُ وقال النبي صلى الله عليه وسلم خلاف قولي مما يصح فحديث النبي صلى الله عليه وسلم أولى، ولا تقلدوني. ويروى عنه: إذا صح الحديث فهو مذهبي(٣). وعبارات الإمام في مثل هذا المعنى كثيرة جدا.

وللإمام تقي الدين السبكي رسالة ألفها في المراد من قول الشافعي المذكور وما يجب أن يحمل عليه ويقيّد به، سماها (معنى قول المطلبي: إذا صح الحديث فهو مذهبي). قال الحافظ العسقلاني في (توالي التأسيس): قرأت بخط الشيخ تقي الدين السبكي في مصنف له في هذه المسألة ما ملخصه: إذا وَجَد شافعي حديثا صحيحا يخالف مذهبه إن كملت فيه آلة الاجتهاد في تلك المسألة فليعمل بالحديث بشرط أن لا يكون الإمام اطّلع عليه وأجاب

---

[١] الفتوحات الإلهية شرح الأذكار النووية ج١ص٨٣.

[٢] مناقب الشافعي للبيهقي ج١ص٤٧٢ ومقدمة المجموع ص١٣٤.

[٣] سير أعلام النبلاء ج١٠ص٣٥.

عنه، وإن لم يكمل ووجد إماما من أصحاب المذاهب عمل به فله أن يقلده فيه، وإن لم يجد وكانت المسألة حيث لا إجماع قال السبكي: فالعمل بالحديث أولى، وإن فرض الإجماع فلا، قلت (القائل ابن حجر): ويتأكد ذلك إذا وجد الإمام بنى المسألة على حديث ظنه صحيحا، وتبين أنه غير صحيح، ووجد خبرا صحيحا يخالفه، وكذا إذا اطلع الإمام عليه ولكن لم يثبت عنده مخالفة، ووجد له طريق ثابتة، وقد أكثر الشافعي من تعليق القول بالحكم على ثبوت الحديث عند أهله كما قال في البويطي: إن صح الحديث في الغُسل مِن غَسل الميت قلت به، إلى غير ذلك(١) اهـــ.

وقال الإمام النووي في مقدمة المجموع: وهذا الذي قاله الشافعي ليس معناه أن كل أحد رأى حديثا صحيحا قال: هذا مذهب الشافعي وعمل بظاهره، وإنما هذا فيمن له رتبة الاجتهاد في المذهب، وشرطه أن يغلب على ظنه أن الشافعي رحمه الله لم يقف على هذا الحديث أو لم يعلم صحته، وهذا إنما يكون بعد مطالعة كتب الشافعي كلها ونحوها من كتب أصحابه الآخذين عنه وما أشبهها، وهذا شرط صعب قلّ من يتصف به، وإنما اشترطوا ما ذكرنا لأن الشافعي رحمه الله ترك العمل بظاهر أحاديث كثيرة رآها وعلمها لكن قام الدليل عنده على طعن فيها أو نسخها أو تخصيصها أو تأويلها أو نحو ذلك.

قال الشيخ أبوعمرو رحمه الله: ليس العمل بظاهر ما قاله الشافعي بالهين، فليس كل فقيه يسوغ له أن يستقل بالعمل بما يراه حجة من الحديث، وفيمن سلك هذا المسلك من الشافعيين مَنْ عَمِل بحديث تركه الشافعي عمدا مع علمه بصحته لمانع اطلع عليه وخفي على غيره كأبي الوليد موسى بن أبي الجارود ممن صحب الشافعي قال: صح حديث أفطر الحاجم والمحجوم، فأقول: قال الشافعي: أفطر الحاجم والمحجوم، فردوا ذلك على أبي الوليد؛ لأن الشافعي تركه مع علمه بصحته؛ لكونه منسوخا عنده اهـــ.

وقال النووي في المجموع أيضا:

فرع: في مذاهب العلماء في حجامة الصائم

مذهبنا أنه لا يفطر بالحجامة الحاجم والمحجوم، وبه قال ابن مسعود وابن عمر وابن عباس وأنس بن مالك وأبو سعيد الخدري وأم سلمة وسعيد بن المسيب وعروة بن الزبير والشعبي

---

[١] تعليق سير أعلام النبلاء ج١٠ص٣٤.

والنخعي ومالك والثوري وأبو حنيفة وداود وغيرهم، قال صاحب الحاوي: وبه قال أكثر الصحابة وأكثر الفقهاء. وقال جماعة من العلماء الحجامة تفطر وهو قول علي بن أبي طالب وأبي هريرة وعائشة والحسن البصري وابن سيرين وعطاء والأوزاعي وأحمد وإسحق وابن المنذر وابن خزيمة، قال الخطابي: قال أحمد وإسحق: يفطر الحاجم والمحجوم وعليهما القضاء دون الكفارة. وقال عطاء: يلزم المحتجم في رمضان القضاء والكفارة، واحتج لهؤلاء بحديث ثوبان قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: أفطر الحاجم والمحجوم، رواه أبوداود والنسائي وابن ماجه بأسانيد صحيحة، وإسناد أبي داود على شرط مسلم، وعن شداد بن أوس: أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم على رجل بالبقيع وهو يحتجم وهو آخذ بيدي لثمان عشرة خلت من رمضان فقال: أفطر الحاجم والمحجوم، رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه بأسانيد صحيحة. وعن رافع بن خديج عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: أفطر الحاجم والمحجوم، رواه الترمذي وقال: حديث حسن. وعن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم مثله. وعن أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم مثله، رواه الحاكم في المستدرك وقال: هو صحيح، ثم روى عن علي بن المديني أنه قال: هو صحيح، وروى الحاكم أبوعبد الله في المستدرك عن أحمد بن حنبل قال: أصح ما روي في هذا الباب حديث ثوبان، وعن علي بن المديني قال: لا أعلم فيها أصح من حديث رافع بن خديج قال الحاكم: قد حكم أحمد لأحد الحديثين بالصحة وعليٌ للآخر بالصحة، وحكم إسحق بن راهويه لحديث شداد بن أوس بالصحة، ثم روى الحاكم بإسناده عن إسحق أنه قال في حديث شداد: هذا إسناد صحيح تقوم به الحجة، قال إسحق: وقد صح هذا الحديث بأسانيد وبه نقول، قال الحاكم: رضي الله عن إسحق فقد حكم بالصحة لحديث صحته ظاهرة وقال به، قال الحاكم: وفي الباب عن جماعة من الصحابة بأسانيد مستقيمة مما يطول شرحه، ثم روى بإسناده عن الإمام الحافظ عثمان بن سعيد الدارمي قال: صح عندي حديث "أفطر الحاجم والمحجوم" من رواية شداد بن أوس وثوبان، قال عثمان: وبه أقول، قال: وسمعت أحمد بن حنبل يقول به ويقول: صح عنده حديث ثوبان وشداد، وروى البيهقي حديث "أفطر الحاجم والمحجوم" أيضا من رواية أسامة بن زيد عن النبي صلى الله عليه وسلم ومن رواية عطاء عن ابن عباس مرفوعا وعن عطاء عن النبي

صلى الله عليه وسلم مرسلا قال: هذا المرسل هو المحفوظ من رواية عطاء وذِكْرُ ابن عباس فيه وهم، وعن عائشة مرفوعا بإسناد ضعيف، وذكر البيهقي عن أبي زرعة الحافظ قال: حديث عطاء عن أبي هريرة مرفوعا في هذا حديث حسن، وفي الموطأ عن نافع قال: إن ابن عمر احتجم وهو صائم ثم تركه فكان إذا صام لم يحتجم حتى يفطر. واحتج أصحابنا بحديث ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم "احتجم وهو محرم واحتجم وهو صائم"، رواه البخاري في صحيحه .

وعن ثابت البناني قال: سئل أنس أكنتم تكرهون الحجامة للصائم قال: لا إلا من أجل الضعف، رواه البخاري، وفي رواية عنده: على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وعن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: حدثني رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم نـــهى عن الحجامة والمواصلة ولم ينه عنهما إلا إبقاء على أصحابه، رواه أبو داود بإسناد على شرط البخاري ومسلم كما سبق واحتج به أبو داود والبيهقي وغيرهما في أن الحجامة لا تفطر، وعن أبي سعيد الخدري قال: رخص رسول الله صلى الله عليه وسلم في القُبْلة للصائم والحجامة، رواه الدارقطني، وقال: إسناده كلهم ثقات ورواه من طريق آخر، وقال: كلهم ثقات.

وعن أنس قال: أول ما كرهت الحجامة للصائم أن جعفر بن أبي طالب احتجم وهو صائم فمر به النبي صلى الله عليه وسلم فقال: أفطر هذان ثم رخص النبي صلى الله عليه وسلم بعد في الحجامة للصائم، وكان أنس يحتجم وهو صائم، رواه الدارقطني وقال: رواته كلهم ثقات، قال: ولا أعلم له علة.

وعن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم احتجم وهو صائم، قال البيهقي وروينا في الرخصة في ذلك عن سعيد بن أبي وقاص وابن مسعود وابن عباس وابن عمر والحسين بن علي وزيد بن أرقم وعائشة وأم سلمة رضي الله عنهم واستدل الأصحاب أيضا بأحاديث أخر في بعضها ضعف والمعتمد ما ذكرناه واستدلوا بالقياس على الفصد والرعاف.

وأما حديث: أفطر الحاجم والمحجوم فأجاب أصحابنا عنه بأجوبة أحدها: جواب الشافعي ذكره في الأم وتابعه عليه الخطابي والبيهقي وسائر أصحابنا وهو أنه منسوخ بحديث ابن عباس وغيره مما ذكرنا، ودليل النسخ أن الشافعي والبيهقي روياه بإسنادهما الصحيح عن

شداد بن أوس قال: كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم زمان الفتح فرأى رجلا يحتجم لثمان عشرة خلت من رمضان فقال وهو آخذ بيدي: أفطر الحاجم والمحجوم، وقد ثبت في صحيح البخاري في حديث ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم احتجم وهو محرم صائم قال الشافعي: وابن عباس إنما صحب النبي صلى الله عليه وسلم محرما في حجة الوداع سنة عشرة من الهجرة و لم يصحبه محرما قبل ذلك، وكان الفتح سنة ثمان بلا شك فحديث ابن عباس بعد حديث شداد بسنتين وزيادة، قال: فحديث ابن عباس ناسخ قال البيهقي: ويدل على النسخ أيضا قوله في حديث أنس السابق في قصة جعفر ثم رخص النبي صلى الله عليه بعد في الحجامة، وهو حديث صحيح كما سبق قال: وحديث أبي سعيد الخدري السابق أيضا فيه لفظ الترخيص وغالب ما يستعمل الترخيص بعد النهي.

الجواب الثاني: أجاب به الشافعي أيضا أن حديث ابن عباس أصح ويعضده أيضا القياس فوجب تقديمه.

الجواب الثالث: جواب الشافعي أيضا والخطابي وأصحابنا أن المراد بأفطر الحاجم والمحجوم أنّهما كانا يغتابان في صومهما، وروى البيهقي ذلك في بعض طرق حديث ثوبان، قال الشافعي وعلى هذا التأويل يكون المراد بإفطارهما أنه ذهب أجرهما كما قال بعض الصحابة لمن تكلم في حال الخطبة لا جمعة لك أي ليس لك أجرها وإلا فهي صحيحة مجزئة عنه.

الجواب الرابع: ذكره الخطابي أن معناه تَعَرَّضَا للفطر أما المحجوم فلضعفه بخروج الدم فربما لحقه مشقة فعجز عن الصوم فأفطر بسببها، وأما الحاجم فقد يصل جوفه شيء من الدم أو غيره إذا ضم شفتيه على قصب الملازم كما يقال للمتعرض للهلاك هلك فلان وإن كان باقيا سالما، وكقوله صلى الله عليه وسلم من جُعِل قاضيا فقد ذبح بغير سكين أي تعرض للذبح بغير سكين.

الخامس: ذكره الخطابي أيضا أنه مر بـــهما قريب المغرب فقال: أفطرا أي حان فطرهما كما يقال: أمسى الرجل إذا دخل في وقت المساء أو قاربه .

السادس: أنه تغليظ ودعاء عليهما لارتكابـــهما ما يعرضهما لفساد صومهما(١).

---

[١] المجموع شرح المهذب كتاب الصيام المجلد السادس ص٣٤٩-٣٥٣.

وقال ابن خزيمة: لا أعلم سنة لرسول الله صلى الله عليه وسلم في الحلال والحرام لم يودعها الشافعي كتبه، وجلالة ابن خزيمة وإمامته في الحديث والفقه ومعرفته بنصوص الشافعي بالمحل المعروف، قال الشيخ أبوعمرو: فمن وجد من الشافعية حديثا يخالف مذهبه نظر، إن كملت آلات الاجتهاد فيه مطلقا أو في ذلك الباب أو المسألة كان له الاستقلال بالعمل به، وإن لم يكمل وشق عليه مخالفة الحديث بعد أن بحث فلم يجد لمخالفته عنه جوابا شافيا فله العمل به إن كان عمل به إمام مستقل غير الشافعي، ويكون هذا عذرا له في ترك مذهب إمامه هنا، وهذا الذي قاله حسن متعين والله أعلم(١) اهـــ.

وقال السيوطي في (مسالك الحنفا في والدي المصطفى) بعد كلام طويل في النـــزاع في نجاة والدى المصطفى صلى الله عليه وسلم: إن كان الذي يجادل بذلك شافعي المذهب أقول له: قد ثبت في صحيح مسلم أنه صلى الله عليه وسلم لم يقرأ في الصلاة بسم الله الرحمن الرحيم وأنت لا تصحح الصلاة بدون البسملة، وثبت في الصحيحين أنه صلى الله عليه وسلم قال: إنما جعل الإمام ليؤتم به فلا تختلفوا عليه، فإذا ركع فاركعوا، وإذا رفع فارفعوا، وإذا قال: سمع الله لمن حمده، فقولوا: ربنا لك الحمد، وإذا صلى جالسا فصلوا جلوسا أجمعون، وأنت إذا قال الإمام: سمع الله لمن حمده، تقول: سمع الله لمن حمده مثله، وإذا صلى جالسا لعذر وأنت قادر تصلي خلفه قائما لا جالسا. وثبت في الصحيحين في حديث التيمم: إنما يكفيك أن تقول بيديك هكذا، ثم ضرب بيديه ضربة واحدة ومسح الشمال على اليمين وظاهر كفيه ووجهه، وأنت لا تكتفي في التيمم بضربة واحدة ولا بالمسح إلى الكوعين، فكيف خالفت الأحاديث التي ثبتت في الصحيحين أو أحدهما؟، فلا بد إن كانت عنده رائحة من العلم أن يقول: قامت أدلة أخرى معارضة لهذه فقدمت عليها، فأقول له: وهذا مثله، لا يحتج عليه إلا بـــهذه الطريقة، فإنـــها ملزمة له ولأمثاله.

وإن كان المجادل مالكي المذهب أقول له: قد ثبت في الصحيحين: البيعان بالخيار ما لم يتفرقا، وأنت لا تثبت خيار المجلس، وثبت في صحيح مسلم أنه صلى الله عليه وسلم توضأ ولم يمسح كل رأسه، وأنت توجب في الوضوء مسح كل الرأس، فكيف خالفت ما ثبت في الصحيح؟ فيقول: قامت أدلة أخرى معارضة له فقدمت عليه، فأقول له: وهذا مثله.

---

(١) مقدمة المجموع ص١٣٥-١٣٧.

وإن كان المجادل حنفي المذهب أقول له: قد ثبت في الصحيح إذا ولغ الكلب في إناء أحدكم فليغسله سبعا، وأنت لا تشرط في النجاسة الكلبية سبعا، وثبت في الصحيحين: لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب، وأنت تصحح الصلاة بدونـــها، وثبت في الصحيحين: ثم ارفع حتى تعتدل قائما، وأنت تصحح الصلاة بدون الطمأنينة في الاعتدال، وصح في الحديث: إذا بلغ الماء قلتين لم يحمل خبثا، وأنت لا تعتبر القلتين، وصح في الصحيحين أنه صلى الله عليه وسلم باع المدبر، وأنت لا تقول ببيع المدبر، فكيف خالفت هذه الأحاديث الصحيحة؟، فيقول: قامت أدلة أخرى معارضة لها فقدمت عليها، فأقول له: وهذه مثله.

وإن كان المجادل حنبلي المذهب أقول له: قد ثبت في الصحيحين: من صام يوم الشك فقد عصى أبا القاسم، وثبت فيهما: لا تقدموا رمضان بصوم يوم ولا يومين، وأنت تقول بصيام يوم الشك، فكيف خالفت ما ثبت في الصحيحين؟ فيقول: قامت أدلة أخرى معارضة له فقدمت عليه، فأقول له: وهذا مثله. هذا أقرب ما يقرَّب به لأذهان الناس اليوم، وإن كان المجادل ممن يكتب الحديث ولا فقه عنده يقال له: قد قالت الأقدمون: المحدث بلا فقه كعطار غير طبيب، فالأدوية حاصلة في دكانه ولا يدري لما ذا تصلح، والفقيه بلا حديث كطبيب ليس بعطار يعرف ما تصلح له الأدوية إلا أنـــها ليست عنده، وإني بحمد الله قد اجتمع عندي الحديث والفقه والأصول وسائر الآلات من العربية والمعاني والبيان وغير ذلك، فأنا أعرف كيف أتكلم، وكيف أقول، وكيف استدل، وكيف أرجح، وأما أنت يا أخي وفقني الله وإياك فلا يصلح لك ذلك؛ لأنك لا تدري الفقه ولا الأصول ولا شيئا من الآلات، والكلامُ في الحديث والاستدلال به ليس بالهَيِّنِ، ولا يحل الإقدام على التكلم فيه لمن لم يجمع هذه العلوم، فاقتصر على ما آتاك الله، وهو أنك إذا سئلت عن حديث تقول: ورد أو لم يرد وصححه الحفاظ وحسنوه وضعفوه، ولا يحل لك في الإفتاء سوى هذا القدر، وخل ما عدا ذلك لأهله:

لا تحسب المجد تمرا أنت آكله   لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا

وثَم أمر آخر أخاطب به كل ذي مذهب من مقلدي المذاهب الأربعة، وذلك أن مسلما روى في صحيحه عن ابن عباس أن الطلاق الثلاث كان يجعل واحدة في عهد رسول الله

صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وصدر من إمارة عمر، فأقول: لكل طالب علم هل تقول: أنت بمقتضي هذا الحديث وأن من قال لزوجته: أنت طالق ثلاثا تطلق واحدة فقط، فإن قال: نعم أعرضت عنه، وإن قال: لا، أقول له: فكيف تخالف ما ثبت في صحيح مسلم، فإن قال: لما عارضه، أقول له: فاجعل هذا مثله، والمقصود من سياق هذا كله أنه ليس كل حديث في صحيح مسلم، يقال بمقتضاه لوجود المعارض له (١).

ومن الأحاديث التي لا تعمل بـــها أحاديث كثيرة منها: ما رواه مسلم في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنه قال: جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الظهر والعصر والمغرب والعشاء بالمدينة في غير خوف ولا مطر.

وروى مسلم أيضا عن عبد الله بن شقيق قال: خطبنا ابن عباس يوما بعد العصر حتى غربت الشمس وبدت النجوم وجعل الناس يقولون: الصلاة الصلاة، قال: فجاءه رجل من بني تميم لا يفتُر ولا يَنْثَنِي: الصلاة الصلاة، فقال ابن عباس: أتعلمني بالسنة لا أمَّ لك، ثم قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم جمع بين الظهر والعصر والمغرب والعشاء، قال عبد الله بن شقيق: فحاك في صدري من ذلك شيء فأتيت أبا هريرة فسألته فصدق مقالته.

ومنها حديث قتل شارب الخمر في المرة الرابعة(٢). قال الإمام النووي في شرح مسلم: قال الترمذي في آخر كتابه: ليس في كتابي حديث أجمعت الأمة على ترك العمل به إلا حديث ابن عباس في الجمع بالمدينة من غير خوف ولا مطر، وحديث قتل شارب الخمر في المرة الرابعة، قال النووي: هذا الذي قاله الترمذي في حديث شارب الخمر هو كما قاله، وهو حديث منسوخ دلّ الإجماعُ على نسخه، وأما حديث ابن عباس فلم يجمعوا على ترك العمل به بل لهم أقوال، منهم من قال: هو محمول على الجمع بعذر المرض ونحوه مما هو في معناه من الأعذار، وهذا قول أحمد بن حنبل والقاضي حسين من أصحابنا واختاره الخطابي والمتولي والروياني من أصحابنا وهو المختار في تأويله لظاهر الحديث ولفعل ابن عباس وموافقة أبي هريرة؛ ولأن المشقة فيه أشد من المطر، وذهب جماعة من

---

[١] مسالك الحنفا في والدى المصطفى، وهو مطبوع في ضمن كتاب الحاوي للفتاوي ج٢ص٤٣٨- ٤٤٠.

[٢] روى حديث قتل شارب الخمر في المرة الرابعة الترمذي وأبو داود والنسائي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه كما في الترغيب والترهيب في كتاب الحدود.

الأئمة إلى جواز الجمع في الحضر للحاجة لمن لا يتخذه عادة وهو قول ابن سيرين وأشهب من أصحاب مالك، وحكاه الخطابي عن القفال من أصحاب الشافعي عن أبي إسحاق المروزي عن جماعة من أصحاب الحديث واختاره ابن المنذر اهـــ.

وذكر العلامة ابن السبكي في (طبقات الشافعية الكبرى): أن الإمام عبد الله بن يوسف بن عبد الله بن يوسف أبا محمد الجويني والد إمام الحرمين شرع في تأليف كتاب سماه (المحيط) عزم فيه على عدم التقيد بالمذهب، وأنه يقف على مورد الأحاديث لا يعدوها، ويتجنب جانب العصبية للمذاهب، فوقع للحافظ أبي بكر البيهقي منه ثلاثة أجزاء، فانتقد عليه أوهاما حديثية، وبيّن أن الآخذ بالحديث الواقفَ عنده هو الشافعي رضي الله تعالى عنه، وأن رغبته عن الأحاديث التي أوردها الشيخ أبومحمد إنما هي لعلل فيها يعرفها من يتقن صناعة المحدثين، فلما وصلت الرسالة إلى الشيخ أبي محمد قال: هذه بركة العلم، ودعا للبيهقي، وترك إتمام التصنيف، فرضي الله عنهما، لم يكن قصدهما غير الحق والنصيحة للمسلمين، وقد حصل عند البيهقي مما فعله الشيخ أبومحمد أمر عظيم كما يظهر من كلامه في هذه الرسالة(١).

فانظر إلى انصاف هذا الإمام الجويني ومبادرته لقبول الحق والرجوع إليه مع جلالته وسعة اطّلاعه وكثرة علومه، وقد قيل فيه: لو جاز أن يبعث الله نبيا في عصره لما كان إلا هو.

فإذا تحقق أن كثيرا من الأحاديث الصحيحة لا يعمل بـــها بل تترك لأدلة أقوى منها أو لنسخها أو لتأويلها، علمت أنه لا يسوغ لمن لم يستكمل أدوات الاجتهاد أن يطمح إلى أخذ الأحكام من الأحاديث النبوية الشريفة، وأن ما يردد به كثير ممن يدعي العلم والحضارة من العمل بكل حديث صحيح رَأْيٌ سخيف ظاهر البطلان وغلط فاحش، أدى إلى فتن عظيمة ومفاسد كثيرة، من التفرق وتشتت الشمل، وتَقَوُّلِ كل جاهل بما سولت له نفسه، وزيّن له شيطانه، فَضَلّ وأضلّ كثيرا من الناس، فإلى الله المشتكى والمفزع، وإليه المفر والمهرب، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

---

[١] طبقات الشافعية الكبرى لابن السبكي في ترجمة الإمام أبي محمد الجويني.

وَتَفْسِيْرِ قُرآنٍ بِشَتَّى عُلُوْمِهِ....

أي بادر إلى تعلم تفسير القرآن الكريم وعلومه الكثيرة المتنوعة، قال الحافظ السيوطي في ديباجة (الإتقان في علوم القرآن): مما أهمل المتقدمون تدوينه حتى تحلى في آخر الزمان بأحسن زينة علم التفسير الذي هو كمصطلح الحديث، فلم يدوِّنه أحد لا في القديم ولا في الحديث حتى جاء شيخ الإسلام وعمدة الأنام جلال الدين البلقيني رحمه الله تعالى، فعمل فيه كتابه (مواقع العلوم من مواقع النجوم)، فنقحه وهذبه وقسم أنواعه ورتبه، ولم يُسبق إلى هذه المرتبة، فإنه جعله نيفا وخمسين نوعا.

وألف بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي أحد أصحابنا الشافعيين كتابا سماه (البرهان في علوم القرآن) وذكر فيه سبعا وأربعين نوعا من علوم القرآن، وقال فيه: ما من نوع من هذه الأنواع إلا ولو أراد إنسان استقصاءه لاستفرغ عمره ثم لم يحكم أمره، ولكن اقتصرنا من كل نوع على أصوله والرمز إلى بعض فصوله اهـ. ثم ذكر السيوطي أنه ألف في هذا الفن (التحبير في علوم التفسير) وذكر فيه مائة واثنين من أنواع علوم القرآن، ثم ألف كتابه (الإتقان في علوم القرآن) وذكر فيه ثمانين نوعا من علوم القرآن، وقال: كلٌّ نوع منها يَصْلُحُ أن يكون مفردا بالتصنيف، وقال: أدمجت بعض الأنواع في بعض، ولو نوَّعْتُ باعتبار ما أدمجته في ضمنها لزادت على الثلاثمائة. انتهى ملخصا من ديباجة الإتقان.

وفي (الإتقان) أيضا ما نصه: ذكر كثيرون في أثر أن الله جمع علوم الأولين والآخرين في الكتب الأربعة، وعلومها في القرآن، وعلومه في الفاتحة، فزادوا وعلوم الفاتحة في البسملة، وعلوم البسملة في بائها، وَوُجِّهَ بأن المقصود من كل العلوم وُصولُ العبد إلى الرب، وهذه الباء باء الإلصاق، فهي تلصق العبد بجناب الرب، وذلك كمال المقصود. ذكره الإمام الرازي وابن النقيب في تفسيرهما[١] .

قال ابن حجر الهيتمي في شرح قول البوصيري:

كم أبانت آياته من علوم ... عن حروف أبان عنها الهجاء

وقال الإمام الشافعي رضي الله عنه: جميع ما تقوله الأمة شرح للسنة، وجميع السنة شرح للقرآن، وقال أيضا: جميع ما حكم به النبي صلى الله عليه وسلم فهو مما فهمه من القرآن،

[١] الإتقان في علوم القرآن ج٢ص١٦٠.

وما ثبت ابتداء بالسنة فهو في الحقيقة مأخوذ منه؛ لأنه أوجب علينا اتباعه صلى الله عليه وسلم، ولهذا قال رضي الله عنه مرة بمكة: سلوني عما شئتم أخبركم عنه من كتاب الله تعالى، فامتحن بدقائق، فاستنبطها من القرآن، منها: لو قتل محرم زنبورا هل عليه جزاء؟ فاستنبط لهم منه أنه لا جزاء عليه؛ لأن عمر رضي الله عنه أمر بقتله، والنبي صلى الله عليه وسلم قال: اقتدوا باللَّذَيْنِ من بعدي أبي بكر وعمر والله تعالى يقول: {**وما آتاكم الرسول فخذوه**} الآية، وتبعه أعني الشافعي العلماءُ على ذلك، فقال واحد: ما قال صلى الله عليه وسلم شيئا أو حكم أوقضى بشيء إلا وهو أو أصله في القرآن، قرب أو بعد.

وقال آخر: ما من شيء في العالم إلا وهو فيه، فقيل له: فأين ذكر الخانات فيه؟ فقال: في قوله تعالى: {**ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة فيها متاع لكم**} في الخانات.

وقال آخر: ما من شيء إلا ويمكن استخراجه من القرآن لمن فهَّمه الله تعالى حتى إن عمره صلى الله عليه وسلم ثلاثا وستين سنة استنبط من آخر (سورة المنافقين) لأنـــها آخر رأس ثلاث وستين سورة وأعقبها بـــ(التغابن) لظهوره بفقده صلى الله عليه وسلم.

وقال آخر: لم يحط بالقرآن إلا المتكلم به تعالى، ثم نبيه صلى الله عليه وسلم فيما عدا ما استأثر الله تعالى بعلمه، ثم ورث عنه معظم ذلك أعلام الصحابة، مع تفاوتـــهم فيه بحسب تفاوت علومهم، كأبي بكر رضي الله عنه، فإنه أعلمهم بنص ابن عمر رضي الله عنهما وغيره، وكعلي رضي الله عنه؛ لقوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الحسن، خلافا لمن زعم وضعه: أنا مدينة العلم وعلي بابـــها(١) ومن ثم قال ابن عباس رضي الله عنهما:

---

[١] وفي الجامع الصغير: حديث: أنا مدينة العلم وعلي بابـــها، فمن أراد العلم فليأت الباب، رواه العقيلي وابن عدي والطبراني في الكبير، والحاكم عن ابن عباس، ورواه كما في الجامع الصغير ابن عدي والحاكم عن جابر، اهـــ .

وقال ابن حجر الهيتمي: حديث أنا مدينة العلم وعلي بابـــها، صححه الحاكم وحسنه الحافظان العلائي وابن حجر، وقول البخاري: – ليس له وجه صحيح، والترمذي: منكر، وابن معين: كذب– مُعْتَرَضٌ، وذكره ابن الجوزي في الموضوعات وتبعه الذهبي وغيره في ذلك الفتاوي الحديثية لابن حجر ص١٧٢و٢٦٩. وقال العلامة أبو الفضل عبدالله الصديق الغماري في الإعلام بأن التصوف من شريعة الإسلام: إنه صحيح، وفي هامشه نقلا عن تاريخ بغداد أن يحيى بن معين سئل هذا الحديث فقال: هو صحيح، وصححه السيوطي كما في فتح الملك العلي ص١١٦.

جميع ما أثرته لكم من التفسير فإنما هو عن علي رضي الله عنه وكابن عباس رضي الله عنهما، حتى إنه قال: لو ضاع عقال بعيري لوجدته في كتاب الله.

ثم ورث عنهم التابعون معظم ذلك، ثم تقاصرت الهمم عن حمل ما حمله أولئك من علومه وفنونه، فنوعوا علومه أنواعا؛ ليضبط كل طائفة علما وفنا، ويتوسعوا فيه بحسب مقدرتِهم، ثم أفرد غالب تلك العلوم وتلك الفنون التي كادت أن تخرج عن الحصر، وقد بين هذا القائل وجه الاستنباط غالبها منه بتآليف لا تحصى.

وقال آخر: علومه خمسون وأربعمائة علم، وسبعة آلاف علم، وسبعون ألف علم، على عدد كلم القرآن مضروبة في أربعة؛ إذ لكل كلمة ظهر وبطن، وحد ومطلع، ويضم لذلك اعتبار تركيب ما بينهما من روابط، لكن هذا لا يحصيه إلا المتكلم به تعالى.

وقال آخر: اشتمل القرآن على كل شيء، كما قال تعالى: {**ما فرطنا في الكتاب من شيء**} أما العلوم فلا تجد مسألة هي أصل إلا وفي القرآن ما يدل عليها، وفيه عجائب المخلوقات، وملكوت السموات والأرض، وما في الأفق الأعلى وتحت الثرى وبدء الخلق وأسماء مشاهير الأنبياء والملائكة، وعيون أخبار الأمم السابقة، وشأنه صلى الله عليه وسلم وغزواته، وأخباره إلى مماته صلى الله عليه وسلم ثم شأن أمته من بعده، وبدء خلق الإنسان إلى موته، وأمارات الساعة وجميع أحوال البرزخ والمحشر، والجنة والنار(١).

وأما الكتب المصنفة في تفسير القرآن الكريم فهي كثيرة جدا، منها المطول، ومنها المتوسط، ومنها المختصر، قال السيوطي رحمه الله تعالى في (الإتقان): فإن قلت: فأي التفاسير ترشد إليه وتأمر الناظر أن يعوِّل عليه؟ قلت: تفسير الإمام أبي جعفر بن جرير الطبري الذي أجمع العلماء المعتبرون على أنه لم يؤلف في التفسير مثله، قال النووي في تَهذيبه: كتاب ابن جرير في التفسير لم يصنِّفْ أحدٌ مثلَه اهـ.

وحديث أنا مدينة العلم وأبوبكر أساسها وعمر حيطانُها وعثمان سقفها وعلي بابُها، رواه صاحب مسند الفردوس وتبعه ابنه بالإسناد عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعا، وهو حديث ضعيف كحديث أنا مدينة العلم وعلي بابـــها ومعاوية حلقها فهو حديث ضعيف أيضا. الفتاوي الحديثية لابن حجر ص٢٦٩.

[١] المنح المكية شرح الهمزية ص٣٩٧-٣٩٨ .

....بَيَانٍ مَعَانٍ وَالبَدِيْعِ بِجُمْلَةِ

أي بادر إلى تعلم البلاغة التي هي المعاني والبيان والبديع بجملتها(١)، ولا تقتصر بواحدة أو اثنين منها، فإنـــها من أعظم آلات العلوم الشرعية، ولا تدرك دقائقها وما اشتملت عليه من الاعتبارات اللطيفة إلا بواسطة مراعاة هذا الفن، ولذلك كان الاشتغال به فرض كفاية، وقال السيوطي في شرحه على (عقود الجمان): لا شك أن علوم البلاغة الثلاثة هي من أعظم آلات الشرع، بل ذُكِرَ أن كمال الإيمان متوقف عليها لتوقف إدراك إعجاز القرآن على معرفتها(٢) اهـــ.

وقال الأخضري في (الجوهر المكنون):

هذا وإن دُرَرَ البيان وغُرَرَ البديع والمعاني

تـــهدي إلى موارد شريفه ونبذٍ بديعة لطيفة

من علم أسرار اللسان العربي ودرك ما خص به من عجب

لأنه كالروح للإعراب وهو لعلم النحو كاللباب

وواضع علمى المعاني والبيان: عبد القاهر الجرجاني على ما قيل. وواضع علم البديع: عبد الله بن المعتز.

وَقَافِيَةٍ مَعَ العَرُوْضِ وَمَنْطِقٍ...

في هذا الشطر الترغيب في فن العروض والقافية والمنطق.

فالعروض: هو ما يعرف به أحوال أوزان الشعر سالمة أو متغيرة. وواضعه: الخليل بن أحمد النحوي الفراهيدي. ومن فوائده: تمييز الشعر عن غيره، فيعرف به أن القرآن ليس بشعر.

والقافية: قيل: هي الحرف الأخير من البيت، وقيل: الكلمة الأخيرة منه، وقيل: هي مـــن الحرف المحرك قبل الساكنين آخر البيت، قال في الخزرجية:

وقافية البيت الأخيرة بل من الـــ ـــمحرَّكِ قبل الساكنين إلى انتهاء

وواضعه: مهلهل بن ربيعة خال امرئ القيس.

---

[١] فالمعاني هو علم يعرف به أحوال اللفظ العربي التي بـــها يطابق اللفظ مقتضى الحال. والبيان هو علم يعرف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة الوضوح والخفاء، فيكون بعضه أوضح في الدلالة وبعضه واضح. والبديع هو علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية المطابقة لمقتضى الحال، وبعد الخلوِّ عن التعقيد.

[٢] شرح عقود الجمان في علمى المعاني والبيان ص٨.

والمنطق: هو علم يعرف به الفكر الصحيح من الفاسد(١). وقال شيخ الإسلام زكريا الأنصاري في شرحه على (إيساغوجي): المنطق هو آلة قانونية تعصم مراعاتها الذهن عن الخطإ في الفكر.

وقد اختلفوا في حكم تعلمه فمنعه قوم وأباحه آخرون ورغبوا فيه، منهم الإمام الغزالي، فقد نقل عنه شيخ الإسلام زكريا الأنصاري أنه قال: من لا معرفة له بالمنطق لا ثقة بعلمه، وسماه معيار العلوم(٢). وفصله بعضهم: قال الأخضري في (السلم):

والخلف في جواز الاشتغال به على ثلاثة أقوال

فابن الصلاح والنووي حرما وقال قوم ينبغي أن يعلما

والقولة المشهورة الصحيحة جوازه لكامل القريحة (٣)

ممارس السنة والكتاب ليهتدي به إلى الصواب

وللسيوطي رسالة سماها: (القول المشرق في تحريم الاشتغال بالمنطق)، وأطال أيضا في الاستدلال على تحريمه في شرح عقود الجمان.

واعلم أن هذا الخلاف في المنطق المخلوط بضلالات الفلاسفة المكفرة وغيرها، وأما المنطق الخالي عن ذلك فلا خلاف في جواز الإشتغال به بل هو مطلوب؛ لأنه يتوقف عليه رد الشكوك في علم الكلام(٤) .

وقال ابن حجر الهيتمي في (الفتح المبين شرح الأربعين): وممن أثنى على المنطق الفخر الرازي والسيف الآمدي وابن الحاجب وشراح كتابه وغيرهم من الأئمة، وقول ابن الصلاح وغيرُه بتحريمه محمول على ما كان في زمنهما من المخلوط بالفلسفة (٥).

وموضوعه: المعلومات التصورية والتصديقية.

---

[١] حاشية الشيخ حسن العطار على شرح شيخ الإسلام زكريا الأنصاري على متن الإيساغوجي.

[٢] أي ميزانها التي تعرف بها الأفكار الصحيحة من الفاسدة. إيساغوجي ص٢٦.

[٣] يعني كامل العقل، والقريحة في الأصل أول مستنبط من الماء، ولكن المراد هنا العقل. حاشية الباجوري على السلم.

[٤] حاشية الباجوري على سلم المنورق، وكفاية الاتقياء للسيد بكر بن محمد شطا، وشرح الشيخ محمد نووي الجاوي على منظومة هداية الأذكياء.

[٥] الفتح المبين شرح الأربعين في شرح حديث: من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا ... الحديث.

...كَذَا لُغَةٌ طِبٌّ حِسَابٌ بِدِقَّةِ

وعلم اللغة هي الألفاظ الموضوعة لمعان التي يعبر بـــها كل قوم عن أغراضهم، ويُعْـــرَفُ بـــها أوضاعُ المفردات العربية.

فائدة: اعلم أن علوم العربية اثنا عشر علما، ويقال لها أيضا: علم الأدب، وهو اللغة والصرف وعلم الاشتقاق والمعاني والبيان والعروض والقافية، وقرض الشعر، وعلم الخط، وعلم إنشاء النثر من الرسائل والخطب، وعلم المحاضرات، ومنه التواريخ، وأما علم البديع فقد جعلوه ذيلا لعلمى البلاغة لا قسما برأسه، كذا يستفاد من شرح السيد الشريف على (المفتاح)(١) اهـــ.

ونظمها بعضهم من الطويل فقال:

صرف بيان معاني النحو قافية شعر (٢) عروض اشتقاق الخط إنشاء

إنشاء

محاضرات وثاني عشرها لغة تلك العلوم لها الأداب أسماء (٣)

وقال المليباري في هداية الأذكياء:

وعلوم آداب ثمانية لغه صرف ونحو والمعاني المفضلا

وكذا بيان والبديع وقافيه وكذا عروض فاطلبنها مُجْمَلا

وفروعها إنشاء نثر (٤) والنظامْ (٥) ومحاضرات والخطوط فأجملا

والنظامْ (٥)

وقال السيوطي في شرح (عقود الجمان): قال الأندلسي ورفيقه ابن جابر: علوم الأدب ستة اللغة والصرف والنحو والمعاني والبيان والبديع اهـــ .

---

[١] إرشاد الشافي حاشية الكافي في علمى العروض والقوافي ص١٧.

[٢] أي قرض الشعر.

[٣] كفاية الأتقياء ص٩٦.

[٤] وقوله: إنشاء نثر وهو الإتيان بكلام مسجع في الخطب والرسائل. اهـــ كفاية الأتقياء.

[٥] قوله: والنظام أي إنشاء النظام أي النظم وهو الإتيان بكلام مقفى موزون، وهذا العلم هو المعبر عنه بقرض الشعر. كفاية الأتقياء.

وفي هذا الشطر أيضا الترغيب في الطب وهو من فروض الكفايات، وفي (آداب الشافعي ومناقبه) للحافظ عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي: أن الإمام الشافعي قال: إنمـــا العلـــم علمان، علم الدين وعلم الدنيا، فالعلم الذي للدين هو الفقه، والعلم الذي للـــدنيا هـــو الطب.

وعن الشافعي أيضا قال: لا تسكنن بلدا لا يكون فيه عالم يفتيك عن دينك، ولا طبيـــب ينبئك عن أمر بدنك(١) اهـــ .

وفيه أيضا: الترغيب في تعلم الحساب بدقة، فإنه ضروري لطالب العلم بحيث يتوقف عليه فهم كثير من المسائل العلمية كالقلتين ومسئلة الرطل البغدادي والدمشقي في باب الزكاة والمرابحة والمحاطة، وفي مسائل كثيرة في باب الإقرار، والفرائض وغير ذلك مما هو معروف في أبواب الفقه، فيتأكد على الطالب أن يتعلم من الحساب ما يهتدي به إلى فهـــم هـــذه المسائل بلا مشقة وكلفة، وقد ظن بعض الناس أنه ليس للعلماء المتقدمين والمتـــأخرين أيّ معرفة وممارسة في علم الحساب، وهذا ظن خاطئ وَوَهَمٌ ظاهر، نشأ عن عـــدم المعرفـــة والجهل عن سِيَرِهم وأحوالهم، فقد كان يُدَرَّسُ علمُ الحساب في الحلقـــات والمســـاجد، ويستفتى العلماء عمّا أشكل منه، لكن تساهل كثير من المدرسين في هذه الأزمنة، وصعب على الطلبة فهم المسائل المتوقفة على معرفته، وهو من فروض الكفايات، قال الغـــزالي في الإحياء: إنه ضروري في المعاملات وقسمة الوصايا والمواريث اهـــ.

وإليك بعض ما أفتى به أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه من علم الحساب، قال السيوطي في (تاريخ الخلفاء): أُخْرِجَ عن زر بن حبيش قال: جلس رجلان يتغـــديان مع أحدهما خمسة أرغفة، ومع الآخر ثلاثة أرغفة، فلما وضعا الغداء بين أيديهما مر بِهما رجل، فسلّم، فقالا: اجلس وتغدّ، فجلس وأكل معهما واســـتووا في أكلـــهم الأرغفـــة الثمانية، فقام الرجل وطرح إليهما ثمانية دراهم، وقال: خذاها عوضا مما أكلت لكمـــا، ونلته من طعامكما، فتنازعا، فقال صاحب الخمسة الأرغفة: لي خمسة دراهم، ولك ثلاثة، وقال صاحب الأرغفة الثلاثة: لا أرضى إلا أن تكون الدراهم بيننا نصفين، فارتفعـــا إلى أمير المؤمنين علي، فقصا عليه قصتهما، فقال لصاحب الثلاثة: قد عرض عليك صـــاحبك

---

[١] آداب الشافعي ومناقبه للحافظ عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي ص٣٢١

ما عرض، وخبزه أكثر من خبزك، فارض بالثلاثة، فقال: والله لا رضيت عنه إلا بِمُرِّ الحق، فقال علي: ليس لك في مر الحق إلا درهم واحد، وله سبعة دراهم، فقال الرجل: سبحان الله! قال: هو ذلك، قال: فعرفني الوجه في مر الحق حتى أقبله، فقال علي: أليس للثمانية أرغفة أربعة وعشرون ثلثا أكلتموها وأنتم ثلاثة أنفس، ولا يعلم الأكثر منكم أكلا ولا الأقل؟ فتحملون في أكلكم على السواء، قال: فأكلت أنت ثمانية أثلاث، وإنما لك تسعة أثلاث، وأكل صاحبك ثمانية أثلاث، وله خمسة عشر ثلثا أكل منها ثمانية وبقي له سبعة أكلها صاحب الدراهم وأكل لك واحدة من تسعة، فلك واحد بواحدك، وله سبعة، فقال الرجل: رضيت الآن (١).

وكان علي رضي الله عنه يخطب على المنبر وكان أول خطبته: الحمد لله الذي يحكم بالحق قطعا، ويجزي كل نفس بما تسعى، وإليه المآب والرجعى، فسئل عن المسألة المشهورة بالمنبرية، فقال ارتجالا: صار ثمن المرأة تسعا، ومضى في خطبته، يعني أن هذه المرأة كانت تستحق الثمن فصارت تستحق التسع (٢).

وقال الإمام النووي في (مقدمة المجموع): ما ليس علما شرعيا ويحتاج إليه في قوام أمر الدنيا كالطب والحساب ففرض كفاية نص عليه الغزالي، واختلفوا في تعلم الصنائع التي هي سبب قيام مصالح الدنيا كالخياطة والفلاحة ونحوهما(٣)، واختلفوا أيضا في أصل فعلها، فقال إمام الحرمين والغزالي: ليست فرض كفاية، وقال الإمام أبو الحسن علي بن

[١] تاريخ الخلفاء ص١٣٤.

[٢] وهي ما إذا مات زوج وترك زوجته وهي حامل وأبويه، فللزوجة الثمن، وللأبوين السدسان، فتعول المسألة لاحتمال أن الحمل بنتان، فأصل المسئلة من أربعة وعشرين وتعول لسبعة وعشرين، فيدفع للزوجة منها ثلاثة-أي وهي تُسْعٌ-، وللأبوين ثمانية، ويوقف الباقي، وهو ستة عشر، فإن كان الحمل بنتين كان الباقي لهما . مغني المحتاج بشرح المنهاج، في باب الفرائض .

[٣] قال الغزالي في الإحياء في باب بيان العلم الذي هو فرض كفاية: إن أصول الصناعات من فروض الكفايات كالفلاحة والحياكة والسياسة بل الحجامة والخياطة؛ فإنه لو خلا البلد من الحجام تسارع الهلاك إليهم وحرجوا بتعريضهم أنفسهم للهلاك، فإن الذي أنزل الداء أنزل الدواء، وأرشد إلى استعماله، وأعد الأسباب لتعاطيه، فلا يجوز التعرض للهلاك بإهماله .

محمد بن علي الطبري المعروف بإلكيا الهراسي صاحب إمام الحرمين: هي فرض كفايـــة وهذا أظهر(١) .

١ مقدمة المجموع باب أقسام العلم الشرعي .

وَسِيْرَةُ خَيْرِ الخَلْقِ تُحْيِي القُلُوْبَ ...

أي معرفة سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكر محاسنه وفضائله وشمائله وأخلاقــه تحيى القلوب وتنشرح بــها الصدور، كيف وقد قيل: إن الرحمة تنـــزل عنــد ذكــر الصالحين، فما ظنك بسيد الكائنات وإمام المقربين صلى الله عليه وسلم.

والـــ ـــتَّصَوُّفُ يُصَفِّي القَلْبَ عَنْ كُلِّ ظُلْمَةٍ

قال الهيتمي في (الفتاوي الحديثية): اختلفت عبارة العارفين في حد التصوف على أكثر من ألف قول نظرا إلى شروطه وآدابه وغاياته وثمراته، فحده سيد الطائفة الجنيد رضي الله عنه بأن يكون مع الله بلا علاقة، وبأن يميتك الحق به ويحييك به، وبأنه ذكر مع اجتماع، ووجد مع استماع، وعمل مع اتباع، وأبومحفوظ معروف الكرخي: بأنه الأخذ بالحقائق، واليأس مما في أيدي الخلائق، وأبو محمد الحريري: بأنه التحلي بكل خلق حسن سني، والتخلي عن كل خلق دني،

وقال الجنيد رحمه الله: إنه كالأرض يطأها البر والفاجر، وكالسحاب يظل كل شيء، وكالسحاب يسقي كل شيء (١).

وسئل أيضا عن التصوف؟ فقال: استعمال كل خلق سني، وترك كل خلق دني(٢) .

وقال شيخ الإسلام زكريا الأنصاري: هو ترك الاختيار، ويقال: حفظ حواسك ومراعاة أنفاسك، ويقال: الجِد في السلوك إلى ملك الملوك(٣).

وفي (الموسوعة السياسية): التصوف ثورة ضمير ضد ظلم الإنسان لنفسه، وأيضا ضد ظلم الإنسان للإنسان. وفيه أيضا: وضعوا للتصوف مصطلحاته الخاصة التي تصون أسراره عن الذين لم يرتفعوا إلى مستواه(٤) اهـــ .

وفي (الموسوعة اليوسفية): التصوف ثورة على التكلف، ودعوة إلى التقشف، ثورة على الحقد، ودعوة إلى الحب، ثورة على الجاه، ودعوة إلى الله، ثورة على الجدل، ودعوة إلى

---

[١] الرسالة القشيرية، في باب التصوف.

[٢] طبقات الشافعية الكبرى لابن السبكي، ترجمة الجنيد البغدادي.

[٣] أحكام الدلالة على تحرير الرسالة لشيخ الإسلام أبي يحيى زكريا الأنصاري، باب التصوف.

[٤] موسوعة السياسية، مادة ص .

العمل، ثورة على الظلم، ودعوة إلى العلم، ثورة على الشر، ودعوة إلى البر، ثورة على الكذب، ودعوة إلى الصدق(١) اهـــ.

وحد الجنيد الصوفي : بأنه كالأرض يُطرح عليها كلُ قبيح، ولا يخرج منها إلا كل مليح.

وأبو محمد سهل بن عبد الله التستري: بأنه من صفا من الكدر، وانقطع إلى الله عن البشر، واستوى عنده الذهب والمدر (٢)اهـــ.

وقال الإمام النووي في (روضة الطالبين) في الوقف على الصوفية: حكي عن الشيخ أبي محمد أنه باطل، إذ ليس للتصوف حد يُعرَف، والصحيح المعروف صحته، وهم المشتغلون بالعبادة في أغلب الأوقات، المعرضون عن الدنيا، وفصله الغزالي في (الفتاوي) فقال: لا بد للصوفي من العدالة وترك الحرفة، ولا بأس بالوراقة والخياطة وشبههما إذا تعاطاها أحيانا في الرباط لا في الحانوت، ولا تقدح قدرته على الكسب ولا اشتغاله بالوعظ والتدريس، ولا أن يكون له من المال قدر لا تجب فيه الزكاة أو لا يفي دخله بخرجه، وتقدح الثروة الظاهرة والعروض الكثيرة، ولا بد أن يكون في زي القوم إلا أن يكون مساكنا، فتقوم المخالطة والمساكنة مقام الزي، قال: ولا يشترط لبس المرقعة من شيخ، وكذلك ذكر المتولي (٣) اهـــ.

وفي (الرسالة القشيرية) وشرحها: قال الأستاذ أبو علي الدقاق: أحسن ما قيل في هذا الباب قول من قال: هذا طريق لا يصلح إلا لأقوام قد كنس الله بأرواحهم المزابل.

وقال ذو النون المصري: بأنـــهم قوم آثروا الله على كل شيء فآثرهم على كل شيء.

وقال سلطان العلماء الإمام المجتهد عز الدين بن عبد السلام في (قواعد الأحكام في مصالح الأنام): قَدَّمَ الأولياءُ والأصفياء مصالح الآخرة على مصالح هذه الدار لمعرفتهم بتفاوت المصلحتين، ودرأوا مفاسد الآخرة بالتزام مفاسد بعض هذه الدار لمعرفتهم بتفاوت الرتبتين، وأما أصفياء الأصفياء فإنّهم عرفوا أن لذّات المعارف والأحوال أشرف اللذّات، فقدّموها على لذات الدارين، ولو عرف الناس كلهم من ذلك ما عرفوه لكانوا أمثالهم، فنصبوا ليستريحوا، واغتربوا ليقتربوا، فمنهم من تحضره المعارف بغير تكلف، فينشأ عنها

---

[١] الموسوعة اليوسفية ص٣٣.

[٢] الفتاوي الحديثية ص٢٨٠.

[٣] روضة الطالبين للإمام النووي في باب الوقف ج٥ص٣٢١.

الأحوال اللائقة بـــها بغير تصنع ولا تخلُّق، ومنهم من يستذكر المعارف لينشأ عنها أحوالها، وشتّان ما بين الفريقين، وقد يتكلف المحروم استحضار المعارف فلا تحضره، فسبحان من عرّف نفسه لهؤلاء من غير تعب ولا نصب، ولا استدلال ولا وصب، بل جاد عليهم وسقاهم خالص وبله، وصافِيَ فضله، فشغلهم به عما سواه، فلا همّ لهم سواه، ولا مؤنس لهم غيره، ولا معتمد لهم إلا عليه؛ لعلمهم أنه لا ملجأ لهم إلا إليه، فرضوا بقضائه، وصبروا على بلائه، وشكروا لنعمائه، يتسع عليهم ما يضيق على الناس، ويضيق عليهم ما يتسع للناس، أدبُهم القرآن، ومعلمهم الرحمن، وجليسهم الديان، وسرابيلهم الإذعان، قد انقطعوا عن الإخوان، وتغربوا عن الأوطان، بكاؤهم طويل، وفرحهم قليل، يرِدون كل حين موردا لم يتوهموه، وينـــزلون منـــزلا لم يفهموه، ويشاهدون ما لم يعرفوه، لا يعرف منازلهم عارف، ولا يصف أحوالهم واصف، إلا مَن نازلها ولابسها، قد اتصفوا بأخلاق القرآن، على حسب الإمكان، وتلك الأخلاق موجبة برضا الرحمن، وسكنى الجنان، في الرغد والأمان، مع النظر إلى الدّيّان(١).

وقال الشيخ زكريا الأنصاري في شرح الرسالة القشيرية: قال رجل لأبي يزيد البسطامي: دلني على عمل أتقرب به إلى ربي، فقال: أحبب أولياء الله ليحبوك، فإن الله تعالى ينظر إلى قلوب أوليائه، فلعله ينظر إلى اسمك في قلب وليه فيغفر لك(٢).

وفي (الفتاوي الحديثية) للهيتمي قال شاه بن شجاع الكرماني: ما تعبد متعبد بأكثر من التحبب إلى أولياء الله؛ لأن محبتهم دليل على محبة الله عز وجل (٣)اهـــ .

وفي (تبيين كذب المفتري) للحافظ ابن عساكر أن إمام الحرمين كان من رقة القلب بحيث يبكي إذا سمع بيتا أو فكر في نفسه ساعة، وإذا شرع في حكاية الأحوال وخاض في علوم

---

[١] قواعد الأحكام في مصالح الأنام ج١ ص١٠-١١

[٢] أحكام الدلالة على تحرير الرسالة لزكريا الأنصاري.

[٣] الفتاوي الحديثية ص٢٨٤.

الصوفية في مجالسه أبكي الحاضرين ببكائه، وقطر الدماء من الجفون بزعقاته ونعراته(١) ونعراته(١) وإشاراته؛ لاحتراقه في نفسه وتحققه بما يجري من دقائق الأسرار (٢).

تنبيه في حكم معرفة علم القلوب أي التصوف

قال النووي في (مقدمة المجموع): في أقسام العلم الشرعي: أما علم القلب وهو معرفة أمراض القلب كالحسد والعجب وشبههما فقال الغزالي: معرفة حدودها وأسبابها وطبها وعلاجها فرض عين، وقال غيره: إن رُزق المكلف قلبا سليما من هذه الأمراض المحرمة كفاه ذلك ولا يلزمه تعلم دوائها، وإن لم يسلم نظر، إن تمكن من تطهير قلبه من ذلك بلا تعلم لزمه التطهير كما يلزمه ترك الزنا ونحوه من غير تعلُّم أدلة الترك، وإن لم يتمكن من الترك إلا بتعلم العلم المذكور تعين حينئذ والله أعلم(٣) .

وقال في شرح أربعينه في شرح حديث "إن الحلال بَيِّن وإن الحرام بَيِّن": أمراض القلوب كثيرة تبلغ نحو الأربعين عافانا الله منها، وجعلنا ممن يأتيه بقلب سليم اهـ.

أولوية الجمع بين الفقه والتصوف

وينبغي لطالب العلم أن يجمع بين الفقه والتصوف فقد نسب إلى الإمام الشافعي رحمه الله تعالى قوله:

فقيها وصوفيا فكن ليس واحدا فإني وحق الله إياك أنصح
فذلك قاس لم يذق قلبه تقى وهذا جهول كيف ذو الجهل يصلح (٤)

وقال الهيتمي في (الفتاوي الحديثية): من الصوفية الخمسةُ الذين أُجْمِع على الاقتداء بهم لجمعهم بين علمي الظاهر والباطن، وهم أبو عبد الله الحرث بن أسد المحاسبي، وأبو القاسم الجنيد، وأبو محمد رُوَيْم، وأبو عبد الله عمرو بن عثمان المكي، وأبو العباس بن عطاء، وكانوا مجتمعين في عصر واحد(٥).

[١] والزعقة الصيحة، والزعاق كشدّاد من يطرد الدواب ويصيح في آثارها، وزعقة المؤذن صوته . قوله نعراته في القاموس وشرحه نَعَرَ الرجل نعيرا ونُعَارًا صاح وصوَّتَ بخيشومه .

[٢] تبيين كذب المفتري لابن عساكر ص٢٧٨-٢٨٥.

[٣] مقدمة المجموع، ص٦٥.

[٤] ديوان الشافعي

[٥] الفتاوي الحديثية للهيتمي ص٢٧٣.

ومن محدثي الصوفية وحفاظها وفقهائها قدس الله أسرارهم الفضيل بن عياض شيخ الإمام الشافعي، والحافظ محمد بن عيسى بن محمد بن عبد الرحمن بن عمرويه أبو أحمد الجلودي(١)، راوى صحيح مسلم عن إبراهيم بن محمد والحافظ أبو عبد الرحمن السلمي، والحافظ أبو نعيم الأصبهاني صاحب حلية الأولياء، والإمام حجة الإسلام أبو حامد الغزالي، وأبو سهل الصعلوكي، ومحمد بن خفيف، والأستاذ أبو القاسم القشيري، وابن العربي، والجيلاني، والحافظ أبو سعد أحمد بن محمد بن أحمد الماليني، والحافظ أبو علي حسن بن محمد بن محمد التميمي البكري، والحافظ عبد الله بن محمد بن علي أبو إسماعيل الأنصاري، والحافظ عبد العزيز بن أحمد بن محمد أبو محمد الكتاني، والحافظ عطية بن سعيد الأندلسي، والحافظ محمد بن داود بن سليمان أبوبكر النيسابوري، والحافظ محمد ابن محمد بن محمد البكري أبو الفتح، والحافظ كيلجة محمد بن صالح أبوبكر الأنماطي، والحافظ هبة الله بن عبد الوارث بن علي، والحافظ يوسف بن أحمد الشيرازي، والمحدث سهل بن بشر، وخلائق آخرون.

---

[١] قال في القاموس: إنه بضم الجيم لا غير، ووَهِمَ الجوهري في قوله: ولا تقل الجُلُودي أي بالضم اهـــ . وقال الإمام النووي في مقدمة شرح صحيح مسلم: الجلودي بضم الجيم بلا خلاف، قال الإمام أبو سعيد السمعاني: هو منسوب إلى الجلود المعروفة جمع جلد، وقال ابن الصلاح رحمه الله: عندي إنه منسوب إلى سكة الجلود بنيسابور. وقال النووي: قال الحاكم أبوعبد الله: كان أبو أحمد الجلودي شيخا صالحا زاهدا من كبار عباد الصوفية، صحب أكابر المشايخ من أهل الحقائق، وسمع أبا بكر بن خزيمة ومن كان قبله، توفي سنة ثمان وستين وثلاثمائة، وهو ابن ثمانين سنة، قال الحاكم: وختم لوفاته سماع صحيح مسلم، وكل من حدث به بعده عن إبراهيم بن محمد بن سفيان وغيره فليس بثقة والله أعلم. انتهى. قلت: ومن العجب الغريب أن بعض الجهال المعاصرين يُبَدِّعُون الصوفية وبعضهم يفسقونـــهم بل بعض غلاتـــهم يكفرونـــهم وينسبون إليهم كل سوء، ثم إنـــهم يروون صحيح مسلم من طريق هذا الصوفي الإمام الجلودي، ويستدلون بأحاديثه، وهم لا يتفطنون لتناقضهم العجيب وتخبطهم الغريب، فقد رموه بأسوء الجرح وأقبحه مرة، واعترفوا بفضله وعدالته والثقة به مرة أخرى فرووا عنه صحيح مسلم، وليس هذا خاصا بالإمام الجلودي وحده، بل هو عام في كل محدث وحافظ صوفي، فإنَّهم يروون عنهم ويدرسون كتبهم، وترى في أسانيدهم كثيرا من حفاظ الصوفية وأئمتهم ممن ذكرناهم في هذا الشرح أو من غيرهم، ومع هذا ينكرون عليهم ويطعنون فيهم ويرمونـــهم بكل سوء، وما ذاك إلا لبغض كامن في قلوبـــهم وحسد راسخ في نفوسهم لأولياء الله تعالى، ألا فليتنبهوا من غفلتهم وليستيقظوا من غيبوبتهم ولينتهوا من الاستدلال بأحاديث من حكموا عليه بالجرح والفسق، وليتقوا الله وليحذروا من محاربته، فقد قال جل شأنه في الحديث القدسي: من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب، رواه البخاري. ونسأل الله السلامة والعفو والعافية.

احترام علماء علم الظاهر للصوفية

اعلم أنه ما زال علماء السلف والخلف من المفسرين والمحدثين والفقهاء والأصوليين وغيرهم يحترمون الصوفية ويثنون عليهم ويدافعون عنهم الطاعنين، ويعملون بإشاراتِهم، ويعظمونـــهم، ويهابون منهم، ويتبركون بـــهم، ويطلبون منهم الدعاء، فقد ذكر الغزالي في الإحياء أن الإمام الشافعي كان يجلس بين يدى شيبان الراعي كما يقعد الصبي في المكتب، ويسأله كيف يفعل كذا وكذا، فيقال له: مثلك يسأل هذا البدوي؟ فيقول: إن هذا وفق لما أغفلناه، وكان الإمام أحمد ويحيى بن معين يختلفان إلى معروف الكرخي، ولم يكن في علم الظاهر بمنـــزلتهما، وكانا يسألانه، ثم قال الغزالي: وكيف وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قيل له: كيف نفعل إذا جاءنا أمر لم نجده في كتاب ولا سنة؟ فقال صلى الله عليه وسلم: سلوا الصالحين واجعلوه شورى بينهم(١).

وقال الخطيب في (تاريخ بغداد) والذهبي في (سير أعلام النبلاء): ذكر معروف الكرخـــي عند الإمام أحمد فقيل: قصير العلم ، فقال: أمسك، وهل يراد من العلم إلا ما وصل إليـــه معروف.

وقال الزبيدي في (شرح الإحياء) نقلا عن صاحب (قوت القلوب): إن عبد الله بن أحمد بن حنبل قال: قلت لأبي: بلغني أنك تختلف إلى معروف أكان عنده حديث؟ فقال: يا بني عنده رأس الأمر تقوى الله عز وجل اهـــ. ومثله في (تاريخ بغداد) للخطيب(٢) .

وقال سفيان بن عيينة شيخ الإمام الشافعي: لا يزال أهل بغداد بخير ما بقي فيهم أبو محفوظ معروف الكرخي.

وفي (صفة الصفوة) قال جعفر بن محمد: اعتلّ بشر بن الحارث فعادته آمنة الرملية –من الرملة– ودخل أحمد بن حنبل يعوده، فقال: من هذه؟ فقال: هذه آمنة الرملية، بلغتها علتي فجاءت من "الرملة" تعودني، قال: فسلها تدعو لنا، فقالت: اللهم إن بشر بن الحارث وأحمد بن حنبل يستجيرانك من النار فأجرهما، قال أحمد: فانصرفت، فلما كان من الليل طُرحت إليّ رقعة مكتوب فيها بسم الله الرحمن الرحيم قد فعلنا ولدينا مزيد(٣) اهـــ .

---

[١] إحياء علوم الدين في مبحث العلم المحمود والمذموم من كتاب العلم.

[٢] إقناع المؤمنين بتبرك الصالحين ص٢١١.

[٣] إقناع المؤمنين بتبرك الصالحين ص٣٥١.

وكان الإمام المجتهد تقي الدين علي بن عبد الكافي السبكي كثير التعظيم للصوفية والمحبة لهم، ويقول: طريق الصوفي إذا صحت هي طريقة الرشاد التي كان السلف الصالح عليها(١) اهـ.

وكان الإمام أبو إسحاق الشيرازي سافر مرة إلى بلاد العجم، فلما وصل إليها خرج إليه أهلها بنسائهم وأولادهم، فيمسحون أردانه ويأخذون تراب نعليه، وخرج إليه صوفيات البلد، وما فيهن إلا ومعها سبحة، وألقين الجميع إلى المحفة، وكان قصدهن أن يلمسها ليحصل لهن البركة، فجعل يمرها على يديه وجسده، ويتبرك بهن ويقصد في حقهن ما قصدن في حقه. وكان يحترم الصوفي المعروف بالسهلكي احتراما عظيما(٢) اهـ .

وكان الإمام النووي يحترمهم احتراما بالغا .

وممن أثنى عليهم العلامة الإمام المجتهد عز الدين بن عبد السلام، وتاج الدين السبكي، ووالده تقي الدين السبكي، وابن حجر الهيتمي، وخلائق غيرهم.

وقال ابن السبكي في (معيد النعم ومبيد النقم): الصوفية حياهم الله وبياهم(٣)، وجمعنا نحن وإياهم في الجنة هم أهل الله وخاصته، الذين ترتجى الرحمة بذكرهم، ويستنزل الغيث بدعائهم، فرضي الله عنهم وعنا بهم، وللقوم أوصاف وأخبار اشتملت عليها كتبهم، قال الأستاذ أبو القاسم القشيري رحمه الله: جعل الله هذه الطائفة صفوة أوليائه، وفضلهم على الكافة من عباده بعد رسله وأنبيائه صلوات الله عليهم وسلامه، جعل الله قلوبهم معادن أسراره، واختصهم من بين الأمة بطوالع أنواره، فهم الغياث للخلق، والدائرون في عموم أحوالهم مع الحق.

---

[١] طبقات الشافعية الكبرى لابن السبكي .

[٢] وتتمة كلام ابن السبكي: ولما بلغ "بِسْطَام " قيل للشيخ: قد أتى فلان الصوفي فنهض الشيخ من مكانه، وإذا به شيخ كبير هِمٌّ وهو راكب بهيمة وخلفه خلق من الصوفية بمرقعات جميلة، فقيل له: قد أتاك الشيخ أبو إسحاق الشيرازي فرمى نفسه عن البهيمة وقبّل يده، وقبّل الشيخ أبو إسحاق رجله وقال له الصوفي: قتلتني يا سيدي فما يمكنني أمشي معك ولكن تتقدم إلى مجلسك. ولما وصل جلس الشيخ أبو إسحاق بين يديه وأظهر كل واحد منهما من تعظيم صاحبه ما جاوز الحد، ثم أخرج الصوفي خرجين، في إحداهما حنطة وقال: هذه الحنطة نتوارثها عن أبي يزيد البِسْطامي، وفي الأخرى ملح، فأعجب الشيخ أبا إسحاق ذلك وودعه وانصرف. وهذا الشيخ الصوفي الذي قصد الشيخ أبا إسحاق يعرف بالسهلكي اهـ .

[٣] قوله: بياهم، قال في القاموس: بياك الله قَرَّبَكَ .

ومن أوصاف هذه الطائفة الرأفة والرحمة والعفو، والصفح، وعدم المؤاخذة، وطريقهم كما قال شيخ الطائفة أبو القاسم الجنيد رحمه الله: طريقنا هذا مضبوط بالكتاب والسنة، وقال: الطريق مسدود على خلق الله تعالى، إلا على المقتفين آثار رسول الله صلى الله عليه وسلم(١).

وقال إمام الصوفية سهل بن عبد الله التستري: مذهبنا مبنى على ثلاثة أصول، الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم في الأخلاق والأفعال والأكل من الحلال وإخلاص النية في جميع الأعمال(٢).

وتبرك بـــهم الباز الأشهب أحمد بن عمر بن سريج، فقد قال ابن السبكي: تكلم ابن سريج يوما فأعجب بعض الحاضرين، فقال ابن سريج: هذا ببركة مجالستي لأبي القاسم الجنيد رحمه الله(٣).

وتبرك بـــهم الخطيب البغدادي، فقد أوصى أن يدفن بجنب قبر بشر بن الحرث الحافي.

وقال الحافظ الجلال السيوطي في (تأييد الحقيقة العلية) قال ابن السبكي في طبقاته عن ابن السمعاني أنه روى بسنده أن أبا القاسم القشيري حج سنة من السنين وقد حج في تلك السنة أربعمائة نفس من قضاة المسلمين وأئمتهم من أقطار البلاد وأقاصي الأرض فأرادوا أن يتكلم واحد منهم في حرم الله فاتفق الكل على الأستاذ أبي القاسم فتكلم هو باتفاق منهم وكان ولده أبو نصر عبد الرحيم أيضا يحضر عنده الأئمة.

ثم قال ابن السبكي وأعظم ما عظم به أبونصر أن إمام الحرمين وهو عصريه نقل عنه في كتاب الوصية من النهاية، وهذا فخار لا يعدله شيء. قلت: ونقل عنه الرافعي والنووي في الروضة.

وكان الشيخ أبو الحسن الشاذلي يحضر عنده الأئمة مثل سلطان العلماء الشيخ عز الدين ابن عبد السلام والشيخ تقي الدين بن دقيق العيد.

---

[١] معيد النعم ومبيد النقم ص١١٩-١٢١.

[٢] الاعتصام ص٥٠٨.

[٣] طبقات الشافعية الكبرى لابن السبكي، وذكره أيضا ابن شهبة في طبقات الشافعية، وابن خلكان في وفيات الأعيان.

وقال الشيخ تاج الدين بن عطاء الله في (لطائف المنن): سمعت الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد يقول: ما رأيت أعرف بالله من الشيخ أبي الحسن الشاذلي، قال: وأخبرني مكين الدين الأسمر قال: حضرت بالمنصورة في خيمة فيها الشيخ عز الدين بن عبد السلام والشيخ مجد الدين علي بن وهب القشيري والشيخ محيي الدين الأخميمي والشيخ أبو الحسن الشاذلي، ورسالة القشيري تقرأ عليهم وهم يتكلمون، والشيخ أبو الحسن صامت إلى أن فرغ كلامهم، فقالوا: ياسيدي نريد أن نسمع كلامك، فقال: أنتم سادات الوقت وكبراؤه وقد تكلمتم، فقالوا لا بد أن نسمع منك، فسكت الشيخ ساعة، ثم تكلم بالأسرار العجيبة والعلوم الجلية، فقال الشيخ عز الدين وقد خرج من صدر الخيمة وفارق موضعه: اسمعوا هذا الكلام الغريب القريب العهد من الله.

وكان الشيخ أبو العباس تلميذ الشيخ أبي الحسن الشاذلي يحضر مجلسه الأئمة. وكان الشيخ تاج الدين بن عطاء الله يحضر مجلس وعظه الأئمة مثل الشيخ تقي الدين السبكي إمام وقته تفسيرا وحديثا وفقها وكلاما وأصولا ومنقولا ومعقولا بل المجتهد الذي لم يأت بعده مثله ولا قبله من دهر طويل، وقد ذكر السبكي في بعض كتبه أخذه عن الشيخ تاج الدين وحضوره مجلسه، ونقل عنه بعض كلامه، وقال: إنه متكلم الصوفية على طريق الشاذلية. وفي (المعجم المخرج) للسبكي أنه قرأ عليه كتابه (الحكم).

ثم قال السيوطي: ولو كان في طريق الشاذلية أدنى عوج لم يثن عليها السبكي ولا ولده ولا أئمة عصره ومن قاربــهم (١) اهـ .

تَوَارِيْخُ أَهْلِ العِلْمِ وَالعَقْلِ وَالتُّقَىْ بِـــهَا الإِدِّكَارُ وَاتّعَاظٌ بِعِبْرَةِ

أي في معرفة تواريخ العلماء والعقلاء والأتقياء وسيرهم وقصصهم ومحاسنهم الاتعاظ بـــهم والاعتبار بـــها والتخلق بأخلاقهم والأسوة والاهتداء بِهديهم، قال الله تعالى: {**لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب**} وقد ألفت في التواريخ والتراجم تأليف كثيرة واعتنى بذلك أئمة من العلماء(٢) .

---

[١] تأييد الحقيقة العلية وتشييد الطريقة الشاذلية للحافظ السيوطي ص٥٨-٦٠.

[٢] ومن أحسن ما ألف في هذا الباب "طبقات ابن سعد، وحلية الأولياء وطبقات الأصفياء" لأبي نعيم الإصبهاني، ومختصره "صفة الصفوة" للحافظ ابن الجوزي، و"تاريخ بغداد" للإمام الخطيب البغدادي، و"تاريخ دمشق الكبير" الذي بلغت أجزاءه ٨٠٠، والجزء كما قال الذهبي ٢٠ ورقة، فيكون ستة عشر ألف ورقة، للإمام حافظ الدينا ابن

الحث على تعلم طرف من كل فن من الفنون المحمودة

واعلم أن فنون العلم المحمود وأنواعه كثيرة، وما ذكرته هو المهم الذي لا ينبغي لطالب العلم أن يجهل عنه، وبقي من العلوم المحمودة فنون أخرى.

والعلوم منقسمة إلى محمودة وقد ذكرنا أقساما منها، وإلى مذمومة، وهي منقسمة إلى محرمة كالسحر، وإلى مكروهة، والعلوم كثيرة لا يبلغ أحد قعرها، ولا مطمع في حصرها، فالذي ينبغي لطالب العلم أن يتعلم من مهمات الفنون طرفا يهتدي به إلى باقيه، ولا يستغرق عمره في التعمق والتبحر في فن واحد منها، فإن العمر قصير والعلوم المهمة كثيرة، فينبغي الاقتصار على ما لا بد منه وعدم الاستقصاء في فن أو فنين مع الجهل عن الفنون الأخرى، فإن العلوم مترابطة يستعان كل نوع منها على الأنواع الأخرى، ويُهْتَدَي ببعضها إلى بعض، وقد أجاد القائل:

لن يبلغ العلم جميعا أحد لا ولو حاوله ألف سنة
إنما العلم عميق بحره فخذوا من كل شيء أحسنه (١)

وقال آخر :

اجهد على كل علم تستريح به ولا تعيش بعلم واحد كسلا
النحل لما جنى من كل فاكهة حوى لنا الجوهرين الشمع والعسلا
فالشمع نور عظيم يستضاء به والشهد يبري لنا الأسقام والعللا (٢)

وفي (جامع بيان العلم): قيل: من أراد أن يكون حافظا نظر في فن واحد من العلم، ومن أراد أن يكون عالما أخذ من كل علم بنصيب.

وقال يحيى بن خالد بن برمك لابنه: يا بني خذ من كل علم بحظ وافر، فإن لم تفعل جهلت، وإن جهلت شيئا من العلم عاديته، وعزيز عليّ أن تعادي شيئا من العلم.

وقال بعضهم:

= عساكر، و"حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة" للحافظ السيوطي، و"البداية والنهاية" للحافظ ابن كثير. وللذهبي تآليف في التواريخ والسير منها تاريخه الكبير و"سير أعلام النبلاء" و"العبر في خبر من غبر" والكتب المؤلفة في طبقات المذاهب والنحاة والمفسرين والمحدثين والصوفية كثيرة جدا.

[١] كفاية الأتقياء ص٩٦.

[٢] وفي نسخة: والشهد فيه شفاء يبرئ العللا. كفاية الأتقياء ص٩٤.

فلا تَلُمهم على إنكار ما نكروا   فإنما خلقوا أعداء ما جهلوا(١)

وقال الإمام الغزالي في (الإحياء): ما من علم إلا وله اقتصار واقتصاد واستقصاء، وأشير إلى ذلك في التفسير والحديث والفقه والكلام لتقيس بها غيرها، فالاقتصار في التفسير ما يبلغ ضعف القرآن في المقدار كما صنفه الواحدي النيسابوري وهو الوجيز، والاقتصاد ما يبلغ ثلاثة أضعاف القرآن كما صنفه من الوسيط فيه، وما رواء ذلك استقصاء مستغنى عنه، وأما الحديث فالاقتصار فيه تحصيل ما في الصحيحين بتصحيح نسخة على رجل خبير بعلم متن الحديث، وأما حفظ أسامى الرجال فقد كُفِيت فيه بما تحمله عنك مَنْ قبلك ولك أن تُعوِّلَ على كتبهم، وليس يلزمك حفظ متون الصحيحين ولكن تحصله تحصيلا تقدر منه على طلب ما تحتاج إليه عند الحاجة، وأما الاقتصاد فيه فأن تضيف إليهما ما خرج عنهما مما ورد في المسندات الصحيحة، وأما الاستقصاء فما وراء ذلك إلى استيعاب كل ما نقل من الضعيف والقوي، والصحيح والسقيم مع معرفة الطرق الكثيرة في النقل، ومعرفة أحوال الرجال وأسمائهم وأوصافهم.

وأما الفقه فالاقتصار فيه على ما يحويه مختصر المزني رحمه الله، وهو الذي رتبناه في خلاصة المختصر، والاقتصاد فيه ما يبلغ ثلاثة أمثاله وهو القدر الذي أوردناه في الوسيط من المذهب، والاستقصاء ما أوردناه في البسيط إلى ما وراء ذلك من المطولات.

وأما الكلام فمقصوده حماية المعتقدات التي نقلها أهل السنة من السلف الصالح لا غير، والاقتصار فيه القدر الذي أوردناه في كتاب قواعد العقائد، والاقتصاد فيه ما يبلغ قدر مائة ورقة وهو الذي أوردناه في كتاب (الاقتصاد في الاعتقاد) ويُحتاج إليه لمناظرة مبتدع ومعارضة بدعته بما يفسدها وينزعها عن قلب العامي، وذلك لا ينفع إلا مع العوام قبل اشتداد تعصبهم، وأما المبتدع بعد أن يعلم من الجدل ولو شيئا يسيرا فقلما ينفع معه الكلام، فإنك إن أفحمته لم يترك مذهبه وأحال بالقصور على نفسه، وقدَّر أنّ عند غيره جوابا ما وهو عاجز عنه، وأما العامي إذا صرف عن الحق بنوع جدل يمكن أن يرد إليه قبل أن يشتد التعصب للأهواء، فإذا اشتد تعصبه وقع الياس منهم، إذ التعصب يُرْسِخُ العقائد في النفوس وهو من آفات علماء السوء، فإنّهم يبالغون في التعصب وينظرون إلى

(١) جامع بيان العلم ج١ص١٥٨.

المخالفين بعين الازدراء والاستحقار، وتتوافر بواعثهم على طلب نصرة الباطل، ويتخذون التعصب عادتهم وآلتهم وسموه ذبا عن الدين ونضالا عن المسلمين، وفيه على التحقيق هلاك الخلق ورسوخ البدعة في النفوس انتهى ما نقلته من الإحياء بحذف(١).

التعلم في زمن الشباب والفراغ والصحة

وَمِنْ أَوَّلِ التَمْيِيْزِ فَابْدَأ تَعَلُّمَ الـ ـعُلُوْمِ وَلاْ تَتْرُكْ إلَىْ يَوْمِ نُقْلَةِ (٢)

أي ابدأ تعلم العلم من أول التمييز إلى الموت، فقد قيل: تعلم العلم من المهد إلى اللحد.

وقال موسى بن إسماعيل التبوذكي: لو قلت لكم: إني ما رأيت حماد بن سلمة ضاحكا لصدقت، كان مشغولا، إما أن يحدث، أو يقرأ، أو يسبح، أو يصلي، وقد قسم النهار على ذلك . وقال يونس المؤدب: مات حماد بن سلمة وهو في الصلاة، رحمة الله عليه .

وكان الخليل بن أحمد الفراهيدي البصري أحد أذكياء العالم رحمه الله تعالى يقول: أثقل الساعات عليّ ساعة آكل فيها(٣).

وقال عمارة بن رجاء: سمعت عبيد بن يعيش يقول: أقمت ثلاثين سنة ما أكلت بيدي بالليل، كانت أختي تلقمني وأنا أكتب الحديث(٤) .

وقال أبو هلال العسكري في كتابه الحث على طلب العلم والجهاد: كان أبوبكر بن الخياط النحوي الإمام محمد بن منصور السمرقندي، المتوفى سنة ٣٢٠، رحمه الله تعالى يدرس جميع أوقاته حتى في الطريق، وكان ربما سقط في جرف أو خبطته دابة(٥) .

وقال أحمد بن مردويه: كان أبونعيم في وقته مَرْحُوْلاً إليه، لم يكن في أفق من الأفاق أحد أحفظ منه، ولا أسند منه، كان حفاظ الدنيا قد اجتمعوا عنده، وكل يوم نوبة واحد

---

[١] إحياء علوم الدين في مبحث القدر المحمود من العلوم المحمودة من كتاب العلم.

[٢] أي لا تنقطع وقتا من أوقاتك عن طلب العلم حتى لحظة مفارقتك لهذه الدنيا، (فإلى) هنا على خلاف القاعدة من إفادتها عدم دخول الغاية في المغيا، كما قال الأجهوري: وفي دخول الغاية الأصح لا تدخل مع إلى وحتى دخلا، فلا يدع الطالب طلب العلم حتى في يوم انتقاله إلى الآخرة.

[٣] قيمة الزمن ص٢٨ .

[٤] قيمة الزمن ص٣٢ .

[٥] قيمة الزمن ص٤٥-٤٦ .

منهم، يقرأ ما يريد إلى قريب الظهر، فإذا قام إلى داره ربما يقرأ عليه في الطريق جزء، وكان لا يضجر، لم يكن له غذاء سوى التسميع والتصنيف(١).

وقال تاج الدين السبكي: كان سليم الرازي رحمه الله من الورع على جانب قوي، يحاسب نفسه على الأوقات، لا يدع وقتا يمضي بغير فائدة، إما ينسخ أو يدرس أو يقرأ وينسخ شيئا كثيرا (٢).

وقال السيوطي في (منهاج السوي) قال النووي رحمه الله تعالى: بقيت نحو سنتين لم أضع جنبي على الأرض. قال: فحفظت التنبيه في أربعة أشهر ونصف، وحفظت ربع المهذب في باقي السنة.

كان– أي النووي– أول طلبه يقرأ كل يوم اثني عشر درسا على المشايخ شرحا وتصحيحا درسين في الوسيط وثالثا في المهذب ودرسا في الجمع بين الصحيحين وخامسا في صحيح مسلم ودرسا في اللمع لابن جني في النحو ودرسا في إصلاح المنطق لابن السكيت في اللغة ودرسا في التصريف ودرسا في أصول الفقه تارة في اللمع لأبي إسحاق وتارة في المنتخب للفخر الرازي ودرسا في أسماء الرجال ودرسا في أصول الدين وهو التوحيد (٣)

قال: وكنت أُعلِّق جميع ما يتعلق بـــها من شرح مشكل، وإيضاح عبارة، وضبط لغة، قال: وبارك الله لى في وقتي واشتغالي وأعانني عليه.

وكان لا يأكل في اليوم والليلة إلا أكلة واحدة بعد العشاء، ولا يشرب إلا شربة واحدة عند السحر، ولا يشرب المبرّد أي الملقى فيه الثلج، ولم يتزوج.

قال ابن عطار: رأيت رجلا من أصحابه قشّر خيارة ليطعمه إياها، فامتنع من أكلها، وقال: أخشى أن ترطّب وتجلب النوم(٤) اهـــ.

وقال أبوغدة: ترك النووي من المؤلفات الكثيرة العظيمة ما قسموه على أيام حياته، فكان لكل يوم فيها أربعة كراريس (٥).

---

[١] قيمة الزمن ص٤٨.

[٢] قيمة الزمن ص٥٠.

[٣] الإمام النووي لعبد الغني الدقر ص، ٣٥

[٤] المنهاج السوي في ترجمة الإمام النووي.

[٥] قيمة الزمن ص٧٢-٧٣ .

وكان من العلماء طائفة يتعلمون العلم في العسر واليسر، والصحة والمرض حتى في مرض الموت، روى المعافي بن زكريا عن بعض الثقات أنه كان بحضرة أبي جعفر الطبري رحمه الله تعالى قبل موته، وتوفي بعد ساعة أو أقل منها، فذكر له دعاء عن جعفر بن محمد، فاستدعى محبرة وصحيفة فكتبه، فقيل له: أفي هذه الحال؟! فقال: ينبغي للإنسان أن لا يدع اقتباس العلم حتى الممات(١).

وحدث الفقيه أبو الحسن علي بن عيسى الوَلْوَاْلِجِيُّ، قال: دخلت على أبي الريحان وهو يجود بنفسه، قد حشرج(٢) نَفَسَهُ، وضاق به صدره، وقد بلغ من العمر ٧٨ سنة، فقال لي في تلك الحال: كيف قلت لي يوما: حساب الجدات الفاسدة–وهي التي تكون من قبل الأم–؟ فقلت مشفقا عليه: أفي هذه الحالة؟ قال لي: يا هذا! أودع الدنيا وأنا عالم بهذه المسألة، ألا يكون خيرا من أن أخليها وأنا جاهل بها، فأعدت ذلك عليه، وحفظ، وخرجت من عنده فسمعت الصراخ وأنا في الطريق (٣) .

وأغرب ما في اعتناء ابن مالك بالعلم: أنه حفظ يوم موته عدة أبيات، حدها بعضهم بثمانية أبيات، لقنه إياها ابنه. فجزاه الله خيرا عن هذه الهمة العلية (٤).

وقال القاضي إبراهيم بن الجراح الكوفي ثم المصري: مرض أبويوسف، فأتيته أعوده، فوجدته مغمى عليه، فلما أفاق قال لي: يا إبراهيم، ما تقول في مسألة(٥)؟ قلت: في مثل هذه الحالة؟! قال: ولا بأس بذلك، ندرس لعله ينجو به ناج؟ ثم قال: يا إبراهيم، أيما أفضل في رمي الجمار أي في مناسك الحج أن يرميها ماشيا أو راكبا؟ قلت: راكبا، قال: أخطأت، قلت: ماشيا، قال: أخطأت، قلت: قل فيها يرضى الله عنك، قال: أما ما كان يوقف عنده للدعاء، فالأفضل أن يرميه ماشيا، وأما ما كان لا يوقف عنده فالأفضل أن

---

[١] قيمة الزمن ص٤٤–٤٥.

[٢] الحَشْرَجَة الغرغرة عند الموت وتردد النَّفَسِ .القاموس.

[٣] قيمة الزمن ص٤٩ .

[٤] قيمة الزمن ص٧١ .

[٥] كذا في الأصل ولعل الصواب: في مسألة كذا .

يرميه راكبا، ثم قمت من عنده فما بلغت باب داره حتى سمعت الصراخ عليه، وإذا هو قد مات رحمة الله عليه (١).

وفي (صفحات من صبر العلماء): قال ابن الجوزي: قال صالح بن أحمد بن حنبل: رأى رجل مع أبي محبرة(٢) فقال له: يا أبا عبد الله أنت قد بلغت هذا المبلغ وأنت إمام المسلمين —يعني ومعك المحبرة تحملها– فقال: مع المحبرة إلى المقبرة .

وقال عبد الله بن محمد البغوي: سمعت أبا عبد الله أحمد بن حنبل يقول: أنا أطلب العلم إلى أن أدخل القبر .

وقال ابن الجوزي: قال محمد بن إسماعيل الصائغ: كنت في إحدى سفراتي ببغداد، فمر بنا أحمد بن حنبل وهو يَعْدُو، ونعلاه في يده، فأخذ أبي بمجامع ثوبه، فقال: يا أبا عبد الله ألا تستحيي إلى متى تعدو مع هؤلاء الصبيان؟، قال: إلى الموت (٣) .

تَعَلَّمْ وَلاْ تَكْسَلْ أَخِي فِي الشَّبَابِ وَالــ ــفَرَاغِ وَأَيَامِ النَّشَاطِ وَصِحَّةِ

أي تعلم العلم في زمن الشباب والحداثة والفراغ والنشاط والصحة، ولا تكسل عن ذلك، فقد كان صلى الله عليه وسلم يستعيذ بالله من العجز والكسل، فكان يقول: اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل.

وقال الإمام النووي في المقدمة الحافلة لكتابه الجليل (المجموع): ينبغي للمتعلم أن يغتنم التحصيل في وقت الفراغ والنشاط، وحال الشباب وقوة البدن، ونباهة الخاطر، وقلة الشواغل، قبل عوارض البطالة وارتفاع المنــزلة، فقد روينا عن عمر رضي الله عنه: تفقهوا قبل أن تسودوا. وقال الشافعي: تفقه قبل أن ترأس فإذا رأست فلا سبيل إلى التفقه(٤).

---

[1] قيمة الزمن ص٢٨-٢٩ .

[2] وفي المصباح: الحبر بالكسر المداد الذي يكتب به، والمحبرة معروفة، وفيها لغات، أجودها فتح الميم والباء، والثانية بضم الباء مثل المأدبة والمقبرة، والثالثة: كسر الميم لأنــها آلة مع فتح الباء. وفي القاموس: المحبرة بالفتح لا بالكسر، وغلط الجوهري، وحكي محبرة بضم الباء كمقبرة. وقال الزبيدي في تاج العروس: والصحيح أنــهما لغتان، أجودهما الفتح، وقال أيضا: المحبرة هي الآنية التي يجعل فيها الحِبْرُ، من خزف كان أو من قوارير.

[3] صفحات من صبر العلماء ١٢٠-١٢١.

[4] مقدمة المجموع باب آداب المتعلم .

وقال ابن الوردي:

اطلب العلم ولا تكسل فما   أبعد الخير على أهل الكسل

وقال بعضهم:

العلم نور فلا تُهمل مجالسه   واعمل جميلا يُرَى فالفضل في العمل

لا ترقد الليل ما في النوم فائدة   لا تكسلن ترى الحرمان في الكسل

وقال آخر:

دعي نفسي التكاسل والتواني   وإلا فاثبتي في ذا الهوان

فلم أر للكسالى الحظ يحظى   سوى ندم وحرمان الأماني

وقد قلت في قصيدتي التائية:

فلا للذيذ النوم عقبى حميدة   ولا للكسالى غير ذل وحسرة

فَإِنْ فَاتَكَ التَّعْلِيْمُ فِي هَذِهِ الفُرَصْ [1]   **تَكُنْ نَادِماً مِنْ بَعْدِهَا دُوْنَ مِرْيَةِ**

أي إن فاتك تعلم نفسك العلم في هذه الفرص المذكورة تكون نادما من بعد فواتـــها دون شك، ولما أدركتِ الشيخوخةُ وأمراضها أبا عثمان الجاحظ المشهور كان ينشد هذين البيتين:

أترجو أن تكون وأنت شيخ   كما قد كنت أيام الشباب

لقد كَذَبَتْكَ نَفْسُكَ ليس ثوب   دريس [2] كالجديد من الثياب [3]

---

[1] وفي القاموس الفرصة بضم الفاء النوبة والشرب، وفي لسان العرب: الفرصة النهزة والنوبة، وأفرصتني الفرصة أي أمكنتني، وافترصتها اغتنمتها، وانتهز فلان الفرصة أي اغتنمتها فاز بــها .

[2] أي بَاْلٍ .

[3] قيمة الزمن ص١١٨ .

وَقَدْ قِيْلَ إِنَّ مَنْ تَعَلَّمَ فِي الصِّغَرْ   يَكُنْ عِلْمُهُ صِدْقاً كَنَقْشٍ بِصَخْرَةِ

أي قيل: إن ما تُعُلِّمَ في الصغر يكون راسخا في القلب كرسوخ النقش في الصخرة، فقد قال السيوطي في (التعقبات): أخرج الطبراني بسند ضعيف عن أبي الدرداء بلفظ: مثل الذي يتعلم العلم في صغره كالنقش في الحجر، ومثل الذي يتعلم العلم في كبره كالذي يكتب على الماء(١).

وأخرج البيهقي في المدخل من مرسل إسماعيل بن رافع: من تعلم وهو شاب كان كوسم في حجر، ومن تعلم في الكبر كان كالكاتب على ظهر الماء(٢) اهـ.

وقال السخاوي في المقاصد والعجلوني في كشف الخفا لبعضهم:

أرانِيَ أنسى ما تعلمتُ في الكبر   ولستُ بناس ما تعلمتُ في الصغر
وما العلم إلا بالتّعلم في الصِّبا   وما الحلم إلا بالتَّحلم في الكبر
ولو فُلِقَ القَلبُ المُعَلَّمُ في الصبا   لأُلْفِيَ فيه العلمُ كالنَّفش في الحجر
وما العلم بعد الشَّيب إلا تَعسُّف   إذا كَلَّ قلبُ المرء والسمعُ والبصر
وما المرء إلا اثنان عقل ومنطق   فمن فاته هذا وهذا فقد دَمَر

قالا: وهذا محمول على الغالب وإلا فقد اشتغل أفراد كالقفال والقدوري بعد كبرهم، ففاقوا في علمهم وراقوا بمنظرهم اهـ.

وفي (المقاصد الحسنة) و(كشف الخفا) أيضا: عن أبي هريرة مرفوعا من تعلم القرآن في شبيبته اختلط القرآن بلحمه ودمه، ومن تعلمه في كبره فهو يتفلت منه ولا يتركه فله أجره مرتين.

وروى البيهقي والديلمي عن ابن عباس رضي الله عنهما: من قرأ القرآن قبل أن يحتلم فهو ممن أوتي الحكم صبيا اهـ.

---

[١] قال الهيثمي في مجمع الزوائد: ورواه الطبراني في الكبير، وفيه مروان بن سالم الشامي، ضعفه البخاري ومسلم وأبو حاتم.

[٢] التعقبات ص٤٦، وذكره السخاوي في المقاصد في حرف العين، والعجلوني في كشف الخفاء في حرف العين.

وفي (التعقبات) أيضا: أخرج سعيد بن منصور والطبراني في الأوسط وابن أبي حاتم بسند جيد عن ابن عباس قال: ما بعث الله نبيا إلا وهو شاب، ولا أوتي العلم إلا وهو شاب(١) اهـــ.

وكانت التابعية الجليلة حفصة بنت سيرين(٢) تقول: يا معشر الشباب، خذوا من أنفسكم وأنتم شباب، فإني ما رأيت العمل إلا في الشباب.

وعقد الخطيب البغدادي للتعلم في زمن الشباب بابا في كتابه (الفقيه والمتفقه) فقال: باب التفقه في الحداثة وزمن الشبيبة، فمما قال فيه: التفقه في زمن الشبيبة وإقبالِ العمر والتمكن منه بقلة الأشغال وكمال الذهن وراحة القريحة يرسخ في القلب ويثتب ويتمكن ويستحكم، فيحصل الانتفاع به والبركة إذا صحبه من الله حسن التوفيق، وإذا أهمل إلى حالة الكبر المغيّرة للأخلاقِ الناقصة للآلات كان كما قال الشاعر:

إذا أنت أعياك التعلم ناشئا   فمطلبه شيخا عليك شديد

ورُوِى عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: حفظ الغلام كالوسمة في الحجر، قال الخطيب البغدادي: هذا آخر حديث الجوهري، وقال ابن بشران: كالنقش في الحجر(٣).

وروى الخطيب بسنده عن الحسن البصري أنه قال: الحفظ في الصغر كالنقش في الحجر، وفي رواية أخرى عنه: التعلم في الصغر كالنقش في الحجر.

وقال علقمة: ما حفظت وأنا شاب فكأني أنظر إليه في قرطاس أو ورقة.

وقال معمر: جالست قتادة وأنا ابن أربع عشرة سنة فما سمعت منه شيئا وأنا في ذلك السنّ إلا وكأنه مكتوب في صدري.

---

[١] وذكره ابن كثير في تفسير قوله تعالى: {**قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم**}بلفظ: ما بعث الله نبيا إلا شاب ولا أوتي العلم عالما إلا وهو شاب وتلا هذه الآية.

[٢] هي أخت محمد بن سيرين، وهي أفضل التابعيات كما أن أويسا القرني أفضل التابعين رحهم الله.

[٣] الجوهري شيخ الخطيب البغدادي الذي روى عنه هذا الحديث، وابن بشران شيخه الذي روى عنه هذا الحديث بطريق آخر، وهو أبو الطيب عبد العزيز بن أبي الحسين بن بشران.

وروى بسنده عن موسى بن علي عن أبيه أن لقمان الحكيم قال لابنه: يا بني ابتغ العلـــم صغيرا، فإن ابتغاء العلم يشق على الكبير، يا بني إن الموعظة تشق على السفيه كما يشـــق الوعر الصعود على الشيخ الكبير(١) اهـــ.

الرحلة لطلب العلم

وَسَافِرْ مِنَ الأَوْطَانِ لِلْعِلْمِ وَاتْرُكَنْ أَهَالِيْكَ وَالأَحْبَابَ مَعْ كُلِّ إِخْوَةِ
فَفِي الإِغْتِرَابِ رَاحَةٌ وَالْفَرَاغُ مِنْ شَوَاغِلِ أَصْحَابٍ وَأَهْلٍ وَرُفْقَةِ

أي سافر أيها الطالب للعلم من وطنك واترك عن أهلك وأحبابك وإخوتك؛ فإن في الاغتراب ومفارقة الأوطان راحةً وفراغا من شواغل الأهالي والأصحاب والرفقة، فقد قال العلامة ابن الوردي في لاميته:

حبك الأوطان عجز ظاهر فاغترب تلق عن الأهل بدل
فبمكث الماء يبقى آسنا وسرى البدر به البدر اكتمل (٢)

وقال بعضهم:

تغرب عن الأوطان في طلب العلا وسافر ففي الأسفار خمس فوائد
إزالة هم واكتساب معيشة وعلم وآداب وصحبة ماجد

وَيَكْفِيْ أَنِيْساً لِلْتَلامِيْذِ كُتْبُهُمْ وَإِخْوَانُـــهُمْ فِي الدَّرْسِ أَهْلُ المَوَدَّةِ

أي يكفي المغتربين من طلبة العلم في الأنس والصحبة إخوانُهم المشاركون في الدرس وكتبهم فهم خير بديل وأفضل رفيق وأنفع أنيس وجليس.

وَإِيَاكَ أَنْ تَعْيَى إِذَا طَالَ مُدَّةُ الــ ـــغِيَابِ وَهَاجَ الشَّوقُ نَحْوَ الأَحِبَّةِ

أي احذر أيها الطالب أن تسأم نفسك من طول زمن الغربة وأن يؤثرها هيجان شوق الأحبة والزملاء فتعيى عن الاستمرار في الطلب والإدمان في احتمال التعب والنصب، وكثيرا ما تحن نفوس الضعفاء من الطلبة إلى لقاء المعارف والأصدقاء، وتتضرر بانقطاع

---

[١] الفقيه والمتفقه ج٢ص٨٩-٩٢.

[٢] السُرَى كالهُدى سير الليل، أي اكتمل البدر بانتقاله من منـــزل إلى منـــزل آخر، ولو لا ذلك لما حصل له ذلك الكمال والنور التام، والبدر القمر ليلة كماله.

المألوفات والبعد عن البلاد، فتكاد القلوب تطير شوقا إلى الأوطان وسكانـــها، فيعتريها الفتور وتضعف عما إليه ارتحلت وسافرت له، قال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى:

إن الغريب له مخافة سارق   وخضوع مديون وذلة وامق [١]

وإذا تذكر أهلـــه وبلاده   ففؤاده كجناح طير خافـــق

وأما قوي العزيمة ورفيع الهمة فلا يبالي بذلك، ويتحمل كل شدة وعناء حتى يثمر مجهوده وينال مقصوده، وقد أحسن القائل:

إن التِّجَار إذا عادوا وقد ربحوا   أنساهم الربح ما عناهم السفر

وقال آخر:

من كان يعلم أن الشهد مطلبه   فلا يخاف للسع النحل من ألم

وقال آخر يخاطب نفسه:

تريدين إدراك المعالي رخيصة   ولا بد دون الشهد من إِبَرِ النحل

وما أحسن قول ابن الفارض:

ومن يخطب الحسناء يسخو بمهرها   وطالب شهد لم تخفه اللواسع

وقال آخر:

وإذا كنت المقدام فلا   تجزع في الحرب من الرهج [٢]

وقد ورد في الرحلة إلى طلب العلم والسعي إليه أدلة كثيرة، ففي (الترغيب والترهيب): روي عن زر بن حبيش قال: أتيت صفوان بن عسال المرادي رضي الله عنه قال: ما جاء بك؟ قلت: أَنْبُطُ العلم قال: فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ما من خارج خرج من بيته في طلب العلم إلا وضعت له الملائكة أجنحتها رضا بما يصنع، رواه الترمذي وصححه، وابن ماجه واللفظ له وابن حبان في صحيحه والحاكم وقال: صحيح الإسناد، قوله: أَنْبُطُ العلم أي أطلبه وأستخرجه.

وعن أبي الدرداء قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: من غدا يريد العلم يتعلمه لله فتح الله له بابا إلى الجنة، وفرشت له الملائكة أكنافها وصلت عليه

---

[١] في القاموس: وَمِقَه ومقا ومِقَة أحبه فهو وامق.

[٢] المِقْدَام الشجاع، ففي لسان العرب: يقال: رجل مِقدام كثير الإقدام على العدو جريء في الحرب، والرهج الغبار، وفي القاموس: الرَّهْجُ ويحرك الغبار اهـــ.

ملائكة السموات وحيتان البحر، وللعالم من الفضل على العابد كالقمر ليلة البدر على أصغر كوكب في السماء، والعلماء ورثة الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما، ولكنهم ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظه، وموت العالم مصيبة لا تجبر وثلمة لا تسد، وهو نجم طمس، وموت قبيلة أيسر من موت عالم، رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه وليس عندهم موت العالم إلى آخره، ورواه البيهقي واللفظ له من رواية الوليد بن مسلم حدثنا خالد بن يزيد بن أبي مالك عن عثمان بن أيمن عنه(١).

وفي (الترغيب والترهيب) أيضا و(مجمع الزوائد) (٢) عن قبيصة بن المخارق رضي الله عنه قال: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا قبيصة ما جاء بك؟ قلت: كبرت سني ورق عظمي فأتيتك لتعلمني ما ينفعني الله تعالى به، فقال: يا قبيصة ما مررت بحجر ولا شجر ولا مدر إلا استغفر لك، يا قبيصة إذا صليت الصبح فقل ثلاثا سبحان الله العظيم وبحمده تُعَاْفَ من العمى والجدام والفالج، يا قبيصة قل: اللهم إني أسألك مما عندك، وأفض عليّ من فضلك، وانشر عليّ من رحمتك، وانزل عليّ من بركاتك، رواه أحمد وفي إسناده راو لم يسم.

وروى الإمام البخاري ومسلم رحمهما الله في صحيحيهما عن أبي هريرة رضي عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: خلق الله عز وجل آدم على صورته طوله ستون ذراعا، فلما خلقه قال: اذهب فسلم على أؤلئك النفر، وهم نفر من الملائكة جلوس، فاستمع ما يحيونك فإنـــها تحيتك وتحية ذريتك، فقال: السلام عليكم، فقالوا: السلام عليك ورحمة الله، فزادوه ورحمة الله، فكل من يدخل الجنة على صورة آدم، فلم يزل الخلق ينقص بعده حتى الآن.

قال أبوغدة: قال العلماء في شرح هذا الحديث: قوله: اذهب فسلم على أؤلئك النفر فاستمع ما يحيونك: فيه إشعار بأنـــهم كانوا على بعد من آدم عليه السلام، وفيه دليل

---

[١] الترغيب والترهيب، في باب الرحلة في طلب العلم من كتاب العلم

[٢] مجمع الزوائد، ج١، ص١٧٥.

على استحباب السعي في طلب العلم، وأن آدم عليه السلام أول من سعى لطلب العلم بمقتضى هذا الحديث(١).

وروي عن أنس أنه صلى الله عليه وسلم قال: أطلبوا العلم ولو بالصين، فإن طلب العلم فريضة على كل مسلم. وقد ذكرناه في فضل العلم.

وفي (الدر المنثور) أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن عكرمة في قوله تعالى: {**السائحون**} قال: طلبة العلم .

وفي (فتح المغيث) للسخاوي عن أبي مطيع معاوية بن يحيى قال: أوحى الله إلى داود أن اتخذ نعلين من حديد وعصا من حديد واطلب العلم حتى تنكسر العصا وتنخرق النعلان.

وعن ابن عباس في قوله تعالى: {**السائحون**} قال: هم طلبة العلم (٢) اهـ.

ونقل الحافظ الخطيب البغدادي رحمه الله تعالى في كتابه (الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع): عن أبي أحمد نصر بن أحمد العياضي الفقيه السمرقندي: لاينال هذا العلم إلا من عطل دكانه، وخرب بستانه، وهجر إخوانه، ومات أقرب أهله إليه فلم يشهد جنازته (٣)

وقد ارتحل الكليم نبي الله موسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام إلى طلب العلم كما أخبر الله جل شأنه في قوله: {**وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حقبا**} وقد لقي الكليم عليه السلام فيه شدة فقد قال: {**لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا**}.

وقال العيني في (عمدة القاري شرح البخاري): رحل جابر بن عبد الله مسيرة شهر إلى عبد الله بن أنيس في حديث واحد(٤).

---

[1] صفحات، ص٣٣-٣٤.

[2] فتح المغيث ج٢ص٣١٩.

[3] صفحات من صبر العلماء، ص١١١.

[4] عمدة القاري ج٢ص٧٣.

وروى ابن عبد البر بسنده عن ميمون قال: إن مثل العالم في البلد كمثل عين عذبة في البلد(١).

قال أبو الدرداء رضي الله عنه: من رأى أن الغدوّ إلى طلب العلم ليس بجهاد فقد نقص في رأيه وعقله.

وقال الحافظ الإمام ابن أبي حاتم الرازي: سمعت أبي يقول: أول ما خرجت في طلب الحديث أقمت سبع سنين، أحصيت ما مشيت على قدميّ زيادة على ألف فرسخ، لم أزل أحصي حتى لما زاد على ألف فرسخ تركته، وأما ما كنت سرت أنا من الكوفة إلى بغداد فما لا أحصي كم مرة، ومن مكة إلى المدينة مرات كثيرة، وخرجت من البحر من قرب مدينة سَلا وذلك في المغرب الأقصى إلى مصر ماشيا، ومن مصر إلى الرملة ماشيا، ومن الرملة إلى بيت المقدس، ومن الرملة إلى عسقلان، ومن الرملة إلى طبرية، ومن طبرية إلى دمشق، ومن دمشق إلى حمص، ومن حمص إلى أنطاكية، ومن أنطاكية إلى طرسوس، ثم رجعت من طرسوس إلى حمص، وكان بقي عليّ شيء من حديث أبي اليمان فسمعته، ثم خرجت من حمص إلى بيسان، ومن بيسان إلى الرقة، ومن الرقة ركبت الفرات إلى بغداد، وخرجت قبل خروجي إلى الشام من واسط إلى النيل، ومن النيل إلى الكوفة، كل ذلك ماشيا، هذا في سفري الأول وأنا ابن عشرين سنة، أجول سبع سنين، خرجت من الريّ سنة ٢١٣ في شهر رمضان، ورجعت سنة ٢٢١، وخرجت المرة الثانية سنة اثنين وأربعين، ورجعت سنة خمس وأربعين، أقمت ثلاث سنين، وكانت سني في هذه الرحلة سبعا وأربعين سنة(٢) .

وقال الحافظ الذهبي في (معرفة القراء الكبار): إن الشيخ أبا القاسم الهذلي المغربي ثم الشرقي هو الإمام الكبير الرحال والعلم الشهير المقرئ الجوال، أحد من طوَّف بالدنيا في طلب القراءات، واسمه يوسف بن علي بن جُبارة. وقد رحل من أقصى المغرب إلى بلاد الترك في أقصى المشرق، وكانت رحلته في سنة ٤٢٥ وبعدها.

---

[١] جامع بيان العلم وفضله في باب جامع في فضل العلم ص٩٤.

[٢] صفحات من صبر العلماء ص٦٠-٦١ .

وقال ابن الجزري: إنه طاف البلاد في طلب القراءات فلا أعلم أحدا في هذه الأمة رحل للقراءات رحلته ولا لقي من لقي من الشيوخ مثله.

وقال في كتابه (الكامل في القراءات): جملة من لقيت في هذا العلم ثلاثمائة وخمسة وستون شيخا، ولو علمت أحدا يُقَدَّم عليّ في هذه الطريقة في جميع بلاد الإسلام لقصدته(١).

وممن ارتحل إلى طلب العلم الإمام الحافظ أبو القاسم ابن عساكر، الذي قال فيه الإمام النووي: هو حافظ الشام بل هو حافظ الدنيا الإمام مطلقا الثقة الثبت.

وقال الحافظ الذهبي في (تذكرة الحفاظ): سمع ابن عساكر بدمشق ورحل فسمع في بغداد ومكة والكوفة ونيسابور وأصبهان ومرو وهراة وعمل (الأربعين البلدانية) أربعين حديثا من أربعين شيخا من أربعين بلدا، وعدد شيوخه ألف وثلاثمائة شيخ ونيف وثمانون امرأة اهـ.

وقال ابن السبكي في (طبقات الشافعية الكبرى) إن الإمام الجليل حافظ الأمة أبا القاسم ابن عساكر سمع خلائق وارتحل إلى العراق ومكة والمدينة، وارتحل إلى بلاد العجم، فسمع بأصبهان، ونيسابور، ومَرْو، وتَبْرِيْز، ومِيْهَنَة، وبَيْهَقْ، وخُسْرُوْجِرْد، وبِسْطَام، ودَامِغَان، والرِّيّ، وزَنْجَان، وهَمَذَان، وأَسَدَابَاذ، وجَيّ، وبَوَن، وبَغ، وبُوْشَنْجِي، وسَرْخَس، ونُوْقَان، وسِمْنَان، وأَبْهَر ومَرَند، وخُوَيّ، وجَرْبَاذَقَان، ورُوذاور، وحُلوان، وأرْجِيْش. وسمع بالأنبار، والرافِقة والرَّحَبَة، وماردِين، وماكسين، وغيرها من البلاد الكثيرة والمدن الشاسعة والأقاليم المتفرقة (٢).

وَلِلعِلْمِ ذَوْقٌ لَيْسَ يَدْرِيْهِ غَيْرُ أهْـــ ـــلِهِ فَائِقٌ مِنْ طَعْمِ شَهْدٍ وَتَمْرَةٍ
وَقَدْ أخْبَرَ الزَّمَخْشَرِيُّ بِأَنَّهُ يَفُوْقُ يَقِيْناً طَعْمُهُ كُلَّ لَذَّةٍ

أي إن للعلم لذة تفوق لذة العسل وطعم التمر، وعذوبة ليس يعلمها غير أهل العلم ولا يدركها خلق سواهم، وقد أخبر بذلك خلائق كثيرون من العلماء، منهم العلامة محمود بن عمر الزمخشري فقال:

سهري لتنقيح العلوم ألذ من ... لثم لغانية وطيب (٣) عناق

---

[١] صفحات من صبر العلماء ص٣٤٣.

[٢] صفحات من صبر العلماء ص٣٤٣.

[٣] وفي نسخة أخرى: وطول عناق.

وأحب من نقر الفتاة لدفها نقري لألقي الرمل عن أوراقي
وتمايلي طربا لحل عويصة أحلى وأشهى من مدامة ساق
أأبيت سهران الدجى وتبيته نوما وتبغي بعد ذاك لحاقي

وقال العلامة المحقق مسعود بن عمر التفتازاني المتوفى سنة ٧٩١:

إذا خاض في بحر التفكر خاطري على درة من معضلات المطالب
حقرت ملوك الأرض في نيل ما حووا ونلت المنى بالكتب لا بالكتائب

وأكثر من سلك مسلك التعليم مخلصا لله تعالى يشهد على هذا، ولا ينكره إلا جاهل لم يذقها، فجرب إن شئت ترى إن شاء الله من ذلك عجبا عجيبا وأمرا غريبا، وقد ذقنا ولله الحمد شيئا من ذلك.

الصاحب في التعلم

وَصَاْحِبْ مِنَ الطُّلاْبِ مَنْ كَاْنَ عَزْمُهُ قَوِيّا لَهُ جِدٌّ وَأَعْظَمُ هِمَّةِ [1]

يعني صَاحِبْ من طلبة العلم من كان ذا عزيمة قوية، وهمة عالية، ففي تذكرة السامع والمتكلم: ينبغي لطالب العلم أن لا يخالط إلا من يفيده أو يستفيد منه كما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم: أغد عالما أو متعلما ولا تكن الثالث فتهلك.

فإن شرع أو تعرض لصحبة من يضيع عمره معه ولا يفيده ولا يستفيد منه ولا يعينه على ما هو بصدده فليتلطف في قطع عشرته في أول الأمر قبل تمكنها؛ فإن الأمور إذا تمكنت عسرت إزالتها، ومن الجاري على ألسنة الفقهاء: الدفع أسهل من الرفع.

فإن احتاج إلى من يصحبه فليكن صاحبا صالحا دينا تقيا، ورعا ذكيا، كثير الخير، قليل الشر، حسن المداراة، قليل المماراة، إن نسي ذكَّره وإن ذكره أعانه، وإن احتاج واساه وإن ضجر صبَّره.

ومما يروى عن سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

فلا تصحب أخا الجهل وإياك وإياه
فكم من جاهل أردى حليما حين واخاه
يقاس المرء بالمرء إذا ما هو ما شاه

---

[1] قال ابن حجر الهيتمي في العمدة في شرح البردة: الهمة هي قوة العزم اهـ.

وقال غيره:

إن أخاك الصدق من كان معك   ومن يضر نفسه لينفعــك

ومن إذا ريب الزمان صدعك   شتت فيك شمله ليجمعك

وقال آخر:

إذا كنت في قوم فصاحب خيارهم   ولا تصحب الأردا فتردى مع الردى

ومن فوائد صحبة طلبة العلم الاستئناس والتعاون في حل المشاكل وفهم الدقائق والمراجعة في الدروس، قال الخطيب في (الفقيه والمتفقه) في مبحث المراجعة بعد انتــهاء الــدرس: يتحول الذين حضروا الدرس فيتذاكــرون ويعيد بعضهم على بعض، فعن أنس بن مالك قــال: كنا نكون عند النبي صلى الله عليه وسلم وربما كنا نحوا من ستين إنسانا فيحدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم يقوم فنتراجعه بيننا هذا وهذا وهذا، فنقوم وكأنما قــد زرع في قلوبنا. قال الخطيب: فإذا أتقن كل واحد منهم الدرس وحفظه فليكتبه ويكــون تعويله على حفظه، فإن اضطرب عليه شيء من محفوظه رجع إلى كتابه فاستثبته منه كما قال الخليل ابن أحمد: اجعل ما في الدفتر رأس مالك وما في قلبك التفقه وأنشد:

ليس بعلم ما يعي القِمَطْر [1]   ما العلم إلا ما وعاه الصدر إهــ. [2]

وَلاْ تَصْحَبَنْ مَنْ كَاْنَ أَهْلَ بَطَاْلَةٍ   وَعَجْزٍ وَحِقْدٍ وَالفَسَادِ وَحِدَّةِ

أي لا تصحب أيها الطالب أهل البطالة والعجز ونحوهما، قال المليباري في (هداية الأذكياء):

لا تصحبن من كان أهل بطالة   وتساهلٍ في الدين ذاك هو البلا

وقال ابن عطاء الله في (الحكم): لا تصحب من لا ينهضك حاله، ولا يدلك على الله مقاله.

ولله در القائل:

وإياك أن ترضى بصحبة ناقص   فتنحط قدرا من علاك وتُحقرا

---

[1] القمطر: ما يصان فيه الكتب. القاموس.

[2] القفيه والمتفقه ج٢ص١٢٧.

فيتأكد على طالب العلم أن لا يصحب طالبا دنيء الهمة ضعيف العزيمة، ذا عجز وبطالة، وضغينة وحدة، وفساد بجميع أنواعه؛ فإن الطبع يسرق من الطبع، والنفس مجبولة على الاقتداء بمن تخالطه، وقد قالوا:

عن المرء لا تسل وسل عن قرينه   فإن القرين بالمقارن يقتدي

وقد قالوا: من جالس جانس، وأجاد القائل:

فخف أبناء جنسك واحش منهم   كما تخشى الضراغم والسبنتا (١)

والسبنتا (١)

وروى الخطيب أيضا بسنده عن رجل من قريش قال: قال بعض الأنصار: رأس الحمق الحدة، ورائده الغضب، ومن رضي بالجهل استغنى عن الحلم، الحلم زين ومنفعة، والجهل شين ومضرة، والسكوت عن جواب الأحمق جوابه (٢).

وَلاْ تَقْرَبَنْ مِنْ سَيِّئِ الطَّبْعِ وَاحْذَرَنْ   فَإِنَ جَلِيْسَ اَلْسُوْءِ يُفْضِيْ لِشَقْوَةِ (٣)

أي لا تقربنّ من صحبة سيئ الطبع ومجالسته واحذر منه(٤) فإنه الجليس السوء، ومجالسته ومجالسته توصلك إلى الشدة والشقاء، وروى الإمام مسلم عن أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يحذيك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحا طيبة ، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد ريحا خبيثة(٥) اهـ .

---

[١] الضَرْغَمُ والضِّرْغَاْمُ: الأسد، والسَبَنْتَى: النَّمِرُ والجريء، القاموس، وفي لسان العرب: السَبَنْتَى النمر، وقيل: الأسد.

[٢] الفقيه والمتفقه جـ٢ص٣٦.

[٣] وفي لسان العرب: أصل الإفضاء في اللغة الوصول، يقال: أفضى إليه أي وصل إليه اهـ والشقوة بكسر الشين قال تعالى: {**ربنا غلبت علينا شقوتنا**} ويفتح أيضا كما في القاموس واللسان، وهي الشدة والعسر، وفي البيت استعارة اللام لمعنى إلى.

[٤] وقد ذكرنا في مبحث حسن الخلق بعض ما ورد في سوء الخلق كحديث ما من شيء إلا وله توبة إلا صاحب سوء الخلق، فإنه لا يتوب من ذنب إلا عاد في شر منه، وكحديث سوء الخلق شؤم.

[٥] قال النووي في شرح مسلم: في هذا الحديث فضيلة مجالسة الصالحين وأهل الخير والمروءة ومكارم الأخلاق والورع والعلم والأدب، و فيه النهي عن مجالسة أهل البدع وأهل الشر، ومن تكثر بطالته ونحو ذلك من الأنواع المذمومة اهـ.

وقد ورد في الحديث: المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل.

وقال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لا تصحب الفجار فتتعلم من فجورهم. واحذر صديقك إلا الأمين ولا أمين إلا من خشي الله (١)اهـــ والله الموفق.

الصبر على طول مدة التعلم

تَعَلّمْ مَدَى عُمْرِكَ إنْ كُنْتَ تَبْتَغِيْ رُقِيَّ (٢) رُبَىْ مَجْدٍ وَعِزٍّ وَرِفْعَةِ

أي تعلم العلم مدى حياتك واصبر على طول الزمن في تعلمه إن كنت طالبا أن ترقى ربى المجد والعز والرفعة، روى الخطيب بسنده في (الفقيه والمتفقه) عن الفضل بن غانم قال: كان أبو يوسف مريضا شديد المرض، فعاده أبو حنيفة مرارا فسار إليه آخر مرة فرآه ثقيلا فاسترجع ثم قال: لقد كنت أؤمّلك بعد للمسلمين، ولئن أُصِيب الناس بك ليموتن معك علم كثير، ثم رزق العافية وخرج من العلة، فأخبر أبو يوسف بقول أبي حنيفة فيه، فارتفعت نفسه وانصرفت وجوه الناس إليه فعقد لنفسه مجلسا في الفقه وقصر عن لزوم مجلس أبي حنيفة، فسأل عنه فأخبر أنه قد عقد لنفسه مجلسا وأنه بلغه كلامك فيه، فدعا رجلا كان له عنده قدر، فقال: سر إلى مجلس يعقوب(٣) فقل له: ما تقول في رجل دفع دفع إلى قصار ثوبا ليقصره بدرهم، فسار إليه بعد أيام في طلب الثوب فقال له القصار: مالك عندي شيء وأنكره؟ ثم إن رب الثوب رجع إليه فدفع إليه الثوب مقصورا، أله أجرة؟ فإن قال له أجرة، فقل: أخطأت، وإن قال: لا أجرة له، فقل: أخطأت، فسار إليه فسأله، فقال أبو يوسف: فله الأجرة، فقال: أخطأت، فنظر ساعة ثم قال: لا أجرة له، فقال: أخطأت، فقام أبو يوسف من ساعته فأتى أبا حنيفة فقال له: ما جاء بك إلا مسألة القصار، قال: أجل، قال: سبحان الله من عقد يفتي الناس وعقد مجلسا يتكلم في دين الله وهذا قدره، لا يحسن أن يجيب في مسألة من الإيجارات، فقال: يا أبا حنيفة علمني، فقال: إن كان قصّره بعد ما غصبه فلا أجرة لأنه قصره لنفسه، وإن كان قصّره قبل أن يغصبه

---

[١] تعليق الشيخ عبد الله بن محمد بن الصديق الغماري على كتاب تأييد الحقيقة العلية للحافظ السيوطي ص٦١.

[٢] الربى جمع ومفردها رُبوة وهي ما ارتفع من الأرض، قال الله تعالى: {**كمثل جنة بربوة**}.

[٣] هو اسم أبي يوسف.

فله الأجرة لأنه قصّره لصاحبه ثم قال: من ظن أنه يستغني عن التعلم فليبك على نفسه(١).

وَكُنْ يَا أخِيْ عَلَى الشَّدائِدِ صَابِراً فَتَحْظَىْ (٢) بِنَيْلِ مَا تَرُوْمُ وَبُغْيَةِ

أي كن صابرا على شدائد طلب العلم المترتبة على طول زمن التعلم فتسعد بنيل ما تطلبه وترغب فيه، وأجاد القائل:

أخلق بذي الصبر أن يحظى بحاجته ومدمن القرع للأبواب أن يلجا (٣)

وَإيَاكُمُوْا أنْ تَجْبُنُوا ثُمَّ تَنْكُصُوْا (٤) إلَىْ أَهَلِكُمْ فَوْراً بِجَهْلٍ وَخَيْبَةِ

أي احذروا من الضعف والوهن وعدم التجلد واحتمال مشقة طول مدة التعلم فترجعوا بسرعة إلى أهليكم مع الجهل والحرمان عن نيل المطلوب وبلوغ المقصود.

حل المشكلات بالتدبر وسؤال المشايخ

تَدَبَّرْ وَفَكِّرْ فِي الدَّقَائِقِ وَاجْتَهِدْ بِحَلِّ جَمِيْعِ الْمُشْكِلاْتِ الْمُلِمَّةِ (٥)

في البيت الحث على التدبر والتفكر في المسائل الدقيقة والاجتهاد في حل المشكلات، قال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى: من طلب علما فليدقق لئلا يضيع دقيق العلم(٦)

وَسَلْ مَا جَهِلْتَ مِنْ عَوِيْصٍ وَمُعْضِلٍ شُيُوْخَكَ تَظْفَرْ بِالْمُنَى وَالْمَسَرَّةِ

أي اسأل مشايخك ما جهلت عنه من عويص المسائل ومعضلاتـــها وفي (المقاصد الحسنة) للسخاوي و(كشف الخفا) للعجعلوني: العلم خزائن ومفتاحها السؤال. قال العجلوني: رواه أبونعيم والعسكري بسند ضعيف عن علي مرفوعا، وقال النجم: قلت: وزاد

---

[١] الفقيه والمتفقه جـــ٢ص٤١.

[٢] تحظى أي تسعد.

[٣] قيمة الزمن ص١٢٢.

[٤] أي ترجعوا، وفي القاموس: نكص على عقبيه رجع عما كان عليه من خير، وهو خاص بالرجوع عن الخير اهـــ.

[٥] الملمة: أي النازلة. ففي القاموس: الَمّ به نزل كلَمّ اهـــ.

[٦] تـــهذيب الأسماء واللغات ج١ص٧٤.

العسكري: فسلوا يرحمكم الله، فإنه يؤجر فيه أربعة: السائل والمعلم والمستمع والمحب لهم (١) اهـ

وروى الخطيب البغدادي في (الفقيه والمتفقه) بسنده عن ابن عمر قال: قـال رسـول الله صلى الله عليه وسلم: الاقتصاد في النفقة نصف المعيشة، والتودد إلى الناس نصف العقـل، وحسن السؤال نصف العلم.

وعن ميمون بن مهران قال: التودد إلى الناس نصف العقل وحسن المسئلة نصف العلم.

وقال ابن عباس: ما سألني أحد عن مسئلة إلا عرفته فقيه أو غير فقيه(٢).

وقال مغيرة: قيل لابن عباس: أنى أصبت هذا العلم؟ قال: بلسان سؤول، وقلب عقول(٣).

وقال الرازي في تفسيره: قيل لابن مسعود: بم وجدت هذا العلم؟ قال: بلسان سؤول، وقلب عقول.

واعلم أنه ينبغي أن يكون سؤال المشايخ تفقها وازديادا للعلم واسترشادا لا إمتحانا ولا إيذاء ولا تعنتا، قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه لابن الكواء: ويلك سل تَفَقُّها ولا تسل تعنتا، وورد في الحديث: تعلموا ولا تعنتوا فإن المتعلم خير من المتعنت(٤)

وَلاْ يَمْنَعَنْكَ العُجْبُ وَالكِبْرُ وَالْحَيَا سُؤَالَ الشُّيُوْخِ أَهْلِ حَقٍّ وَنُصْحَةِ (٥)

---

[١] المقاصد الحسنة ج٢ص٨٥.

[٢] الفقيه والمتفقه جـ٢ص٣٣-٣٤.

[٣] شذرات الذهب لابن عماد ج١ص٧٦.

[٤] جامع بيان العلم وفضله، باب جامع في آداب العالم والمتعلم، ج١ص١٥٤-١٥٥.

[٥] قوله "ونصحة" هي بمعنى النصحية، و لم نجدها في كثير من كتب اللغة، لكنها وردت في حديث رواه الطبراني في المعجم الأوسط فقال: عن ابن عباس قال العباس: يا رسول الله، إنا لنعرف الضغائن في وجوه أقوام. قال: بم تعرفها؟ قال: تكون الحلقة في الحديث، فإذا اطلعت عليهم أمسكوا لقرابتي منك، ولو كانوا في نصحة لله ورسوله ما أمسكوا لقرابتي منك، قال: تعرفهم ؟ قال: نعم، فوضع العباس يده على ذراع النبي صلى الله عليه وسلم، ثم دخل المسجد، فقال له العباس: هذه الحلقة منهم، فأخذ النبي صلى الله عليه وسلم بيد العباس، فرفعها، فقال: من لم يحب عمي هذا لله ولقرابته مني فليس بمؤمن. لم يرو هذا الحديث عن منصور إلا ابن الأجلح اهـ.

أي لا تمنعك هذه الثلاثة ونحوها عن سؤال المشايخ المحقين الناصحين، فالذي ينبغي لطالب العلم أن يسأل عما أشكل أوصعب فهمه عليه، ولا يأنف عن سؤال من يحقـره النـاس وتزدريه العيون، وكثيرا ما يمنع ذوي الغنى والحضارة والجاه والمناصب والرئاسة والسِّـنَّ العجبُ والكبرُ عن سؤال ما يحتاجون إليه من العلم لا سيما إذا كان العالم المسؤول صغير السن أو مشوّه الخلقة أو بدويا أو فقيرا أو نحو ذلك من كل ما يعدُّه الناس نقصا ودناءة، وفي تفسير الفخر الرازي: أربعة لا ينبغي للشريف أن يأنف منها وإن كان أميرا، قيامه من مجلسه لأبيه، وخدمته لضيفه، وخدمته للعالم الذي يتعلم منه، والسؤال عما لا يعلم ممن هو أعلم منه اهـ.

وربما يكون المانع من السؤال الحياء، وهو كثير في النساء، والمطلوب المأمور به شرعا أن يسأل الإنسان ما يحتاج إليه من العلم، ولا يبالي باستثقال النفس وكراهيتها لذكر بعض الأشياء التي يُستحيى منها طبعا، ففي صحيحى البخاري ومسلم أن عائشة رضي الله عنها قالت: نعم نساء الأنصار لم يمنعهنّ الحياء أن يتفقهن في الدين(١).

وفي البخاري قال مجاهد: لا يتعلم العلم مستحي ولا متكبر اهـ

وقال الحافظ العسقلاني في (فتح الباري): الحياء يقع على وجه الإجلال والاحترام للأكابر، وهو محمود، وأما ما يقع سببا لترك أمر شرعي فهو مذموم، وليس هو بحياء شرعي، وإنما هو ضعف ومهانة، وهو المراد بقول مجاهد اهـ.

وقال ابن عبد البر: قال عمر مولى غفرة: لا يزال العالم عالما ما لم يستحي أن يمشي إلى من هو أعلم منه. وقال العباس لابنه عبد الله: لا تدع العلم استحياء من التعلم(٢).

المذاكرة بالعلم والمطارحة والمناظرة

مُذَاكَرَةٌ بِالعِلْمِ عَوْنٌ لِطَاْلِبٍ زِيَادَةُ عِلْمٍ بَلْ وَفَهْمٍ وَفِطْنَةِ

يعني أن في المذاكرة بالعلم فوائد أربعة لطالب العلم، فيتأكد عليه الاعتناء بـها وصـرف بعض أوقاته إليها.

---

[١] ذكره البخاري في باب الحياء في العلم من كتاب العلم، وذكره مسلم في كتاب الحيض، ولفظه: لم يكن يمنعهن، والباقي سواء.

[٢] جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر في باب جامع في آداب العالم والمتعلم.

وفي (الفقيه والمتفقه) عن أبي نضرة قال: كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا اجتمعوا تذاكروا العلم وقرأوا سورة.

وعن أنس بن مالك قال: كنا نكون عند النبي صلى الله عليه وسلم وربما كنا نحـــوا مـــن ستين إنسانا فيحدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم يقوم، فنتراجعه بيننا هذا وهـــذا وهذا فنقوم وكأنما قد زرع في قلوبنا(١).

وروى الخطيب بسنده عن أبي بكر بن أبي موسى أن أباه أتى عمر بعد العشـــاء الآخـــرة فقال: ما جاء بك يا أبا موسى الساعة؟ قال: نتذاكر الفقه، قال: فجلسنا لـــيلا طـــويلا نتذاكر، قال أبو موسى: الصلاة، فقال عمر: إنا في صلاة، قال: فتذاكرنا حتى كان قريبا من الفجر.

ورَوَى أيضا بسنده عن مجاهد قال: لا بأس بالسمر في الفقه .

وروى الخطيب أيضا بسنده عن محمد بن فضيل عن أبيه قال: كان ابن شـــبرمة والمغـــيرة والحارث العكلي والقعقاع بن يزيد وغيرهم يسمرون في الفقه، فربما لم يقومـــوا حـــتى يسمعوا النداء بالفجر (٢).

وفي (تذكرة الحفاظ) للذهبي أن ابن عباس رضي الله عنه قال: مذاكرة العلم ساعة خير من إحياء ليلة(٣)

وفي مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي: قال عبد الله بن أحمد بن حنبل: لما قدم أبو زرعة بغداد نزل عند أبي، فكان كثير المذاكرة له، فسمعت أبي يوما يقول: ما صليت اليوم غير الفرض، استأثرت بمذاكرة أبي زرعة على نوافلي .

وفي الإحياء للغزالي: قال ابن عباس رضي الله عنهما: تذاكر العلم بعض ليلة أحب إليّ من إحيائها، وكذلك روي عن أبي هريرة رضي الله عنه وأحمد بن حنبل رحمه الله اهـــ.

وقال أبو غدة في (قيمة الزمن): كان بعض أئمة اللغة العربية يلقب (المذاكرة) لشدة تعلقه بمذاكرة علم العربية مع كل من يراه من العلماء، قال الحافظ ابن حجر في (نزهة الألباب في الألقاب): "المذاكرة" يعني الملقب بالمذاكرة هو المنذر بن عبد الرحمن بن معاوية بن

---

[١] وقد ذكرنا حديث أنس آنفا في شرح بيت: وصاحب من الطلاب من كان عزمه ... إلخ.

[٢] الفقيه والمتفقه ج٢ص١٢٦-١٢٨.

[٣] تذكرة الحفاظ ج١ص٤١

محمد بن عبد الله الأندلسي المرواني. لقب بذلك لأنه كان مغرى بعلم النحو، وكان إماما فيه، مقدما في اللغة، وكان متى لقي رجلا من إخوانه قال له: هل لك في مذاكرة باب من العربية، فلقب بالمذاكرة لذلك، توفي سنة ٣٩٣ كما ذكره ابن حزم(١).

وقال عبد الغافر الفارسي: سمعت إمام الحرمين يقول: أنا لا أنام ولا آكل عادة، وإنما أنام إذا غلبني النوم ليلا كان أو نهارا، وآكل إذا اشتهيت الطعام أي وقت كان. وكانت لذته ونزهته في مذاكرة العلم، وطلب الفائدة من أي نوع كان.

مُطَارَحَةٌ بَيْنَ التَّلامِيْذِ وَالْمُبَا حَثَاتُ مَعَ الطُّلاْبِ مِنْ خَيْرِ خَصْلَةِ

أي إن من خير خصال طالب العلم المطارحةَ والمباحثةَ مع شركائه، فمما شاع بين الطلبة قولهم: العلم بين التلاميذ، وليست المطارحة خاصة بالتلاميذ فقط، بل ما زال العلماء الأكابر والأئمة الأجلاء يهتمون بها ويصرفون زمانا طويلا من أوقاتهم الغالية إليها، وذكر الخطيب البغدادي في (الفقيه والمتفقه) أن الحارث العكلي والمغيرة والقعقاع وابن شبرمة كانوا يصلون العشاء الآخرة ثم يجلسون فيتطارحون الفقه، وربما أذن المؤذن الفجر ولم يتفرقوا (٢) .

وكان الإمام أبو يوسف القاضي يعقوب بن إبراهيم الأنصاري الكوفي ثم البغدادي المتوفى سنة ١٨٢ رحمه الله تعالى، صاحِبُ الإمامِ أبي حنيفة وتلميذه وناشِرُ علمه ومذهَبِهِ، وقاضي الملوك الخلفاء العباسيين الثلاثة: المهدي والهادي والرشيد، وأول من دعي: قاضي القضاة، وكان يقال له: قاضي قضاة الدنيا: يباحث وهو في النزع بعضَ عواده في مسألة فقهية، رجاء النفع بها لمستفيد أو متعلم، ولا يخلي اللحظة الأخيرة من لحظات حياته من كسبها في مذاكرة علم وإفادة واستفادة.

وقال السديد الدمياطي الحكيم بالقاهرة: اجتمع ليلةً الشيخُ مسامرة بن النفيس مع القاضي جمال الدين بن واصل وأنا نائم عندهما، فلما فرغا من صلاة العشاء الآخرة، شرعا في البحث، وانتقلا من علم إلى علم، والشيخ علاء الدين في كل ذلك يبحث برياضة ودون انزعاج، وأما القاضي جمال الدين فإنه كان ينزعج، ويعلو صوته وتحمرُّ عيناه، وتنتفخ

---

[١] قيمة الزمن ٤٧-٤٨.

[٢] الفقيه والمتفقه ج٢ص١٢٩.

عروق رقبته، و لم يزالا كذلك إلى أن أسفر الصبح، فلما انفصل الحال قال القاضي جمال الدين: يا شيخ علاء الدين، أما نحن فعندنا مسائل ونكت وقواعد، وأما أنت فعندك خزائن علوم .

مُنَاظَرَةٌ مَعْ حَاذِقٍ مُنْصِفٍ لَهَا فَوَائِدُ جَمَّةٌ كَتَشْحِيْذِ (١) فِكْرَةِ

أي للمناظرة مع حاذق منصف فوائد كثيرة: منها تشحيذ الفطنة وتعلُّم إقامة الحجة لنصرة الحق وإدحاض الباطل، وإفحام أهل الأهواء والمبتدعة، قال الحافظ ابن عبد البر: قال سليمان بن عمران: سمعت أسد بن الفرات يقول: بلغني أن قوما كانوا يتناظرون بالعراق بالعلم، فقال قائل: من هؤلاء؟ فقيل: قوم يقتسمون ميراث رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقال ابن عبد البر أيضا: قالوا: لا تصح المناظرة ولا يظهر الحق بين المتناظرين حتى يكونا متقاربين أو متساويين في مرتبة واحدة في الدين والفهم والعقل والإنصاف، وإلا فهو مراءاة ومكابرة اهـ.

والمناظرة محمودة إذا كانت مع الإنصاف والأمن من التقاطع والجفاء، روى ابن عبد البر بسنده عن العباس بن عبد العظيم العنبري قال: كنت عند أحمد بن حنبل وجاءه عليّ بن المديني راكبا على دابة، فتناظرا وارتفعت أصواتهما حتى خفت أن يقع بينهما جفاء، فلما أراد عليٌّ الانصرافَ قام أحمدُ فأخذ بركابه(٢).

وإنما يكون فيها فوائد كثيرة إذا كان القصد منها إظهار الحق على لسانه أو لسان مناظره، قال الشافعي رحمه الله تعالى: ما ناظرت أحدا قط على الغلبة، وودت إذا ناظرت أحدا أن يُظْهِر الله الحق على يديه (٣).

وأما إذا كانت المناظرة معاندة ومغالبة فهي مذمومة وبلية عظيمة وآفة كبيرة، فليجتنب الطالب وليحذر منها، ومما نسب إلى الإمام الشافعي رحمه الله تعالى:

إذا ما كنت ذا فضل وعلم ... بما اختلف الأوائل والأواخر
فناظر من تناظر في سكون ... حليما لا تلحّ ولا تُكابر
يفيدك ما استفاد بلا امتنان ... من النكت اللطيفة والنوادر

---

[١] وفي القاموس: شحذ السكين أحَدَّهَا . المشحذ المِسنُّ اهـ.

[٢] جامع بيان العلم في باب إيثار المناظرة والمجادلة وإقامة الحجة ج٢ص١٣٠-١٣٢.

[٣] مقدمة المجموع ص٣٩ .

وإياك اللَّجُوجَ ومن يرائي بأني قد غلبتُ ومن يفاخر (١)

وينبغي للطالب أن يطالع الإحياء للغزالي ليعلم المحمود والمذموم من المناظرات، ويعلم شروطها وآفاتـــها، وما قد يكون فيها من تلبيسات الشياطين واتباع الأهواء.

احترام كتب العلم والمصاحف

وَتَعْظِيْمُ كُتْبِ العِلْمِ حَقٌّ مُؤَكَّدٌ عَلَيْكَ فَصُنْهَا عَنْ غُبَارٍ وَتُرْبَةِ

وَضَعْهَا مَكَانًا طَاهِراً لائِقاً بِـــهَا وَخُذْهَا بِحُبٍّ بِاليَمِيْنِ لِحُرْمَةِ

أي إن تعظيم كتب العلم واحترامها حق مؤكد على طالب العلم، ومن تعظيمها صونُها عن نحو غبار وتراب، ووضعها مكانا طاهرا نظيفا لائقا بـــها، وأخذها باليمين احتراما لها.

وَعَظِّمْ مَصَاحِفَ القُرانِ وَقَبِّلَنْ بِفِيْكَ بِـــهَا وَقُمْ لَهَا بِالْمَحَبَّةِ

أي عظِّم المصاحف الشريفة، ومن تعظيمها التقبيل والقيام لها، قال الإمام النووي في (التبيان في آداب حملة القرآن) أجمع المسلمون على وجوب تعظيم القرآن العزيز على الإطلاق وتنـــزيهه وصيانته.

وقال ابن حجر الهيتمي في (الفتاوي الحديثية): قال البيهقي كالحليمي: والأولى أن لا يجعل فوق المصحف غير مثله من نحو كتاب أو ثوب، وألحق به الحليمي جوامع السنن أيضا، وبحث ابن العماد أنه يحرم أن يضع عليه نعلا جديدا أو يضعه فيه لأن فيه نوع امتهان وقلة احترام، والأولى أن لا يستدبره ولا يتخطاه ولا يرميه بالأرض بالوضع ولا حاجة تدعو لذلك، بل لو قيل: بكراهة الأخير لم يبعد، وورد النهي عن تصغير لفظه كالمسجد فينبغي اجتنابه، قال الزركشي: ويسن تطييبه وجعله على كرسي وتقبيله انتهى.

وقال الزركشي أيضا: ويحرم مد الرجل إلى شيء من القرآن أو كتب العلم اهـــ . وفي إطلاق الحرمة وقفة، بل الأوجه عدمها إذا لم يقصد بذلك ما ينافي تعظيمه، وإذا قلنا بحرمة المد فمحله كما هو ظاهر حيث قرب منه بإن كان يُنسب المدّ إليه ويُعدّ مُخِلا بتعظيمه . ويجوز وضع المصحف في كوة طاهرة من غير فرش، لكن الأولى بفرش، وأولى منه وأفضل: تعليقُه.

---

[١] ديوان الشافعي.

ويجب على معلم الصبيان أن يمنع غير المميز من مس المصحف وحمله لئلا ينتهك حرمته، وله أن يمكن المميز من حمله لحاجة تعلمه منه أو ما يتوقف عليه التعليم كذهابه به إلى المكتب أو البيب وإن كان محدثا بل أو جنبا على المعتمد، ولا يجوز له تمكين المحدث من حمله أو مسه بغير ذلك(١).

وأخرج الإمام الدارمي في مسنده عن ابن أبي مليكة قال: إن عكرمة بن أبي جهل كان يضع المصحف على وجهه ويقول: كتاب ربي كتاب ربي (٢).

التمسك بعقيدة أهل السنة والجماعة

وَكُنْ أَشْعَرِيّاً فِيْ العَقِيْدَةِ يَا فَتَى ... أوِ اتْبَعْ أَبَا الْمَنْصُوْرِ تَسْعَدْ بِجَنَّةِ

فَإِنَّـــهُمَا قَدْ وَافَقَا دُوْنَ مِرْيَةٍ ... بِمَا فِيْ كِتَابِ اللَهِ فَاعْلَمْ وَسُنَّةِ

أي كن أيها الطالب متمسكا بإحدى العقيدتين المنسوبتين إلى الإمامين الشهيرين أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري وأبي منصور الماتريدي، فإنـــهما الموافقان بما في الكتاب العزيز، والسنة النبوية المطهرة.

واعلم أن الأشاعرة والماتريدية هما أهل السنة والجماعة، وهما على نـــهج الصحابة والتابعين والسلف الصالح رضي الله عنهم، وبمذهبهما يتمسك أهل المذاهب الأربعة.

قال المحقق العلامة تاج الدين السبكي في (معيد النعم ومبيد النقم): وهذه المذاهب الأربعة ولله الحمد في العقائد واحدة، إلا من لحق منها بأهل الاعتزال أو التجسيم، وإلا فجمهورها على الحق، يقرون عقيدة أبي جعفر الطحاوي(٣) التي تلقاها العلماء سلفا وخلفا بالقبول، ويدينون الله برأي شيخ السنة أبي الحسن الأشعري الذي لم يعارضه إلا مبتدع(٤) اهـــ.

وقال أيضا: هؤلاء الحنفية والشافعية والمالكية وفضلاء الحنابلة ولله الحمد في العقائد يد واحدة، كلهم على رأي أهل السنة والجماعة، يدينون الله تعالى بطريق شيخ السنة

---

[١] فتاوي الحديثية، ص١٩٧-١٩٨.

[٢] ونقله النووي في التبيان في آداب حملة القرآن من سنن الدارمي وقال: إسناده جيد.

[٣] اعلم أن عقيدة الطحاوي هي عقيدة أبي منصور الماتريدي، فهما متفقان، فيعبر مرة بعقيدة الماتريدي، ومرة بالطحاوية.

[٤] معيد النقم ومبيد النقم ص ٢٢.

والجماعة الإمام أبي الحسن الأشعري رحمه الله تعالى لا يحيد عنها إلا رَعَاعٌ(١) من الحنفية والشافعية لحقوا بأهل الاعتزال، ورَعَاع من الحنابلة لحقوا بأهل التجسيم، وبرأ الله المالكية، لم نر مالكيا إلا أشعريا عقيدة اهـــ.

وقال ابن حجر الهيتمي في (الزواجر عن اقتراف الكبائر): المراد بالسنة ما عليه إماما أهل السنة والجماعة الشيخ الإمام أبو الحسن الأشعري، وأبومنصور الماتريدي، والبدعة ما عليه فرقة من فرق المبتدعة المخالفة لاعتقاد هذين الإمامين وجميع أتباعهما(٢) .

وقال أيضا في (فتح الجواد بشرح الإرشاد) في شرح قول المصنف: (وَكُرِهَ إمامةُ فاسق ومبتدع): وهو من يعتقد ما أجمع أهل السنة على خلافه، وهم الإمام أبو الحسن الأشعري وأبو منصور الماتريدي وأتباعهما انتهى باختصار.

وقال المرتضى الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين): إذا أطلق أهل السنة والجماعة فالمراد بـــهم الأشاعرة والماتريدية، قال الخيالي في حاشيته على شرح (العقائد): الأشاعرة هم أهل السنة والجماعة، هذا هو المشهور في ديار خراسان والعراق والشام وأكثر الأقطار، وفيما وراء النهر يطلق ذلك على الماتريدية أصحاب الإمام أبي منصور اهـــ.

وتبعهم على ذلك الشيخ حسن بن عمر الشيرازي كما في كتابه (وسيلة الرجا شرح سفينة النجا)، وتبعهم محمد زاهد الكوثري فقال في مقدمة (تبيين كذب المفتري): الأشعري والماتريدي هما إماما أهل السنة والجماعة في مشارق الأرض ومغاربـــها، لهم كتب لا تحصى، وغالب ما وقع بين هذين الإمامين من قبيل الخلاف اللفظي(٣) اهـــ. وتبعهم على ذلك كثير من العلماء، فثبت أن أهل السنة والجماعة هم الأشاعرة والماتريدية فقط.

واعلم أن أبا الحسن الأشعري وأبا منصور الماتريدي لم يخترعا مذهبا لأنفسهما و لم يبدءا رأيا من عندهما، فقد قال العلامة المحدث الشهير الإمام المرتضى الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين): وليعلم أن كلا من الإمامين أبي الحسن وأبي منصور رضي الله عنهما وجزاهما عن

---

[١] قال ابن منظور في لسان العرب: رَعَاع الناس سُقَاطهم وسَفِلتهم. وفي حديث عمر رضي الله عنه: أن الموسم يجمع رَعَاعَ الناس أي غوغاءهم وسقاطهم وأخلاطهم، الواحد رَعَاعَة.

[٢] الزواجر عن اقتراف الكبائر في الكبيرة الحادية والخمسين ترك السنة.

[٣] تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري ص٢٧.

الإسلام خيرا لم يبدعا من عندهما رأيا و لم يشتَقَّا مذهبا، إنـــهما مقرران لمذهب السلف، مناضلان عما كانت عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وناظر كل منهما ذوي البدع والضلالات حتى انقطعوا وولوا منهزمين انتهى.

نبذة من ترجمة أبي الحسن الأشعري

هو أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري، وهو من ذرية أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، ولد الإمام أبو الحسن الأشعري سنة ٢٦٠هـــ على قول الأكثرين، وتوفي رحمه الله ببغداد سنة ٣٢٤ على قول الأكثرين، وقال الخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد): أبو الحسن الأشعري هو المتكلم صاحب الكتب والتصانيف في الرد على الملحدة وغيرهم من المعتزلة والرافضة والجهمية والخوارج وسائر أصناف المبتدعة.

وقال فيه مثل ما قاله الخطيب الإمام السمعاني في (الأنساب)، وأثنى عليه ابن قاضي شهبة في (طبقات الشافعية)، وابن عماد الحنبلي في (شذرات الذهب) وابن خلكان في (وفيات الأعيان)، وألف حافظ الشام فيه وفي الأشاعرة كتابه المشهور (تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري) وذكره خلائق في كتبهم وأثنوا عليه بما هوله أهل.

وللإمام تآليف كثيرة، قال ابن كثير في (طبقات الفقهاء الشافعيين): قال أبو محمد بن حزم: مصنفات الإمام أبي الحسن الأشعري خمسة وخمسون مصنفا، وذكر الحاجي خليفة في (كشف الظنون) ثلاثا وثمانين من كتبه وسردها.

وفي (الأعلام) للزركلي: قيل: إن مصنفاته بلغت ثلثمائة كتاب. وقال الزاهد الكوثري في تعليق كتاب (تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري): قال الإمام الحافظ أبوبكر بن العربي في العواصم عن القواصم: انتدب أبو الحسن الأشعري إلى كتاب الله فشرحه في خمسمائة مجلد وسماه بالمختزن اهـــ.

وكان الإمام أبو الحسن الأشعري شافعي المذهب، أخذ الفقه عن زكريا بن يحيى الساجي، وهو أخذ عن الربيع والمزني، وأخذا عن الشافعي. وتفقه الأشعري أيضا بأبي العباس بن سريج. وذكر ابن خلكان أنه كان يجلس في حلقة الشيخ أبي إسحاق المروزي الشافعي. وذكره ابن كثير في (طبقات الفقهاء الشافعيين) وابن السبكي في (طبقات الشافعية الكبرى) وابن شهبة في (طبقات الشافعية) والإسنوي في (طبقات الشافعية).

وقال بعضهم: إنه مالكي المذهب، وقال آخرون: إنه حنفي المذهب فالله أعلم.

قال التاج عبد الوهاب السبكي في (طبقات الشافعية الكبرى): اعلم أن أبا الحسن لم يبدع رأيا ولم ينشئ مذهبا، وإنما هو مقرر لمذاهب السلف، مناضل عما كانت عليه صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فالانتساب إليه إنما هو باعتبار أنه عقد على طريق السلف نطاقا وتمسك به، وأقام الحجج والبراهين عليه، فصار المقتدِي به في ذلك السالك سبيله في الدلائل يسمى أشعريا . وقال الشيخ أبو عبد الله محمد بن موسى بن عمار الكلاعي المايرقي : لم يكن أبو الحسن أول متكلم بلسان أهل السنة إنما جرى على سنن غيره، وعلى نصرة مذهب معروف، فزاد المذهب حجة وبيانا، ولم يبتدع مقالة اخترعها ولا مذهبا انفرد به، ثم ذكر المايرقي رسالة الشيخ أبي الحسن القابسي المالكي التي يقول فيها: واعلموا أن أبا الحسن الأشعري لم يأت من علم الكلام إلا ما أراد به إيضاح السنن والتثبت عليها. انتهى ما في الطبقات.

وفي كتاب (الإبانة في أصول الديانة) لما سئل الأشعري عن ديانته التي بها يدين فقال : قولنا الذي به نقول وديانتنا التي ندين بها التمسك بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، وما روي عن الصحابة والتابعين وأئمة الحديث، ونحن بذلك معتصمون، وبما كان عليه أحمد بن حنبل قائلون، ولمن خالف قوله مجانبون، لأنه الإمام الفاضل، والرئيس الكامل، الذي أبان الله به الحق عند ظهور الضلال، وأوضح به المنهاج وقمع به بدع المبتدعين وزيغ الزائغين وشك الشاكين اهـ.

وقال ابن السبكي في (طبقات الشافعية الكبرى) وقد ذكر شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام أن عقيدة أبي الحسن الأشعري اجتمع عليها الشافعية والمالكية والحنفية وفضلاء الحنابلة، ووافقه على ذلك من أهل عصره شيخ المالكية في زمانه أبو عمرو بن الحاجب وشيخ الحنفية جمال الدين الحصيري اهـ.

وفي شرح صحيح مسلم للنووي: قال القاضي عياض: إن مذهب أهل السنة بأجمعهم من السلف الصالح وأهل الحديث والمتكلمين على مذهبهم من الأشعريين أن أهل الذنوب في مشيئة الله تعالى، وأن كل من مات على الإيمان وتشهد مخلصا من قلبه بالشهادتين فإنه

يدخل الجنة، إما معجلا معافى، وإما مؤخرا بعد عقابه انتهى باختصار، ثم قال النووي: وكلام القاضي عياض هذا في نهاية الحسن(١) . فهذا الكلام صريح في أن الأشاعرة هم أهل السنة وهم موافقون للسلف الصالح وأهل الحديث، وكفى بهذين الإمامين الجليلين القاضي عياض والنووي شهادة. فانظر إلى قوله: المتكلمين على مذهبهم من الأشعريين!!.

وقال سلطان العلماء العز بن عبد السلام رحمه الله بعد أن ذكر عقائد أهل السنة والجماعة: هذا إجمال من اعتقاد الأشعري واعتقاد السلف وأهل الطريقة والحقيقة، ومراده بأهل الطريقة والحقيقة الصوفية(٢).

ذكر أسماء بعض أعيان الأشاعرة

هم طبقات، فمن الطبقة الأولى المعاصرين لأبي الحسن: الأستاذ أبو سهل الصعلوكي، والأستاذ أبو إسحاق الإسفراييني، والشيخ أبو بكر القفال، والشيخ أبو زيد المروزي، والأستاذ أبو عبد الله بن خفيف، والزاهر بن أحمد السرخسي، والحافظ أبو بكر الجرجاني الإسماعيلي، والشيخ أبو بكر الأودني، والشيخ أبو محمد الطبري العراقي، وأبو الحسن عبد العزيز بن محمد بن إسحاق الطبري المعروف بالدملي، وأبو جعفر السلمي النقاش، وأبو عبد الله الأصبهاني الشافعي، وأبو محمد القرشي الزهري، وأبو منصور بن حمشاد، فكل هؤلاء عاصروا الإمام أبا الحسن الأشعري وتمذهبوا بمذهبه وقرأوا كتبه وأكثرهم جالسه ، وأخذ عنه شفاها.

ومن أخصهم بالشيخ أبي الحسن: ابن مجاهد، وهو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن يعقوب بن مجاهد الطائي شيخ القاضي الباقلاني، وكان مالكي المذهب، وأبو الحسن الباهلي العبد الصالح شيخ الأستاذ أبي إسحاق، وخلائق غيرهم.

ومن الطبقة الثانية: سيف السنة أبوبكر الباقلاني، وأبو الطيب الصعلوكي، وأبو الحسن بن داود المقري الداراني، والأستاذ أبو بكر بن فورك، والأستاذ أبو علي الدقاق، والحاكم أبو عبد الله الحافظ، والحافظ أبو نعيم الأصبهاني، وأبو حازم العبدوي الحافظ الأعرج،

---

[١] شرح صحيح مسلم للنووي، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعا من كتاب الإيمان.

[٢] الفتاوي الحديثية للهيتمي ص٢٧٣.

والشيخ أبو سعد الخركوشي، والقاضي أبو عمر البسطامي، وأبـــو القاســـم البجلـــي، والشريف أبو طالب المهتدي، وأبو معمر بن أبي سعد الإسماعيلي.

ومن الثالثة: الحافظ أبو بكر البيهقي، والحافظ أبو ذر الهروي، وقاضي الموصل أبو جعفر السمناني الحنفي، والأستاذ أبو القاسم عبد الجبار بن علي الإســـفرايني، وأبـــو الحســـن السكري ، وأبو منصور الأيوبي النيسابوري، والقاضي عبد الوهاب المالكي، والشيخ أبو محمد الجويني، وأبو حسن النعيمي، والأستاذ أبو منصور البغدادي، وأبو محمد الأصبهاني ابن اللبان، وأبو عبد الله الخبازي ، وأبو الفضل بن عمروس المالكي، وسليم الرازي، وأبو بكر بن الجرمي الزاهد، وأبو طاهر بن خراشة، ورشأ بن نظيف المقري .

ومن الرابعة: الحافظ الخطيب البغدادي، والأستاذ أبو القاسم القشيري، وأبو علي بـــن أبي حريصة الهمذاني، وأبو المظفر الإسفرايني، والشيخ أبو إسحاق الشيرازي، وإمام الحرمين، ونصر المقدسي ، وأبو عبد الله الطبري .

ومن الخامسة: أبو المظفر الخوافي، والإمام الغزالي، وفخر الإسلام الشاشي، وأبـــو نصـــر القشيري، والشيخ أبو سعيد الميهني ، والشريف أبو عبد الله الديباجي، والقاضـــي أبـــو العباس الرطبي، وأبو عبد الله الفراوي، وأبو الوليد الباجي، والحافظ أبو عمرو بن عبد البر، والحافظ الكبير أبو القاسم بن عساكر، والحافظ أبو الحسن المرادي، والحافظ أبو سعد بن السمعاني، والحافظ أبو طاهر السلفي، والقاضي عياض بن محمد اليحصبي، والإمام أبـــو الفتح الشهرستاني، وعلي بن محمد بن علي إلكيا -بكسر الهمـــزة والكـــاف- كمـــا في (شذرات الذهب)، وأبو الحسن السلمي، وأبو سعد بن أبي صالح المـــؤذن، ونصـــر الله المصيصي.

ومن السادسة: الإمام فخر الدين الرازي، وسيف الدين الآمدي، وشيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام، والشيخ أبو عمرو بن الحاجب المالكي، واالشيخ جمال الدين الخصـــري الحنفي.

ومن السابعة: شيخ الإسلام تقي الدين بن دقيق العيد، والشيخ عـــلاء الـــدين البـــاجي، والشيخ الإمام فخر الحفاظ تقي الدين علي بن عبد الكافي السبكي، والشيخ صفي الدين الهندي، والشيخ صدر الدين بن المرحل، وابن أخيه الشيخ زين الدين، والشيخ صدر الدين

سليمان بن عبد الحكم المالكي، والشيخ شمس الدين الجريري الخطيب، والشيخ جمال الدين الزملكاني، والقاضي جمال الدين بن جملة، والشيخ شهاب الدين بن جميل، وقاضي القضاة شمس الدين السروجي الحنفي، والقاضي شمس الدين بن الحريري الحنفي، والقاضي عضد الدين الإيجي الشيرازي .

فهذا بعض ما ذكره حافظ الدنيا ابن عساكر في (تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري) والمحقق الفقيه الأصولي المحدث صاحب التآليف العديدة النافعة الشيخ تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين علي بن عبد الكافي السبكي في (طبقات الشافعية الكبرى).

وأضيف أنا إلى ذلك ممن لم يذكراه أو أتى بعدهما الإمام النووي مجدد القرن السابع كما قيل، فإنه كان أشعريا كما هو واضح في كتبه، وصرح به الحافظ السخاوي في ترجمته عنه، والحافظ إسماعيل بن كثير صاحب التفسير المشهور، فإنه وإن كان صاحب ابن تيمية وتلميذه كان أشعريا كما ذكره الحافظ العسقلاني في (الدرر الكامنة). وقال ابن كثير في (طبقات الفقهاء الشافعيين): قال الحافظ أبو القاسم بن عساكر في طبقات أصحاب الأشعري في آخر كتاب (تبيين كذب المفتري): رأيت بخط الثقات ما قول السادة الفقهاء في قوم اجتمعوا على لعن الأشعرية وتكفيرهم؟ وما الذي يجب عليهم؟ أفتونا، فأجاب جماعة، فمن ذلك: الأشعرية أعيان السنة انتصبوا للرد على المبتدعة من القدرية والرافضة وغيرهم، فمن طعن فيهم فقد طعن على أهل السنة، ويجب على الناظر في أمر المسلمين تأديبه بما يرتدع به كل أحد، وكتب إبراهيم بن علي الفيروزابادي. ثم قال ابن كثير: أما طريقة الشيخ أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري في الصفات بعد أن رجع عن الإعتزال بل وبعد أن قدم بغداد وأخذ عن أصحاب الحديث كزكريا الساجي وغيره فإنها من أصح الطرق، فإنه يثبت الصفات العقلية والخبرية ولا ينكر منها شيئا، ولا يكيّف منها شيئا، وهذه طريقة السلف والأئمة من أهل السنة والجماعة حشرنا الله في زمرتهم وأماتنا على اتباعهم ومحبتهم، إنه سميع الدعاء جواد كريم . وعلى هذا المنوال جرى الأئمة

من أصحاب الأشعري كأبي عبد الله بن مجاهد والقاضي أبي بكر الباقلاني وأضرابـــهم رحمهم الله، انتهى ما قاله الحافظ ابن كثير(١) .

ومنهم الحافظ الكبير أبو الحجاج يوسف بن زكي المِزي عبد الرحمن بن يوسف، فإنه صرح وكتب أنه أشعري، كما ذكره تلميذه ابن السبكي في (طبقاته) في ترجمة والده السبكي(٢). ومنهم شيخ الإسلام أمير المؤمنين في الحديث ابن حجر العسقلاني، وشيخه الحافظ العراقي، والحافظان السخاوي، والسيوطي، والهيتمي، والتاج ابن السبكي، والقسطلاني، والسلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب صاحب الفتوحات الكثيرة المشهورة، ففي (غاية البيان في تنـــزيه الله عن الجهة والمكان): قال السيوطي في كتابه "الوسائل إلى مسامرة الأوائل" ص١٥: لما ولي صلاح الدين بن أيوب أمر المؤذنين في وقت التسبيح أن يعلنوا العقيدة الأشعرية، فوظف المؤذنين على ذكرها كل ليلة إلى وقتنا هذا اهـــ، أي وقت السوطي المتوفى ٩١١هـــ انتهى ما في غاية البيان(٣) .

وفي (الفتوحات الربانية على الأذكار النووية): لما ولي صلاح الدين بن أيوب وحمل الناس على اعتقاد مذهب الأشعري أمر المؤذنين أن يعلنوا وقت التسبيح بذكر العقيدة الأشعرية التي تعرف بالمرشدية فواظبوا على ذكرها كل ليلة (٤)اهـــ .

فهؤلاء نيف ومائة من أكابر الأشاعرة في مختلف البلاد والأماكن والأعصار، من زمن الإمام أبي الحسن إلى أواخر القرن العاشر(٥) .

نبذة من ترجمة الإمام أبي منصور الماتريدي

قال الإمام المحدث اللغوي المرتضى الزبيدي في (إتحاف السادة المتقين شرح إحياء علوم الدين): اسم الإمام أبي منصور الماتريدي محمد بن محمد بن محمود الحنفي المتكلم، وماتريد ويقال: ماتريت بالمثناة الفوقية بدل الدال في آخره مَحِلَّة بسمرقند أو قرية بـــها، ويلقب بإمام الهدى، وترجمه الإمام المحدث محيي الدين أبومحمد عبد القادر بن محمد بن محمد بن

---

[١] طبقات الفقهاء الشافعيين ج٢ص٤٢.

[٢] طبقات الشافعية الكبرى ج ٦ص١٧١

[٣] غاية البيان في تنـــزيه الله عن الجهة والمكان ص٩٦.

[٤] الفتوحات الربانية على الأذكار النووية) ج٢ص١١٣.

[٥] إقناع المؤمنين بتبرك الصالحين .

نصر الله بن سالم بن أبي الوفاء القرشي الحنفي في الطبقات المسمى (بالجواهر المضيئة)، والإمام مجد الدين أبو الندى إسماعيل بن إبراهيم بن محمد بن علي بن موسى الكناني القاهري الحنفي في كتاب (الأنساب) كل منهما على الاختصار، وحاصل ما ذكروه أنه كان إماما جليلا مناضلا عن الدين موطدا لعقائد أهل السنة، قطع المعتزلة وذوي البدع في مناظراتـــهم وخَصَمَهم في محاوراتـــهم حتى أسكتهم، تخرج بالإمام أبي نصر العياضي، وله مصنفات منها كتاب (التوحيد) وكتاب (المقالات) وكتاب (رد أوائل الأدلة) للكعبي وكتاب (بيان وهم المعتزلة) وكتاب (تأويلات القرآن) وهو كتاب لا يوازيه فيه كتاب بل لا يدانيه شيء من تصنيف من سبقه في ذلك الفن، وله غير ذلك، وكانت وفاته سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة بعد وفاة أبي الحسن الأشعري بقليل، وقبره بسمرقند، كذا وجد بخط الحافظ قطب الدين عبد الكريم بن المنير الحلبي الحنفي،ووجدت في بعض المجاميع بزيادة محمد بعد محمود، ووجدت في كلام بعض الأجلاء من شيوخ الطريقة أنه كان مهدي هذه الأمة في وقته.

ومن شيوخه الإمام أبوبكر أحمد بن إسحاق بن صالح الجوزجاني صاحب الفرق والتمييز، وأما شيخه المذكور أبونصر العياضي الذي تخرج به هو أحمد بن العباس بن الحسين بن جبلة بن غالب بن جابر بن نوفل بن عياض بن يحيى بن قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري الفقيه السمرقندي ذكره الإدريسي في (تاريخ سمرقند) وقال: كان من أهل العلم والجهاد، ولم يكن أحد يضاهيه لعلمه وورعه وجلادته وشهامته إلى أن استشهد، ومن مشايخ الماتريدي نصير بن يحيى البلخي، ومحمد بن مقاتل الرازي قاضي الريّ ترجمه الذهبي في الميزان، وقال: حدث عن وكيع وطبقته، فأما أبوبكر الجوزجاني وأبو نصر العياضي ونصير بن يحيى فكلهم تفقهوا على الإمام أبي سليمان موسى بن سليمان الجوزجاني وهو على الإمامين أبي يوسف ومحمد بن الحسن، وتفقه محمد بن مقاتل ونصير بن يحيى أيضا على الإمامين أبي مطيع الحكم بن عبد الله البلخي وأبي مقاتل حفص بن مسلم السمرقندي، وأخذ محمد بن مقاتل أيضا عن محمد بن الحسن أربعتهم عن الإمام أبي حنيفة، قال ابن بياضي من علمائنا: وليس الماتريدي من أتباع الأشعري لكونه أول من أظهر مذهب أهل

السنة؛ لأن الماتريدي مفصل لمذهب الإمام أبي حنيفة وأصحابه المظهرين قبل الأشعري مذهب أهل السنة(١).

وَلاْ تَتَّبِعْ أهوَاءَ قَوْمٍ تَفَرَّقُوْا وَخَاضُوْا حُيَارَى في ضَلالاْتِ بِدْعَةِ

أي لا تتبع أيها الطالب أهواء أقوام تفرقوا في الاعتقاديات وخاضوا حائرين في بحار ضلالات البدع، قال الله تعالى: {**واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا**} وقال تعالى: {**ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات**} وقال تعالى: {**إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء**}.

وفي (الدر المنثور في التفسير المأثور) للحافظ السيوطي: أخرج ابن ماجه وابن جرير وابن أبي حاتم عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: افترقت بنو اسرائيل على إحدى وسبعين فرقة، وإن أمتي ستفترق على اثنتين وسبعين فرقة، كلهم في النار إلا واحدة، قالوا: يارسول الله ومن هذه الواحدة؟ قال: الجماعة، ثم قال: {**واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا**}.

وأخرج أحمد وأبو داود عن معاوية بن أبي سفيان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إن أهل الكتابين افترقوا في دينهم على اثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة –يعني الأهواء– كلها في النار إلا واحدة، وهي الجماعة .

وأخرج أبو داود والترمذي وابن ماجه والحاكم وصححه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وتفرقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة .

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن قال: كيف يَصْنَعُ أهل هذه الأهواء الخبيثة بـــهذه الآية في آل عمران: {**ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات**} قال: نبذوها ورب الكعبة وراء ظهورهم.

---

(١) اعلم أن كثيرا من علماء التواريخ والتراجم أهمل ترجمة هذا الإمام، وبعضهم ذكر منها كلمات قليلة، فظفرت بعد البحث ولله الحمد بما ذكره الزبيدي في إتحاف السادة المتقين ورأيت ذكر فيه ما يروي الظمآن إلى ترجمته، ويشبع الغرثان من سيرته، فلخصت منه ما ذكرته هنا والله الموفق .

وأخرج الحاكم عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول صلى الله عليه وسلم: يأتي على أمتي ما أتى على بني اسرائيل حذو النعل بالنعل، حتى لو كان فيهم من نكح أمه علانية كان في أمتي مثله، إن بني اسرائيل افترقوا على إحدى وسبعين ملة، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملة، كلها في النار إلا ملة واحدة، فقيل له: ما الواحدة؟ قال: ما أنا عليه اليوم وأصحابي .

وأخرج أحمد والترمذي وابن ماجه والطبراني وابن المنذر عن أبي غالب قال: رأى أبو أمامة رؤوس الأزارقة منصوبة على درج مسجد دمشق، فقال أبو أمامة: كلاب النار، شر قتلى تحت أديم السماء، خير قتلى من قتلوه، ثم قرأ: **{يوم تبيض وجوه وتسود وجوه}** الآية، قلت لأبي أمامة: أنت سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: لو لم أسمعه إلا مرة أو مرتين أو ثلاثا أو أربعا حتى عدّ سبعا ما حدثتكموه .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو نصر في (الإبانة) والخطيب في تاريخه واللالكائي في (السنة) عن ابن عباس في هذه الآية قال: **{تبيضّ وجوه وتسودّ وجوه}** قال: تبيض وجوه أهل السنة والجماعة، وتسود وجوه أهل البدع والضلالة .

وأخرج أبو نصر السجزي في (الإبانة) عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ **{يوم تبيض وجوه وتسودّ وجوه}** قال: تبيض وجوه أهل الجماعات والسنة، وتسود وجوه أهل البدع والأهواء .

وأخرج الخطيب في رواية مالك والديلمي عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى: **{يوم تبيض وجوه وتسود وجوه}** قال: تبيض وجوه أهل السنة، وتسود وجوه أهل البدع .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي أمامة في قوله: **{فأما الذين اسودت وجوههم}** قال: هم الخوارج .

وأخرج الحكيم الترمذي وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والطبراني وأبو نعيم في الحلية وابن مردويه وأبو نصر السجزي في (الإبانة)، والبيهقي في شعب الإيمان عن عمر بن الخطاب أن رسول صلى الله عليه وسلم قال لعائشة: يا عائشة إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا هم أصحاب البدع، وأصحاب الأهواء وأصحاب الضلالة من هذه الأمة، ليست لهم توبة،

ياعائشة إن لكل صاحب ذنب توبة غير أصحاب البدع وأصحاب الأهواء، ليس لهم توبة، أنا منهم بريء وهم مني برآء .

وأخرج ابن أبي حاتم والنحاس وابن مردويه عن أبي غالب أنه سئل عن هذه الآية: **{إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا}** فقال: حدثني أبو أمامة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنـــهم الخوارج .

وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبي أمامة: {**إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا**} قال: هم الحرورية .

وأخرج الحكيم الترمذي وابن جرير والطبراني والشيرازي في الألقاب وابن مردويه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله: **{إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا}** قال: هم أهل البدع والأهواء من هذه الأمة .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي شيبة وابن منذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن أبي الأحوص في قوله **{لست منهم في شيء}** قال: بريء منهم نبيكم صلى الله عليه وسلم .

وأخرج ابن منيع في مسنده وأبو الشيخ عن أم سلمة قالت: لِيَتَّقِيَنَّ امرؤ أن لا يكون من رسول الله صلى الله عليه وسلم في شيء ثم قرأت هذه الآية **{إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء}** .

وأخرج الحكيم الترمذي عن أفلح مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: أخوف ما أخاف على أمتي ثلاث، ضلالة الأهواء، واتباع الشهوات في البطن والفرج، والعجب، انتهى ما نقلته من الدر المنثور في التفسير بالمأثور[١].

قال البيهقي في (مناقب الشافعي): قال أحمد بن حنبل لأبي عثمان بن الشافعي: إني لأحبك لثلاث خصال، أنك رجل من قريش، وأنك ابن أبي عبد الله، وأنك من أهل السنة[٢] اهـــ

---

[١] قال الشيخ عبد القاهر في الفرق بين الفرق: للحديث الوارد على افتراق الأمة أسانيد كثيرة، وقد رواه عن النبي صلى الله عليه وسلم جماعة من الصحابة كأنس بن مالك، وأبي هريرة، وأبي الدرداء، وجابر، وأبي سعيد الخدري، وأبي بن كعب، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وأبي أمامة، وواثلة بن الأسقع وغيرهم .

[٢] مناقب الشافعي للبيهقي ج١ص٧٧ .

وفي (بشرى الكئيب بلقاء الحبيب) و(شرح الصدور) كلاهما للحافظ السيوطي أخرج اللالكائي في (السنة) بسنده عن محمد(١) بن نصر الصائغ(٢) قال: كان أبي مولَعا بالصلاة على الجنائز من عرف ومن لم يعرف، قال: يا بني حضرت يوما جنازة، فلما دفنوها نزل إلى القبر نفسان، ثم خرج واحد وبقي الآخر، وحثا الناسُ التراب، فقلت: ياقوم يدفن حي مع ميت، فقالوا: ما ثَمَّ أحد، فقلت: لعله شُبِّهَ لي، ثم رجعت فقلت: ما رأيت إلا اثنين خرج واحد وبقي الآخر، لا أبرح حتى يكشف الله لي ما رأيت، فجئت إلى القبر، وقرأت عشر مرات يس وتبارك وبكيت وقلت: يارب اكشف لي عما رأيت، فإني خائف على عقلي وديني، فانشق القبر وخرج منه شخص، فولّى مدبرا، فقلت: ياهذا بمعبودك ألا وقفت حتى أسألك، فما التفت إليّ، فقلت له الثانية والثالثة، فالتفت وقال: أنت نصر الصائغ؟ قلت: نعم، قال: فما تعرفني؟ قلت: لا، قال: نحن ملكان من ملائكة الرحمة وُكِّلْنَا بأهل السُّنَّةِ إذا وضعوا في قبورهم نزلنا حتى نُلَقِّنُهُم الحجة وغاب عني(٣).

واعلم أن كل فرقة من هذه الفرق تدَّعِي أنـــها الناجية التي على هدي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وتبرهن على ما تدّعيه وتذكر أدلتها وحججها التي تمسكت بـــها، لكن الذي لا شك فيه أنـــها الأشاعرة والماتريدية كما صرح به جمهور أهل العلم، ولا عبرة بمن شذ وانفرد من أهل الأهواء، وقد ذكرنا أن أهل المذاهب الأربعة متفقون على عقيدة الأشاعرة والماتريدية، فلو ذهب ذاهب من المشرق إلى المغرب وطاف في الأقطار والآفاق كما طاف فيها ابن بطوطة لِيَعْلَمَ علما حقيقيا الفرقة الناجية من هذه الفرق التي ذكرها رسول الله صلى الله عليه وسلم لَعَلِمَ وتَحَقَّقَ أنّها الأشاعرة والماتريدية اللتان هما كفرقة واحدة، لقلة اختلافهما في المسائل، فقد قال المحقق التاج عبد الوهاب السبكي في (طبقات الشافعية الكبرى): إنه لا خلاف بين الأشاعرة وبين الماتريدية أصحاب أبي حنيفة إلا في ثلاث عشرة مسئلة فقط، ولا يبدع بعضهم بعضا فضلا عن التكفير، وقال ابن السبكي أيضا في نونيته التي يعارض فيها نونية ابن زفيل:

---

(١) في بشرى الكئيب عن بحر بن نصر بدل محمد بن نصر .

(٢) في تاريخ بغداد للحافظ الخطيب البغدادي ج٣ص٣١٩: أن الدارقطني قال: محمد بن نصر الصائغ صدوق فاضل ناسك. توفي رحمه الله تعالى في سبع من رمضان سنة ٢٩٧.

(٣) شرح الصدور للسيوطي ص١٤١.

يا صاح إن عقيدة النعمان والأشعـــري حقيقـــة الاتقـــان

فكلاهما والله صاحب سنة بـــهـــدى نبي اللـــه معتقـــدان

لا ذا يبدع ذا ولا هذا وإن تحسب سواه وهمت في الحسبان

والخلف بينهما قليل أمره سهـــل بلا بدع ولا كـــفـــران

وقال ابن الجوزي في (صيد الخاطر):

فصل سلفيون جهال

عجبت من أقوام يدعون العلم، ويميلون إلى التشبيه بحملهم الأحاديث على ظواهرها، فلو أنـــهم أمرّوها كما جاءت سلموا؛ لأن من أمرّ ما جاء ومرّ من غير اعتراض ولا تعرض فما قال شيئا لا له ولا عليه، ولكن أقواما قصرت علومهم فرأت أن حمل الكلام على غير ظاهره نوع تعطيل، ولو فهموا سعة اللغة لم يظنوا هذا، وما هم إلا بمثابة قول الحجاج لكاتبه وقد مدحته الخنساء فقالت:

إذا هبط الحجاج أرضا مريضة تتبع أقصى دائها فشفاها

فلما أتمت القصيدة، قال لكاتبه: اقطع لسانـــها، فجاء ذاك الكاتب المغفل بالموسى، فقالت له: ويلك إنما قال: أجزل لها العطاء، ثم ذهبت إلى الحجاج فقالت: كاد والله يقطع مقولي، فكذلك الظاهرية الذين لم يَسْلَمُوا بالتسليم، فإنه من قرأ الآيات والأحاديث ولم يزد لم أُلُمْهُ، وهذه طريقة السلف، فأما من قال: الحديث يقتضي كذا، ويحمل على كذا، مثل أن يقول: استوى على العرش بذاته، وينـــزل إلى السماء الدنيا بذاته، فهذه زيادة فهمها قائلها من الحس لا من النقل.

أما النقل فقوله سبحانه وتعالى: {**ليس كمثله شيء**} ومن فهم هذا لم يحمل وصفا له على ما يوجبه الحس.

وأما العقل فإنه قد علم مباينة الصانع للمصنوعات، واستدل حدوثها بتغيرها، ودخول الانفعال عليها، فثبت له قِدَمُ الصانع.

واعجبا كل العجب مِن رادّ لم يفهم طبيعة الكلام؟، أوليس في الحديث الصحيح: أن الموت يذبح بين الجنة والنار، أوليس العقل إذا استغنى في هذا صرف الأمر عن حقيقته، لما ثبت عند من يفهم ماهية الموت؟، فقال: الموت عرض يوجب بطلان الحياة،

فكيف يُمَات الموت؟، فإذا قيل له: فما تصنع بالحديث؟، قال: هذا ضرب مثل بإقامة صورة ليعلم بتلك الصورة الحسية فوات ذلك المعنى، قلنا له: فقد روى في الصحيح: تأتي البقرة وآل عمران كأنهما غمامتان، فقال: الكلام لا يكون غمامة، ولا يشتبه بـــها، قلنا له: أفتعطل النقل، قال: لا، ولكن أقول: يأتي ثوابُهما، قلنا: فما الدليل الصارف لك عن هذه الحقائق؟ فقال: علمي بأن الكلام لا يتشبه بالأجسام، والموت لا يذبح ذبح الأنعام، ولقد علمتم سعة لغة العرب، ما ضاقت أعطانكم من سماع مثل هذا، فقال العلماء: صدقت هكذا نقول في تفسير مجيء البقرة، وفي ذبح الموت، فقال: واعجبا لكم صرفتم عن الموت والكلام ما لا يليق بـــهما، حفظا لما علمتم من حقائقهما، فكيف لم تصرفوا من الإله القديم ما يوجب التشبيه له بخلقه بما قد دل الدليل على تنْزيهه عنه؟، فما زال يجادل الخصوم بـــهذه الأدلة، ويقول: لا أقطع حتى أقطع، فما قطع حتى قطع (١).

خاتمة

ذكرنا أن أهل السنة والجماعة هم الأشاعرة والماتريدية، فمن خالفهما فيما اتفقا عليه فليس من أهل السنة والجماعة، فيكون من الفرق الضالة المبتدعة، وقال الهيتمي في (الزواجر): قد ورد في المبتدعة أحاديث وآثار كثيرة، منها قوله صلى الله عليه وسلم: من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه. وقال الجلال البلقيني: المراد بذلك أتباع البدع عافانا الله من ذلك.

ومنها: أبى الله أن يقبل عمل صاحب بدعة حتى يدع بدعته، رواه ابن ماجه، وفي رواية أخرى له: لا يقبل الله لصاحب بدعة صوما ولا حجا ولا عمرة ولا جهادا ولا صرفا ولا عدلا، يخرج من الإسلام كما تخرج الشعرة من العجين.

ومنها: لقد تركتكم على مثل البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك.

ومنها: لكل عمل شِرَّةٌ(٢) ولكل شرة فترة، فمن كانت شرته إلى سنتي فقد اهتدى، ومن كانت شرته إلى غير ذلك فقد هلك(٣) اهـــ.

---

[١] صيد الخاطر، فصل سلفيون جهال، ص٨٥-٨٧.

[٢] قوله: شِرَّةٌ قال ابن حجر الهيتمي: هي بكسر المعجمة فشدة للراء فتاء تأنيث أي نشاط وهمة.

[٣] الزواجر عن اقتراف الكبائر في الكبيرة الحادية والخمسين في ترك السنة.

وروى أبو نعيم في (حلية الأولياء): أهل البدع شر الخلق والخليقة. قال العزيزي: قال السيوطي: حديث حسن اهـــ.

التمسك بمذهب من المذاهب الأربعة

تَمَسَّكْ بِفِقْهِ الشّافِعِيِّ وَمَالِكٍ وَنُعْمَانِنَا وَأحْمَدٍ خُذْ بِقُوَّةٍ

يعني تمسك بمذهب إمام من الأئمة الأربعة وخذه بقوة، وهم أبو حنيفة النعمان بن ثابت، ومالك بن أنس، ومحمد بن إدريس الشافعي، وأحمد بن محمد بن حنبل رضي الله عنهم وعن أتباعهم أجمعين.

وقال الشيخ إبراهيم اللقاني في (جوهرة التوحيد):

ومالك وسائر الأئمه كذا أبو القاسم (١) هداة الأمه

فواجب تقليد حبر منهم كذا حكى القوم بلفظ يفهم

وقال الباجوري في (تحفة المريد على جوهرة التوحيد): أي إنه يجب على كل من لم يكن فيه أهلية الاجتهاد المطلق ولو كان مجتهد مذهب أو فتوى تقليدُ إمام من الأئمة الأربعة في الأحكام الفرعية، وما جزم به الناظم هو مذهب الأصوليين وجمهور الفقهاء والمحدثين، واحتجوا بقوله تعالى: {**فاسئلوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون**} فأوجب السؤال على من لم يعلم، ويترتب عليه الأخذ بقول العالم؛ وذلك تقليد له، وقال بعضهم: لا يجب تقليد واحد بعينه، بل له أن يأخذ فيما يقع له بـــهذا المذهب تارة وبغيره أخرى، فيجوز صلاة الظهر على مذهب الإمام الشافعي، وصلاة العصر على مذهب مالك، وهكذا، وخرج بقولنا: من لم يكن فيه أهلية الاجتهاد المطلق من كان فيه أهليته فإنه يحرم عليه التقليد فيما يقع له عند الأكثر، واختاره الآمدي وابن الحاجب والسبكي لتمكنه من الاجتهاد الذي هو أصل التقليد(٢).

وقال محيي السنة الإمام البغوي في مقدمة (التهذيب): اعلم أن كل من بلغ رتبة الاجتهاد من العلماء إذا عرضت له حادثة يجب عليه أن يطلبها من الكتاب أو السنة أو الاجماع، فإن لم يجد لم يكن له أن يقلد فيها عالما آخر، لا للعمل به ولا للفتوى ولا للقضاء،

---

[١] وقوله: أبو القاسم يريد به أبا القاسم الجنيد بن محمد سيد الطائفة الصوفية علما وعملا.

[٢] تحفة المريد على جوهرة التوحيد ص٩٥.

وأما العامي ومن لم يبلغ رتبة الاجتهاد ففرضه التقليد والأخذ بقول أهل العلم، قال الله تعالى: {**فاسئلوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون**}.

وقال إمام الحرمين في (مغيث الخلق في ترجيح قول الحق): وإننا لا نشك أن الصديق والفاروق وذا النورين والمرتضى عليا رضي الله عنهم أجمعين وعامة الصحابة كانوا أفضل وأفقه وأعلى حالا وأكمل شأنا وأعظم قدرا وأرفع خطرا من أبي حنيفة والشافعي ومالك وغيرهم، ومع هذا لا يجب على الخلق انتحال مذهب الصديق والصحابة، ويجب انتحال مذهب الشافعي وأبي حنيفة وغيرهما، ولم يكن ذلك إلا لمعنى معقول، وهو أن الصحابة كانوا مشغولين بتأكيد عرى الدين والذب عن حوزة الإسلام وإيضاح اليقين، وحين استأثر الله تعالى برسوله وانقلب هو إلى رضوان الله تعالى وقضى نحبه ولقي ربه عز وجل تصدى الصديق للإمامة والخلافة، والزعامة العامة، والرئاسة التامة، ونصرة الشريعة وحفظ الحدود، ونزل به من الوقائع ما لو نزل بالجبال الراسيات لهدمها، فلم يتفرغ لتفريع التفاريع وتفصيل التفاصيل وتخريج المسائل بحيث تفى بجيمع الوقائع، بل اشتغل باستمالة القلوب واستعطاف الجوانب، وقتال أهل الردة ومانعى الزكاة، حتى أبقى الشريعة بمائها، واستدامها على بهائها، والفاروق اشتغل بفتح البلاد، وتطهير الأرض من أهل الزيغ والشرك والعناد، وقمع أولى العرامة والفساد، حتى اتسع نطاق الملة، وخضعت الأعناق لأهل القبلة، وكذا ذو النورين اشتغل بفتح الأمصار، وقتل الكفار، والمرتضى اشتغل بدفع الداهية الدهماء، والمشكلة العمياء، فلم يتفرغوا إلى تفريع التفاريع وتفصيل التفاصيل، بل أصلوا الأصول وأسسوا الأساس، فلما لم تكن أصول الصديق ومن في منزلته من الصحابة وافية بجميع الحوادث لم يجب انتحال مذهب الصديق، وأبو حنيفة جاء بعد ذلك وفرَّع التفاريع وأحدث من الفروع ما لا يعد ولا يحصى، ولا يحد ولا يخفى، وأتى بالدقائق التي حار فيها العقلاء بحيث لا يغادر الشعر إلا مشقوقا، والغيب إلا مرموقا، واستغرق عمره في وضع المسائل فلم يتفرغ إلى النحل والتمييز، وهذا لأن من وضع شيئا في الابتداء كان مشغولا في جميع عمره بالوضع والنصب، فلم يتفرغ إلى النحل

فتدركه المنية قبل أن يتفرغ إلى النحل والتمييز، ولهذا كان أبو يوسف ومحمد خالفاه في مسائل عدة، ومواضع جمة، ونحلا وميزا الصحيح من الفاسد.

وهذا لا يختص بالعلم فإن الحرف والصناعات والآلات كلها موضوعة على هذا المثال، فإن الأولين وضعوا سمة من كل حرفة، والآخرين فرَّعوا عليها تفاريع لا تعد ولا تحصى، وازدادوا عليها بالأعاجيب والبدائع في دقائق الحرف والصنائع، التي لم يتفرغ الأولون إليها، لأن الأولين اشتغلوا بالوضع والتمهيد، وأَعْطَوا الآخرين روح الكفاية عن الأصل، فاستقل الآخرون بالنحل والتمييز والتفريع، وكانوا أصدق وأدق نظرا فيه، وهذا معلوم من حيث اطراد الله العادة(١) انتهي.

وقال الشاطبي في (الإعتصام): المكلف بأحكام الشريعة لا يخلو من أحد أمور ثلاثة، أحدها أن يكون مجتهدا فيها فحكمه ما أداه إليه اجتهاده، الثاني: أن يكون مقلدا صرفا خليا من العلم الحاكم جملة، فلا بد له من قائد يقوده وحاكم يحكم عليه وعالم يقتدي به، ومعلوم أنه لا يقتدي به إلا من حيث هو عالم بالعلم الحاكم، والدليل على ذلك أنه لو علم أو غلب على ظنه أنه ليس من أهل ذلك العلم لم يحل له اتباعه ولا الانقياد لحكمه، بل لا يصح أن يخطر بخاطر العامي ولا غيره تقليد الغير في أمر مع علمه بأنه ليس من أهل ذلك الأمر كما أنه لا يمكن أن يُسَلِّمَ المريض نفسه إلى أحد يعلم أنه ليس بطبيب إلا أن يكون فاقد العقل، وإذا كان كذلك فإنما ينقاد إلى المفتي من جهة ما هو عالم بالعلم الذي يجب الانقياد إليه لا من جهة كونه فلانا أو فلانا، وهذه الجملة لا يسع الخلاف فيها عقلا ولا شرعا.

وقال أيضا: إن العالم بالشريعة إذا اُتُّبِعَ في قوله وانقاد إليه الناس في حكمه فإنما اُتُّبِعَ من حيث هو عالم وحاكم بها وحاكم بمقتضاها لا من جهة أخرى فهو في الحقيقة مبلغ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم المبلغ عن الله عز وجل فَيُتَلَقَّى منه ما بلغ على العلم بأنه بلغ أو على غلبة الظن بأنه بلغ لا من جهة كونه منتصبا للحكم مطلقا إذ لا يثبت

---

(١) مغيث الخلق في ترجيح القول الحق لإمام الحرمين، ص١٦-٢٢.

ذلك لأحد على الحقيقة وإنما هو ثابت للشريعة المنـــزلة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وثبت له عليه الصلاة والسلام وحده دون الخلق من جهة دليل العصمة(١).

وقال أيضا في آخر كتابه (الإعتصام): إذا ثبت أن الحق هو المعتبر دون الرجال فالحق أيضا لا يعرف دون وسائطهم بل بـــهم يتوصل إليه وهم الأدلاء على طريقه(٢) اهـــ.

وفي كتاب (التمذهب) للشيخ عبد الفتاح بن صالح قديش ما نصه: قال الذهبي في سير أعلام النبلاء ٢٧ص١١٧ لا يكاد يوجد الحق فيما اتفق أئمة الاجتهاد الأربعة على خلافه مع اعترافنا بأن اتفاقهم على مسألة لا يكون اجماع الأمة، ونـــهاب أن نجزم في مسألة اتفقوا عليها بأن الحق في خلافها(٣).

وقال الموفق في المغني: النسبة إلى إمام في الفرع كالأئمة الأربعة ليست بمذمومة فإن اختلافهم رحمة واتفاقهم حجة قاطعة(٤) .

وقال الدكتور مصطفى سعيد الخنّ في مقدمة كتابه (أثرالاختلاف في القواعد الأصولية في اختلاف الفقهاء): منذ نعومة أظفاري كنت أطلب العلم، وكنت أسمع في مجالسه المسألة تعرض فيقال فيها: أبو حنيفة رأيه فيها كذا، والشافعي مذهبه فيها كذا، ومالك أفتى بـــها كذا، وأحمد قال فيها كيت وكيت.

وكنت أسائل نفسي آنذاك: أليس كتاب الله الذي هو خاتمة كتبه واحدا؟ أوليس الرسول الذي هو خاتم الأنبياء والمرسلين واحدا؟ وهو الرسول محمد الذي أرسل للناس كافة بشيرا ونذيرا؟ فلم هذا الاختلاف؟ وما هي عوامله وأسبابه؟ وما هي بواعثه ومنطلقاته؟

وكنت أردد في أعماقي: إن هذا يجب ألا يكون في الأمة الإسلامية التي أكرمها الله جل جلاله بأن جعلها خير أمة أخرجت للناس {**كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله**}، وجعلها أمة واحدة متآخية متعاونة {**إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون**} وأمرها أن يكون ملاذها ومعتصمها

---

[١] الإعتصام للشاطبي ص٥٠٢-٥٠٣.

[٢] الإعتصام للشاطبي ص٥١٥.

[٣] التمذهب ص٢٠٧.

[٤] التمذهب ٢٠٩.

كتابه المجيد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنـــزيل من حكيم حميد {**واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا**}.

وكان يقوِّي في نفسي هذا المعنى ما كنت أقرؤه وأسمعه من صيحات تتعالى من هنا ومن هناك، تنادى بتوحيد المذاهب وأطْرِ الأمة(١) كلها على خطة واحدة، لا مجال فيها لهذا التلون والاختلاف، بل وهذا التناقض في بعض الأحيان، ولَكَم كنت أُصِيخ بسمعي إلى هذه الأصوات المتعالية متلهفا ومتحرقا إلى بزوغ شمس يوم لا نسمع فيه إنسانا يتمذهب بشافعية ولا حنفية ولا غير ذلك.

ولَكَمْ عقدت العزم أنا وأتراب لي أن نعمل على إخراس هذه الأصوات التي تنادى بالمذهبية أيا كان نوعها معتدلة أو متطرفة، كلما وجدنا إلى ذلك سبيلا.

واستمر بي هذا الحال إلى أن كان لي شرف الانتساب إلى كلية الشريعة في الجامعة الأزهرية، ودرست فيها فيما درست مادة التفسير، وكانت تشير إلى منازع الفقهاء على اختلافهم في أخذهم الفقه من كتاب الله عز وجل الذي أنزله بيانا للناس وهدى ورحمة.

ودرست أيضا أحاديث الأحكام في كتاب (سبل السلام) للصنعاني، وفي كتاب (نيل الأوطار) للشوكاني، ذلك الكتاب الذي كانت إدارة الأزهر آنذاك توزعه بالمجان على الطلاب في الكلية؛ ليكون معوانا لسبل السلام في دائرة أوسع ومجال أرحب.

وكانت هذه الكتب تعرض وجهات نظر العلماء عند استنباطهم الأحكام من سنة النبي صلى الله عليه وسلم التي جاءت مبينة لما أجمل في كتاب الله عز وجل.

ودرست أيضا الفقه المقارن، وفيه عرض جيد وممتع لوجهات نظر الأئمة عندما يقفون أمام النصوص في كتاب وسنة؛ ليستنبطوا منها أحكام الله وهم يبذلون أقصى جهدهم في التعرف إلى الحقيقة، تاركين هوى أنفسهم، غير عابئين إلا بما يرضى الله ورسوله، فيصدرون عنها بأحكام مختلفة، كل على حسب خطته التي استوحاها من الشريعة نفسها.

وما إن اطلعت على ذلك حتى شعرت بأن غلوائي أخَذَتْ تَخِف شيئا فشيئا، وأن حقدي على المذهبية طفق يتلاشى رويدا رويدا.

---

[١] قوله: وأطر الأمة كلها على خطة واحدة: أي حبسها وجمعها على مذهب واحد.

وعلمت فيما علمت أن الأمر جد، وأنه لا يكفي أن يرفع الإنسان عقيرته صائحا: حسبنا كتاب الله، ما لم يحدد الطريق التي يتوصل بـــها إلى فهم ذلك الكتاب، ويرسم الخطة المحكمة لاستنباط الأحكام منه.

ولا يكفي أيضا أن يقول: إذا صح الحديث فهو مذهبي، بل لا بد من بذل جهد جاهد، وإحاطة بالسنة، ومعرفة طرائق الاستنباط، فيكون كل ذلك منارا يضيء له الطريق، حتى يهتدي إلى نور الله، ويأمن الضياع عن الحق.

وأدركت حينذاك فضل هؤلاء الأئمة الأعلام الذين أحيوا ليلهم وأظمؤوا نـــهارهم في سبيل معرفة الحقيقة مرضاة لله، فكانوا مفخرة الأمة الإسلامية، ولآلىء في تاج حضارتـــها وتفوقها ورُقِيِّها في عالم التشريع والقانون.

وأدركت أيضا أن الإنسان الذي يغض من شأنـــهم ويستطيل على مكانتهم، إن هو إلا رجل غرّ جاهل متعالم، كالهرّ يحكي انتفاخه صولة الأسد .

والاختلاف في الفروع بعد الاتفاق على الأصل فما هو إلا اختلاف في الطريق الموصل إلى الحقيقة لا في الحقيقة نفسها، وقد يكون في هذا الخلاف توسعة على السائرين ورفق بـــهم ورحمة، وجدير به أن لا يمت إلى الانشقاق لا من قريب ولا من بعيد وهذا هو شأن المذاهب الفقهية.

ثم قال الدكتور: قدر لي بعد تخرجي بزمن غير يسير الانتسابُ إلى قسم دراسات العليا "دبلوم أصول الفقه" وكان من جملة موادها الدراسية مادة "أثر القواعد الأصولية في اختلاف الفقهاء" فأعجبت بـــهذه المادة أيما إعجاب، فلقد رَوَّتْ في نفسي تلك النبتة التي نبتت عند ما كنت منذ زمن طويل طالبا في كلية الشريعة، كما إنـــها أحدثت في نفسي رد فعل ليس بالسهل تجاه أولئك الذين يهاجمون المذاهب متستري وراء ما أسموه بالسلفية، وقد جهلوا أن أرباب المذاهب إن هم إلا النخبة الصالحة من السلف الصالح إهـــ.

وأثنى الحافظ شمس الدين الذهبي تلميذ ابن تيمية فقهاء المذاهب الأربعة، فقد قال الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي في كتابه (اللاّمذهبية): قال الحافظ الذهبي في رسالة (زغل العلم والطلب) وهو يتحدث عن الفقهاء الذين التزموا مذاهب أئمتهم مادحا ومثنيا ومؤيدا لهم في ذلك: الفقهاء المالكية على خير واتباع وفضل، والفقهاء الحنفية أولوا

التدقيق والرأي والذكاء والخير، والفقهاء الشافعية من أكيس الناس وأعلمهم بالدين، فأُسُّ مذهبهم مبني على اتباع الأحاديث الثابتة المتصلة، وإمامهم من رؤس أصحاب الحديث، ومناقبه جمة، فإن حصلتَ يا هذا مذهبه لتدين الله به وتدفع عن نفسك الجهل فأنت بخير، وأما الحنابلة فعندهم علوم نافعة وفيهم دين بالجملة(١) اهـ بحذف.

وقال البوطي أيضا في كتابه (اللاّمذهبيّة): نتساءل ما ذا لو أعرضنا عن كل الأدلة ودعونا الناس (اجتهادا منا) إلى الانطلاق من قيد المذاهب واتباعها والانسياح(٢) في رحب الاجتهاد؟.

وأقول لك في الجواب: ما ذا يحدث لو دعونا الناس كلهم إلى الانطلاق في مشاريعهم العمرانية عن اتِّباع المهندسين والاستعانة بهم والاعتماد عليهم، وفي قضاياهم وعلاجاتهم الصحية عن اتباع الأطباء والاعتماد عليهم والأخذ بأقوالهم، وفي صناعاتهم وأسباب معايشهم عن اتباع أرباب الاختصاص في تلك الصناعات ونبذ الاستفادة من معلوماتهم ومهاراتهم ما ذا يحدث لو دعونا الناس كلهم إلى الخروج عن اتباع هؤلاء المختصين والاستعاضة عن ذلك بالاجتهاد في كل ذلك واعتماد القناعة الذاتية التي تأتي بعد البحث والاجتهاد، ثم صَدَّقَنا الناسُ في هذه الدعوة، وفعلوا ذلك؟.

إن الذي سيحدث وراء ذلك بلا شك هو الفوضى المهلكة للعمران والحرث والنسل: يعمد الناس إلى تخريب بيوتِهم عن طريق التعمير، ويسرعون إلى ازهاق أرواحهم باسم التطبيب، ويجُرُّوْنَ على أنفسهم الفقر والضياع من وراء العمل والتصنيع، ذلك لأنّهم وضعوا الاجتهاد في غير مكانه وطبقوه بدون شرطه، وتجاهلوا سنة الله في الكون من ارتباط فئات الناس بعضهم ببعض في مجال التعاون والتناصر والتعلم والاسترشاد.

وهذه حقيقة يعلمها الناس جميعا حتى الأطفال الصغار، وحتى دعاة اللاّمذهبيّة أنفسهم، ولكن لما ذا لا يفهم هؤلاء الناس هذا القانون نفسه في مجال الاختصاصات الدينية، وأحكام الحلال والحرام؟ لا ندري!

---

[١] اللاّمذهبية أخطر بدعة تهدد الشريعة الإسلامية ص٨٠ .

[٢] أي الاتساع في رحب الاجتهاد، ففي القاموس ولسان العرب: انساح بَالُهُ اتسع، وفي اللسان أيضا: انساحت الصخرة اتسعت ومنه ساحة الدار اهـ .

إن النتيجة التي ستحدث لدى اقتحام الناس جميعا ميادين الاجتهاد في تلك الاختصاصات الدنيوية هي نفس النتيجة التي ستحدث لدى اقتحام الناس جميعا ميادين الاجتهاد في العلوم الشرعية وأحكام الحلال والحرام.

وقال أيضا ما حاصله: إذا حملنا الناس على ترك كتب المذاهب الأربعة وبدلنا لهم بكتب أخرى أَلَّفَهَا واجتهد فيها أناس أخرون وألزمنا على تقليدهم فليس في ذلك أكثر من أننا أوجبنا عليهم أن يتحولوا من تقليد الأئمة الأربعة إلى تقليد فلان وفلان من المعاصرين، وليس لهذا الالتزام أي معنى إلا معنى الحقد والضغينة على الأئمة الأربعة وتابعيهم، والتعصب لفلان وفلان والترويج لاجتهادهم(١).

وفي كتاب (التمذهب) قال ابن رجب الحنبلي: فإن قال أحمق متكلف: كيف يحصر الناس في أقوال علماء متعينين ويمنع من الاجتهاد أو من تقليد غير أولئك من أئمة الدين؟ قيل له: كما جمع الصحابة رضي الله عنهم الناس على قراءة واحدة في سائر البلدان لما رأوا أن المصلحة لا تتم إلا بذلك، وأن الناس إذا تركوا يقرأون على حروف شتى وقعوا في أعظم المهالك، فكذلك مسائل الأحكام وفتاوي الحلال الحرام، لو لم تضبط الناس فيها بأقوال أئمة معدودين لأدى ذلك إلى فساد الدين، وأن يُعَدَّ كل أحمق متكلف طلبت الرياسة نفسه من زمرة المجتهدين، وأن يبتدع مقالة ينسبها إلى بعض من سلف من المتقدمين، فربما كان بتحريف يحرفه عليهم كما وقع ذلك كثيرا من بعض الظاهريين، وربما كانت تلك المقالة زلةً من بعض من سلف قد اجتمع على تركها جماعة من المسلمين، فلا تقضى المصلحة غير ما قدره الله وقضاه من جمع الناس على مذاهب هؤلاء الأئمة المشهورين رضي الله عنهم أجمعين(٢) اهـ بمعناه.

وقد ألف العلامة الشيخ محمد عوامه حفظه الله كتابا سماه: أثر الحديث الشريف في اختلاف الأئمة الفقهاء رضي الله عنهم، تكلم فيه بإسهاب عن اختلاف أئمة المذاهب، وكتابا سماه أدب الاختلاف في مسائل العلم والدين، وهما كتابان لا يستغني عنهما طلاّب العلم الشريف في هذا العصر الذي كثر فيه الغرور والتخيلات والتلبيسات، وانتشر فيه

---

[١] اللاّمذهبيّة أخطر بدعة تُهدد الشريعة الإسلامية ص٨٧-٨٩.

[٢] التمذهب ص٢٠٩.

الجهل والفوضى، والتعصب إلى ما يسمى باللاّمذهبية، وسوّلت لكثير من أهله أنفسُهم الاجتهادَ الشهوانيَّ والتحررَ عن التقليد لأئمة المذاهب الأربعة، وإلى الله المشتكى والمفزع.

وَسَاءَ صَنِيْعُ مَنْ تَقَلَّدَ غَيْرَهُم   وَقَد خَابَ سَعْياً وَارْتَدَى ثَوْبَ حَسْرَةِ

في هذا البيت التحذير بعبارة شديدة اللهجة عن تقليد مذهب غير المذاهب الأربعة، أي ساء صنيع من تقلّد غير الأربعة وخاب سعيه وتشمله الحسرة والندم كما يشمل الإنسانَ رداؤه، وذلك لأن من ترك التقليد بالكلية أو قلّد إماما مجتهدا لم تدوّن مذهبه و لم تعرف قواعده وإن كان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يزال في حيرة من أمر دينه وتخبط في أعماله، ولا يكاد يهتدي إلى الصواب، بل قد يكون دائما في قلق واضطراب، فلا هدوء له ولا اطمئنان، ولا تفارقه الهموم والوحشة؛ لسلوكه سبيلا ليس فيه أنيس ولا جليس، فقد سار الناس من المفسرين والمحدثين والفقهاء وغيرهم على نـــهج الأئمة الأربعة وتمذهبوا بمذاهبهم وتمسكوا بحبالهم، فهم الأتباع لهؤلاء الأئمة في الدنيا ويحشر معهم إن شاء الله يوم يدعو الله كل أناس بإمامهم(١).

وقال ابن حجر الهيتمي في (كف الرعاع(٢) عن محرمات اللهو والسماع): قد ذكر الأئمة أنه لا يجوز لمفت ولا لقاض تقليد غير الأئمة الأربعة، قالوا: لا لنقصهم لأن الصحابة وتابعيهم سادات الأمة، وإنما هو لارتفاع الثقة بشروط مذاهبهم وتحقيقاتـــها وصـــورها، فإنّها أقوال في جزئيات متعددة، و لم يعلم لهم قواعد يُرجَع إليها ولا شروط وتقييدات يُعوّل عليها، وارتفعت الثقة بـــها لأنّها لم تُحَرَّرْ وَتُدَوَّنْ بخلاف المذاهب الأربعة،

---

[1] قال القرطبي في كتابه الجامع لأحكام القرآن في تفسير قوله تعالى: {**يوم ندعو كل أناس بإمامهم**}: قيل: بمذاهبهم فيدعون بمن كانوا يأتمون به في الدنيا ويقلدونه، فيقال: يا حنفي يا شافعي يا معتزلي يا قدري، ونحو ذلك اهـــ حاشية الجمل على تفسير الجلالين. وقال ابن جرير الطبري في تفسير هذه الآية بعد ذكره أقوالا كثيرة: وأولى الأقوال عندنا بالصوب قول من قال: معنى ذلك {**يوم ندعو كل أناس بإمامهم**} الذي كانوا يقتدون به ويأتمون به في الدنيا؛ لأن الأغلب من استعمال العرب الإمامَ فيما ائتم واقتدى به، وتوجيه معاني كلام الله إلى الأشهر أولى ما لم تثبت حجة بخلافه يجب التسليم إليها اهـــ .

[2] الرَّعَاعُ كسحاب الأحداث الطغام، والطغام: أوغاد الناس، والوَغْد الأحمق الضعيف الرذل الدنيء اهـــ القاموس. وفي لسان العرب لابن منظور: الرَّعاع– الأحداث، ورَعاع الناس سُقاطهم وسَفِلَتُهم.

فإنّها حررت ودونت وتعاقبت الأراء ومحضتها(١) كوامل العقول حتى نقحتها وحررتْها، ولم يُقَلْ مِنْهَاْ مَسْأَلَةٌ إلا وعُلِمَ مغزاها ودليلها ومعناها، فوثقت بـــها النفوس واطمأنت إليها القلوب بخلاف بقية المذاهب الخارجة عنها، ومن ثم كان الشافعي يقول: الليث أفقه من مالك لكن ضيعه أصحابه أي بعدم تدوين مذهبه وتحرير مقاصده وقواعده(٢) اهـــ.

وقال ابن حجر الهيتمي في (الفتح المبين بشرح الأربعين): قال بعض أئمتنا: لا يجوز تقليد غير الأئمة الأربعة، الشافعي ومالك وأبي حنيفة وأحمد بن حنبل رضوان الله تعالى عليهم؛ لأن هؤلاء قد عرفت قواعد مذاهبهم واستقرت أحكامها وخدمها تابعوهم وحرروها فرعا فرعا وحكما حكما، فعزّ أن يوجد حكم إلا وهو منصوص لهم إجمالا أو تفصيلا بخلاف غيرهم، فإن مذاهبهم لم تحرر وتدوّن كذلك، فلا تعرف لها قواعد تُتَخرج عليها أحكامها، فلم يجز تقليدهم فيما حفظ عنهم منها؛ لأنه قد يكون مشترطا بشروط أخرى وكلوها إلى فهمها من قواعدهم، فقلّت الثقة بخلو ما حفظ عنهم من قيد أو شرط فلم يجز التقليد حينئذ(٣) .

وفي مجموعة (سبعة كتب مفيدة): انقرضت مذاهب غير الأربعة بعد الخمسمائة. وقد صرح جمع من أصحابنا بأنه لا يجوز تقليد غير الأئمة الأربعة، وعللوا ذلك بعدم الثقة بنسبتها إلى أربابـــها؛ لعدم الأسانيد المانعة من التحريف والتبديل بخلاف المذاهب الأربعة(٤).

واعلم أن الأئمة المجتهدين أصحاب المذاهب وغيرهم كثيرون في التابعين ومن بعدهم إلى القرن الثالث الهجري، وقد بقي مذاهب بعضهم زمانا طويلا كمذهب الإمام الأوزاعي عبد الرحمن بن عمرو بن يُحْمِد، ومذهب داود الظاهري، وقال الإمام الغزالي في الإحياء والإمام النووي في (التقريب): أصحاب المذاهب المتبوعة: سفيان الثوري،

---

[١] أي خلصتها من كل ما يشوبُها ويخالطها، ففي لسان العرب: المحض: الخالص وكل شيء خلص حتى لا يشوبه شيء يخالطه.

[٢] كف الرَّعاع عن محرمات اللهو والسماع، وهو مطبوع على هامش الزواجر عن اقتراف الكبائر ج١ ص١٦١.

[٣] الفتح المبين بشرح الأربعين، شرح حديث الثامن والعشرين.

[٤] سبعة الكتب المفيدة ص٨٩.

ومالك بن أنس، وأبوحنيفة النعمان بن ثابت، وأبوعبد الله محمد بن إدريس الشافعي، وأبوعبد الله أحمد بن حنبل.

وقال السيوطي في (تدريب الراوي): من أصحاب المذاهب المتبوعة: الأوزاعي، وكان له مقلدون بالشام نحوا من مائتى سنة، وإسحاق بن راهوية، وأبو جعفر بن جرير الطبري، وداود الظاهري(١)اهـ.

قلت: وما قاله السيوطي من أن ابن جرير الطبري صاحب مذهب هو خلاف المشهور، والمعروف أنه شافعي المذهب كما في طبقات الشافعية الكبرى وغيرها.

قلت: وقد انقرضت هذه المذاهب كلها منذ زمان بعيد ولم يبق منها في الأزمنة المتأخرة إلا الأربعة المذكورة.

واعلم أن الله سبحانه وتعالى اختص الأئمة أصحاب الاستنباط بفهم دقيق، وإدراك عميق، وفكر ثاقب، ورأي صائب، فعلموا يقينا أن الأمة في أشد حاجة إلى الاستنباط من نصوص الكتاب والسنة؛ وذلك أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنهم كانوا جميعا مجتهدين يأخذون أحكام الحوادث والوقائع من الأصلين، وما لم يظهر لهم فيهما كانوا يجتهدون فيه ويأخذ كل منهم ما أدّى إليه اجتهاده، فقد يختلف الاجتهاد في بعض الأحوال كما في قضية قتال المرتدين، وقضية علي ومعاوية رضي الله عنهما، وغير ذلك مما هو مشهور، فمن أصاب منهم فله أجران، ومن أخطأ فله أجر واحد، وأما سؤال بعضهم بعضا في القضايا والمسائل فليس ذلك تقليدا له؛ إذ لا يمتنع من المجتهد

---

١ ولد سفيان الثوري سنة سبع وتسعين، ومات بالبصرة سنة إحدى وستين ومائة، ومات مالك بن أنس بالمدينة سنة تسع وسبعين ومائة، قيل: ولد سنة ثلاث وتسعين، وقيل: إحدى، وقيل: أربع. ومات أبوحنيفة النعمان بن ثابت ببغداد سنة خمسين ومائة وهو ابن سبعين، وولد الإمام الشافعي سنة خمسين ومائة، ومات بمصر آخر رجب سنة أربع ومائتين، ولد أحمد بن حنبل سنة أربع وستين ومائة، ومات ببغداد في شهر ربيع الآخر سنة إحدى وأربعين ومائتين، ومات الأوزاعي ببيروت سنة سبع وخمسين ومائة، ومات إسحاق بن راهوية سنة ثمان وثلاثين ومائتين، ومات بن جرير الطبري سنة عشر وثلاثمائة، وولد داود الظاهري بالكوفة سنة ثنتين ومائتين، وتوفي في ذي العقدة، وقيل: في رمضان ببغداد سنة تسعين ومائتين. تدريب الراوي شرح تقريب النووي ج٢ص٣٦٠. وقال عبد الوهاب عبد اللطيف محقق تدريب الراوي: ومن أصحاب المذاهب المقلدة أيضا: سفيان بن عيينة، والليث بن سعد المصري، فتكون عدتهم أحد عشر مذهبا، وقد انقرضوا فلم يبق منهم إلا المذاهب الأربعة بعد الخمسمائة لقصور الهمم.

سؤال المجتهد بل عليه أن يعلم كثيرا من آراء المجتهدين وأقوالهم، وعلى هذا مضى عهد الصحابة رضي الله عنهم.

ومما لا شك فيه أن بعض الصحابة كان أعلم من بعض، فمنهم من وصفه رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه باب العلم، ومنهم من قال: إنه أعلمهم بالحلال والحرام، ومنهم من قال: إنه أفرضهم أي أعلمهم بالفرائض، ومنهم من دعا له بأن يفقهه في الدين، ومنهم من قال: لو ضاع عقال بعيري لوجدته في كتاب الله، لكن تفاوتُهم في العلم لا ينافي تساويهم في أصل الاجتهاد، فقد قال الإمام البوصيري في همزيته:

كلهم في أحكامه ذو اجتهاد   وصواب وكلهم أكفاء

وقال ابن حجر الهيتمي في شرحه لهذا البيت: أي كلهم ذو اجتهاد صحيح لتوفر شروط الاجتهاد كلها في جميعهم (١)، ولذلك لم يُعرف عن أحد منهم أنه قلّد غيره في مسألة من المسائل، وكان الناس يستفتون كل من رأوه منهم فيُفتيه باجتهاده، ولا يعترض أحد منهم على أحد إلا إن كان هناك نص صريح خولف، فيذكر له، فمنهم من يرجع إليه، ومنهم من يؤوله أو يعارضه بمثله، وهذا رد على قوم سلبهم الله الدين والعقل، وسلط عليهم الحمق والجهل، فاعتقدوا أنــهم ذوو هوى أو نَفْس، أو حظ أو بغض، حاشاهم الله من ذلك، بل لم يخترهم لصحبة نبيه صلى الله عليه وسلم إلا وهم على أكمل الأوصاف وأجلها. وقوله: (وكلهم أكفاء) أي متكافئون في أصل الصحبة والفضيلة والعلم والاجتهاد وإبراز الأحكام لا لحظ ولا لهوى، وإنما يتفاوتون في الزيادة في ذلك، وحينئذ فلا ينافي ذلك قول ابن عمر رضي الله عنهما: أبوبكر أعلمنا، ولا سؤال عمر لعلي رضي الله عنهما فيجيبه فيقول: لا قدس الله أمة لست فيها يا أبا الحسن، ولا تقديم عمر لابن عباس رضي الله عنهم على أكابر مشيخة المهاجرين والأنصار؛ لأنه كان يجد عنده من العلم ببركة دعاء النبي صلى الله عليه وسلم له بأن الله يفقهه في الدين ويعلّمه التأويل ما ليس عندهم، ولا سؤال معاوية لعلي رضي الله عنهما بالإرسال إليه في المشكلات فيجيبه،

---

[١] قال بعضهم: لم يكونوا كلهم مجتهدين، فقد قال الشيخ محمد سعيد رمضان البوطي في كتابه اللاّمذهبيّة: لم يكن جميع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل فتيا –كما قال ابن خلدون– ولا كان الدين يؤخذ عن جميعهم، بل كان فيهم المفتي المجتهد، وفيهم المستفتي المقلد اهـ ص٧١.

ولقد قال له أحد ابنيه: لم تجيب عدونا؟ فقال: أما يكفينا أنه احتاج إلينا وسألنا (١) اهـــ.

وأما التابعون فقد انتشر الإسلام في زمنهم، ودخلت فيه أمم من العرب والعجم، وضعفت الهمم، واستولت الشهوات وحب الدنيا على كثير من الناس خلاف ما كانت عليه الصحابة رضوان الله عليهم، وصار الناس أخلاطا وأنواعا، فيهم العالم المجتهد الذي كملت فيه آله الاجتهاد، وهؤلاء كثيرون فيهم جدا، وفيهم العامي المقلد يَسْتَفْتِي ويَعْمَلُ بما يفتيه المفتي فقط.

وفي عصرهم كثرت الفتن والتنافس في المناصب وانتشرت البدع واختلفت الآراء، ولما خيف على الدين من التدهور والضياع اهتمّ بعضهم بكتابة الحديث وتدوينه، والذب عنه من افتراء الوضاعين وكذب الملحدين، وبعضهم بالتأليف، وبعضهم بترتيب الأدلة وكيفية جمعها عند تعارضها، وتقديم بعضها على بعض، وتأصيل الأصول، وتأسيس القواعد الشرعية لِيُرجَع إليها في حالة عدم النص.

ومن أبرز من شمّر وجدّ وقام لسدِّ هذا الثغر ودفع هذا الخطر المترقب الإمام أبو حنيفة النعمان بن ثابت، وسار على نـــهجه من أتباع التابعين وغيرهم الإمام مالك بن أنس وتلميذه الإمام الشافعي، وتلميذه أحمد بن محمد بن حنبل ومن حذا حذوهم رضي الله عنهم أجمعين، فبذلوا قصارى جهدهم ونـــهاية وسعهم في جمع الأدلة المتعارضة، والترجيح بين آراء العلماء المتباينة، وحماية الشريعة من أي خلل ونقص يمكن أن يتطرق إليها ولو باحتمال ضعيف، فخاضوا بحار معاني الكتاب والسنة، وأجالوا فيها الأفكار، فبدت لهم معانٍ ونكتٌ خفِيت على غيرهم، واستخرجوا منهما دررا غالية، وعلوما باهرة، وحكما بالغة، فكشفوا الغطاء عن مخدرات المسائل المكنونة في كنوز نصوص القرآن والسنة، واقتنصوا كل شاردة ونادرة، وأظهروا من الأصلين خبايا، ودفع الله بـــهم من الناس رزايا، فلا تحتاج إلى حكم من الأحكام في أي حادثة من الحوادث إلا وجدته مسطرا منصوصا في مذاهبهم بالأدلة الواضحة، أو تجد فيها قاعدة من قواعدها تدخل

---

(١) المنح المكية في شرح الهمزية ص٥٤٩-٥٥٠.

هذه الحادثة فيها وترد إليها(١)، فتراهم استخرجوا من غير آيات الأحكام وأحاديثها- كالقصص والسير والمواعظ وغيرها- أحكاما كثيرة، ومسائل دقيقة، لا يتنبه لها غيرهم، ولا يدركها أحد سواهم.

وكان للإمام الشافعي رحمه الله شأن عجيب وأمر غريب في الفطنة والفهم الدقيق في الاستنباط من الكتاب والسنة، ففي (حاشية النفحات شرح الورقات) قال العراقي: عُدَّ من خاصية الإمام الشافعي رضي الله عنه التَفَطُّن لدلالة قوله عليه السلام والسلام: (إذا استيقظ أحدكم من نومه فلا يغمس يده في الإناء حتى يغسلها ثلاثا فإنه لا يدري أين باتت يده) على نجاسة الماء القليل بوقوع النجاسة فيه من غير تغير، ودلالة قوله عليه السلام والسلام: (تقعد إحداهن شطر دهرها لا تصوم ولا تصلي) على تقدير أكثر مدة الحيض بخمسة عشر يوما، ودلالة قوله تعالى: {**وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبدا**} على أن من مَلَكَ بَعضَه(٢) عتق عليه(٣).

فائدة في ذكر بعض قواعد الشافعية

اعلم أن للمذاهب قواعدَ وأصولا يرجع إليها في المسائل والحوادث التي لا يوجد لها نص من أئمة المذاهب ولا نقل صريح من أكابر أصحابهم وأتباعهم، ومن قواعد مذهب إمامنا الشافعي رحمه الله تعالى: الاجتهاد لا ينقض بالاجتهاد، إذا اجتمع الحلال والحرام غلب الحرام، الإيثار في القرب مكروه وفي غيرها محبوب، الحدود تسقط بالشبهات، إعمال الكلام أولى من إهماله، الخروج من الخلاف مستحب، الرخص لا تناط بالمعاصي، الرضى بالشيء رضي بما يتولد منه، السؤال معاد في الجواب، لا ينسب للساكت قول، ما حرم استعماله حرم اتخاذه، ما حرم أخذه حرم إعطاؤه، من استعجل شيئا قبل أوانه عوقب بحرمانه، الولاية الخاصة أقوى من الولاية العامة، الاشتغال بغير المقصود إعراض عن المقصود، لا ينكر المختلف فيه وإنما ينكر المجمع عليه، يغتفر في الوسائل ما لا يغتفر

---

[١] قال إمام الحرمين: يبعد أن تقع مسئلة لم ينص عليها في المذهب ولا هي في معنى المنصوص ولا مندرجة تحت ضابط حاشية النفحات ص١٦٨.

[٢] يعني أصله أو فرعه.

[٣] حاشية النفحات شرح الورقات ص١٦٦.

في المقاصد، الميسور لا يسقط بالمعسور، لا عبرة بالظن البَيِّنِ خطؤه(١)اهـ. وهي كثيرة كثيرة تزيد على مائتي قاعدة. وأما أصولها المأخوذة منها من الكتاب والسنة وفروعها التي تدخل فيها فهي مذكورة في الكتب الموضوعة لذلك، ومن أحسنها الأشباه والنظائر للسيوطي.

وقال البرماوي وغيره: قواعد فقه مذهبنا الشافعي كثيرة جدا غير أن القاضي حسينا لما بلغه حكاية أبي طاهر الدباس إمام الحنفية بما وراء النهر حيث ردّ جميع مذهب أبي حنيفة إلى سبعة عشر قاعدة وأنه كان يضنّ بتعليمها ردّ القاضي مذهب الشافعي رضي الله عنه إلى أربع قواعد، (الأولى): اليقين لا يزال بالشك، ومن مسائلها من يتيقن الطهارة وشك في الحدث فهو متطهر وعكسه. و(الثانية): المشقة تجلب التيسير(٢)، ويخرج عليها جميع جميع رخص الشرع كجواز القصر والجمع والفطر في السفر وتخفيفاته كأعذار الجمعة وغير ذلك مما لا حصر له في العبادات، ومن التخفيفات في المعاملات ما أبيح من الغرر الممنوع كبيع البيض بقشره والرمان والبطيخ ونحو ذلك وأنموذج المتماثلات، ومنها الطلاق والرجعة وجميع فروض الكفايات وسننها، و(الثالثة): الضرر يزال(٣)، ومن مسائلها الرد بالعيب وجميع أنواع الخيار ونصب الأئمة والقضاة. و(الرابعة): العادة محكمة، ومن مسائلها أقل الحيض يوم وليلة، وضم بعض أئمتنا إلى هذه خامسة وهي: الأمور بمقاصدها، ومن مسائلها وجوب النية في نحو الطهارة من العبادات جميعها وفي نحو كنايات البيع وغيرها. ورجع العز بن عبد السلام الفقه إلى قاعدة واحدة، وهي اعتبار المصالح ودرء المفاسد بل قال: قد يرجع الكل إلى اعتبار المصالح فقط، ودرء المفاسد من جملتها. قال الشيخ تقي الدين السبكي(٤): التحقيق عندي أنه إن أريد برجوع الفقه إلى

---

[١] نقلت هذا من الأشباه والنظائر للحافظ السيوطي رحمه الله .

[٢] قال السيوطي في الأشباه والنظائر: وبمعنى هذه القاعدة قول الإمام الشافعي رحمه الله: (إذا ضاق الأمر اتسع).

[٣] ومن القواعد أيضا: الضرر لا يزال بالضرر، لكن قال ابن السبكي: إن هذا يعود على قولهم: الضرر يزال ولكن لا بضرر، فشأنهما شأن الأخص مع الأعمّ، بل هما سواء؛ لأنه لو أزيل بالضرر لما صدق "الضرر يزال". الأشباه والنظائر.

[٤] هذا ما في حاشية النفحات، والذي في الأشباه والنظائر للسيوطي: قال الشيخ تاج الدين السبكي. وتقي الدين هو الإمام المجتهد علي بن عبد الكافي السبكي، وتاج الدين لقب ولده عبد الوهاب مؤلف جمع الجوامع وغيره من المؤلفات الكثيرة النافعة.

إلى الخمس بتعسف وتكلف وقول جملي فالأمر كذلك وإن أريد الرجـــوع بوضوح فإنـــها تزيد على الخمسين بل على المائتين. قال البرماوي: قواعد الفقه وإن كانت كثيرة تزيد على المائتين لكن ليس شيء منها في العموم كهذه الخمسة وقد نظمها بعضهم في قوله:

خمس محررة قواعد مذهب للشافعي بـــها تكون خبيرا
ضرر يزال وعادة قد حكمت وكذا المشقة تجلب التيسير
والشك لا ترفع به متيقنا والنية أخلص إن أردت أجورا [1]

وقد ذكر مثل هذا الحافظ السيوطي في الأشباه والنظائر في الكتاب الأول في شرح القواعد الخمس.

وقد أخذ بعضهم من قوله صلى الله عليه وسلم: "يا أبا عمير ما فعل النغير[2]" فوائد تزيد على المائة، وأفردها العلامة ابن القاص الشافعي بجزء[3]، وهذا الحديث معدود من أحاديث مزاحه صلى الله عليه وسلم، فإنه عليه الصلاة والسلام قاله لأبي عمير لما مات طائر كان يلعب به، فرآه صلى الله عليه وسلم حزينا فمازحه بذلك.

وأبوعمير هو أخ صغير لأنس بن مالك لأمه، والنغير طائر كالعصفور.

قال الحافظ العسقلاني في (فتح الباري بشرح صحيح البخاري): في بعض طرق هذا الحديث "فزارنا-أي النبي صلى الله عليه وسلم- ذات يوم فقال: يا أم سليم[4] ما شأني أرى أبا عمير ابنك خاثر النفس[5]" وفي طريق آخر: فجعل يمسح رأسه ويقول.. الحديث. وفي هذا الحديث عدة فوائد جمعها أبو العباس أحمد بن أبي أحمد الطبري المعروف

---

[1] حاشية النفحات على الورقات ص١٦٣-١٦٤.

[2] حديث "يا أبا عمير ما فعل النغير"، رواه أحمد في مسنده والبخاري والترمذي والنسائي وابن ماجه عن أنس. الفتح الكبير في ضم الزيادة إلى الجامع الصغير، ولفظه في صحيح البخاري عن أنس قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم أحسن الناس خلقا، وكان لي أخ يقال له: أبو عمير، قال: أحسبه فطيما، وكان إذا جاء قال: يا أبا عمير ما فعل النغير؟ نُغَرٌ كان يلعب به، فربما حضر الصلاةَ وهو في بيتنا فيأمر بالبساط التي تحته فيكنس وينضح، ثم يقوم ونقوم خلفه فيصلي بنا.

[3] حاشية المواهب اللدنية للبيجوري على الشمائل المحمدية للترمذي .

[4] أم سليم بنت ملحان هي أم أنس بن مالك راوي الحديث وأم أبي عمير.

[5] قال في الفتح: خاثر النفس بمعجمة ومثلثة أي ثقيل النفس غير نشيط.

بابن القاص الفقيه الشافعي صاحب التصانيف في جزء مفرد، وذكر في أول كتابه أن بعض الناس عاب على أهل الحديث أنّهم يروون أشياء لا فائدة فيها، ومثّل ذلك بحديث أبي عمير هذا، قال: وما درى أن في هذا الحديث من وجوه الفقه وفنون الأدب والفائدة ستين وجها، ثم ساقها مبسوطة، فلخصتها مستوفيا مقاصده، ثم أتبعه بما تيسر من الزوائد عليه، فمما أخذ منه جواز ممازحة الصبي الذي لم يميز، وفيه ترك التكبر والترفع، وجواز الاستدلال بالعين على حال صاحبها؛ إذ استدل صلى الله عليه وسلم بالحزن الظاهر على الحزن الكامن حتى حكم بأنه حزين، وسأل أمه عن حزنه، والتلطف بالصديق صغيرا كان أو كبيرا، وجواز تكنية من لم يولد له، وجواز لعب الصغير بالطير، وجواز ترك الأبوين ولدهما الصغير يلعب بما أبيح اللعب به، وجواز انفاق المال فيما يتلهى به الصغير من المباحات، وجواز تصغير الاسم ولو كان لحيوان، وجواز مواجهة الصغير بالخطاب خلافا لمن قال: الحكيم لا يواجه بالخطاب إلا من يعقل ويفهم، قال: والصواب: الجواز حيث لا يكون هناك طلب جواب، وفيه معاشرة الناس على قدر عقولهم.

هذا بعض ما نقله العسقلاني عن ابن القاص، ثم ذكر العسقلاني فوائد أخرى: منها:دعاء الشخص بتصغير اسمه عند عدم الإيذاء، وجواز السؤال عما السائل به عالم؛ لقوله: ما فعل النغير بعد علمه بأنه مات، وفيه إكرام أقارب الخادم وإظهار المحبة لهم؛ لأن جميع ما ذكر من صنيع النبي صلى الله عليه وسلم كان غالبه بواسطة خدمة أنس له، وغير ذلك .

ثم قال ابن القاص: وفيما يسره الله تعالى من جمع طرق هذا الحديث واستنباط فوائده ما يحصل به التمييز بين أهل الفهم في النقل وغيرهم ممن لا يهتدي لتحصيل ذلك مع أن العين المستنبط منها واحدة، ولكن من عجائب اللطيف الخبير أنـــها تسقى بماء واحد، ونفضل بعضها على بعض في الأكل، هذا آخر كلامه ملخصا(١).

وقد كثر في هذا القرن الخامس عشر الهجري وفي الذي قبله من يدّعي رتبة الاجتهاد والعملَ بالكتاب والسنة من غير تقليد مذهب من المذاهب الأربعة، ويُزيِّن ذلك للعوام ويُلقي إليهم كلمات يستميلهم بـــها، وخيالات باطلة لا طائل تحتها، ويعيب على أئمة المذاهب ومقلديهم قائلا: كيف يسوغ للمسلم أن يترك الكتاب والسنة ويأخذ قول فلان

---

[١] فتح الباري ج١٠ص٥٨٣-٥٨٦.

وفلان؟، وقصده من ذلك أن يملك قلوبـــهم بتلبيساته وتمويهاته، وأن يقتنعوا بأفكاره، ويأخذوا بأقواله وآرائه، ويقلدوه بدل أئمة مذاهبهم، وبعض هؤلاء يتبجَّح باجتهاده المزعوم، وخياله الموهوم، وهو لا يعرف الفرق بين الشروط والأركان، ولا بين أبعاض الصلاة وهيآتـــها، ولا يدري ما القياس وأنواعه، بل قد يرفضه وينكره من أصله. وشهدت الدنيا في هذه العصور عجائب وغرائب لم تكن تخطر بخواطر السابقين من العلماء بل والعقلاء، والظاهر من أحوال هؤلاء وتـــهكتهم وتخبطهم أن فيهم نوع خبل وطيش، ولو قيل: إن فيهم ما يشبه الجنون لم يستبعد فإن للجنون فنونا، وهذا فن منه، بل لو قيل: إن جنونـــهم أشد من الجنون العادي المعروف لم يستغرب ولكان محتمِلا، فما أشبههم بمن قيل فيه:

جنونك مجنون ولست بواجد　　طبيبا يداوي من جنون جنونا

فأي جهل أشنع من جهل إنسان لم يعرف من الدين إلا كلمات سمعها من المحاضرات والخطب أو من الأشرطة والتلفزيونات ومواقع الإنترنت ثم يدعي الاجتهاد ويفتي إرتجالا برأيه عن المسائل الدقيقة التي لو سئل عنها الإمام النووي وأمثاله رحمهم الله لم يبادروا إلى جوابـــها بل أجالوا النظر والفكر أياما أو أشهرا في جوابـــها، وترى بعض المتخرجين من الجامعات والمعاهد الدينية يتعجبون بأنفسهم ويتعاظمون على من سواهم وينظرون إلى الراسخين في العلم بعين التحقير والازدراء، فسبحان الله قد انتكست الأمور وانعكست الأحوال، وصارت الأذناب رؤوسا، وقد قلت في ذلك:

تأسّد في الزمان الهِرُّ فاعلم　　وصار الصَّبْرُ [1] أعذب من حليب

وأذناب علت فوق الرؤوس　　وصار الغِرُّ أشرف من لبيب

وقاد الأكمه البصراء فاعجب　　وأرذلهم يحقر [2] بالنجيب

---

[1] وفي لسان العرب قال الليث: الصَبِر بكسر الباء عصارة شجر. وقال الجوهري: الصَبِر هذا الدواء الْمُرُّ ولا يسكن إلا في ضرورة الشعر. قال الراجز: أمر من صَبْرٍ ومَقْرٍ وحُضض. وفي حاشية الصحاح: الحضض الحُولان، وقيل: هو بظائين، وقيل: بضاد وظاء اهـــ وفي القاموس: الحظظ بضمتين كصرد صمغ كالصَبِر، وقوله: مقر قال في القاموس: المقر محركة حامض أو مرّ اهـــ.

[2] ضمن معنى يزري فعدي بالباء

وخفاش [١] يرى ما لا يراه الـــ ـــعقاب فنحن في دهر عجيب
فيا أسفي على الإسلام لهفي ويا لسرور أنصار الصليب

وقال الأستاذ الدكتور يوسف خطار محمد في (الموسوعة اليوسفية): وما أكثر ما يصدق على هؤلاء قول الشاعر:

إذا وصف الطائيَّ بالبخل مادرٌ وعيَّر قسا بالفهاهة باقلُ [٢]
وقال السها للشمس أنت ضئيلة وقال الدجى يا صبح لونك حائل [٣]
وطاولت الأرضُ السماءَ سفاهة وفاخرت الشهب الحصا والجنادل [٤]
فيا موتُ زُرْ إن الحياة ذميمة ويا نفس جِدِّي إن دهركِ هازلُ [٥]

وقد ألف العلامة محمد سعيد رمضان البوطي حفظه الله وأيده كتابا في وجوب التقليد وسماه: (اللاّمذهبيّة أخطر بدعة تُهدد الشريعة الإسلامية)، فعليك به، فإنه ردَّ فيه الآراء الباطلة التي يتفوه بـــها في هذه العصور ذوو الأحلام السخيفة والأفكار السيئة، فجزاه الله خير الجزاء وأحسن إليه في الدنيا وفي الأخرى.

---

[١] الخفاش كرمّان الوطواط . قاموس.

[٢] أي إذا وصف المادر بالبخل حاتما الطائي المشهور بالجود والكرم والسخاء. قال ابن منظور في لسان العرب: وفي المثل ألأم (من مادر) وهو جد بني هلال بن عامر. وفي الصحاح هو رجل من هلال بن عامر بن صعصعة لأنه سقى إبله فبقي في أسفل الحوض ماء قليل فسلح فيه ومَدَرَ به حوضَه بُخْلاً أن يُشْرَب من فضله اهـــ. وفي القاموس: مَادِر لقب مُخارق لئيم من بني هلال بن مالك، وفي شرحه الصواب: هو رجل من هلال بن عامر اهـــ. قوله: سلح أي تغوط، قال في القاموس: والسُلاح كغراب النَّجْوُ، وقوله: ومدر به، قال في القاموس: ومدر الحوض سدّ خصاصة حجارته بالمدر، وهو الطين اليابس . والخصاصة كما في القاموس: كل خلل وخرق في باب ومنخل وبرقع ونحوه أو الثقب الصغير. وقوله: الفهاهة والفهّة والفهفهة العِيّ. وقوله: باقل رجل اشترى ظبيا بأحد عشر درهما فسئل عن شرائه ففتح كفيه وأخرج لسانه يشير إلى ثمنه فانفلت فضرب به المثل في العِيّ. وفي القاموس أيضا: عَيِيَ في المنطق كرضي عِيا بالكسر حصر. وعَيِيَ بالأمر لم يهتد لوجه مراده أو عجز عنه ولم يطق إحكامه اهـــ قاموس ولسان العرب.

[٣] الحائل المتغير اللون، اهـــ القاموس.

[٤] الشهاب ككتاب شعلة من نار ساطعة. والجندل كجعفر: ما يُقِلُّه الرجل من الحجارة وتكسر الدال. القاموس

[٥] الموسوعة اليوسفية في بيان أدلة الصوفية للدكتور يوسف خطار محمد ص٥٣١.

وألف في ذلك أيضا الشيخ عبد الفتاح بن صالح بن محمد اليافعي كتابا سماه: (التمذهب) وهو مجلد ينبغي الاطّلاع على ما أودعه فيه من الأدلة المقنعة والنفائس المستجادة، والله الموفق يهدي من يشاء إلى الحق وإلى الصراط المستقيم.

نبذة من تراجم الأئمة الأربعة

الإمام أبو حنيفة:

اختلفوا في نسبه فقال أكثرهم وصححه المحققون أنه من العجم، وهو النعمان بن ثابت بن زوطى- على وزن موسى وسلمى-، وقيل: نعمان بن ثابت بن النعمان .

قال ابن حجر الهيتمي: إن أباه ثابتا ذهب إلى الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه صغيرا فدعا له بالبركة فيه وفي ذريته اهـ. (١)

ولد الإمام أبو حنيفة رحمه الله سنة ثمانين في حياة صغار الصحابة ورأى أنس بن مالك لما قدم عليهم الكوفة .

وفي فتاوي شيخ الإسلام ابن حجر: أنه أدرك جماعة من الصحابة كانوا بالكوفة بعد مولده بها سنة ثمانين وهو من طبقات التابعين .

قال ابن حجر الهيتمي: فحينئذ فهو من أعيان التابعين الذين شملهم قوله تعالى: {**والذين اتبعوهم بإحسان**}... الآية.

وروى أبو حنيفة عن مشايخ كثيرين، ذكر منهم الإمام أبو حفص الكبير أربعة آلاف شيخ، وقال غيره: له أربعة آلاف شيخ من التابعين فما بالك بغيرهم .

وقد أخذ عنه الحديث والفقه خلائق ذكر بعض المتأخرين منهم نحو الثمانمائة .

وقال الذهبي: توفي شهيدا، مَسْقِيًّا(٢) في سنة خمسين ومائة، وله سبعون سنة، وعليه قبة عظيمة، ومشهد فاخر ببغداد والله أعلم.

قال الإمام أبو حنيفة النعمان بن الثابت بن زُوْطَي: قدمت البصرة فظننت أني لا أسأل عن شيء إلا أجبت عنه فسألوني عن أشياء لم يكن عندي فيها جواب فجعلت على نفسي ألاّ أفارق حمادا حتى أموت فصحبته ثماني عشرة سنة، ثم ما صليت صلاة إلا استغفرت له مع والديّ، وإني لأستغفر لمن تعلمت منه أو تعلم مني علما.

وكان أبو حنيفة صبورا على تعليم العلم بالليل والنهار قليل الكلام حتى ترد مسألة في الحلال والحرام، قال زفر: كان يحيي الليل كله بركعة يقرأ القرآن فيها،

---

[١] الخيرات الحسان لابن حجر الهيتمي، ص٣٠.

[٢] المراد به مسموما أي مقتولا بالسم كما سيأتي قريبا عن الخيرات الحسان للهيتمي. والله أعلم.

وقال أسد بن عمرو: صلى أبو حنيفة الفجر بوضوء العشاء أربعين سنة، وكان عامة الليل يقرأ القرآن في ركعة، وكان يسمع بكاؤه حتى يرحمه جيرانه، وختم القرآن في الموضع الذي توفي فيه سبعة آلاف ختمة، ولما غسله الحسين بن عمارة قال له: غفر الله لك لم تفطر منذ ثلاثين سنة، ولم تتوسد يمينك في الليل أربعين سنة، وكان يجمع القرآن في ركعتين، ولد رضي الله عنه سنة ثمانين من الهجرة، وتوفي ببغداد سنة خمسين ومائة في شهر رجب، وقبره ببغداد يزار ويتبرك به، وقال الإمام الشافعي: الناس في الفقه عيال على أبي حنيفة رحمه الله اهـ(١).

وفي الخيرات الحسان للهيتمي: أن المزني قال: سمعت الشافعي يقول: الناس عيال على أبي حنيفة في القياس .

وقال رجل عند وكيع: أخطأ أبو حنيفة فزجره وكيع وقال: من يقول هذا كالأنعام بل أضل سبيلا كيف يخطئ وعنده أئمة الفقه كأبي يوسف ومحمد وأئمة الحديث وأئمة اللغة والعربية وأئمة الزهد والورع كالفضيل وداود الطائي، ومن كان أصحابه هؤلاء لم يكن ليخطئ لأنه إن أخطأ ردوه للحق.

وهو أول من دون علم الفقه ورتبه أبوابا وكتب على نحو ما هو عليه اليوم، وهو أول من وضع كتاب الفرائض وكتاب الشروط وانتشر مذهبه في أقاليم ليس فيها غيره كالهند والسند والروم وما ووراء النهر، وكان ينفق على نفسه وغيره من العلماء وغيرهم من كسب يده ولم يقبل جائزة، ومات مظلوما محبوسا مسموما .

وروى الخطيب عن الشافعي رحمه الله قال: قيل لمالك: هل رأيت أباحنيفة؟ قال: نعم، رأيت رجلا لو كلمك في هذه السارية أن يجعلها ذهبا لقام بحجته .

وقال الشافعي: من أراد أن يتبحر في الفقه فهو عيال على أبي حنيفة .

وقال الثوري لمن قال له: جئتُ من عند أبي حنيفة: لقد جئت من أفقه أهل الأرض .

وقال الأوزاعي لابن المبارك: من هذا المبتدع الذي خرج بالكوفة، يكنى أبا حنيفة؟ فأراه مسائل عويصة من مسائله فلما رآها منسوبة للنعمان بن ثابت قال: من هذا؟ قلت: شيخ لقيته بالعراق قال: هذا نبيل من المشايخ اذهب فاستكثر منه، قلت: هذا أبوحنيفة الذي

---

[١] الفتوحات الربانية شرح الأذكار النووية: جـ٢ص١٥٥-١٥٦.

نـــهيت عنه، ثم لما اجتمع بأبي حنيفة بمكة جاراه في تلك المسائل فكشفها أبوحنيفة له بأكثر ما كتبها ابن المبارك عنه، فلما افترقا قال الأوزاعي لابن المبارك: غبطت الرجل بكثرة علمه ووفور عقله، وأستغفر الله تعالى، لقد كنت في غلط ظاهر، الزم الرجل فإنه بخلاف ما بلغني عنه .

وروى الخطيب عن بعض أئمة الزهد أنه قال: يجب على أهل الإسلام أن يدعوا لأبي حنيفة في صلاتـــهم لحفظه عليهم السنة والفقه .

وقال أبو يوسف: إني لأدعو لأبي حنيفة قبل أبويّ، وسمعته يقول: إني لأدعو لحماد مع أبويّ، وقال: أبو حنيفة زَيَّنَهُ الله تعالى بالفقه والعمل والسخاء والبذل وأخلاق القرآن التي كانت فيه، وقال: كان خلف مَن مضى وما خلف والله على وجه الأرض مثله .

وقال الحافظ عبد العزيز بن أبي رواد: من أحب أباحنيفة فهو سني، ومن أبغضه فهو مبتدع(١) اهـــ.

قال الخطيب البغدادي: أخبرنا القاضي أبو عبد الله الحسين بن علي بن محمد الصيمري قال: أنبأنا عمر بن إبراهيم المقرئ قال: نبأنا مكرم بن أحمد قال: نبأنا عمر بن إسحاق بن إبراهيم، قال: نبأنا علي بن ميمون قال: سمعت الشافعي يقول: إني لأتبرك بأبي حنيفة، وأجيء إلى قبره في كل يوم يعني زائرا، فإذا عرضت لي حاجة صليت ركعتين وجئت إلى قبره وسألت الله تعالى الحاجة عنده، فما تبعد عني حتى تقضى (٢)اهـــ.

وعن أسد بن عمرو أن أبا حنيفة رحمه الله صلى العشاء والصبح بوضوء أربعين سنة.

الإمام مالك بن أنس:

روى عن أبي هريرة يبلغ به النبي صلى الله عليه وسلم قال: ليضربن الناس أكباد الإبل في طلب العلم فلا يجدون عالما أعلم من عالم المدينة .

وفي رواية: عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يخرج ناس من المشرق والمغرب في طلب العلم فلا يجدون عالما أعلم من عالم المدينة.

قال الذهبي: ويروى عن ابن عيينة قال: إنه مالك، لم يبق له نظير بالمدينة.

---

[١] الخيرات الحسان، ص٤٢-٤٨.

[٢] تاريخ بغداد، ومثلها في الخيرات الحسان ص٩٤.

قال القاضي عياض: هذا هو الصحيح عن سفيان.

وعن ابن عيينة قال: مالك عالم أهل الحجاز وهو حجة زمانه.

وقال الشافعي-وصدق وبرّ-: إذا ذكر العلماء فمالك النجم.

قال خلف: دخلت على مالك فقال: ما ترى؟ فإذا رؤيا بعثها بعض إخوانه يقول: رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام في مسجد قد اجتمع الناس عليه فقال لهم: إني قد خبأت تحت منبري طيبا أو علما وأمرت مالكا أن يفرقه على الناس فانصرف الناس وهم يقولون: إذا ينفذ مالك ما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم بكى فقمت عنه.

وقال مطرف بن عبد الله: قال لي مالك: ما يقول الناس فيّ؟ قلت: أما الصديق فيثني، وأما العدو فيقع، فقال: ما زال الناس كذلك، ولكن نعوذ بالله من تتابع الألسنة كلها .

قال محمد بن رُمْح: رأيت النبي صلى الله عليه وسلم فقلت: يا رسول الله إن مالكا والليث يختلفان فبأيهما آخذ؟ قال: مالك، مالك .

وروى أشهب عن عبد العزيز الدَرَاوَرْدِي قال: دخلت مسجد النبي صلى الله وسلم فوافيته يخطب إذ أقبل مالك فلما أبصره النبي صلى الله عليه قال: إليّ إليّ، فأقبل حتى دنا منه فسلّ صلى اله عليه وسلم خاتمه من خنصره فوضعه في خنصر مالك .

قال جعفر بن عبد الله: كنا عند مالك فجاءه رجل فقال: يا أبا عبد الله {**الرحمن على العرش استوى**} كيف استوى؟ فما وجد مالك من شيء ما وجد من مسألته، فنظر إلى الأرض وجعل ينكت بعود في يده حتى علاه الرحضاء ثم رفع رأسه ورمى بالعود وقال: الكيف منه غير معقول، والاستواء منه غير مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وأظنك صاحب بدعة وأمر به فأخرج .

وقال ابن وردي: كنا عند مالك فقال رجل: يا أبا عبد الله {**الرحمن على العرش استوى**} كيف استواءه؟ فأطرق مالك وأخذته الرحضاء ثم رفع رأسه فقال: {**الرحمن على العرش استوى**} كما وصف نفسه ولا يقال له: كيف، وكيف عنه مرفوع، وأنت رجل سوء صاحب بدعة أخرجوه .

قال الحلواني: سمعت مطرف بن عبد الله سمعت مالكا يقول: سن رسول الله صلى الله وسلم وولاة الأمر بعده سننا، الأخذ بـــها اتباع لكتاب الله واستكمال في طاعة الله وقوة

على دين الله ليس لأحد تغييرها ولا تبديلها ولا النظر في شيء خالفها من اهتدى بـــها فهو مهتد، ومن استنصر بـــها فهو منصور، ومن تركها اتبع غير سبيل المؤمنين وولّاه الله ما تولّاه وأصلاه جهنم وساءت مصيرا (١).

الإمام الشافعي:

في الفتوحات الربانية: أن الشافعي رحمه الله رآى النبي صلى الله عليه وسلم وقد أعطاه ميزانا فأولت له بأن مذهبه أعدل المذاهب وأوفقها للسنة الغراء، وأوفقها للحكمة العلمية والعملية، ولد بغزة على الأصح سنة خمسين ومائة، وتوفي رحمه الله آخر يوم من رجب سنة ٢٠٤هـــ، وقبره بقرافة مصر.

وأرِيْد بعد أزمنةٍ نقلُه لبغداد فظهر من قبره لما فتح روائح عطلت الحاضرين عن إحساسهم فتركوه رضي الله عنه(٢).

وقال الخطيب: وما أحسن ما وصف به بعض العرب الشافعي، قال الربيع: كنا جلوســا في حلقة الشافعي بعد موته بيسير، فوقف علينا أعرابي فسلم ثم قال لنا: أين قمــر هــذه الحلقة وشمسها؟ فقلنا: توفي رحمه الله فبكى بكاء شديدا، وقال: توفي رحمه الله وغفر لــه، فلقد كان يفتح ببيانه منغلق الحجة ويبدي على خصمه واضح المحجة، ويغسل من العــار وجوها مسودة، ويوسع بالرأي أبوابا منسدة، ثم انصرف(٣) .

وذكرت في (إقناع المؤمنين) أن المزني قال: رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام فسألته عن الشافعي فقال: من أراد محبتي وسنتي فعليه بمحمد بن إدريس الشافعي المطلبي فإنه مني وأنا منه.

وقال يونس الصّدفِيّ: ما رأيت أعقل من الشافعي، ناظرته يوما في مسألة، ثم افترقنا، ولقيني، فأخذ بيدي ثم قال: يا أباموسى ألا يستقيم أن نكون إخوانا وإن لم نتفق في مسألة. قال الذهبي: هذا يدل كمال عقل هذا الإمام، وفقه نفسه، فما زال النظراء يختلفون(٤) .

---

[١] سير أعلام النبلاء، ترجمة إمام مالك.

[٢] الفتوحات الربانية، جـــ٢ص١٥٤.

[٣] الفقيه والمتفقه جـــ٢ص٣٧

[٤] سير أعلام النبلاء ج١٠ص١٦-١٧.

ومما يدل على إمامة الشافعي رحمه الله في علوم الحديث وتبحره في فنونـــها انتساب أئمة الحديث وحفاظه إلى مذهبه، فقد تقرر أن أكابر حملة السنة المطهرة وحاملي رايتها من أتباعه المنتسبين إلى مذهبه، منهم محمد بن إسمعيل البخاري، وأبو داود السجستاني صاحب السنن، والنسائي، وعلي بن عمر بن أحمد الإمام في المعرفة بعلل الحديث وأسماء الرجال الحافظ الجليل الدارقطني، ومحمد بن إسحق إمام الأئمة الحافظ ابن خزيمة، ومحمد بن جرير الطبري الحافظ، ومحمد بن حيان بن أحمد الحافظ الإمام أبو حاتم، وحمد بن محمد بن إبراهيم الحافظ أبو سليمان الخطابي، وعبد الرحمن بن أبي حاتم الإمام الرازي، وأحمد بن حسين بن علي الحافظ الكبير البيهقي، وأحمد بن عبد الله بن أحمد الإمام الجليل الحافظ أبو نعيم، وأحمد بن علي بن ثابت أبو بكر الخطيب الحافظ الكبير أعلم الحفاظ، وأحمد بن محمد بن أحمد بن غالب الحافظ الكبير المعروف بالبِرَقْاني، وأحمد بن محمد بن أحمد أبو سعيد الماليني المحدث الحافظ الكبير طاووس الفقراء، ومحمد بن الحسين بن موسى الحافظ أبو عبد الرحمن السلمي، والحاكم محمد بن عبد الله بن حمويه الحافظ المعروف بابن البَيِّع، وأحمد بن محمد بن أحمد السلفي الحافظ الكبير أبو طاهر، وعبد الكريم بن محمد بن منصور الحافظ أبو سعد السمعاني، وعلي بن الحسن بن هبة الله الإمام الجليل حافظ الأمة ابن عساكر، وعبد العظيم بن عبد القوي المنذري الحافظ الكبير، وعلي بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الحافظ ابن الأثير، وعثمان بن عبد الرحمن بن موسى الحافظ أبو عمرو بن الصلاح، وأبو زكريا يحيى بن شرف النووي الحافظ، ومحمد بن أحمد بن عثمان الإمام الحافظ الذهبي، ومحمد بن علي بن وهب القشيري أبو الفتح تقي الدين الحافظ ابن دقيق العيد، وعبد المؤمن بن خلف بن أبي الحسن الحافظ شرف الدنيا الدمياطي، وعلي بن عبد الكافي السبكي الحافظ، والقاسم بن محمد البرزالي الحافظ، ويوسف بن زكي بن عبد الرحمن الحافظ المزي . هذا بعض ما لخصته من (طبقات الشافعية الكبرى).

ومنهم أيضا شمس الدين محمد بن محمد الحافظ الجزري، واسمعيل بن كثير الحافظ، وعبد الرحيم العراقي الحافظ، وأبوزرعة، وأبوالفضل شيخ الإسلام أحمد بن علي بن حجر الحافظ العسقلاني، وشمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي الحافظ، وجلال الدين أبوالفضل عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي خاتمة الحفاظ.

وقد اختصه الله تعالى من بين أئمة المذاهب الثلاثة بخصال .

١- منها: شرف النسب، فقد قال أبو ثور: للشافعي من الفضائل ما لم يجتمع لغيره من شرف نسبه وصحة دينه ومعتقده وسخاوة نفسه ومعرفته بصحة الحديث وسقمه وناسخه ومنسوخه وحفظه الكتاب والسنة، وحسن التصنيف وجودة الأصحاب والتلامذة مثل أحمد بن حنبل.

وقال النووي في (تـــهذيب الأسماء واللغات): شرف الله الإمام الشافعي بالنسب الطاهر، واجتماعه هو ورسول الله صلى الله عليه وسلم في النسب غاية الشرف، ونــــهاية الحسب، وبشرف المولد والمنشإ فإنه ولد بالأرض المقدسة، ونشأ بمكة.

٢- ومنها: أنه كان أطولهم باعا في معرفة اللغة، قال المزني: قدم الشافعي مصر وبـــها عبد الملك بن هشام النحوي صاحب (المغازي) وكان علاّمة أهل عصره في العربية والشعر، فذهب إلى الشافعي ثم قال: ما ظننت أن الله خلق مثل الشافعي، ثم اتخذ قول الشافعي حجة في اللغة، وكان إذا شك في شيء من اللغة بعث إلى الشافعي فسأله عنه. وقال الأيوب بن سويد: خذوا عن الشافعي اللغة. وقال أبو عثمان المازني: الشافعي عندنا حجة في النحو. وقال الزعفراني: ما رأيت أفضل ولا أكرم ولا أتقى ولا أعلم من الشافعي، وما رأيت لحن قط، وما حمل أحد محبرة إلا وللشافعي عليه منة، ماكان الشافعي إلا بحرا .

وقال الذهبي في (سير أعلام النبلاء): قال أحمد بن حنبل: الشافعي فيلسوف في أربعة أشياء في اللغة واختلاف الناس والمعاني والفقه. والفيلسوف كما في (المعجم الوسيط) العالم الباحث(١) .

وفي (مناقب الشافعي) للبيهقي قال ثعلب: الشافعي من بيت اللغة، يجب أن يؤخذ عنه، وقال ثعلب أيضا: إنما توحد الشافعي باللغة لأنه من أهلها، فأما أبو حنيفة فإنه منها على بعد، وقال أبو الوليد بن النجار: كان يقال: إن محمد بن إدريس لغة وحده يحتج به كما يحتج بالبطن من العرب.

---

[١] سير أعلام النبلاء ج١٠ص ٨١.

وقال أبو بكر محمد بن أحمد بن عبد الله: قال أبي: سمعت عمي يقول: سمعت الشافعي يقول: أقمت في بطون العرب عشرين سنة آخذ أشعارها ولغاتها وحفظت القراءة فما علمت أنه مرّ بي حرف إلا وقد علمت المعنى فيه والمراد منه ما خلا حرفين، قال أبي: حفظت أحدهما ونسيت الآخر، أحدهما " دساها " . وقال النووي: هو الإمام الحجة في لغة العرب، فقد اشتغل في العربية عشرين سنة .

٣- ومنها:أنه كان أشعر من الأئمة الثلاثة وآدبهم . قال المبرد: كان الشافعي من أشعر الناس وآدبهم وأعرفهم بالقراءات .

٤- ومنها: أنه كان معلم الأمة بناسخ الحديث ومنسوخه، قال النووي: وكان الشافعي مبرزا في الاستنباط من الكتاب والسنة، بارعا في معرفة الناسخ والمسوخ، والمجمل والمبين، والخاص والعام وغيرها، فلم يسبقه أحد إلى فتح هذا الباب.

وقال ابن وارة: قدمت من مصر فأتيت أحمد بن حنبل، فقال لي: كتبت كتب الشافعي؟ قلت: لا، قال: فرطت، ما عرفنا العموم والخصوص وناسخ الحديث من منسوخه حتى جالسنا الشافعي، قال: فحملني ذلك على الرجوع إلى مصر فكتبتها .

٥- ومنها: اختراعه بفن أصول الفقه، قال النووي في (تهذيب الأسماء واللغات): ابتكر الشافعي كتبا لم يسبق إليها، منها أصول الفقه، وكتاب القسامة، وكتاب الجزية، وكتاب قتال أهل البغي، وغيرها. وكان سبب تصنيفه لكتاب (الرسالة) أن عبد الرحمن بن مهدي كتب له وهو شاب أن يضع له كتابا فيه معاني القرآن، ويجمع قبول الأخبارفيه، وحجة الإجماع وبيان الناسخ والمنسوخ من القرآن والسنة، فوضع له كتاب (الرسالة) فكان عبد الرحمن يقول: ما أصلي صلاة إلا وأدعو للشافعي.

وقال النووي أيضا: إنه أول من صنف أصول الفقه بلا اختلاف ولا ارتياب، وهو الذي لا يساوى بل لا يداني في معرفة كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

وحكي عن الزعفراني قال: لما قرأ عبد الرحمن بن مهدي (الرسالة) قال: ما ظننت أن يكون في هذه الأمة اليوم مثل هذا الرجل، وأن الله عز وجل خلق مثل هذا الرجل. وقال المزني: إني قرأت كتاب (الرسالة) خمسمائة مرة ما من مرة منها إلا واستفدت منها فائدة جديدة لم أستفدها في الأخرى .

٦- ومنها أنه تفرع مذهبان من مذهبه، وهما مذهب أحمد بن حنبل ومذهب أبي ثور(١).

٧- ومنها أن أكثر المجددين لهذه الأمة أمر دينها كانوا منتسبين إلى مذهبه.

فبهذه الفضائل السبعة امتاز عن الأئمة الثلاثة، فسبحان من خصه بـــهذه المزايا وفضله عليهم بـــهاتيك العطايا .

الإمام أحمد بن حنبل:

قال الخلال أخبرنا المَرُّوْذي: أن أبا عبد الله يعني أحمد بن حنبل قال: ما تزوجت إلا بعد الأربعين، وقال عبد الله بن أحمد: قال لي أبوزرعة: أبوك يحفظ ألف ألف حديث، فقيل له: وما يدريك، قال: ذاكرته فأخذت عليه الأبواب.

ثم قال الذهبي: فهذه حكاية صحيحة في سعة علم أبي عبد الله، وكانوا يعدون في ذلك المكرر والأثر وفتوى التابعي وما فسر ونحو ذلك، وإلا فالمتون المرفوعة القوية لا تبلغ عُشر معشار ذلك.

قال ابن أبي حاتم: قال سعيد بن عمرو: يا أبا زرعة أأنت أحفظ أم أحمد؟ قال: بل أحمد.

وقال إبراهيم الحربي: رأيت أبا عبد الله كأن الله جمع له علم الأولين والآخرين .

وقال أبو إسحاق الجوزجاني: كان أحمد بن حنبل يصلي بعبد الرزاق فسها فسأل عنه عبد الرزاق فأخبر أنه لم يأكل منذ ثلاثة أيام شيئا.

وقال قتيبة: خير أهل زماننا ابن المبارك ثم هذا الشاب يعني أحمد بن حنبل، وإذا رأيت رجلا يحب أحمد فاعلم أنه صاحب سنة. وقال قتيبة أيضا: لو لا أحمد لأحدثوا في الدين، أحمد إمام الدنيا.

قلت: وقد روى أحمد في مسنده عن قتيبة كثيرا فهو شيخه.

---

[1] اعلم أن أبا ثور اختلفوا فيه فقال النووي رحمه الله في مقدمة المجموع ص١٤٩: إنه شافعي المذهب، وقد صرح أبو إسحاق الشيرازي في المهذب أنه من أصحاب الوجوه، وجعل أقواله وجوها في المذهب، ثم قال بعد ذلك: يذكر في المذهب قول أبي ثور والمزني وابن المنذر اهـــ وقال ابن هداية الله في طبقات الشافعية: كان أبو ثور على مذهب أبي حنيفة، فلما قدم الشافعي بغداد تبعه وقرأ كتبه وانتشر علمه، ومع ذلك قال الرافعي في كتاب الغصب من فتح العزيز: أبوثور وإن كان معدودا في طبقات أصحاب الشافعي فله مذهب مستقل، ولا يعد تقريره وجها، هذا لفظه اهـــ طبقات الشافعية لابن هداية الله ص٢٢-٢٣.

وقال المزني: قال لي الشافعي: رأيت ببغداد شابا إذا قال: حدثنا قال الناس كلهم: صدق، قلت: ومن هو؟ قال: أحمد بن حنبل.

وقال حرملة: سمعت الشافعي يقول: خرجت من بغداد فما خلفت بـــها رجلا أفضل ولا أعلم ولا أفقه ولا أتقى من أحمد بن حنبل .

وقال الزعفراني : قال لي الشافعي: ما رأيت أعقل من أحمد وسلمان بن داود الهاشمي .

وعن ابن المديني، قال: أعز الله الدين بالصديق يوم الردة وبأحمد يوم المحنة.

وقال ابن أبي حاتم : إذا رأيت من يحب أحمد فاعلم أنه صاحب سنة.

وقال إسماعيل بن الخليل: لو كان أحمد بن حنبل في بني إسرائيل لكان آية.

وفي (إقناع المؤمنين) قال صالح بن أحمد: ربما اعتللت فيأخذ أبي قدحا فيه ماء فيقرأ فيه، ثم يقول: اشرب منه، واغسل وجهك ويديك.

وفي (سير أعلام النبلاء) للإمام الذهبي و(حلية الأولياء) لأبي نعيم: قال عبد الله بن أحمد بن حنبل: رأيت أبي يأخذ شعرة من شعر النبي صلى الله عليه وسلم، فيضعها على فيه يقبلها، وأحسب أني رأيته يضعها على عينيه ويغمسها في الماء ويشربه يستشفي به، ورأيته أخذ قصعة النبي صلى الله عليه وسلم، فغسلها في حب الماء، ثم شرب فيها، ورأيته يشرب من ماء زمزم يستشفي به، ويمسح به يديه ووجهه، ثم قال الذهبي: أين المتنطع المنكر على أحمد؟ وقد ثبت أن عبد الله سأل أباه عمن يلمس رمانة منبر النبي صلى الله عليه وسلم ويمس الحجرة النبوية، فقال: لا أرى بذلك بأسا أعاذنا الله وإياكم من رأي الخوارج ومن البدع اهـــ. قوله حب الماء: بضم الحاء يعني الجرة قال في القاموس: الحب الجرة أوالضخمة منها.

وفي (صفة الصفوة) للحافظ ابن الجوزي، و(سير أعلام النبلاء) للإمام الذهبي: عن حنبل قال: أعطى بعض ولد الفضل بن الربيع أبا عبد الله أحمد بن حنبل وهو في الحبس ثلاث شعرات، فقال: هذا من شعر النبي صلى الله عليه وسلم، فأوصى الإمام أحمد عند موته أن يجعل على كل عين شعرة وشعرة على لسانه ففعل ذلك به بعد موته (١).

[1] إقناع المؤمنين بتبرك الصالحين، في باب التبرك بشعره صلى الله عليه وسلم .

وذكرتُ في كتابي (إقناع المؤمنين) أيضا أن الإمام الشافعي كان يتبرك بقميص أحمد بن حنبل الذي يلي جلده، فقد ذكر ابن السبكي في (طبقات الشافعية الكبرى) بسنده أن الربيع بن سليمان قال: إن الشافعي رضي الله عنه خرج إلى مصر فقال لي: يا ربيع خذ كتابي هذا فامض به، وسلمه إلى أبي عبد الله أحمد بن حنبل وائتني بالجواب، قال الربيع: فدخلت بغداد ومعي الكتاب، فصادفت أحمد بن حنبل في صلاة الصبح ،فلما انفتل من المحراب سلمت إليه الكتاب وقلت: هذا كتاب أخيك الشافعي من مصر، فقال لي أحمد: نظرت فيه؟ فقلت لا، فكسر الختم فقرأ وتغرغرت عيناه، فقلت له إيش فيه أبا عبد الله؟ فقال: يذكر فيه أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم في النوم، فقال له: اكتب إلى أبي عبد الله فاقرأ عليه السلام وقل له: إنك ستمتحن وتدعى إلى خلق القرآن فلا تجبهم، فيرفع الله لك علما إلى يوم القيامة، قال الربيع: فقلت له: البشارة يا أبا عبد الله، فخلع أحد قميصيه الذي يلي جلده، فأعطانيه، فأخذت الجواب وخرجت إلى مصر، وسلمت إلى الشافعي فقال: أيش الذي أعطاك؟ فقلت: قميصه، فقال الشافعي: ليس نفجعك به، ولكن بُلَّهُ وارفع إليّ الماء لأتبرك به.

وفي (تهذيب تاريخ دمشق): مثل هذه العبارة باختلاف يسير في بعض الألفاظ ، وقال الحافظ ابن كثير في (البداية والنهاية): روى البيهقي عن الربيع قال: بعثني الشافعي بكتاب من مصر إلى أحمد بن حنبل فأتيته وقد انفتل من صلاة الفجر، فدفعت إليه الكتاب فقال: أقرأته ؟ فقلت لا ، فأخذه فقرأه فدمعت عيناه فقلت: يا أبا عبد الله وما فيه ؟ فقال يذكر أنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام فقال: اكتب إلى أبي عبد الله أحمد بن حنبل واقرأ عليه مني السلام وقل له: إنك ستمتحن وتدعى إلى القول بخلق القرآن فلا تجبهم ، يرفع الله لك علما إلى يوم القيامة، قال الربيع: فقلت: حلاوة البشارة، فخلع قميصه الذي يلي جلده فأعطانيه، فلما رجعت إلى الشافعي أخبرته فقال: إني لست أفجعك فيه، ولكن بله بالماء وأعطنيه حتى أتبرك به.

وفي (مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح) لعلي قارئ: مثل ذلك باختصار، وقال فيه: غسل الشافعي قميص أحمد وشرب ماءه، وهذا من أجلّ مناقب الإمام أحمد اهـ.

وذكر ذلك أيضا الشعراني في (تنبيه المغترين) في الباب الثاني في جملة أخرى من الأخلاق فقال فيه: قد بلغنا أن الإمام الشافعي رضي الله عنه أرسل قاصده للإمام أحمد بن حنبل بأنه سيقع في محنة عظيمة ويخلص منها سالما، يعني مسألة خلق القرآن، فلما أخبره القاصد نزع الإمام أحمد له قميصه سرورا بقدوم رسول الشافعي، فلما رجع الرسول بالقميص وأخبر الشافعي به قال له: هل كان هذا القميص على جسده من غير حائل ؟ قال: نعم، قال: فقبله الإمام الشافعي ووضعه على عينيه ثم صب عليه الماء في إناء وعرّكه فيه ثم عصره ووضع غسالته عنده في قارورة ، فكان كل من مرض من أصحابه يرسل له شيئا من تلك الغسالة، فإذا مسح به جسده عوفي من مرضه لوقته(١) اهـــ.

قال عبد الله بن أحمد: كان أبي يصلي في كل يوم وليلة ثلاثمائة ركعة فلما مرض من تلك الأسواط أضعفته فكان يصلي كل يوم وليلة مائة وخمسين ركعة.

قال المروذي: كان أبو عبد الله إذا ذكر الموت خنقته العبرة، وكان يقول: الخوف يمنعني أكل الطعام والشراب، وإذا ذكرت الموت هان عليّ كل أمر الدنيا، إنـــها أيام قلائل.

وقال عبد الله بن أحمد: كان أبي ينام نومة خفيفة ثم يقوم إلى الصباح يصلي ويدعو(٢).

وفي (طبقات الحنابلة): أن الربيع بن سليمان قال: قال لنا الشافعي: أحمد إمام في ثمان خصال، إمام في الحديث، إمام في الفقه، إمام في اللغة، إمام في القرآن، إمام في الفقر، إمام في الزهد، إمام في الورع، إمام في السنة (٣).

وَإِيَّاكَ وَالتَّلْفِيْقَ مِنْ كُلِّ مَذْهَبٍ فَتَأخُذَ مِنْ هَذَا وَهَذَا بِخُلْطَة

أي احذر من التلفيق بين أقوال المذاهب بأن تأخذ من هذا وهذا في قضية واحدة فتكون أعمالك مركبة من مذهبين مختلفين في الصحة والبطلان، كأن تقلد الشافعي في مسح بعض الرأس ومالكا في طهارة الكلب في صلاة واحدة، أو تتوضأ فتقلد أبا حنيفة في مس الفرج والشافعي في الفصد فصلاتك حينئذ باطلة باتفاق الإمامين على بطلان طهارتك، فعند الشافعي بطلت بالمس وعند أبي حنيفة بالفصد.

---

[١] إقناع المؤمنين بتبرك الصالحين في باب التبرك بثياب الصالحين وتراب نعالهم.

[٢] سير أعلام النبلاء، ترجمة الإمام أحمد بن حنبل.

[٣] طبقات الحنابلة، ج١ص١١.

وقال إمام الحرمين أبو المعالى عبد الملك بن أبي محمد الجويني في (مغيث الخلق في ترجيح القول الحق): فإن قيل: فهل يجوز للعامي أن ينتحل في بعض المسائل مذهب الشافعي وفي بعضها مذهب أبي حنيفة، وكذا مذهب عامة الأئمة على هذا المنهاج؟ فإن قلتم يجوز ذلك فلا يجب على أحد اتباع صاحب مذهب بعينه.

فالجواب قلنا: لا يجوز للعامي ما قلتموه بل يجب عليه حتما أن يعين مذهبا من هذه المذاهب، إما مذهب الشافعي رضي الله عنه في جميع الوقائع والفروع، وإما مذهب مالك أو مذهب أبي حنيفة أو غيرهم رضوان الله عليهم، وليس له أن ينتحل مذهب الشافعي في بعض ما يهواه ومذهب أبي حنيفة في باقي ما يرضاه، لأنا لو جوزناه لأدّى ذلك إلى الخبط والخروج عن الضبط، وحاصله يرجع إلى نفي التكاليف، إذ أن مذهب الشافعي إذا اقتضى تحريم شيء ومذهب أبي حنيفة اقتضى إباحة ذلك الشيء بعينه أو على عكسه فهو إن شاء مال إلى الحل وإن شاء مال إلى الحرمة فلا يتحقق الحل ولا التحريم، وفي هذا انعدام التكليف وإبطال فائدته وذلك باطل.

فإن قيل أليس في عهد الصحابة كان الواحد من الناس مخيرا بين أن يأخذ في بعض الوقائع بمذهب الصديق وفي البعض بمذهب الفاروق وكذا في حق عامة الصحابة في كافة الوقائع ولم يمنعوه عن ذلك، فإذا جازت هذه فيما بين الصحابة فلم لا يجوز في زماننا؟.

والجواب قلنا إنما ذلك كان كذلك؛ لأن أصول الصحابة لم تكن كافية لعامة الوقائع، شاملة لكافة المسائل، مستغرقة لجيمع التفاريع، مستوفية لكل التفاصيل؛ لأنّهم أسسوا الأساس، وأصلوا الأصول، ومهّدوا القواعد، ولم يتفرغوا إلى تفريع التفاريع وتفصيل التفاصيل، فمذهب أبي بكر رضي الله عنه لم يكن كافيا لجميع الوقائع، وكذلك مذهب عامة الصحابة، فلأجل الضرورة أبيحت للمقلدين متابعة الصديق في بعض الوقائع، وفيما لم يجد على أصله متابعة الفاروق، وأما في زماننا هذا مذاهب الأئمة كافية مستغرقة للكل، فإنه ما من واقعة تقع إلا وتجدها في مذهب الشافعي أو في مذهب غيره إما نصا وإما تخريجا، فلا ضرورة إلى اتباع الإمامين جميعا، فلا يجوز له أن ينقض تقليده إذ لا يستقر للتكليف فائدة اهـ[1].

---

[1] مغيث الخلق في ترجيح القول الحق لإمام الحرمين، ص١٣-١٦.

وقال الإمام النووي في المجموع: هل يجوز للعامي أن يتخير ويقلد أيّ مذهب شاء؟ قال الشيخ(١): ينظر إن كان منتسبا إلى مذهب بنيناه على وجهين حكاهما القاضي حسين في أن العامي هل له مذهب أم لا؟ أحدهما لا مذهب له؛ لأن المذهب لعارف الأدلة، فعلى هذا له أن يستفتي من شاء من حنفي وشافعي وغيرهما، والثاني وهو الأصح عند القفال له مذهب فلا يجوز له مخالفته، وإن لم يكن منتسبا بني على وجهين حكاهما ابن برهان في أن العامي هل يلزمه أن يتمذهب بمذهب معين يأخذ برخصه وعزائمه؟ أحدهما لا يلزمه كما لم يلزمه في العصر الأول أن يخص بتقليده عالما بعينه، فعلى هذا هل له أن يستفتي من شاء أم يجب عليه البحث عن أشد المذاهب وأصحها أصلا ليقلد أهله؟ فيه وجهان مذكوران كالوجهين السابقين في البحث عن الأعلم والأوثق من المفتين، والثاني يلزمه وبه قطع أبو الحسن إلكيا، وهو جار في كل من لم يبلغ رتبة الاجتهاد من الفقهاء وأصحاب سائر العلوم، ووجهه أنه لو جاز اتباع أي مذهب شاء لأفضى إلى أن يلتقط رخص المذاهب متبعا هواه، ويتخير بين التحليل والتحريم، والوجوب والجواز، وذلك يؤدي إلى انحلال ربقة التكليف، بخلاف العصر الأول فإنه لم تكن المذاهب الوافية بأحكام الحوادث مهذبة وعرفت، فعلى هذا يلزمه أن يجتهد في اختيار مذهب يقلده على التعيين، وليس له أن يتبع في ذلك مجرد التشهي والميل إلى ما وجد عليه آباءه، وليس له التمذهب بمذهب أحد من أئمة الصحابة رضي الله عنهم وغيرهم من الأولين وإن كانوا أعلم وأعلى درجة ممن بعدهم؛ لأنـــهم لم يتفرغوا لتدوين العلم وضبط أصوله وفروعه، فليس لأحد منهم مذهب مهذب محرر مقرر، وإنما قام بذلك من جاء بعدهم من الأئمة الناخلين لمذاهب الصحابة والتابعين القائمين بتمهيد أحكام الوقائع قبل وقوعها الناهضين بإيضاح أصولها وفروعها كمالك وأبي حنيفة وغيرهما.

ولما كان الشافعي قد تأخر عن هؤلاء الأئمة في العصر ونظر في مذاهبهم نحو نظرهم في مذاهب مَنْ قبلهم فسبرها وخبرها، وانتقدها واختار أرجحها، ووجد مَنْ قبله قد كفاه مؤنة التصوير والتأصيل، فتفرغ للإختيار والترجيح، والتكميل والتنقيح، مع كمال معرفته وبراعته في العلوم وترجحه في ذلك على من سبقه، ثم لم يوجد بعده من بلغ محله في ذلك

---

[١] يراد بالشيخ هنا الشيخ أبو محمد الجويني والد إمام الحرمين. تعليق على مقدمة المجموع والله أعلم.

كان مذهبه أولى المذاهب بالاتباع والتقليد، وهذا مع ما فيه من الانصاف والسلامة من القدح في أحد من الأئمة جلي واضح، إذا تأمله العامي قاده إلى اختيار مذهب الشافعي والتمذهب به (١).

وروى الإمام عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي في كتابه آداب الشافعي ومناقبه بسنده عن أبي أيوب حميد بن أحمد الأنصاري قال: كنت عند أحمد بن حنبل نتذاكر في مسألة، فقال رجل لأحمد: يا أبا عبد الله لا يصح فيه حديث، فقال: إن لم يصح فيه حديث ففيه قول الشافعي، وحجته أثبت شيء فيه، ثم قال: قلت للشافعي: ما تقول في مسألة كذا وكذا؟ فأجاب فيها، فقلت: من أين قلتَ هل فيه حديث أو كتاب؟ قال: بلى، فنـــزع في ذلك حديثا للنبي صلى الله عليه وسلم، وهو حديث نص(٢).

وفي سير أعلام النبلاء في ترجمة الإمام الشافعي قال أحمد بن حنبل: إذا سئلت عن مسئلة لا أعرف فيها خبرا قلتُ فيها بقول الشافعي؛ لأنه إمام قرشي، وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: عالم قريش يملأ الأرض علما(٣) اهـــ.

تنبيه في بيان شروط التقليد

وفي (حاشية النفحات على شرح الورقات): يشترط في العمل بالتقليد شروط ستة، تسمى شروط التقليد، الأول: أن يكون مذهب المقلَّد به مدوَّنا ليتحصل العلم اليقيني بكون المسألة المقلَّد بـــها من هذه المذاهب، الثاني: حفظ المقلِّد شروطه في تلك المسئلة، الثالث: أن لا يكون التقليد فيما يُنقض فيه قضاءُ القاضي بأن لا يكون خلاف نص الكتاب أو السنة أو الإجماع أو القياس الجلي، الرابع: أن لا يتتبع الرخص بأن يأخذ من كل مذهب بالأسهل لتنحل ربقة التكليف عن عنقه، قال الشيخ ابن حجر: ومن ثَم كان الأوجه أنه يفسق به، وقال الشيخ الرملي: الأوجه أنه لا يفسق وإن أثِمَ به، وهذا ليس شرطا لصحة التقليد كما صرح به المتأخرون بل هو شرط لدرء الحكم كنهي الصلاة في الأرض المغصوبة، الخامس: أن لا يعمل بقول في مسئلة ثم بضده في عينها كأن أخذ دارا بشفعة

---

[١] مقدمة المجموع ص١٢٠-١٢١.

[٢] آداب الشافعي ومناقبه لعبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي ص٦٤.

[٣] ونقل مثل هذا الشيخ عبد الغني عبد الخالق في تعليقه على كتاب آداب الشافعي ومناقبه لعبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي، وقال: أنظر مختصر المؤمل ص٥-٦، ومناقب الفخر ص١٣٦، والتوالي ص٤٨.

الجوار تقليدا لأبي حنيفة ثم باعها، ثم اشتراها فاستحق أحد مثله بشفعة الجوار فأراد أن يقلد الشافعيَ ليدفعها فإنه لا يجوز؛ لأن كلا من الإمامين لا يقول به حينئذ، وفيه نظر؛ لأنه مبني على امتناع التقليد بعد العمل وإلا صح جوازه، فما نقل عن الآمدي وابن الحاجب من منع التقليد بعد العمل محمول على ما إذا بقي من آثار الأول ما يلزم عليه مع الثاني تركب حقيقة واحدة مركبة لا يقول بـــها كل من الإمامين، السادس: أن لا يلفق بين قولين تتولد منهما حقيقة واحدة مركبة لا يقول كل من الإمامين بـــها كتقليد الشافعي في مسح بعض الرأس ومالك في طهارة الكلب في صلاة واحدة كما قاله الشيخ ابن حجر، وقال ابن زياد في فتاويه ناقلا عن البلقيني: إن التركيب القادح في التقليد إنما يوجد إذا كان في قضية واحدة كما إذا توضأ فقلد أبا حنيفة في مس الفرج والشافعي في الفصد فصلاته حينئذ باطلة باتفاق الإمامين على بطلان طهارته(١) اهـــ.

فوائد مهمة

قال السيد علوي بن أحمد السقاف في (مجموعة سبعة كتب مفيدة): لا بأس بتقليد غيرِ مَن التزم مذهبه في أفراد المسائل سواء كان تقليده لأحد الأئمة الأربعة أو لغيرهم ممن حُفِظَ مذهبُه في تلك المسئلة ودُوِّنَ حتى عرفت شروطه وسائر معتبراته، ولو كان ذلك الغير منتسبا لأحد الأئمة الأربعة كأصحاب الشافعي وأبي حنيفة مثلا، فإن أحدهم قد يختار قولا يخالف نص إمامه فيجوز تقليده فيه بشروطه، ويجوز أيضا تقليد المختارين كالنووي وابن المنذر والسيوطي في اختياراتـــهم؛ لأنّهم بالنسبة لتلك المسئلة مجتهدون، ويجوز الانتقال من مذهب إلى مذهب من المذاهب المدونة ولو بمجرد التشهي سواء انتقل دواما أو في بعض الحادثة وإن أفتى أو حكم أو عمل بخلافه ما لم يلزم منه التلفيق، وكذا يجوز الأخذ والعمل لنفسه بالأقوال والطرق والوجوه الضعيفة إلا بمقابل الصحيح فإن الغالب فيه أنه فاسد، ويجوز الإفتاء به للغير بمعنى الإرشاد اهـــ من الفوائد المدنية والتذكرة ونشر الأعلام(٢).

---

[١] حاشية النفحات على شرح الورقات ص١٧٨-١٧٩، وللهيتمي كلام نفيس في التقليد ذكره في بعض كتبه كالفتاوي الحديثية وغيره.

[٢] سبعة الكتب المفيدة ص٨٩.

فائدة أخرى: قال المليباري في (فتح المعين): في فتاوي شيخنا يعني ابن حجر: من قلد إماما في مسئلة لزمه أن يجري على قضية مذهبه في تلك المسئلة وجميع ما يتعلق بِها، فيلزم من انحرف عن عين الكعبة وصلى إلى جهتها مقلدا لأبي حنيفة مثلا أن يمسح في وضوئه من الرأس قدر الناصية وأن لا يسيل من بدنه بعد الوضوء دم وما أشبه ذلك، وإلا كانت صلاته باطلة باتفاق المذهبين فليتفطن لذلك انتهى. ووافقه العلامة عبد الله أبو مخرمة العدني وزاد فقال: قد صرح بــهذا الشرط الذي ذكرناه غير واحد من المحققين من أهل الأصول والفقه: منهم ابن دقيق العيد والسبكي ونقله الإسنوي في التمهيد عن العراقي. قلت: بل نقله الرافعي في العزيز عن القاضي حسين انتهى. وقال شيخنا المحقق ابن زياد رحمه الله في فتاويه: إنّ الذي فهمناه من أمثلتهم أن التركيب القادح إنما يمتنع إذا كان في قضية واحدة فمن أمثلتهم: إذا توضأ ولمس تقليدا لأبي حنيفة وافتصد تقليدا للشافعي ثم صلى فصلاته باطلة لاتفاق الإمامين على بطلان ذلك، وكذلك إذا توضأ ومس بلا شهوة تقليدا للإمام مالك و لم يدلك تقليدا للشافعي ثم صلى فصلاته باطلة لاتفاق الإمامين على بطلان طهارته، بخلاف ما إذا كان التركيب من قضيتين فالذي يظهر أن ذلك غير قادح في التقليد كما إذا توضأ ومسح بعض رأسه ثم صلى إلى الجهة تقليدا لأبي حنيفة فالذي يظهر صحة صلاته لأن الإمامين لم يتفقا على بطلان طهارته فإن الخلاف فيها بحاله لا يقال: اتفقا على بطلان صلاته لأنا نقول: هذا الاتفاق نشأ من التركيب في قضيتين والذي فهمناه أنه غير قادح في التقليد اهــ .

فائدة أخرى: في (فتح المعين): في الخادم عن بعض المحتاطين الأولى لمن ابتلي بالوسواس الأخذ بالأخف والرخص لئلا يزداد فيخرج عن الشرع، ولضده الأخذ بالأثقل لئلا يخرج إلى الإباحة.

فائدة أخرى في مراتب العلماء

قال السيد علوي في (سبعة كبت مفيدة): قال في (مطلب الإيقاظ): مراتب العلماء ست، الأولى: مجتهد مستقل كالأربعة وأضرابــهم، الثانية: مطلق منتسب كالمزني، الثالثة: أصحاب الوجوه كالقفال وأبي حامد، والرابعة: مجتهد الفتوى كالرافعي والنووي، الخامسة: نظار في ترجيح ما اختلف فيه الشيخان كالاسنوي وأضرابه، السادسة: حملة فقه

ومراتبهم مختلفة، فالأعلون يلتحقون بأهل المرتبة الخامسة، وقد نصوا على أن المراتب الأربع الأول يجوز تقليدهم، وأما الأخيرتان فالإجماع الفعلي من زمنهم إلى ألآن الأخذ بقولهم وترجيحاتـــهم في المنقول حسب المعروف في كبتهم، ذكره في مطلب الايقاظ. وفي حواشي المحلي للقليوبي: إن قدر المجتهد على الترجيح دون الاستنباط فهو مجتهد الفتوى، وإن قدر على الاستنباط من قواعد إمامه فهو مجتهد المذهب، أو على الاستنباط من الكتاب والسنة فهو المطلق(١) اهـــ.

تنبيه في بيان أن المجتهد المستقل قد عدم من دهر طويل

قال العلامة النَّزِيلي في حاشيته على متن الإرشاد: المفتي المستقل قد عدم من دهر طويل، وصارت الفتوى إلى المنتسبين إلى أئمة المذاهب المتبوعة(٢) اهـــ.

وقد ذكر الإمام النووي في مقدمة المجموع أن المفتي المستقل قد عدم من دهر طويل، وذكر الإمام الغزالي في كتابه الإحياء أن المجتهد الذي يفتي برأيه ولا يقلد غيره مفقود في أهل عصره، فإذا كان معدوما في عصر الغزالي قرن الخامس الهجري فكيف يطمع بوجدانه بعده، فإن كل قرن متأخِّر أدنى من الذي قبله في العلم ودقة الفهم وقوة القريحة وجودة الحفظ وعدم النسيان وفي العمل الصالح وخشية الله وإجلاله وتعظيمه، فقد قال الزبير بن عدي: أتينا أنس بن مالك رضي الله عنه فشكونا إليه ما نلقي من الحجاج، فقال: اصبروا فإنه لا يأتي زمان إلا والذي بعده شر منه حتى تلقوا ربكم، سمعته من نبيكم صلى الله عليه وسلم، رواه البخاري(٣).

وقال الهيتمي في (التحفة): قال ابن دقيق العيد: لا يخلو العصر عن مجتهد إلا إذا تداعى الزمان وقربت الساعة، وأما قول الغزالي كالقفال: إن العصر خلا عن المجتهد المسقتل فالظاهر أن المراد مجتهد قائم بالقضاء لرغبة العلماء عنه، وكيف يمكن القضاء على الأعصار بخلوها عنه، والقفال نفسه كان يقول لسائله في مسائل الصبرة: تسألني عن مذهب الشافعي أم عما عندي؟ وقال هو وآخرون منهم تلميذه القاضي حسين: لسنا مقلدين للشافعي، بل وافق رأينا رأيه، وقال ابن الرفعة: ولا يختلف اثنان أن ابن عبد

---

[١] سبعة كتب مفيدة، للسيد علوي بن أحمد السقاف ص٣٩.

[٢] حاشية النفحات على الورقات ص١٦٨.

[٣] رياض الصالحين، باب المبادرة إلى الخيرات.

السلام وتلميذه ابن دقيق العيد بلغا رتبة الاجتهاد، وقال ابن الصلاح: إمام الحرمين والغزالي والشيرازي من الأئمة المجتهدين في المذهب اهـ . ووافقه الشيخان فأقاما كالغزالي احتمالات الإمام وجوها، وخالف في ذلك ابن الرفعة فقال في موضع من المطلب: احتمالات الإمام لا تعد وجوها، وفي موضع آخر منه: الغزالي ليس من أصحاب الوجوه بل ولا إمامه. والذي يتجه أن هؤلاء وإن ثبت لهم الاجتهاد فالمراد به التأهل له مطلقا أو في بعض المسائل؛ إذ الأصح جواز تجزيه، أما حقيقته بالفعل في سائر الأبواب فلم يحفظ ذلك من قريب عصر الشافعي إلى الآن، كيف وهو متوقف على تأسيس قواعد أصولية وحديثية وغيرهما يخرج عليها استنباطاته وتفريعاته، وهذا التأسيس هو الذي أعجز الناس عن بلوغ حقيقة مرتبة الاجتهاد المطلق ولا يغني عنه بلوغ الدرجة الوسطى، فإن أدون أصحابنا ومن بعدهم بلغ ذلك ولم يحصل درجة الاجتهاد المذهبي فضلا عن الاجتهاد النسبي فضلا عن الاجتهاد المطلق اهـ كلام التحفة بالحرف.

وقد ادعى في هذا العصر من هو باسم الجهل أجدر من وصف العلم بما تهواه نفسه واستروحت إليه مهجته حتى تفوَّه بأنه مجتهد مستقل يعمل بالكتاب والسنة وأنه كالشافعي وأبي حنيفة وأضرابهم، فما ذا نقول فيمن يدعي في القرن الخامس عشر الهجري أنه بلغ رتبة لم يبلغ بها أئمة التفسير والحديث والفقه وأصوله، ولا حاموا حول حماها، مِثلُ الإمام ابن جرير الطبري وإمام الأئمة أبي بكر بن خزيمة وأبي داود والنسائي من أصحاب السنن، والبيهقي، وإمام الحرمين وتلميذه الغزالي وابن عبد السلام وتلميذه ابن دقيق العيد والنووي والسبكي وابن حجر العسقلاني والخطيب البغدادي وأبي سليمان الخطابي وأضرابِهم، وهؤلاء من أتباع الإمام الشافعي ومقلدي مذهبه، ولم يَدَّعِ واحد منهم أنه كالشافعي، بل كانت نفوسهم مطمئنة باتباعه مرتاحة بتمسك مذهبه، وكذلك أتباع أبي حنيفة مثل صاحبيه أبي يوسف ومحمد الحسن، وأتباع الإمام مالك مثل القرطبي والقاضي عياض وابن عبد البر وأمثالهم، وأتباع الإمام أحمد مثل ابن الجوزي وابن قدامة.

ولا يخفى على من له أدنى إلمام ومعرفة بالعلم وأهله أن بين هؤلاء الأكابر أتباع الأئمة المجتهدين وبين المتعسفين مجتهدي هذا العصر مراحل طويلة ومسافات بعيدة أبعد بكثير مما بين السماء والأرض، بل لا يحسن تفضيل هؤلاء الأجلة على أمثال هؤلاء الأذلة، فقد قيل:

إذا أنت فضلت امرأ ذا نباهة على ناقص كان المديح من النقص

ألم تر أن السيف ينقص قدره إذا قيل هذا السيف خير من العصى

فيا عجبا ممن جهل عن البَدِيْهِيَات الواضحات، ثم يدعي أنه بلغ من العلم مرتبة لم يبلغها أولئك الأكابر والسادة الأفاضل، ويتخيل أنه أعظم منهم قدرا وأكثر علما:

ومن قال إن الشهب أكبرها السُّهَا (١) بغير دليل كذبته الدلائل

السُّهَا (١)

فما أعظم جسارة من يرى نفسه في زماننا هذا أنه يجتهد كما اجتهد الأئمة المجتهدون السابقون، وأنه يرشد الناس ويعلمهم أمر دينهم بما يستنبطه ويفهمه من كتاب رب العالمين وسنة سيد المرسلين، هيهات كيف يُعَلِّم من لم يتعلم، ومتى كان فاقد الشيء يعطيه، فليعلم أنه وإن تشمخ بأنفه وتكبر وتعاظم فلن يعدو قدره، ولن يبلغ الجبال طولا، ولا يحاكي نسجه نسج المبتدئين من طلبة العلم، فضلا عن العلماء الراسخين.

جمع النسج كل من حاك لكن ليس داود فيه كالعنكبوت

فمثل هؤلاء في زهوِّهم وتعاظمهم وتعجبهم بأنفسهم كمثل الكُركي يقوم على رجل واحدة مخافة أن تنخسف به الأرض لو وطئها، وخوفا على إبادة ما على الأرض من النبات لو قام على رجليه لما يتخيل في نفسه من العظم والثقل والقوة، وفي (ظفر الأماني) قال أبو الفتح البستي المتوفى سنة ٤٠٠:

قيل للكُركي إذا قا م على الرجل الوحيدَهْ

لم لا تعتمد الرجـــ ـــلين في الأرض الوطِيدَهْ

قال اشفاقا على النا بت فيها أن أُبِيْدَهْ (2)

---

[١] السَّها بضم السين وهو كما في لسان العرب: كُوَيكِب صغير خفي الضوء في بنات نعش الكبرى، والناس يمتحنون به أبصارهم، وفي المثل: أُرِيْها السُّها وتُرِيني العمر اهـــ.

[٢] والأبيات من مجزو الرمل، وفي القاموس: الكركي بضم الكاف طائر، جمعه كراكي، دماغه ومرارته مخلوطان بدهن زنبق سعوطا للكثير النسيان عجيب وربما لا ينسى شيئا بعده، ومرارته بماء السِّلْق سعوطا ثلاثة أيام تبري من اللقوة ألبتة، ومرارته تنفع الجرب والبرص طلاء اهـــ.

وقال الدميري في (حياة الحيوان الكبرى): إن الكُركي لا يمشي على الأرض إلا بإحدى رجليه ويعلق الأخرى، وإن وضعها وضعها خفيفا مخافة أن تخسف به الأرض(١) اهـــ.

وفي (كتاب عجائب المخلوقات والحيوانات وغرائب الموجودات) ما نصه: قال الجاحظ: لا يضع الكُركي رجليه مخافة أن تخسف به الأرض، وإذا مشى على وجه الأرض يمشي رويدا خائفا.

قلت: ولا يخفى انقطاع الاجتهاد على من له أدنى اطلاع وخبرة بِسِيَرِ مَن ذكرناهم من كبار أتباع أئمة المذاهب الأربعة وأحوالهم واستفراغ جهودهم المباركة في التحرير والتنقيح والذب عن حمى الشريعة المطهرة عن عبث العابثين وتحريف الملحدين وكيد الحاسدين، ولا شك أن ما يزعمه دعاة الاجتهاد المطلق في هذا العصر باطل لا مستند له، ووهم عجيب وتخبط غريب، ولو كان هذا الباب (باب الاجتهاد) مفتوحا بعد القرن الثالث الهجري لوجدنا في أكابر المحدثين والفقهاء والمفسرين مَنْ تَحَرَّرَ بالكلية عن التقليد، وسار على نـــهج المجتهدين من العمل بالكتاب والسنة استقلالا، لا اتباعا وتقليدا لغيرهم. ولما ادعى الاجتهاد النسبي خاتمة الحفاظ الجلال السيوطي الشافعي رحمه الله اعترض عليه أشد الاعتراض بعض الأكابر من علماء عصره، وثاروا عليه حتى قالوا فيه مالا يليق بمنصبه ومقامه، فإذا انتقدوه مع سعة اطّلاعه وتَفَوُّقِه على أكثر أهل عصره وتَبَحُّرِه في كثير من فنون العلم كما في حسن المحاضرة، الملقب بشيخ الحديث وبابن الكتب، الذي زادت تآليفه خمسمائة مُصَنَّف في مختلف الفنون من تفسير وعلومه، والحديث رواية ودراية، والفقه وقواعده، والفتاوي المتنوعة، والنحو والبلاغة وغيرها، فما ظنك بمن أتى بعد مضي نحو خمسمائة سنة من وفاته، فمن رام في هذ العصر رتبة لم ينلها الجلال السيوطي، فكأنه رام محالا، وطمع في غير مطمع، فالله يهدينا ويهديه إلى سواء السبيل.

الخلاصة

اعلم أن منكري التقليد وإن ادعوا الاجتهاد فهم في الحقيقة مقلدون تقليدا بحتا؛ لأن التقليد هو الأخذ بقول الغير، وهم إنما أخذوا في رفض المذاهب بقول غيرهم: (لامذهب ولا تقليد)، وبقبولهم قَوْلَهُ هَذَا قلّدوه واتبعوه كما قلد غيرهم أئمة المذاهب، فهم

[١] حياة الحيوان الكبرى ج٢ص٢٧٤.

لامذهبيون بلسان مقالهم، مذهبيون بلسان حالهم وحقيقة أمرهم، تركوا المذاهب التي اتفق عليها المسلمون، وتمذهبوا بآراء فلان وفلان وأفكارهم التي سوّلت لهم أنفسهم، وليست لهم معرفة في العلم أصولا وفروعا، فهم كمن فَرَّ من بلل المطر إلى مَصَبِّ الميزاب، أو من حر الرمضاء إلى حريق النار، وهم أيضا في سخافة رأيهم وقصور فهمهم كمن قال فيهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنهم: هؤلاء حمقى أبوا الاسم ورضوا بالمعنى.

التعصب المذهبي

قال ابن السبكي في كتابه (معيد النعم ومبيد النقم): من العلماء من تأخذه في الفروع الحمية لبعض المذاهب، ويركب الصعب والذلول في العصبية، وهذا من أسوإ أخلاقه، ولقد رأيت في طوائف المذاهب من يبالغ في التعصب بحيث يمتنع بعضهم من الصلاة خلف بعض إلى غير ذلك مما يستقبح ذكره، ويا ويح هؤلاء، أين هم من الله تعالى! ولو كان الشافعي وأبو حنيفة رحمهما الله تعالى حيين لشددا النكير على هذه الطائفة (١)اهـــ.

وقال الشعراني: مما من الله عليّ عدم التعصب لمذهبي، فلم أتذكر أني قلت عن شيء من مذهب المخالف هذا ضعيف أبدا، وقد كان الإمام أبو حنيفة رحمه الله يقول: ما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فعلى الرأس والعين، وما جاء عن أصحابه تخيرنا. وكذالك يقول: ما جاءنا عن الأئمة المجتهدين تخيرنا اتباع من شئنا منهم، ثم إذا تخيرناه لازمنا العمل بكلامه ولا نفارقه إلا بالموت خوفا من وقوعنا في صورة التلاعب بالدين، وإنما كنا نسلم للمخالف لإمامنا لأنه مجتهد، وقد قرر الشارع وجوب العمل على المجتهد بما فهمه من السنة، فكذلك من ألزم نفسه باتباع مجتهد يلزمه العمل بقوله. وسمعت سيدي عليا الخواص رحمه الله يقول: كل من أنكر على عالم بفهمه فكأنه يدعي أنه أعلم من ذلك العالم، ولو أنه كان يعتقد في نفسه أنه دونه في العلم لسلم له قوله، وحفظ من الوقوع في الإنكار عليه (٢).

قال الإمام الفخر الرازي في تفسير قوله تعالى:{**الذين هم في صلاتـــهم خاشعون**}: إن بعض العلماء اختار الإمامة، فقيل له في ذلك، فقال: أخاف إن تركت الفاتحة أن يعاتبني

---

[١] معيد النعم ومبيد النقم ص٧٤.

[٢] المنن الكبرى للشعراني ص٦٠-٦٣.

الشافعي وإن قرأتـــها مع الإمام أن يعاتبني أبو حنيفة فاخترت الإمامة طلبا للخلاص عن هذا الاختلاف اهـــ .

التثبت لدى الفتاوي

تَثَبَّتْ لَدَى الفَتْوَى وَلا تَعْجَلَنْ فَذَا خَطِيْرٌ وَزَلَّتْ فِيْهِ أَقْدَامُ أَمَّةِ

أي تثبت عند الفتوى ولا تعجل فيها، فإن التسرع في الفتاوي خطير، والتأني فيها حميد، وقد زلت أقدام كثير من الناس لما أفتوا بدون تحقيق وتثبت، فليحذر من ذلك من يخاف الحساب والسؤال أمام ربه جل جلاله، قال الله تبارك وتعالى: {**ستكتب شهادتـــهم ويسئلون**} وقال تعالى: {**ليسئل الصادقين عن صدقهم**} وقال تعالى: {**ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد**}.

وكان كل واحد من الصحابة رضوان الله عليهم يود أن صاحبه كفاه الفتوى.

وقال الشيخ سليمان بن عمر الشهير بالجمل في (الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين) في تفسير قوله تعالى: {**وكنا نخوض مع الخائضين**} أي كنا نشرع في الباطل مع الخائضين، ومن هذا يحذر الذين يبادرون بالجواب في كل ما يسئلون عنه من أنواع العلم من غير تثبت اهـــ .

وقال السيوطي في تفسير قوله تعالى: {**ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام**}: أخرج ابن أبي حاتم عن أبي نضرة قال: قرأت هذه الآية في سورة النحل {**ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام**} إلى آخر الآية، فلم أزل أخاف الفتيا إلى يومي هذا .

وأخرج الطبراني عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: عسى رجل أن يقول: إن الله أمر بكذا ونـــهى عن كذا، فيقول الله عز وجل له: كذبت، ويقول: إن الله حرم كذا وأحل كذا، فيقول الله عز وجل له: كذبت(١) اهـــ.

وعقد الحافظ أبوبكر الخطيب البغدادي في تَثَبُّت المفتي بابا في كتابه (الفقيه والمتفقه) فقال: باب الزجر عن التسرع في الفتوى مخافة الزلل، وروى بسنده عن البراء قال: لقد رأيت ثلاثمائة من أهل بدر، ما منهم من أحد إلا وهو يحب أن يكفيه صاحبه الفتوى.

---

[١] الدر المنثور في التفسير بالمأثور، الطبعة الأولى سنة ١٤٢١، ج٥ص١٥٣.

وروى الخطيب بطريق آخر عن البراء بن عازب قال: رأيت ثلاثمائة من أهل بدر ما فيهم رجل إلا وهو يحب الكفاية في الفتوى .

وقال إسحاق بن راهوية: قال ابن عيينة: أعلم الناس بالفتوى أسكتهم فيها، وأجهل الناس بالفتوى أنطقهم فيها .

وقال الشافعي: ما رأيت أحدا جمع الله فيه من آلة الفتيا ما جمع في ابن عيينة أسكت عن الفتيا منه.

وقال الشيخ أبوبكر الحافظ البغدادي: قَلّ من حرص على الفتوى وثابر عليها إلا قلّ توفيقه واضطرب في أمره.

وقال أيضا: قال أبو الصلت: حدثني شيخ بقرب المدينة قال: والله إن كان مالك إذا سئل عن مسألة كأنه واقف بين الجنة والنار.

وقال أيضا: ويحق للمفتي أن يكون كذلك، وقد جعله السائل الحجة له عند الله وقلده فيما قال، وصار إلى فتواه من غير مطالبة ببرهان ولا مباحثة عن دليل، بل سلم له وانقاد إليه، إن هذا لمقام خطر وطريق وعر. وقال بشر بن الحارث: من أحب أن يسئل فليس بأهل أن يسئل.

وعن عطاء بن السائب قال: أدركت أقواما إن كان أحدهم ليسئل عن الشيء فيتكلم وإنه ليرعد.

وقال سفيان بن عيينة: يغفر للجاهل سبعون ذنبا قبل أن يغفر للعالم ذنب واحد.

وقال ربيعة: قال لي ابن حلزة وكان نعم القاضي: يا ربيعة أراك تفتي الناس فإذا جاءك رجل يسألك فلا يكن همك أن تخرجه مما وقع فيه، ولتكن همتك أن تتخلص فيما سألك عنه.

وفي رواية أخرى: فلا تكن همتك أن تُخلِّصه، ولكن لتكن همتك أن تُخلِّصَ نفسَكَ(١).

وروى الخطيب بسنده عن عبد الله بن أحمد بن حنبل قال: سمعت أبي يقول: قال عبد الرحمن بن مهدي: سأل رجل من أهل المغرب مالك بن أنس عن مسألة فقال: لا أدري، فقال: يا أبا عبد الله تقول: لا أدري، قال: نعم، فبلّغ من وراءك أني لا أدري .

---

[1] الفقيه والمتفقه، باب الزجر عن التسرع في الفتوى مخافة الزلل ج٢س١٦٥-١٦٩.

وسئل الشعبي عن شيء فقال: لا أدري، فقيل له: أما تستحيي من قولك لا أدري وأنت فقيه أهل العراقيين، قال: لكن الملائكة لم تستحي حين قالت: سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا.

وقال ابن المقفع: من أنف من قول لا أدري تكلف الكذب.

وقال بعض الأوئل: لقد حسنت عندي لا أدري حتى أردت قولها فيما أدري(١).

وقال بعض العلماء: ليس معي من العلم إلا أني أعلم أني لست أعلم(٢).

وفي الإحياء: سئل الشافعي عن مسئلة فسكت، فقيل له: ألا تجيب رحمك الله؟ فقال: حتى أدري الفضل في سكوتي أم في جوابي (٣).

وقال النووي في مقدمة المجموع: عن الهيثم بن جميل شهدت مالكا سئل عن ثمان وأربعين مسئلة فقال في ثنتين وثلاثين منها لا أدري.

وعن مالك أيضا أنه ربما كان يسئل عن خمسين مسئلة فلا يجيب في واحدة منها، وكان يقول: من أجاب في مسئلة فينبغي قبل الجواب أن يعرض نفسه على الجنة والنار، وكيف خلاصه ثم يجيب، وسئل عن مسئلة فقال: لا أدري، فقيل: هي مسئلة خفيفة سهلة، فغضب فقال: ليس في العلم شيء خفيف.

وقال أبو حنيفة: لو لا الفَرَقُ(٤) من الله تعالى أن يضيع العلم ما أفتيت، يكون لهم المهنأ وعليّ الوزر.

وعن ابن مسعود وابن عباس: من أفتى عن كل ما يسئل فهو مجنون.

وعن ابن عباس ومحمد بن عجلان: إذا أغفل العالم لا أدري أصيبت مقاتلة. وعن سفيان بن عيينة وسحنون: أجسر الناس على الفتيا أقلهم علما (٥) اهـ.

---

[1] الفقيه والمتفقه في باب ما جاء في الاحجام عن الجواب إذا خفي عن المسول وجه الصواب ج٢ص١٧٤.

[2] جامع بيان العلم وفضله في فصل الإنصاف في العلم، ج١ص١٥٩.

[3] إحياء علوم الدين في مبحث العلم المحمود والمذموم ج١ ص٤٢.

[4] أي الخوف من الله تعالى، وفي لسان العرب: الفَرَق بالتحريك الخوف، وفَرِقَ منه بالكسر فَرَقاً جزع، وفَرِقَ عليه فَزِع وأشفق. وفي حديث بدء الوحي: فجئت منه فَرَقاً هو بالتحريك الخوف والجزع اهـ.

[5] مقدمة المجموع باب آدب الفتوى والمفتي والمستفتي .

وذكر الزمخشري في (ربيع الأبرار) أن عليا كرم الله وجهه سئل عن شيء وهو على المنبر فقال: لا أدري، فقيل: كيف تقول لا أدري وأنت طلت(١) فوق المنبر؟ فقال رضي الله عنه: إنما طَلِعت بقدر علمي ولو طَلِعت بمقدار جهلي لبلغت السماء(٢) .

وَهَذَا زَمُانٌ قَلَّ فِيْ أَهْلِهِ اَلْتُقَىْ وَأَفْتَى أنَاسٌ دُوْنَ عِلْمٍ وَخِبْرَةِ (٣)

أي إننا في زمان قل فيه التقوى والخشية من الله، وأفتى فيه كثير من الناس الفتاوي بدون علم وخِبْرَة وفشا هذا البلاء في البلاد والقرى، وانتشر في مجتمعات الناس ومجالسهم، فترى كثيرا من الجهال لا يخافون من ربـــهم ولا يستحيون من العلماء فيفتون ارتجالا بما خطر على بالهم وتشتهيه أنفسهم أو وسوست في قلوبـــهم الشياطين، فحللوا الحرام وحرموا الحلال، وانقلب الناس بافترآءاتـــهم المصنوعة، ومزاعمهم الباطلة، وبضاعاتـــهم الكاسدة، فضلوا وأضلوا، وسعوا في الأرض الفساد، وعمّ شرهم البلاد، فحسبنا الله ونعم الوكيل.

وفي مقدمة المجموع و(كنـــز العمال) عن أبي حَصِيْن قال: إن أحدهم ليفتي في المسئلة، ولو وردت على عمر بن الخطاب لجمع لها أهل بدر، رواه ابن عساكر (٤).

وروى الخطيب البغدادي في (الفقيه والمتفقه) بسنده عن عبد الله بن عمرو قال: يوشك أن تظهر الشياطين مما أوثق سليمان يفقهون الناس .

وروى بسنده عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أوشك أن يظهر فيكم شياطين كان سليمان أوثقها في البحر، يصلون في مساجدكم ويقرأون معكم القرآن وإنـــهم لشياطين في صور الإنس.

وروى الخطيب أيضا بسنده عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من أفتى بغير علم لعنته الملائكة .

---

[١] وفي لسان العرب: طَلِع الجبلَ بالكسر وطَلَعُهُ طلوعا رقيه وعلاه .

[٢] مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، كتاب العلم، ج١ص٣١٤ .

[٣] في القاموس: الخِبْرة والخِبْر بكسرهما ويضمان العلم بالشيء فعطفهما على العلم من عطف المترادفين.

[٤] كنـــز العلماء في سنن الأقوال والأفعال ج١٠ص١٣٣. رقم الحديث ٢٩٤٩٣، وروى النووي هذا الأثر عن الشعبي والحسن وأبي حصين بفتح الحاء التابعيين اهـــ مقدمة المجموع .

وروى بسنده أيضا عن ابن عباس أنه قال: من أفتى الناس بفتيا يعمي عنها فإنما إثمها عليه(١).

ووصف الإمام الشافعي رحمه الله المفتي فقال: لا يحل لأحد أن يفتي في دين الله إلا رجلا عارفا بكتاب الله بناسخه ومنسوخه وبمحكمه ومتشابهه وتأويله وتنزيله ومكيه ومدنيه وما أريد به وفيما أنزل، ثم يكون بعد ذلك بصيرا لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناسخ والمنسوخ، ويعرف من الحديث ما عرف من القرآن، ويكون بصيرا باللغة بصيرا بالشعر وبما يحتاج إليه للعلم والقرآن، ويستعمل مع هذا الإنصاف وقلة الكلام، ويكون بعد هذا مشرفا على اختلاف أهل الأمصار وتكون له قريحة بعد هذا، فإذا كان هكذا فله أن يتكلم ويفتي في الحلال والحرام، وإذا لم يكن هكذا فله أن يتكلم في العلم ولا يفتي .

وقال صالح بن أحمد بن حنبل لأبيه: ما تقول في الرجل يسئل عن الشيء فيجيب بما في الحديث وليس بعالم بالفتيا؟ قال: ينبغي للرجل إذا حمل نفسه على الفتيا أن يكون عارفا بالسنن، عالما بوجوه القرآن، عالما بالأسانيد الصحيحة، وإنما جاء خلاف من خالف لقلة معرفتهم بما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم في السنن، وقلة معرفتهم بصحيحها من سقيمها (٢).

وروى الخطيب البغدادي بسنده عن الحسن بن إسماعيل قال: قيل لأبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل وأنا أسمع: يا أبا عبد الله كم يكفي الرجل من الحديث حتى يمكنه أن يفتي، يكفيه مائة ألف حديث؟ قال: لا، قيل: مائتا ألف، قال: لا، قيل: ثلاثمائة ألف، قال: لا، قيل: أربعمائة ألف، قال: لا، قيل: خمسمائة ألف، قال: أرجو(٣).

وفي جامع بيان العلم وفضله: قال الإمام مالك بن أنس أخبرني رجل أنه دخل على ربيعة بن عبد الرحمن فوجده يبكي وارتاع لبكائه، فقال له: ما يبكيك أمصيبة دخلت عليك؟

---

[١] الفقيه والمتفقه، ج٢ص١٥٥.

[٢] الفقيه والمتفقه، ج٢ص١٥٧

[٣] الفقيه والمتفقه، ج٢ص١٦٣.

فقال: لا، ولكن أُسْتُفْتِيَ من لا علم له، وظهر في الإسلام أمر عظيم، قال ربيعة: ولَبعض من يفتي ههنا أحق بالسجن من السراق(١) .

وقال محيي السنة الحسين بن مسعود البغوي في (مقدمة التهذيب): ينبغي للعالم أن يكون ورعا مجتنبا عن الأهواء والبدع، محترزا عن الحرام والمعاصي، فإن الاستماع إلى المبتدع حرام، ولا يجوز العمل بفتوى الفاسق وإن كان متبحِّرا في العلم، فإذا سلك العالم هذا الطريق أرجو أن يكون علمه نافعا له ولمن أخذ عنه اهـــ .

وقال الخليل: الرجال أربعة: رجل يدري ويدري أنه يدري، فهو عالم فاتبعوه، ورجل يدري ولا يدري أنه يدري، فهو نائم فأيقظوه، ورجل لا يدري ويدري أنه لا يدري، فهو مسترشد فأرشدوه، ورجل لا يدري ولا يدري أنه لا يدري فهو شيطان فاجتنبوه.

وقال الباجوري في (تحفة المريد على جوهرة التوحيد): الجهل إما بسيط وإما مركب، فالأول: عدم العلم بالشيء عما من شأنه العلم، والثاني: إدراك الشيء على خلاف ما هو عليه في الواقع، وإنما سمي مركبا لاستلزامه جهلين، جهله بالشيء وجهله بأنه جاهل، وفي ذلك قيل:

جهلت وما تدري بأنك جاهل ومن لي بأن تدري بأنك لا تدري

وَقَدْ قِيْلَ قَبْلُ إنَّ زَلَّةَ عَالِمٍ كَزَلَّةِ مَنْ فِيْ الكَوْنِ فَاحْذَرْ بِرَهْبَةِ

أي قد قيل قديما إن زلة العالم بكسر اللام كزلة العالم بفتحها، فليحذر المفتي عن الإفتاء بما لم يحقق أنه الصواب، فقد ورد في الحديث: احذروا زلة العالم، فإن زلته تكبكبه في النار، رواه الديلمي في مسند الفردوس عن أبي هريرة، ورمز له السيوطي بالضعف كما في الفيض القدير للمناوي والسراج المنير للعزيزي.

وروى الخطيب البغدادي في (الفقيه والمتفقه) بسنده عن عبد الله بن أبي جعفر قال: قيل لعيسى بن مريم: يا روح الله وكلمته من أشد الناس فتنة؟ قال: زلة العالِم، إذا زلّ العالِم زلّ بزلّته عالَم كثير.

وروى بسنده أيضا عن عبد الله بن المعتز قال: زلّة العالم كانكسار السفينة، تغرق ويغرق معها خلق كثير.

---

[١] جامع بيان العلم لا بن عبد البر، في باب إنكار أهل العلم ما يجدونه من الأهواء والبدع، ج٢ص٢٤٦ .

وروى أيضا بسنده عن عبد الله بن عباس قال: ويل للأتباع من عثرات العالم، قيل: وكيف ذاك؟ قال: يقول العالِمُ برأيه فيبلغه الشيء عن النبي عليه الصلاة والسلام خلافه فيرجع ويمضي الأتباع بما سمعوا .

وعن أبي يوسف قال: كان أبوحنيفة إذا عمل القول من أبواب الفقه راضه سنة لا يخرجه إلى أحد من أصحابه فإذا كان بعد سنة وأحكمه خرج إلى أصحابه.

وعن سفيان قال: أدركت الفقهاء وهم يكرهون أن يجيبوا في المسائل والفتيا حتى لا يجدوا بدا من أن يفتوا .

وقال سفيان أيضا: أدركت الناس ممن أدركت من العلماء والفقهاء وهم يترادون المسائل، يكرهون أن يجيبوا فيها، فإذا أعفوا منها كان ذلك أحب إليهم. وقال أبو بكر الأثرم: قال: سمعت أبا عبد الله –يعني أحمد بن حنبل– يقول: من عرض نفسه للفتيا فقد عرضها لأمر عظيم إلا أنه قد تجيء الضرورة.

وروى الخطيب بسنده عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: أدركت مائة وعشرين من الأنصار من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأل أحدهم عن المسألة فيردها هذا إلى هذا، وهذا إلى هذا، حتى ترجع إلى الأول.

وقال عبد الرحمن بن أبي ليلى أيضا: لقد أدركت في هذا المسجد عشرين ومائة من الأنصار من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أحد منهم يحدث حديثا إلا ودّ أن أخاه كفاه الحديثَ، ولا يسأل عن فتيا إلا ودّ أن أخاه كفاه الفتيا.

وعن أبي حصين : قال: سألت إبراهيم عن شيء فقال: أما وجدت أحدا تسأله غيري.

وعن عمير بن سعيد قال: سألت علقمة عن مسألة فقال: إئت عبيدة فسله، فأتيت عبيدة فقال: إئت علقمة فقلت: علقمة أرسلني إليك، فقال: ائت مسروقا فسله، فأتيت مسروقا، فقال: ائت علقمة فسله، فقلت: علقمة أرسلني إلى عبيدة وعبيدة أرسلني إليك، قال: فائت عبد الرحمن بن أبي ليلى، فأتيت عبد الرحمن بن أبي ليلى فسألته فكرهه، ثم رجعت إلى علقمة فأخبرته قال: كان يقال: أجرأ القوم على الفتيا أدناهم علما .

وروى الخطيب بسنده عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أشد ما أتخوف على أمتي ثلاثة، زلة عالم، وجدال منافق بالقرآن، أو دنيا تقطع رقابكم، فاتّهموها

على أنفسكم، قال أبو غسان: قال لي ابن أبي شيبة: لو رحل رجل في هذا الحديث إلى خراسان كان قليلا(١).

وروى ابن عبد البر بسنده عن زياد بن جدير قال: قال عمر: ثلاث يهدمن الدين زلة عالم، وجدال منافق بالقرآن، وأئمة مُضِلُّون.

وقال أبو الدرداء: إن فيما أخشى عليكم زلة العالم، وجدال المنافق بالقرآن(٢).

حكم التساهل في الفتوى وعدم التثبت فيها

قال الإمام النووي رحمه الله في (مقدمة المجموع): يحرم التساهل في الفتوى، ومن عرف به حرم استفتاؤه، فمن التساهل أن لا يتثبّت ويسرع بالفتوى قبل استيفاء حقها من النظر والفكر، فإن تقدمت معرفته بالمسؤول عنه فلا بأس بالمبادرة، وعلى هذا يحمل ما نقل عن الماضين من مبادرة، ومن التساهل أن تحمله الأغراض الفاسدة على تتبُّع الحيل المحرمة أو المكروهة والتمسك بالشبه طلبا للترخيص لمن يروم نفعه أو التغليظ على من يريد ضره، وأما من صح قصده فاحتسب في طلب حيلة لا شبهة فيها لتخليص من ورطة يمين ونحوها فذلك حسن جميل، وعليه يحمل ما جاء عن بعض السلف من نحو هذا، كقول سفيان: إنما العلم عندنا الرخصة من ثقة .

وقال أيضا: لا يجوز أن يفتي في الأيمان والإقرار ونحوهما مما يتعلق بالألفاظ إلا أن يكون من أهل بلد اللافظ أو مُتَنَزِّلا منْزِلَتَهم في الخبرة بمرادهم من ألفاظهم وعرفهم فيها.

وقال أبضا: لا يجوز لمفت على مذهب الشافعي إذا اعتمد النقل أن يكتفي بمصَنَّف أو مصنَّفَيْن ونحوهما من كتب المتقدمين و أكثر المتأخرين لكثرة الاختلاف بينهم في الجزم والترجيح؛ لأن هذا المفتي المذكور إنما ينقل مذهب الشافعي ولا يحصل له وثوق بأن ما في المصنفين المذكورين ونحوهما هو مذهب الشافعي أو الراجح منه لما فيها من الاختـــلاف، وهذا مما لا يتشكك فيه من له أدنى أنس بالمذهب، بل قد يجزم نحو عشرة من المصنِّفِين بشيء وهو شاذ بالنسبة إلى الراجح في المذهب ومخالف لما عليه الجمهور، وربما خالف نص الشافعي أو نصوصا له(٣) اهـــ .

---

[١] الفقيه والمتفقه ج٢ص١٤:

[٢] جامع بيان العلم وفضله، في باب فساد التقليد ونفيه، والفرق بين التقليد والاتباع .

[٣] مقدمة المجموع، فصل في أحكام المفتين- فيه مسائل.

وقال ابن عبد البر في (جامع بيان العلم): قال ابن الماجشون: كانوا يقولون: لا يكون فقيها في الفقه من لم يكن إماما في القرآن والآثار، ولا يكون إماما في الآثار من لم يكن إماما في الفقه، وسئل ابن المبارك: متى يسع الرجل أن يفتي؟ قال: إذا كان عالما بالأثر بصيرا بالرأي(١).

خاتمة في مسائل مهمة ذكرها النووي في مقدمة المجموع

الأولى: قال رحمه الله تعالى: الإفتاء فرض كفاية، فإذا استفتى وليس في الناحية غيره تعين عليه الجواب، فإن كان فيها غيره وحضرا فالجواب في حقهما فرض كفاية، وإن لم يحضر غيره فوجهان أصحهما لا يتعين، والثاني يتعين وهما كالوجهين في مثله في الشهادة، ولو سأل عامي عما لم يقع لم يجب جوابه.

الثانية: اعلم أن الإفتاء عظيم الخطر، كبير الموقع، كثير الفضل؛ لأن المفتي وارث الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، وقائم بفرض الكفاية لكنه معرض للخطإ.

الثالثة: قال أبوعمرو (يعني ابن الصلاح): المفتون قسمان، مستقل وغيره، فأما المفتي الذي يستقل فقد عدم من دهر طويل وصارت الفتوى إلى المنتسبين إلى أئمة المذاهب المتبوعة، وحكى بعض أصحاب الأصول مِنَّا أنه لم يوجد بعد عصر الشافعي مجتهد مستقل اهـ

الرابعة: لا يجوز لمن كانت فتواه نقلا لمذهب إمام إذا اعتمد الكتب أن يعتمد إلا على كتاب موثوق بصحته وبأنه مذهب ذلك الإمام، فإن وثق بأن أصل التصنيف بهذه الصفة لكن لم تكن هذه النسخة معتمدة فليستظهر بِنُسَخٍ منه متفقة، وقد تحصل له الثقة من نسخة غير موثوق بها في بعض المسائل إذا رأى الكلام منتظما وهو خبير فطن لا يخفى عليه لدُرْبَتِهِ(٢) موضع الإسقاط والتغيير، فإن لم يجده إلا في نسخة غير موثوق بها فقال أبوعمرو (يعني ابن الصلاح): إن لم يكن أهلا لتخريج مثله ليس له أن يفتي به وله أن

---

(١) جامع بيان العلم وفضله ج٢ص٥٨ في باب من يستحق أن يسمى فقيها أو عالما حقيقة لا مجازا ومن يجوز له الفتيا عند العلماء.

(٢) وفي لسان العرب: الدارب الحاذق بصناعته، وفيه أيضا الدُّرْبة التجربة، ودَرَّبَتْهُ الشدائد حتى قوي ومَرِن عليها، وفيه أيضا وفي القاموس المدرب المجرب وكل ما في معناه مما جاء على بناء مُفَعَّل فالكسر والفتح فيه جائز في عينه، كالمجرِّب ونحوه إلا المدرَّب اهـ أي فإنه بالفتح فقط وهذه قاعدة مطَّردة اهـ شارح.

يذكره لا على سبيل الفتوى مفصحا بحاله، فيقول: وجدته في نسخة من الكتاب الفلاني ونحوه انتهى بحذف.

الخامسة: قال الصيمري: إذا رأى المفتي المصلحة أن يفتي العاميَ بما فيه تغليظ وهو مما لا يعتقد ظاهره وله فيه تأويل جاز ذلك زجرا له كما روى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه سئل عن توبة القاتل فقال: لا توبة له، وسأله آخر فقال: له توبة، ثم قال: أما الأول فرأيت في عينه إرادة القتل فمنعته، وأما الثاني فجاء مستكينا قد قتل فلم أقنطه، قال الصيمري: وكذا إن سأله رجل فقال: إن قتلت عبدي هل عليّ قصاص فواسع أن يقول: إن قتلت عبدك قتلناك، فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم من قتل عبده قتلناه؛ ولأن القتل له معان، قال: ولو سئل عن سب الصحابي هل يوجب القتل فواسع أن يقول: روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: من سب أصحابي فاقتلوه، فيفعل كل هذا زجرا للعامة، ومن قلّ دينه ومروءته.

السادسة: قال الخطيب: ينبغي للإمام أن يتصفح أحوال المفتين فمن صلح للفتيا أقره، ومن لا يصلح منعه ونـــهاه أن يعود وتواعده بالعقوبة إن عاد. وطريق الإمام إلى معرفة من يصلح للفتوى أن يسأل علماء وقته ويعتمد أخبار الموثوق بـــهم، ثم روى الخطيب بإسناده عن مالك رحمه الله قال: ما أفتيت حتى شهد لي سبعون أني أهل لذلك. وفي رواية: ما أفتيت حتى سألت من هو أعلم مني هل يراني موضعا لذلك. قال مالك: ولا ينبغي لرجل أن يرى نفسه أهلا لشيء حتى يسأل من هو أعلم منه(١) اهـــ.

---

[1] مقدمة المجموع فصل في آداب الفتوى والمفتي والمستفتي ص٤١-٥٠.

غض الأبصار عن المحرمات

وَغُضُّوْا عَنِ العَوْرَاتِ أَبْصَارَكُمْ فَمَنْ   يَكُنْ نَاظِراً فِيْهَا يَخُضْ بَحْرَ فِتْنَةِ
وَيَقْسُوْ بِذَلِكُمْ قُلُوْبُكُمُو   وَيَعْـتَلِيْهَا سَوَادٌ ثُمَّ رَيْنٌ بِظُلْمَةِ

أي غضوا أبصاركم عن نظر العورات، والعورة هي كل ما حرّم الله النظر إليه من الرجال والنساء، قال الله تعالى: {**قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون**} وقال تعالى: {**وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن**}، فمن لم يمتثل بأمر ربه ونظر إلى العورات وقع في بحر فتنة، ويقسو قلبه ويغطّيه سواد الذنب والرين، فيكون مظلما لا تدخله أنوار العلم وأنواع الخيرات، وقد ذكرنا حديث إذا عمل الرجل الذنب نكت في قلبه نكتة سوداء ثم يعمل الذنب بعد ذلك فينكت في قلبه نكتة سوداء، ثم كذلك حتى يسود عليه .. الحديث.

وأجاد القائل:

ليس الشديد الذي يحمي مطيته   يوم النزال ونار الحرب تشتعل
لَكِنْ فتى غض طرفا أو ثنى بصرا   عن الحرام فذاك الفارس البطل [1]

وروى ابن الجوزي بسنده عن إبراهيم بن المهلب السائح قال: رأيت بين الثعلبية والخزيمية غلاما قائما يصلي، قد انقطع عن الناس، فانتظرته حتى قطع صلاته ثم قلت له: ما معك مؤنس؟ قال: بلى، قلت: وأين هو؟ قال: أمامي ومعي وخلفي وعن يميني وعن شمالي وفوقي، فعلمت أن عنده معرفة، فقلت: أما معك زاد؟ قال: بلى، قلت: فأين هو؟ قال: الإخلاص لله عز وجل، والتوحيد له، والإقرار بنبيه صلى الله عليه وسلم، وإيمان صادق، وتوكل واثق، قلت: هل لك في مرافقتي؟ قال: الرفيق يشغل عن الله، ولا أحب أن أرافق أحدا فأشتغل به عنه طرفة عين، قلت: أما تستوحش في هذه البرية وحدك؟ فقال: إن الأنس بالله قطع عني كل وحشة، حتى لو كنت بين السباع ما خفتها ولا استوحشت منها، قلت: فمن أين تاكل؟ فقال: الذي غذاني في ظلم الأرحام صغيرا قد تكفل برزقي كبيرا، قلت: ألك حاجة؟ قال: نعم، قلت: وما هي؟ قال: إذا رأيتني فلا تكلمني، ولا تعلم أحدا أنك تعرفني، قلت: لك ذاك، فهل لك حاجة غيرها؟ قال: نعم، قلت: وما هي؟

---

[1] ذم الهوى ص١٥٩.

قال: إن استطعت أن لا تنساني في دعائك عند الشدائد إذا نزلت بك فافعل، قلت: كيف يدعو مثلي لمثلك وأنت أفضل مني خوفا وتوكلا؟ قال: لا تقل هذا، إنك قد صليت لله عز وجل قبلي، ولك حق الإسلام ومعرفة الإيمان، قلت: فإنّ لي أيضا حاجة، قال: وما هي؟ قلت: ادع الله لي، فقال: حَجَبَ اللهُ طرفك عن كل معصية، وألْهَمَ قلبك الفكر فيما يرضيه، حتى لا يكون لك هَمٌّ إلا هو، قلت: يا حبيبي متى ألقاك وأين أطلبك؟ فقال: أما في الدنيا فلا تحدث نفسك بلقائي فيها، وأما الآخرة فإنـــها مجمع المتقين، فإياك أن تخالف الله فيما أمرك وندبك إليه، فإن كنت تبغي لقائي فاطلبني مع الناظرين إلى الله عز وجل في زمرتـــهم، قلت: وكيف علمتَ ذاك؟ قال: بغضّ طرفي له عن كل محرم، واجتنابي فيه كل منكر ومأثم، وقد سألته أن يجعل جنتي النظر إليه، ثم صاح وأقبل يسعى، حتى غاب عن بصري(١) .

وَإيّاكَ نَظْرَ الأَجْنَبِيَّاتِ إنَّـــهُ كَلَسْعِ الأفَاعِيْ [٢] أوْكَطَعْنِ الأسِنِّ ةَ[٣]

الأسِنِّ ةَ[٣]

أي احذر عن نظر الأجنبيات، فإنه كلسع الأفاعي أو كطعـــن الأســـنة، ففـــي البيـــت التخصيص بعد التعميم، فإن النظر إليهن داخل فيما ذكرناه من عموم العـــورات، وإنمـــا خُصَّ نظر الأجنبيات لمزيد الابتلاء به، قال صلى الله عليه وسلم: ما تركت بعدي فتنـــة أضر على الرجال من النساء (٤).

وروى ابن الجوزي بسنده عن ابن عباس قال في قوله تعالى: {**يعلم خائنة الأعين**}: قال: الرجل يكون في القوم فتمرّ بـــهم المرأة، فيريهم أنه يغض بصره عنها، فإن رأى منهم غفلة نظر إليها، فإن خاف أن يفطنوا إليه غض بصره، وقد اطلع الله عز وجل من قلبه أنه يودّ أنه نظر إلى عورتـــها .

---

[١] ذم الهوى ص١٥٨-١٥٩.

[٢] الأفاعي: جمع الأفعى وهي حية من شرار الحيات، رقشاء، دقيقة العنق، عريضة الرأس، قاتلة السم. اهـــ المعجم الوسيط.

[٣] الأسنة: جمع سنان وهو نصل الرمح. اهـــ المعجم الوسيط

[٤] قال السيوطي في الجامع الصغير: روى حديث ما تركت بعدي فتنة .. الحديث.. أحمد في مسنده والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه عن أسامة .

وقال سليمان لابنه: يا بني امش وراء الأسد والأسود(١)، ولا تمش وراء امرأة .

وقال الحسن: من أطلق طرفه طال أسفه(٢).

وروى البخاري في صحيحه عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: كان الفضل رديف رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجاءت امرأة من خثعم، فجعل الفضل ينظر إليها وتنظر إليه، وجعل النبي صلى الله عليه وسلم يصرف وجه الفضل إلى الشق الآخر، فقالت: يا رسول الله إن فريضة الله على عباده في الحج أدركت أبي شيخا كبيرا لا يثبت على الراحلة أفأحج عنه؟، قال: نعم، وذلك في حجة الوداع.

ورواه ابن الجوزي بسنده عن الفضل بن عباس قال: كنت رديف النبي صلى الله عليه وسلم من جمع(٣) إلى مني، فبينما هو يسير إذ عرض له أعرابي مُرْدِفٌ ابنة له جميلة، وكان يسايره، قال: فكنت أنظر إليها، فنظر إليّ النبي صلى الله عليه وسلم فَقَلَّب وجهي عن وجهها، ثم أَعَدتّ النظر، فقلَّب وجهي عن وجهها، حتى فعل ذلك ثلاثا(٤).

وعن ابن عباس قال: جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يَتَشَلْشَلُ(٥) دما فقال له: ما لك؟ قال: يا رسول الله مرت بي امرأة فنظرت إليها، فلم أزل أتبعها بصري، فاستقبلني جدار فضربني، فصنع بي ما ترى، فقال: إن الله عز وجل إذا أراد بعبد خيرا عجل له عقوبته في الدنيا.

وعن عمرو بن مرة قال: نظرت إلى امرأة فأعجبتني، فكف بصري فأرجوا أن يكون ذلك جزائي .

وقال أبو عمرو بن عُلوان يقول: خرجت يوما إلى سوق الرحبة في حاجة، فرأيت جنازة فتبعتها لأصلي عليها، ووقفت في جملة الناس حتى يدفن الميت، فوقعت عيني على امرأة مسفرة من غير تعمد، فلححت بالنظر واسترجعت واستغفرت الله وعدت إلى منْزلي، فقالت لي عجوز: يا سيدي ما لي أرى وجهك أسود؟ فأخذت المرآة فنظرت فإذا وجهي

---

[١] الأسود الحية العظيمة.

[٢] ذم الهوى ص١١٥-١١٦.

[٣] أي -مزدلفة.

[٤] ذم الهوى ص١٠٧، وهذا الحديث بلفظه في مسند الإمام أحمد، رقم الحديث ١٨١٠.

[٥] أي يتقاطر دمه، وفي القاموس: ماء شَلْشَل ومُتَشَلْشِل متتابع القطر.

أسود، فرجعت إلى سري أنظر من أين دُهِيت، فتذكرت النظرة، فانفردت في موضع أستغفر الله وأسأله الإقالة أربعين يوما، فخطر في قلبي أن زُرْ شيخك الجنيد، فانحدرت إلى بغداد، فلما جئت الحجرة التي هو فيها طرقت الباب، فقال لي: ادخل يا أبا عمرو، تذنب بالرحبة وتستغفر ربك ببغداد ! (١).

وعن سعيد بن المسيب قال: ما يئس الشيطان من ابن آدم قط إلا أتاه من قِبَلِ النساء .

وقال سفيان الثوري: يقال: قال إبليس: سهمي الذي إذا رميت به لم أُخْطِئْ النساء(٢).

وفي (الحلية) أن سفيان الثوري سئل عن قوله تعالى {**وخلق الإنسان ضعيفا**} ما ضعفه؟ قال: المرأة تَمُرُّ بالرجل فلا يملك نفسه عن النظر إليها، ولا هو ينتفع بها، فأي شيء أضعف من هذا؟(٣).

وقال السيوطي في (الدر المنثور في التفسير بالمأثور) في تفسير قوله تعالى: {**وخلق الإنسان ضعيفا**}: أخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن طاووس: {**وخلق الإنسان ضعيفا**}: قال: في أمر النساء ليس يكون الإنسان في شيء أضعف منه في النساء، قال وكيع: يذهب عقله عندهن.

وأخرج الخرائطي عن طاووس في قوله تعالى: {**وخلق الإنسان ضعيفا**} قال: إذا نظر إلى النساء لم يصبر.

وفي (مجمع الزوائد) عن خوات بن جبير قال: نزلنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مر الظهران قال: فخرجت من خبائي فإذا نسوة يتحدثن فأعجبني، فرجعت فاستخرجت عيبتي فاستخرجت منها حلة فلبستها، وجئت فجلست معهن، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: (أبا عبد الله)، فلما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم هبته واختلطت، قلت: يا رسول الله جمل لي شرد وأنا أبتغي له قيدا، فمضى واتبعته فألقى إلىّ رداءه ودخل الأراك كأني أنظر إلى بياض متنه في خضرة الأراك، فقضى حاجته وتوضأ، وأقبل والماء يسيل من لحيته على صدره، فقال: أبا عبد الله ما فعل شراد جملك؟ ثم ارتحلنا

---

[١] ذم الهوى ص١٤٤-١٤٦.

[٢] ذم الهوى ص١٧٩-١٨٠.

[٣] حليلة الأولياء وطبقات الأصفياء للحافظ أبي نعيم، ج٧ص٦٨ .

فجعل لا يلحقني في المسير إلا قال: السلام عليك أبا عبد الله ما فعل شراد ذلك الجمل؟ فلما رأيت ذلك تعجلت إلى المدينة، واجتنبت المسجد ومجالسة النبي صلى الله عليه وسلم، فلما طال ذلك تحينت ساعة خلوة المسجد، فخرجت إلى المسجد وقمت أصلي، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من بعض حجره، فجاء فصلى ركعتين خفيفتين وطولت رجاء أن يذهب ويدعني، فقال: طوّل أبا عبد الله ما شئت أن تطوّل، فلست قائما حتى تنصرف، فقلت في نفسي والله لأعتذرن إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولأبرأن صدر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما انصرفت قال: السلام عليك أبا عبد الله ما فعل شراد جملك، فقلت: والذي بعثك بالحق ما شرد ذلك الجمل منذ أسلمت، فقال: رحمك الله ثلاثا، ثم لم يعد لشيء مما كان، رواه الطبراني من طريقين ورجال أحدهما رجال الصحيح غير الجراح بن مخلد وهو ثقة(١) .

وفي المدابغي: رب نظرة قادت للقلب ألف حسرة.

وقال بعضهم:

كل الحوادث مبداها من النظر ومعظم النار من مستوقد (٢) الشرر

والمرء ما دام ذا عين يقلبها في أعين الغيد موقوف على الخطر

كم نظرة فعلت في قلب صاحبها فعل السهام بلا قوس ولا وتر

يسر مقلته ما ضر مهجته لا مرحبا بسرور جاء بالضرر (٣)

وفي (المجالس السنية في الكلام على الأربعين النووية) أن بعض العرب عشق امرأة وأنفق عليها أموالا كثيرة، حتى مكنته من نفسها، فلما جلس بين شُعَبِها وأراد الفعل ألهمه الله التوفيق ففكر، ثم أراد القيام عنها فقالت له ما شأنك؟ فقال: من يبيع جنة عرضها السموات والأرض بقدر فِتْرٍ(٤) لقليل الخبرة بالمساحة ثم تركها وذهب.

والأحاديث الواردة في فضائل غض الأبصار وفي وعيد نظر الأجنبيات كثيرة منها: ما ذكره الهيتمي في (الزواجر عن اقتراف الكبائر) قال: روى أحمد: ما من مسلم ينظر

---

[١] مجمع الزوائد في كتاب المناقب ج٩ص٤٩٥.

[٢] هذا ما رأيته في المدابغي، والذي في غيره: من مستصغر الشرر .

[٣] المدابغي حاشية فتح المبين شرح الأربعين النووية ص١٢٠.

[٤] وفي المصباح المنير ومختار الصحاح: الفتر بالكسر بوزن الفِطْرِ ما بين طرف الإبهام وطرف السبابة.

إلى محاسن امرأة ثم يغض بصره إلا أحدث الله له عبادة يجد حلاوتـــها في قلبـــه، قـــال البيهقي: إنما أراد إن صح والله أعلم أن يقع بصره عليها من غير قصد فيصرف بصره عنها تورعا.

وروى الأصبهاني: كل عين باكية يوم القيامة إلا عين غضت عن محارم الله وعين سهرت في سبيل الله، وعين خرج منها مثل رأس الذباب من خشية الله .

وروى الطبراني: ثلاثة لا ترى أعينهم النار، عين حرست في سبيل الله، وعين بكت مـــن خشية الله، وعين كفت عن محارم الله.

وصح عند الحاكم واعترض بأن فيه انقطاعا: اضمنوا لي ستا من أنفسكم أضـــمن لكـــم الجنة: اصدقوا إذا حدثتم، وأوفوا إذا وعدتم، وأدّوا إذا ائتمنتم، واحفظـــوا فـــروجكم، وغضوا أبصاركم، وكفوا أيديكم.

وروى الطبراني: لَتَغُضُّنَّ أبصاركم ولتحفَظُنَّ فروجكم أو ليكسفن الله وجوهكم.

وأخرج الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: كتب على ابن آدم نصيبه من الزنا، مدرك ذلك لا محالة، العينان زناهما النظر، والأذنـــان زناهما الاستماع، واللسان زناه الكلام، واليد زناها البطش، والرجل زناها الخطا، والقلب يهوي ويتمنى ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه .

وفي رواية صحيحة: العينان تزنيان والرجلان تزنيان والفرج يزني.

وروى الترمذي وقال: حسن غريب: يا علي إن لك كنـــزا في الجنة وإنك ذو قرنيهـــا- أي مالك طرفيها السالك في جميع نواحيها تشبيها بذي القرنين، فإنه قيل: إنما سمي بذلك لقطعه الأرض وبلوغه قرني الشمس شرقا وغربا- فلا تتبع النظرة النظرة، فإنما لك الأولى وليست لك الآخرة.

وروى الطبراني والحاكم وصححه واعترض بأن فيه واهيا عن ابن مسعود رضي الله عنـــه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يعني عن ربه عز وجل: النظرة سهم مسموم من سهام إبليس من تركها من مخافتي أبدلته إيمانا يجد حلاوته في قلبه.

وروى مسلم وغيره عن جرير: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نظرة الفجـــأة فقال: اصرف بصرك.

وصح(١): ما من صباح إلا وملكان يناديان: ويل للرجال من النساء، وويل للنساء مـــن الرجال(٢).

واعلم أن مس الأجنبية بشهوة أو بغيرها حرام كالنظر إليها، بل هو أشد منه، فإن المسّ أبلغ في اللذة وأشد في إثارة الشهوة وأدعى إلى الزنا، وفي (الترغيب والترهيب) روي عن معقل بن يسار رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لأن يطعن في رأس أحدكم بمخيط من حديد خير له من أن يمس امرأة لا تحل له، رواه الطبراني والبيهقي، ورجال الطبراني ثقات رجال الصحيح.

المخيط بكسر الميم، وفتح الياء: هو ما يخاط به كالإبرة والمسلة ونحوهم.

وروي عن أبي أمامة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إياك والخلوة بالنساء، والذي نفس محمد بيده ما خلا رجل بامرأة إلا ودخل الشيطان بينهما، ولأن يزحم رجل خنـــزيرا متلطخا بطين، أو حمأة خير له من أن يزحم منكبه منكب امرأة لا تحل له. حديث غريب، رواه الطبراني.

الحمأة بفتح الحاء المهملة وسكون الميم بعدها همزة وتاء تأنيث: هو الطين الأسود المنتن

وفي (الدر المنثور) في تفسير {**قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم**}: أخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر عن العلاء بن زياد قال: كان يقال: لا تتبعنّ بصرك حسن رداء امرأة فإن النظر يجعل شبقا(٣) في القلب اهـــ

---

[١] روى حديث ما من صباح إلا وملكان إلخ.. ابن ماجه والحاكم وقال: صحيح الإسناد كما في الترغيب والترهيب.

[٢] الزواجر عن اقتراف الكبائر، ج٢ص٢-٣.

[٣] الشبق شدة الغلمة كما في المختار، وفي المصباح: شَبِقَ الرجل: هاج به شهوة النكاح، وبابه تعب .

احترام ذي الشيبة المسلم وحامل القرآن وأهل العلم وغيرهم

وَإِكْرَامُ ذِيْ الشَّيْبَةِ إنْ كَانَ مُسْلِماً يَكُوْنُ بِهِ أَجْرٌ وَإِمْدَادُ رَحْمَةِ

أي إن في إكرام ذي الشيبة المسلم أجرا وزيادة رحمة من الله تعالى، واعلم أن الصغير الذي يحترم الشيوخ الأكابر ويعرف لهم فضلهم ويؤدي لهم حقوقهم من الإكرام والتوقير يُقيّض الله له من يعامله عند كبره بمثل معاملته معهم، ومن لم يحترمهم و لم يستحي منهم فسوف يُجْزَى عند الشيخوخة بمثل وصفه، قال تعالى: {**سيجزيهم وصفهم**} وقال صلى الله عليه وسلم: كما تدين تدان(١). وأجاد القائل حيث قال:

إذا أنت لم تعرف لذي السن فضله عليك فلا تنكر عقوق الأصاغر(٢)

وروى الترمذي عن أنس مرفوعا حديث: ما أكرم شاب شيخا إلا قَيَّضَ الله له من يكرمه عند كبر سنه . وقال: غريب لا نعرفه إلا من حديث يزيد بن بيان .

وفي (الترغيب والترهيب) عن أبي موسى الأشعري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ليس منا من لم يوقر الكبير ويرحم الصغير ويأمر بالمعروف وينه عن المنكر، رواه الحميدي والترمذي وابن حبان في صحيحه.

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يبلغ به النبي صلى الله عليه وسلم قال: ليس منا لم يرحم صغيرنا ويعرف حق كبيرنا، رواه الحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويعرف شرف كبيرنا(٣)، رواه الترمذي وأبو داود إلا أنه قال: ويعرف ويعرف حق كبيرنا.

---

[١] هذا بعض حديث، وكماله: البر لا يبلى، والذنب لا ينسى، والديان لا يموت، اعمل ما شئت كما تدين تدان. قال في الجامع الصغير: رواه عبد الرزاق عن أبي قلابة مرسلا.

[٢] البيت في جامع بيان العلم وفضله ج١ص٢٣٩.

[٣] قال المناوي في فيض القدير: قال الحافظ العراقي: ويؤخذ من قوله: شرف كبيرنا أنه إنما يستحق الكبير الإكرام إذا كان له شرف بعلم أو صلاح، ونَسَبٌ زكيٌّ كالشرف. ويحتمل أن التعمير في الإسلام شرف لقوله صلى الله عليه وسلم: خير الناس من طال عمره وحسن عمله، نعم إن كان شيخا سيئ العمل فلا يستحق الإكرام لقوله في بقية الحديث: وشر الناس من طال عمره وساء عمله، لكن جاء في حديث: ما من شاب أكرم شيخا لسنه إلا قيض الله له من يكرمه عند سنه، وظاهر هذا الحديث أنه يكرم الكبير لسنه بغير قيد. انتهى بتصرف.

وعن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: البركة مع أكابركم، رواه الطبراني في الأوسط والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم.

وعن عبادة بن الصامت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ليس من أمتي من لم يُجِلَّ كبيرنا ويرحم صغيرنا ويعرف لعالمنا، رواه أحمد بإسناد حسن والطبراني والحاكم إلا أنه قال: ليس منا(١) اهـ.

وفي صحيح مسلم أن عبد الله بن سهل ومُحَيِّصَة خرجا إلى خيبر من جَهد أصابهم، فأتى محيصة، فأخبر أن عبد الله بن سهل قد قتل وطرح في عين أو فقير(٢)، فأتى يهود فقال: أنتم والله قتلتموه، قالوا: والله ما قتلناه، ثم أقبل حتى قدم على قومه فذكر لهم ذلك، ثم أقبل هو وأخوه حُوَيِّصَة وهو أكبر منه وعبد الرحمن بن سهل، فذهب محيصة ليتكلم وهو الذي كان بخيبر، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمحيصة: كَبِّر كَبِّر، "يريد السنَّ"(٣) فتكلم حويصة ثم تكلم محيصة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إما أن يدوا صاحبكم وإما أن يُؤذِنُوا بحرب، فكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم في ذلك، فكتبوا إنا والله ما قتلناه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لحويصة ومحيصة وعبد الرحمن: أتحلفون وتستحقون دم صاحبكم؟ قالوا: لا، قال: فتحلف لكم يهود، قالوا: ليسوا بمسلمين، فوداه رسول الله صلى الله عليه وسلم من عنده فبعث إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة ناقة حتى أدخلت عليهم الدار، فقال سهل: فقد ركضتني منها ناقة حمراء (٤).

قال النووي في شرح مسلم: وفي هذا فضيلة السن عند التساوي في الفضائل، ولهذا نظائر فإنه يقدم بها في الإمامة وفي ولاية النكاح ندبا وغير ذلك اهـ.

---

[١] الترغيب والترهيب، في باب ترغيب إكرام العلماء وإجلالهم وتوقيرهم والترهيب من إضاعتهم وعدم المبالاة بهم من كتاب العلم.

[٢] الفَقِيْرُ هنا: البئر القريب القعر الواسعة الفمّ، وقيل: هو الحفيرة التي تكون حول النخل اهـ شرح مسلم للنوي.

[٣] قوله: يريد السن يعني كبرهما لسنهما، أي ليتكلم أكبر منك، وفي رواية لمسلم: ليبدإ الأكبر .

[٤] شرح صحيح مسلم، كتاب القسامة، ج١١ص١٥١-١٥٢.

وفي (مجمع الزوائد) عن أبي أمية الجمحي أن رجلا سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الساعة، فقال: من أشراطها ثلاث: إحداهن التماس العلم عند الأصاغر، رواه الطبراني في الأوسط والكبير وفيه ابن لهيعة وهو ضعيف.

وعن ابن مسعود: لا يزال الناس صالحين متماسكين ما أتاهم العلم من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فإذا أتاهم من أصاغرهم هلكوا، رواه الطبراني في الكبير والأوسط ورجاله موثقون(١)اهـ.

وَحَامِلُ قُرْآنٍ كَهَذَا وَذَا إذَا يُرَىْ غَيْرَ غَالٍ فِيْهِ فَاسْمَعْ نَصِيْحَتِيْ

أي إن حامل القرآن الشريف يكرم كما يكرم ذو الشيبة المسلم، لكن هذا إذا كان عاملا به غير غال فيه، روي عن أبي موسى رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إنّ من إجلال الله إكرام ذي الشيبة المسلم وحامل القرآن غير الغالي فيه ولا الجافي عنه وإكرام ذي السلطان المقسط، رواه أبو داود(٢).

وسئل ابن حجر الهيتمي عن المراد بقوله صلى الله عليه وسلم: " وحامل القرآن غير الغالي فيه والجافي عنه " فأجاب رحمه الله بقوله: المراد بالغالي فيه المتجاوز لما فيه من الحدود والأحكام الاعتقادية والعملية والآداب والأخلاق الظاهرة والباطنة وغير ذلك من سائر الكمالات التي حث القرآن عليها، فمن حفظ ألفاظه وتجاوز شيئا من هذه المذكورات كان غير مستحق للإكرام والتعظيم بحسب ما ارتكبه، بمعنى أنه يؤاخَذُ ويُذم عليه من حيث ارتكابه لذلك، وإن كان يستحق الإكرام والتعظيم من جهات أُخَرَ، لكونه مسلما أو حافظا للقرآن أو نحو ذلك، فليس المراد نفي التعظيم له مطلقا، بل بالاعتبار الذي ذكرته فتأمله.

والمراد بالجافي عنه من لا يخضع لما فيه من الآيات الباهرة والأدلة المتكاثرة، ولا يتأمل ما اشتمل عليه نظمه من بدائع المعاني وإحكام المباني، بل يمره بلسانه مع قساوة قلبه وجفاوة لبه فهو كحمار الرحى وثور الحراثة والاستقاء، ولسنا متعبدين بمجرد حفظه،

---

[١] مجمع الزوائد، في باب أخذ كل علم من أهله من كتاب العلم .

[٢] الترغيب والترهيب، في باب ترغيب إكرام العلماء وإجلالهم وتوقيرهم والترهيب من إضاعتهم وعدم المبالاة بـــهم من كتاب العلم.

وإنما المقصود الأعظم بإنزاله والتَّعَبُّدِ بحفظه ألفاظَهُ(١) هو هداية القلوب ورجوعها بالاستكانة والخضوع إلى علام الغيوب، وتنـــزهها عن كل خُلُق ذميم، فمن ظفر بذلك مع حفظه فقد ظفر بالكنْز الأعظم، ومن ظفر بالأول فقط فهو آخذ من الكمال بما يستحق بسببه أن يكرم ويعظم، ومن قنع بحفظ الألفاظ وخلا عن تلك المعاني بأن غلا أو تجافى فهو بعيد عن الكمال، غير مستحق أن يبلغ به مبالغ الكمل من الرجال، فهذا والله أعلم بمراد نبيه صلى الله عليه وسلم هو المراد من هذا الحديث، ويؤيد ما ذكرته حديث أحمد وأبي يعلى والطبراني والبيهقي: اقرأوا القرآن واعملوا به، ولا تجفوا عنه ولا تغلوا فيه، ولا تأكلوا به ولا تستكثروا به(٢) اهـــ.

وعن جابر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يجمع بين الرجلين من قتلى أحد يعني في القبر ثم يقول: أيهما أكثر أخذا للقرآن؟ فإذا أشير إلى أحدهما قدمه في اللحد، رواه البخاري(٣).

وقال الغزالي في الإحياء قال سفيان الثوري: إذا قرأ الرجل القرآن قبَّل الملك بين عينيه.

ومن احترام حامل القرآن القيام له على سبيل الاحترام والإكرام، لا للرياء والإعظام، كما يؤخذ مما ذكره الإمام النووي في كتابه (التبيان في آداب حملة القرآن) (٤) .

---

[١] كذا في الأصل، والظاهر: أن الصواب بحفظ ألفاظه، والله أعلم.

[٢] الفتاوي الحديثية لا بن حجر الهيتمي، مطلب المراد من قول النبي صلى الله عليه وسلم: إن من إجلال الله إلخ.

[٣] الترغيب والترهيب، في باب ترغيب إكرام العلماء وإجلالهم وتوقيرهم والترهيب من إضاعتهم وعدم المبالاة بـــهم من كتاب العلم.

[٤] عبارته في التبيان: إذا ورد على القارئ مَنْ فيه فضيلة من علم أو شرف أو سِنٍّ مع صيانة أو له حرمة بولاية أو ولادة أو غيرها فلا بأس بالقيام له على سبيل الاحترام والإكرام لا للرياء والإعظام، بل ذلك مستحب، وقد ثبت القيام للإكرام من فعل النبي صلى الله عليه وسلم وفعل أصحابه رضي الله عنهم بحضرته وبأمره، ومن فعل التابعين ومن بعدهم من العلماء الصالحين، وقد جمعت جزءا في القيام وذكرت فيه الأحاديث الواردة باستحبابه وبالنهي عنه، وبينت ضعف الضعيف منها وصحة الصحيح، والجواب عما يتوهم منه النهي وليس فيه نـــهي، وأوضحت ذلك كله بحمد الله تعالى، فمن تشكك في شيء من أحاديثه فليطالعه يجد ما يزول به شكه إن شاء الله تعالى. التبيان في آداب حملة القرآن، فصل حكم القيام.

وَفِيْ حُبِّ أهْلِ العِلْمِ وَالفَضْلِ وَالتُّقَى وَخِدْمَتِهِمْ خَيْرٌ وَإجْزَالُ نِعْمَةِ

أي في حب هؤلاء الثلاثة وخدمتهم خير ونعمة جزيلة، فقد قيل: خدمة أهل الله تعظيم شعائر الله، وقال الله تعالى: {**ومن يعظم شعائر الله فإنـــها من تقوى القلوب**} وقال تعالى: {**ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه**} .

وروى الخطيب عن أنس أنه صلى الله عليه وسلم قال: إنما يعرف الفضل لأهل الفضل أهل الفضل، ورواه ابن عساكر عن عائشة، ورمز له السيوطي في (الجامع الصغير) بالحسن.

قال المناوي في (فيض القدير): إنما يُعرَف فضلُ العلم بالعلم، فلما عدم الجهال العلم الذي به يتوصلون إلى معرفته جهلوا فضله واسترذلوا أهله، وتوهموا أن ما تميل إليه نفوسهم من الأموال المقتنيات أولى أن يكون إقبالهم عليها، وأحرى أن يكون اشتغالهم بـــها، قال ابن المعتز: العالم يعرف الجاهل لأنه كان جاهلا، والجاهل لا يعرف العالم؛ لأنه لم يكن عالما؛ ولذلك انصرف الجهال عن العلم وأهله، فإن من جهل شيئا عاداه، والناقص لعجزه عن بلوغ فضلهم يريد ردهم إلى درجة نقصه لعزته بنفسه اهـــ.

فيتأكد على طالب العلم وغيره المحبة والاحترام بالصالحين من العلماء وجميع أهل الفضل والتقى، قال ابن حجر الهيتمي: قال شاه بن شجاع الكرماني: ما تعبد متعبد بأكثر من التحبب إلى أولياء الله؛ لأن محبتهم دليل على محبة الله عز وجل [1]اهـــ.

تنبيه في النهي عن إيذاء الفقهاء والمتفقهين وانتقاصهم

لقد ذكرنا هنا محبة الصالحين وخدمتهم، وذكرنا في مقدمة الكتاب فضائل العلماء وطلبة العلم المخلصين العاملين به، ونذكر في أواخره كلمات قليلة في التحذير والنهي عن إيذائهم وانتقاصهم. وقد عقد النووي في مقدمة المجموع فصلا في الحث على إكرام الفقهاء والمتفقهين وتعظيم حرماتـــهم وفي النهي الأكيد والوعيد الشديد لمن يؤذي أو ينتقص بـــهم. فمما قال فيه: روى الخطيب البغدادي عن الشافعي وأبي حنيفة رضي الله عنهما قالا: إن لم تكن الفقهاء أولياء لله فليس لله ولي، وفي كلام الشافعي: الفقهاء العاملون.

---

[1] الفتاوي الحديثية ص٢٨٤.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: من آذى فقيها فقد آذى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن آذى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد آذى الله عز وجل.
وثبت في صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: أن الله عز وجل قال: من آذى لي وليا فقد آذنته بالحرب. وقال تعالى: {**والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بـــهتانا وإثما مبينا**}.
وقال الإمام الحافظ أبو القاسم ابن عساكر رحمه الله تعالى: اعلم يا أخي وفقني الله وإياك لمرضاته وجعلنا ممن يخشاه ويتقيه حق تقاته أن لحوم العلماء مسمومة وعادة الله في هتك أستار منتقصيهم معلومة، وأن من أطلق لسانه في العلماء بالثلب بلاه الله قبل موته بموت القلب، {**فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم**}.
وعن أبي مالك الأشعري أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: لا أخاف على أمتي إلا ثلاث خلال، أن يكثر لهم من الدنيا فيتحاسدوا، وأن يُفتح لهم الكتاب يأخذه المؤمن يبتغي تأويله، وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألباب، وأن يروا ذا علم فيضيعونه ولا يبالون عليه، رواه الطبراني في الكبير(١) اهـــ.

إذَا مَا أتَىْ كَرِيْمُ قَوْمٍ إلَيْكُمُو   فَخُصُّوْهُ بالإكْرَامِ مَعْ حُسْنِ خِدْمَةِ

أي إذا أتاكم يا طلبة العلم كريم قوم وزعيمهم فأكرموه، وخصوه من بين سائر الناس بالاحترام وحسن المعاملة والخدمة، تأليفا له ولأتباعه، فإنه إن صلح واستقام تبعه غالبا على ذلك أتباعه وأصحابه، وقد يكون بعد ذلك عونا على نشر الدين وتطبيقه ودرء المفاسد وردّ المظالم وإصلاح الأحوال العامة في رعيته وبلاده، فاللطف خير من العنف، وكثيرا ما يقبل الإنسان بالرفق واللطف ما لا يقبله باللوم والزجر، فقد قال الله تعالى: {**ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة**} قال القرطبي في تفسير هذه الآية: أمر تعالى نبيه أن يدعوَ إلى دين الله وشرعه بتلطف ولين دون مخاشنة وتعنيف، وهكذا ينبغي

---

[1] الترغيب والترهيب، في باب ترغيب إكرام العلماء وإجلالهم وتوقيرهم والترهيب من إضاعتهم وعدم المبالاة بـــهم من كتاب العلم.

أن يوعظ المسلمون إلى يوم القيامة اهـــ وفي حاشية الفتوحات الإلهية: في تفسير قوله تعالى والموعظة الحسنة: والمراد بالموعظة الحسنة مواعظه أو القول الرقيق الذي فيه رفق ولين اهـــ وقال تعالى لموسى وهرون عليهما السلام لما أرسلهما إلى فرعون: {**فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى**} وروى مسلم عن عائشة وأبوداود في سننه عن عبد الله بن مغفل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إن الله تبارك وتعالى رفيق يحب الرفق ويعطي عليه ما لا يعطي على العنف.

وعن عائشة أنه صلى الله عليه وسلم قال: يا عائشة ارفقي فإن الرفق لم يكن في شيء قط إلا زانه، ولا نزع من شيء إلا شانه.

وعن جرير قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من يحرم الرفق يحرم الخير كله(١)اهـــ.

وقد روى البخاري في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها أن يهودَ أتوا النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا: السام عليكم، فقالت عائشة: عليكم، ولعنكم الله وغضب الله عليكم، قال: مهلا يا عائشة، عليكِ بالرفق وإياكِ والعنفَ والفحشَ، قالت: أو لم تسمع ما قالوا؟ قال: أو لم تسمعي ما قلت؟ رددت عليهم فيستجاب لي فيهم ولا يستجاب لهم فِيَّ.

وفي رواية عنها في هذا الحديث قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: مهلا يا عائشة إن الله يحب الرفق في الأمر كله، فقلت: يا رسول الله أولم تسمع ما قالوا؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قد قُلتُ: وعليكم اهـــ.

والإكرام يحمل على ذي المروءة العاقلِ الإقبالَ والأنسَ والثقة بمن أكرمه، وكريم القوم إن لم يكن أهلا للإكرام والاحترام باعتبار ذاته فإنه يكون أهلا لذلك باعتبار منصبه وأتباعه، فمن أكرمه فكأنما أكرم أتباعه، فالرجاء أن يكرم هو وأتباعه مَن أكرمهم ويقبلوا منه ما لم يقبلوه لو لا هذا الإكرام، فإن طبع الزعماء والرؤساء مجبول على حب التشريف والإكرام والتوقير، وعلى الأنفة وكراهية اللوم والتشديد وغليظ القول.

وقال أبو المواهب عبد الوهاب الشعراني في (لطائف المنن): قد بلغنا أن داود عليه الصلاة والسلام كان ينفر من مجالسة عصاة بني إسرائيل غِيرة لله تبارك وتعالى، فأوحى الله إليه

---

(١) ذكره أبو داود في كتاب الأدب باب في الرفق .

تبارك وتعالى: يا داود المستقيم لا يحتاج إليك، والأعوج أنفت نفسك من مجالسته وتقويم عوجه، فَلِمَاذَا أرسلت. فتنبه داود عليه السلام لأمر كان عنه غافلا، وامتثل أمر الله تبارك وتعالى، وصار يجالس عصاة بني إسرائيل ويحسن إليهم ويتخولهم بالموعظة الحسنة بشفقة ورحمة، فانقادوا له كلهم إلا من حقت عليه كلمة العذاب(١) اهـ .

واعلم أن من دأب بعض طلبة العلم ازدراء الجهال والعوام وإن كانوا زعماء قومهم وعرفاء قبائلهم ورؤساء بلادهم، وذلك لما يرون فيهم من الجهل والتخبط وقلة المبالات والمعرفة بدينهم ومن تمسكهم بعادات وتقاليد قديمة ورثوها من أسلافهم، وكثير منها غير مشروع، ومع ذلك يترفعون على طلبة العلم ومن شاكلهم؛ لأنّهم يرون أنفسهم أنّهم الأمراء والقادة، وغيرهم الأتباع والرعية، فينبغي لطلاب العلم أن يتفكّروا وينظروا عواقب الأمور والمآل، ويعلموا أن الازدراء لا يفيد لهم شيئا بل يضرهم غالبا، والصواب المحمود هو أن يصبروا على أذيتهم واحتقارهم، وينصحوا لهم سرا بالتلطف واللين والمداراة، فقد قال الله تعالى: {**فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك**} وقال الشافعي رحمه الله: من وعظ أخاه سرا فقد نصحه وزانه، ومن وعظه علانية فقد فضحه وشانه(٢).

وقال أيضا:

تعمدني بنصحك في انفرادي وجنبني النصيحة في الجماعة
فإن النصح بين الناس نوع من التوبيخ لا أرضى استماعه
وإن خالفتني وعصيت أمري فلا تجزع إذا لم تعط طاعه

ويكون ذلك لأجل الله تعالى وقبول الحق والنصيحة لهم، لا للطمع بما في أيديهم والتصنع والمداهنة، وقد ذكرت الفرق بين المداراة والمداهنة وحكمهما نقلا عن ابن حجر الهيتمي، وأن يحترز عما يهيج الفتنة والعداوة، وقد أجاد القائل:

ولم أر في الخطوب أشد وقعا وأصعب من معاداة الرجال

---

[١] لطائف المنن للشعراني ص٢٥٨ .

[٢] شرح مسلم للإمام النووي، في باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان، ومثله في حلية الأولياء لأبي نعيم، لكنه قال: وخانه بدل "شانه" .

وقد كان عليه الصلاة والسلام يكرم زعماء القبائل ورؤساءهم، فقد شَرَّف أبا سفيان بن حرب يوم فتح مكة بقوله عليه الصلاة والسلام: من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، وقال عليه الصلاة والسلام لقوم سعد بن معاذ رضي الله عنه: قوموا إلى سيدكم، وكان سعد رئيس قبيلة الأوس من أنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وفي (كنـــز العمال في سنن الأقوال والأفعال): روي عن هند أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يُكرِم كريم كل قوم، ويوليه عليهم(١).

وفي (الجامع الصغير) أنه صلى الله عليه وسلم قال: إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه، رواه ابن ماجه عن ابن عمر، والبزار وابن خزيمة والطبراني وابن عدي والبيهقي عن جرير، والبزار عن أبي هريرة، وابن عدي عن معاذ وأبي قتادة، والحاكم عن جابر، والطبراني عن ابن عباس، وعن عبد الله بن ضمرة، وابن عساكر عن أنس، وعن عدي بن حاتم الدولابي في الكنى، وابن عساكر عن أبي راشد عبد الرحمن بن عبد بلفظ: شريف قومه، ورمز له السيوطي بالصحة.

وروى مسلم والبخاري واللفظ له عن عائشة أن رجلا استأذن على النبي صلى الله عليه وسلم فلما رآه قال: بئس أخو العشيرة وبئس ابن العشيرة، فلما جلس تطلق النبي صلى الله عليه وسلم في وجهه وانبسط إليه، فلما انطلق الرجل قالت له عائشة: يا رسول الله حين رأيتَ الرجل قلتَ له كذا وكذا، ثم تطلقتَ في وجهه وانبسطتَ إليه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا عائشة متى عهدتِّني فاحشا، إنّ شر الناس عند الله منـــزلة يوم القيامة من تركه الناس اتقاء شره.

قال الحافظ في الفتح: قوله: تطلق بفتح الطاء المهملة وتشديد اللام أي أبدى طلاقة وجهه. وفي رواية ابن عامر: بَشَّ في وجهه، قال الخطابي: جمع هذا الحديث علما وأدبا اهـــ. وقال الحافظ: قال ابن بطال: إن هذا الرجل هو عيينة بن حصن الفزاري، وكان يقال له: الأحمق المطاع. ورجا النبي صلى الله عليه بإقباله عليه تألّفه ليُسلم قومه؛ لأنه كان رئيسهم اهـــ.

---

(١) كنـــز العمال، ج٧ص٦٣، وهو في ضمن حديث طويل .

وليس هذا الانبساط والبشاشة وطلاقة الوجه لكون هذا الرجل أهلا لذلك لذاته، قال النووي في شرح مسلم: قال القاضي: هذا الرجل هو عيينة بن حصن، ولم يكن أسلم حينئذ وإن كان قد أظهر الإسلام، وإنما ألان له القول تألّفا له ولأمثاله على الإسلام اهــ فعلى طلبة العلم أن يهتدوا بِهديه صلى الله عليه وسلم ويقتدوا به في تكريمه وتشريفه للزعماء والرؤساء وفي مداراته مع من يُتَّقَى فحشُه ويُخشى ضرُّه أو يُرجَى رشده وقبوله للحق وإذعانه له.

وَوَقِّرْ وَعَظِّمْ هَؤُلاْءِ جَمِيْعَهُمْ وَقَابِلْهُمُ عِنْدَ اللِّقَاءِ بِبِشْرَةِ [1]

يعني وقِّر وعظم هؤلاء المذكورين من ذي الشيبة المسلم ومَنْ بعده، وقابِلْهُم بطلاقة الوجه والبِشْرِ[2] عند اللقاء بِهم. نسأل الله سبحانه وتعالى أن يبشرنا برحمته الواسعة عند لقائه، لقائه، ويغفر لنا زلاتنا وهفواتنا بفضله وكرمه .

---

[1] قوله: "بِشْرَةِ" بوزن فعلة بكسر الفاء مصدر هيئة، أي قابلهم عند اللقاء بِهيئة السرور وطلاقة الوجه والتبسم.

[2] البشر بكسر الباء طلاقة الوجه، فعطفها على ما قبلها عطف تفسير، وفي لسان العرب: بَشَرَني فلانٌ بوجه حَسَنٍ أي لقيني وهو حَسَنُ البِشْرِ بالكسر أي طَلَقُ الوجه.

تكملة في نبذ من أداب العالم

لما ذكرت جملا كثيرة من آداب طالب العلم أحببت أن ألحق ذلك أحرفا يسيرة وكلمات قليلة من آداب العالم؛ ليكون الكتاب شاملا بجمل من آداب طالب العلم ونبذة من آداب العالم؛ ولأن الطالب كما يحتاج إلى آداب التعلم كذلك يحتاج إلى آداب التعليم إذا ارتقى إلى درجة العلماء وصار معلما مرشدا .

واعلم أن الطالب تابع والعالم متبوع، وكما يلزم على التابع السمع والطاعة والانقياد كذلك على المتبوع حسن القيادة والشفقة والرحمة واللين وبذل الجهد في إصلاح اعوجاج الطالب، والصفح عن زلاته، وتربيته بالفعل والقول، والمبالغة في نصحه، والصبر على ذلك، قال الله تعالى: {**واخفض جناحك لمن ابتعك من المؤمنين**} وقال تعالى: {**ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم**}.

وقد ذكرنا حديث لينوا لمن تعلمون، وفي (مجمع الزوائد) للهيثمي، عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: علموا ويسروا ولا تعسروا، رواه أحمد بتمامه في الأدب، وفيه ليث بن أبي سليم، وهو مدلس.

وعن أبي أمامة، أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا تكلم تكلم ثلاثا لكي يفهم عنه، رواه الطبراني في الكبير وإسناده حسن.

وعن أم الدرداء قالت: كان أبو الدرداء لا يحدث حديثا إلا تبسم فيه، فقلت له: إني أخشى أن يحمقك الناس، فقال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يحدث بحديث إلا تبسم فيه، رواه أحمد والطبراني في الكبير، وفيه حبيب بن عمرو، قال الدارقطني: مجهول.

وعن أبي أمامة أن فتى من قريش أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يارسول الله ائذن لي في الزنا، فأقبل القوم وزجروه، فقالوا: مه مه، فقال: أُدْنُهْ، فدنا منه قريبا، فقال: أتحبه لأمك، قال: لا والله، جعلني الله فداك، قال: ولا الناس يحبونه لأمهاتهم، قال: أفتحبه لابنتك؟ قال: لا والله يارسول الله، جعلني الله فداك، قال: ولا الناس يحبونه لبناتِهم، قال: أفتحبه لأختك؟ قال: لا والله يارسول الله، جعلني الله فداك، قال: ولا الناس يحبونه لأخواتهم، قال: أتحبه لعمتك؟ قال: لا والله يارسول الله جعلني الله فداك، قال: ولا الناس يحبونه لعماتهم، قال: أتحبه لخالتك؟، قال: لا والله يارسول الله، جعلني الله فداك،

قال: ولا الناس يحبونه لخالاتــهم، قال: فوضع يده عليه، وقال: اللهم اغفر ذنبه، وطهــر قلبه، وحصن فرجه، قال: فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفــت إلى شــيء ، رواه أحمــد، والطبراني في الكبير، ورجاله رجال الصحيح(١) .

قلت: فانظر إلى هذه الحكمة البالغة، في حسن السياسة والتعليم، والإرشاد والتفهيم، وإلى هذا الرفق واللطف والشفقة وحسن المعاملة مع هذا الفتى الذي غلب عليه ثوران الشهوة حتى تفوه أمام سيد البشر صلى الله عليه وسلم وفي جمع من أصحابه الكرام بما يســتحيي منه صاحب المروءة، ففي هذا الهدي النبوي تعليم وإرشاد للمدرسين والمعلمــين، وفيــه تدريب ورياضة نفوسهم على إصلاح اعوجاج المتعلمين وتحمل سوء أخلاقهم، فهذا هو الوصف المطلوب من المرشد الناصح والمعلم الماهر.

وفي (معيد النعم ومبيد النقم): حق على المدرس أن يحسن إلقاء الدرس، وتفهيمه للحاضرين، ثم إن كانوا مبتدئين فلا يلقي عليهم ما لا يناسبهم من المشكلات، بل يدربــهم ويأخذهم بالأهون فالأهون، إلى أن ينتهوا إلى درجة التحقيق، وإن كانوا منتهين فلا يلقي عليهم الواضحات، بل يدخل بــهم في مشكلات الفقه، ويخوض بــهم عبابه الزاخر (٢).

وفيه: حكي عن عمرو بن العلاء أن طالبا قصده ليقرأ عليه، فصادفه بكَلاّء(٣) البصرة، وهو مع العامة يتكلم بكلامهم، لا يُفرّق بينه وبينهم، فنقص من عينه، ثم لما نجز(٤) شغل أبي عمرو مما هو فيه تبعه الرجل إلى أن دخل الجامع، فأخذ يخاطب الفقهاء بغير ذلك اللسان، فعظم في عينه، وعلم أنه كلم كلَّ طائفة بما يناسبها من الألفاظ، وهذا هو الصواب؛ فإن كل أحد يُكَلَّم على قدر فهمه، ومن اجتنب اللحن وارتكب العالي من اللغة والغريب منها وتكلم بذلك مع كل أحد عن قصد فهو ناقص العقل (٥).

---

[١] مجمع الزوائد في باب آداب العالم من كتاب العلم.

[٢] معيد النعم ومبيد النقم ص١٠٥.

[٣] الكلاّء ككتان مرفأ السفن وموضع بالبصرة. القاموس .

[٤] في القاموس: نجز كفرح ونصر: انقضى وفني، ونجر الكلام انقطع .

[٥] معيد النعم ومبيد النقم ص٩١.

وعن صفوان بن عسال المرادي قال: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وهـــو في المســـجد متكئ على برد له أحمر، فقلت له: يارسول الله إني جئت أطلب العلم، فقـــال: مرحبـــا بطالب العلم، إن طالب العلم لتحفه الملائكة بأجنحتها، ثم يركب بعضهم بعضها حـــتى يبلغوا إلى السماء الدنيا من محبتهم لما يطلب.

وقال النووي في مقدمة المجموع: يستحب للمعلم أن يرفق بالطالب ويحسن إليه ما أمكنه، فقد روى الترمذي بإسناده عن أبي هارون العبدي قال: كنا نأتي أباسعيد الخدري رضي الله عنه، فيقول: مرحبا بوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم، إن النبي صلى الله عليه وسلم قال: الناس لكم تبع وإن رجالا يأتونكم من أقطار الأرض يتفقهون في الدين فإذا أتوكم فاستوصوا بـــهم خيرا(١) .

ففي هذين الحديثين ترحيب طالب العلم، فينبغي للعالم أن يرحبه تنشيطا وتشجيعا له على طلب العلم.

وفي مقدمة (المجموع): ينبغي أن لا يمتنع المعلِّم من تعليم أحد لكونه غير صحيح النية، فإنه يرجى له حسن النية، وربما عسر في كثير من المبتدئين بالاشتغال تصحيح النية لضعف نفوسهم وقلة أنسهم بموجبات تصحيح النية، والامتناع من تعليمهم يؤدي إلى تفويت كثير من العلم مع أنه يرجى ببركة العلم تصحيحها إذا أنس بالعلم، وقد قالوا: طلبنا العلم لغير الله فأبى العلم إلا لله، ومعناه كانت عاقبته أن صار لله (٢)اهـــ.

وفي جامع بيان العلم: أن الخليل بن أحمد قال لجاهل:

لو كنتَ تعلم ما أقول عذرتني　　أو كنتَ تعلم ما تقول عذلتكا
لكن جهلتَ مقالتي فعذلتني　　وعلمتُ أنك جاهل فعذرتكا (٣)

وفي جامع بيان العلم: قالوا: من تمام آلة العالم أن يكون مهيبا وقورا بطيء الالتفات قليل الإشارة، لا يصخب ولا يلعب ولا يجفو ولا يلغو(٤) .

---

[١] مقدمة المجموع باب أقسام العلم الشرعي.

[٢] مقدمة المجموع ص٧٢.

[٣] جامع بيان العلم وفضله، ج١ص١٧٤-١٧٥.

[٤] جامع بيان العلم ج١ص١٧٧.

ومن صفاته ترك الجدال والمراء

عن مسلم بن يسار أنه كان يقول: إياكم والمراء فإنّها ساعة جهل العالم وبِها يبتغي الشيطان زلته.

وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: من ترك المراء وهو صادق بنى الله له بيتا في الجنة. وعن الحسن قال: ما رأينا فقيها يماري .

وعن الحسن أيضا: المؤمن يداري ولا يماري، ينشر رحمة الله، فإن قبلت حمد الله، وإن ردت حمد الله.

وروي عن معاذ بن جبل أنه قال: إذا أحببت أخا فلا تماره ولا تشاره(١) ولا تمازحه.

قال المصنف: وعند الحكماء أن المراء أكثره يغير قلوب الإخوان، ويورث التفرق بعد الألفة، والوحشة بعد الأنس.

وعن أبي أمامة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل، فالمؤمن العالم العاقل يخاف على دينه من الجدل والمراء (٢).

وقال بعضهم: الواجب على العالم أن لا يناظر جاهلا ولا لجوجا، فإنه يجعل المناظرة ذريعة إلى التعلم بغير شكر (٣).

ومن صفاته رقة القلب

قال عبد الأعلى التَّيْمِي: من أوتي من العلم ما لا يبكيه فخليق أن لا يكون أوتي علما ينفعه؛ لأن الله عز وجل نعت العلماء وقرأ: {**قل آمنوا به أولا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا**}

فانظر كيف وصف العلماء بالبكاء والخشية والطاعة والتذلل فيما بينه وبينهم!!(٤).

---

[١] أي لا تجار أخاك- أي لا تجر معه في المناظرة والجدال. وشاره: قال العلقمي من الشر أي لا تفعل الشر تحوجه أن يفعل بك مثله، ولا تماره: أي لا تخالفه أو لا تجادله ولا تغالبه فإن ذلك يورث غلا ووحشة بل استعمل معه الرفق والحلم اهـ العزيزي شرح الجامع الصغير.

[٢] أخلاق العلماء .

[٣] نظم اللؤلؤ ص١٧٧.

[٤] أخلاق العلماء ص٥٥-٦١.

ومن صفاته التقوى وكثرة الطاعة والعبادة

فإن ذلك يزيد بركة درسه وإرشاده للناس وقبول نصحه ووعظه، قال ابن عطاء الله في الحكم: كل كلام يبرز وعليه كسوة القلب الذي منه برز. وقد سمعت بعض مشايخنا يقول: إن خرجت الكلمة من قلب مستنير تَدخُل في قلب سامعها بنور. لهذا ترى بعضهم يتكلم بقليل من الموعظة فتتأثر بِها النفوس وتخشع بِها القلوب وتذرف بِها العيون، وبعضهم يلقي خطبا بليغة ومواعظ عجيبة لا تتعظ بِها النفوس ولا تتأثر بِها، أو يقرأ دروسا تلتذ بمثلها المسامع لكنها لا تثبت في القلوب، بل تمر بِها كالريح، وما سبب ذاك وهذا إلا ما في القلوب من الأنوار وخشية الله تعالى وضد ذلك، فيعلم المدرس والمرشد والواعظ أن الانتفاع بعلمه ووعظه على قدر تقواه وحسن أدبه مع ربه، وإنما يتقبل الله من المتقين.

ومن آدابه رعاية المناسبة في نشر العلم وتوجيه الدعوة

اعلم أنه ينبغي رعاية المناسبات واستعمال الحكمة في تعليم العلم ونشر الدين وتبليغه للأمة والفتوى والوعظ وجميع أنواع الدعوة إلى الله تعالى، فقد تقتضي الحكمة في بعض الأحوال كتمان بعض العلوم لما يترتب على إظهارها من المفسدة العظيمة، وذلك يختلف باختلاف الأزمان والأماكن وأحوال الناس، فلا بد من رعاية ما تقتضيه المصلحة في ذلك، قال الله سبحانه وتعالى: {**قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني**} وقال تعالى: {**ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة**} ولا يخفى أن الموعظة لا تكون حسنة إذا أدت إلى الفتنة.

وقال الهيتمي في (الزواجر): إن كتم العلم قد يجب، والإظهار قد يجب وقد يندب، ففيما لا يحتمله عقل الطالب ويخشى عليه من إعلامه به فتنة يجب الكتم عنه، وفي غيره إن وقع وهو فرض عين أو في حكمه وجب الإعلام وإلا ندب ما لم يكن وسيلة لمحظور، والحاصل أن التعليم وسيلة إلى العلم، فيجب في الواجب عينا في العين وكفاية فيما هو على الكفاية، ويندب في المندوب كالعروض، ويحرم في الحرام كالسحر والشعبذة، قال بعض المفسرين: لا يجوز تعليم الكافر قرآنا ولا علما حتى يُسْلِمَ، ولا تعليم المبتدع الجدل والحِجاج ليحاج به إلى الحق، ولا تعليم الخصم على خصمه حجة يقتطع بِها مالَه، ولا السلطان تأويلا

يتطرق به إلى إضرار الرعية، ولا نشر الرخص في السفهاء يتخذونَها طريقا لارتكاب المحظورات، وترك الواجبات، قال صلى الله عليه وسلم: لا تمنعوا الحكمة أهلها فتظلموهم، ولا تضعوها في غير أهلها فتظلموها، وقال صلى الله عليه وسلم: لا تُعلّقوا الدُّرَّ في أعناق الخنازير، يريد تعليم الفقه من ليس من أهله اهـــ. وما ذكره من الأحكام على الكافر بعيد من قواعدنا؛ لأن المرجو إسلامه يجوز تعليمه القرآن عندنا فأولى العلم، والحديثان اللذان ذكرهما واردان، وروى ابن ماجه وغيره: طلب العلم فريضة على كل مسلم، وواضع العلم عند غير أهله كمقلد الخنازير الجوهر واللؤلؤ والذهب(١) اهـــ.

وروى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة قال: حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم وعائين، فأما أحدهما فَبَثَّثْتُهُ، وأما الآخر فلو بثثته قُطِع هذا البُلعوم. وقال الحافظ العسقلاني في الفتح: حمل العلماء الوعاء الذي لم يبثه على الأحاديث التي فيها تبيين أسامي أمراء السوء وأحوالهم وزمانـــهم، وقد كان أبو هريرة يكني عن بعضهم ولا يصرح به خوفا على نفسه منهم كقوله: أعوذ بالله من رأس الستين وإمارة الصبيان، يشير إلى خلافة يزيد بن معاوية، لأنـــها كانت سنة ستين من الهجرة(٢).

وقال الطيبـــي في شرحه على المشكاة في شرحه لهذا الحديث: قوله: وعائين شَبَّهَ نوعي العلم بالظرفين لاحتواء كل منهما ما لم يحتوه الآخر، ولعل المراد بالأول علم الأحكام والأخلاق، وبالثاني علم الأسرار المصون عن الأغيار، المختص بالعلماء بالله من أهل العرفان، وأنشد الشيخ أبوحامد الغزالي لزين العابدين في المنهاج:

يا رب جوهر علم لو أبوح به ... لقيل لي أنت ممن يعبد الوثنا
ولاستحل رجال مسلمون دمي ... يرون أقبح ما يأتونه حسنا
إني لأكتم من علمي جواهره ... كي لا يرى ذاك ذو جهل فيفتتنا
وقد تقدم في هذا أبو حسن ... إلى الحسين وأوصى قبله الحسنا

وقال بعض العارفين: العلم المكنون والسر المصون علم هذه الطائفة، وهو نتيجة الخدمة وثمرة الحكمة، لا يظفر به إلا الغواصون في بحار المجاهدات، ولا يَسْعَد به إلا المصطفون

---

[١] الزواجر عن اقتراف الكبائر ج١ ص٨٥– ٨٦. وذكرنا حديث ابن ماجه في باب فضل العلم.

[٢] فتح الباري في كتاب العلم في باب من ترك بعض الاختيار مخافة أن يَقْصُر فَهْمُ بعض الناس عنه فيقعوا في أشد منه ج١ ص٢١٦

بأنوار المشاهدات، إذ هو أسرار متمكنة في القلوب لا تظهر إلا بالرياضة، وأهل الغرة بالله لها منكرون، وعنها مدبرون.

وقال شيخنا شيخ الإسلام أبوحفص السهروردي قدس الله سره: قد اندرس كثير من دقيق علومهم.

وقال الجنيد رحمه الله: علمنا هذا طوي بساطه منذ كذا سنة، ونحن نتكلم في حواشيه.

وروى الشيخ أبو طالب المكي عنه أنه قال: لو أن العلم الذي أتكلم به من عندي لفني وانقطع، ولكنه من حق بدا وإلى حق يعود(١) اهـ .

وروى الإمام البخاري في صحيحه أيضا عن الأسود(٢) قال: قال لي ابن الزبير(٣): كانت عائشة تُسرِ ُّ إليك كثيرا فما حدّثتك بالكعبة؟ قلت: قالت لي: قال النبي صلى الله عليه وسلم: ياعائشة لو لا قومك حديثٌ عهدُهمْ – قال ابن الزبير: بكفر – لنقضتُ الكعبةَ، فجعلت لها بابين باب يدخل الناس وباب يخرجون، ففعله ابن الزبير. قال الحافظ ابن حجر العسقلاني في فتح الباري: يستفاد من هذا الحديث ترك المصلحة لأمن الوقوع(٤) في المفسدة، ومنه ترك إنكار المنكر خشية الوقوع في أنكر منه، وأن الإمام يسوس رعيته بما فيه إصلاحهم ولو كان مفضولا ما لم يكن محرما.

وقال البدر العيني في (عمدة القاري شرح البخاري): قال ابن بطال: فيه أنه قد يترك يسير من الأمر بالمعروف إذا خشى منه أن يكون سببا لفتنة قوم ينكرونه، وفيه أن النفوس تحب أن تساس كلها لما تأنس إليه في دين الله من غير الفرائض، وقال النووي: فيه أنه إذا تعارضت مصلحة ومفسدة وتعذر الجمع بين فعل المصلحة وترك المفسدة بدأ بالأهمّ لأن النبي صلى الله عليه وسلم أخبر أن رد الكعبة إلى قواعد إبراهيم عليه السلام مصلحة ولكن يعارضه مفسدة أعظم منه، وهي خوف فتنة بعض من أسلم قريبا، لما كانوا يرون تغييرها

---

[١] شرح الطيبـــي على مشكاة المصابيح المسمى بالكاشف عن حقائق السنن للإمام العلامة المحدث شرف الدين الحسين بن عبد الله بن محمد الطيبـــي ج٢ص٧١٥، وقد ذكرنا كلام الإمام الطيبـــي في مبحث أنواع العلم.

[٢] هو ابن يزيد النخعي. فتح الباري .

[٣] يعني عبد الله الصحابي المشهور. فتح الباري .

[٤] يعني ترك المصلحة لأجل أن يؤمن من الوقوع في المفسدة .

عظيما، فتركها النبي صلى الله عليه وسلم، وفيه فكر ولي الأمر في مصالح رعيته واجتناب ما يخاف منه تولد ضرر عليهم في دين أو دنيا إلا الأمور الشرعية(١) اهـــ.

وقال الإمام البخاري في صحيحه: قال علي: حدثوا الناس بما يعرفون أتحبون أن يُكَذَّبَ الله ورسوله.

قال الحافظ في الفتح: والمراد بقوله: بما يعرفون أي يفهمون، وزاد آدم بن أبي إياس في آخره: ودعوا ما ينكرون، أي يشتبه عليهم فهمه، وفي هذا الحديث دليل على أن المتشابه لا ينبغى أن يُذكَر عند العامة، ومثله قول ابن مسعود: ما أنت محدثا قوما حديثا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة، رواه مسلم، وممن كره التحديث ببعض دون بعض الإمام أحمد في الأحاديث التي ظاهرها الخروج على السلطان، والإمام مالك في أحاديث الصفات، و أبو يوسف في الغرائب، ومن قبلهم أبو هريرة كما تقدم عنه في الجرابين وأن المراد ما يقع من الفتن، وعن الحسن أنه أنكر تحديث أنس للحجاج بقصة العرنيين بأنه اتخذها وسيلة إلى ما كان يعتمده من المبالغة في سفك الدماء بتأويله الواهي. قال الحافظ: وضابط ذلك أن يكون ظاهر الحديث يقوّي البدعة، وظاهره في الأصل غير مراد، فالإمساك عنه عند من يخشى عليه الأخذ بظاهره مطلوب(٢) اهـــ.

وفي (المقاصد الحسنة) للحافظ السخاوي: روى عن ابن عباس رفعه: لا تحدثوا أمتي من أحاديثي إلا ما تحتمله عقولهم فيكون فتنة عليهم، فكان ابن عباس يخفي أشياء من حديثه ويفشيها إلى أهل العلم.

وروى الديلمي في مسنده عن ابن عباس رفعه: يا ابن عباس لا تحدث قوما حديثا لا تحتمله عقولهم.

وروى أبو الشيخ عن ابن مسعود مرفوعا: خالط الناس بما يشتهون، ودينك فلا تَكِلَنْهُ، ونحوه عن علي رفعه: خالق الفاجر مخالقة، وخالص المؤمن مخالصة، ودينك لا تسلمه لأحد (٣)اهـــ .

---

[١] عمدة القاري شرح صحيح البخاري ج٢ ص٢٠٤ .

[٢] فتح الباري بشر ح البخاري في باب من خص بالعلم قوما دون قوم من كتاب العلم ج١ ص٢٢٤-٢٢٥

[٣] المقاصد الحسنة ص ١٠٣.

وقال السيوطي: لقد بلغني عن الشيخ عز الدين بن عبد السلام أنه سئل عن مسئلة وكان بالاسكندرية، فقال: لا أجيب هذه المسئلة في هذه البلدة. وما ذاك إلا لدقة الجواب عن أفهام كثير من الناس (١) .

ومن العلوم التي لا تُذْكَرُ إلا عند أهلها دقائق علم الكلام، فقد منع العلماء رحمهم الله تشويش العوام وتشكيكهم بما لا تحمله عقولهم من علم الكلام، وعدّ ذلك ابن حجر الهيتمي من الكبائر، فقال رحمه الله في كتابه : (الزواجر عن اقتراف الكبائر): ومن الكبائر حمل العوام ومن لم يمارس العلوم على التفكر في ذات الله تعالى وصفاته، وفي أمور لا تبلغها عقولهم، وهذا مضلة لهم، لأنــهم يتشكّكون به في أصول الدين، بل ربما تخيلوا في الله تعالى ما هو متعال عنه فيصير به كافرا أو مبتدعا وهو به فرح مسرور، لغلبة حمقه وقلة عقله، وأشد الناس حماقة أقواهم اعتقادا في نفسه، وأثبتهم عقلا أشدهم اتــهاما لنفسه وظنه، وأحرصهم على السؤال من العلماء العاملين والأئمة المهتدين اهـ . وألف الإمام الغزالي رحمه الله تعالى كتابا سماه : (إلجام العوام عن علم الكلام) .

وفي مقدمة المجموع: قال الشيخ أبوعمرو رحمه الله: ليس للشيخ إذا استفتي في شيء من المسائل الكلامية أن يفتي بالتفصيل، بل يمنع مستفتيه وسائر العامة من الخوض في ذلك أو في شيء منه وإن قلّ، ويأمرهم بأن يقتصروا فيها على الإيمان جملة من غير تفصيل، ويقولوا فيها وفي كل ما ورد من آيات الصفات وأخبارها المتشابــهة: إن الثابت فيها في نفس الأمر ما هو اللائق فيها بجلال الله تبارك وتعالى وكماله وتقديسه المطلق، فيقول: هذا معتقدنا فيها وليس علينا تفصيله وتعيينه، وليس البحث عنه من شأننا، بل نَكِلُ علم تفصيله إلى الله تبارك وتعالى، ونصرف عن الخوض فيه قلوبنا وألسنتنا، فهذا ونحوه هو الصواب من أئمة الفتوى في ذلك، وهو سبيل سلف الأمة وأئمة المذاهب المعتبرة وأكابر العلماء والصالحين، وهو أصون وأسلم للعامة وأشباههم، ومن كان منهم اعتقد اعتقادا باطلا تفصيلا ففي هذا صرف له عن ذلك الاعتقاد الباطل بما هو أهون وأيسر وأسلـــم.

[1] الحاوي للفتاوي ج١ص٣٧١.

وإذا عزر ولي الأمر من حاد منهم عن هذه الطريقة فقد تأسى بعمر بن الخطاب في تعزير صبيغ(١) بفتح الصاد المهملة الذي كان يسئل عن المتشابـــهات على ذلك. قال: والمتكلمون من أصحابنا معترفون بصحة هذه الطريقة وبأنـــها أسلم، وكان الغزالي منهم في آخر أمره شديد المبالغة في الدعاء إليها والبرهنة عليها، وذكر شيخه إمام الحرمين في كتابه (الغياثي) أن الإمام يحرص ما أمكنه على جمع عامة الخلق على سلوك سبيل السلف في ذلك، واستُفْتِي الغزالي في كلام الله تبارك وتعالى فكان من جوابه: وأما الخوض في أن كلامه تعالى حرف وصوت أو ليس كذلك فهو بدعة، وكل من يدعو العوام إلى الخوض في هذا فليس من أئمة الدين، وإنما هو من المضلين، ومثاله: من يدعو الصبيان الذين لا يحسنون السباحة إلى خوض البحر، ومن يدعو الزمن المقعد إلى السفر في البراري من غير مركوب. وفي رسالة له: الصواب للخلق كلهم إلا الشاذ النادر الذي لا تسمح الأعصار إلا بواحد منهم أو اثنين سلوك مسلك السلف في الإيمان المرسل والتصديق المجمل بكل ما أنزله الله تعالى وأخبر به رسول الله صلى الله عليه وسلم من غير بحث وتفتيش، والاشتغالُ بالتقوى ففيه شغل شاغل (٢) اهـــ .

وذكرت في إقناع المؤمنين بتبرك الصالحين أن في علم الكلام مسائل كثيرة لا ينبغي أن تذكر في مجالس العوام وحضرتـــهم، ولله در القائل:

ومن منح الجهال علما أضاعه ومن منع المستوجبين فقد ظلم

وكثيرا ما كان مشايخنا رحمهم الله يقولون لنا في الدرس: هذه المسئلة لا يجوز ذكرها إلا في حالة التعليم والتعلم.

وقد كثر في زماننا المجادلة في أسماء الله تعالى وصفاته أمام العوام، بل وفي الإذاعات وغيرها من وسائل الإعلام، وهذا فيه من الخطر ما لا يخفى، فاتقوا الله يا أولي الألباب، ولا تكونوا سببا إلى افتراق الأمة المحمدية، وانقسامها إلى طوائف مختلفة، يُضَلِّلُ بعضُها البعضَ، ويتعصب كل منها إلى آراء فرقته، فيتسارعَ حينئذ الفشل وذهاب القوة والهيبة، ثم يستفيد من ذلك عدوّ الملة الاسلاميّة، قال الله تعالى: **{وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا**

---

[١] وفي القاموس ولسان العرب: الصبيغ كأمير ابن عُسَيْل كان يُعَنِّت الناس بالغوامض وسؤالات في مشكل القرآن فأمر عمر بن الخطاب رضي الله بضربه ونفاه إلى البصرة ونـــهى عن مجالسته اهـــ.

[٢] مقدمة المجموع ص١١٥-١١٦.

وتذهب ريحكم} أعاذنا الله مما يؤدي إلى تَشَتُّت شَملنا وتفرق جمعنا، وحسبنا الله ونعم الوكيل، والله الموفق .

قلت: ومثل ذلك شطحات الصوفية وأقوالهم وأفعالهم التي تخالف ظواهرها الشريعة، فإنّها لا تذكر إلا عند من يفهم المراد منها، فقد سئل العلامة ابن حجر الهيتمي عن مطالعة كتب الشيخ محيي الدين بن عربي، فأجاب بقوله: إن مطالعة كتب الشيخ محيي الدين بن عربي رضي الله عنه ينبغي للإنسان أن يُعرض عنها بكل وجه أمكنه، فإنّها مشتملة على حقائق يعسر فهمها إلا على العارفين المتضلعين من الكتاب والسنة، المطلعين على حقائق المعارف، فمن لم يصل لهذه المرتبة يخشي عليه منها مزلة القدم، والوقوع في مهامه الحيرة والندم، كما شاهدناه في أناس جهال أدمنوا مطالعتها فخلعوا ربقة الإسلام والتكليفات الشرعية من أعناقهم، وأفضى بهم الحال إلى الوقوع في شَرَكِ الشرك الأكبر، فخسروا الدنيا والآخرة، ذلك هو الخسران المبين، وأيضا ففي تلك الكتب مواضع عبر عنها بما لا يطابقه ظواهر عباراتها اتكالا على اصطلاح مقرر عند واضعها، فيفهم مطالعها ظواهرها الغير المرادة فيضل ضلالا مبينا، وأيضا ففيها أمور كشفية وقعت حال غيبة واصطلام، وهذا يحتاج إلي التأويل، وهو يتوقف على إتقان العلوم الظاهرة بل والباطنة، فمن نظر فيها وهو ليس كذلك فهم منها خلاف المراد فَضَلَّ وأضل، فعلم أن مجانبة مطالعتها رأسا أولى، فإن العارف لا يحتاج إليها إلا ليطابق بما فيها ما عنده، وغيرُه إن لم تضره ما نفعته، نعم له كتب في التربية الصرفة والحمل على الأخلاق والأحوال وغيرهما مما يناسب السلوك، فهذه لا بأس من مطالعتها، فإنّها ككتب الغزالى وأبي طالب المكي ونحوها من الكتب النافعة في الدنيا والآخرة.

وقد سئل الهيتمي أيضا عن مطالعة كتب الشيخ محيي الدين بن عربي وابن الفارض، فأجاب بقوله: إن مطالعة كتبهما جائزة بل مستحبة، فكم اشتملت تلك الكتب على فائدة لا توجد في غيرها، وعائدة لا تنقطع وعجيبة من عجائب الأسرار الإلهية التي لا ينتهي مدد خيرها، وقد طالع هذه الكتب أقوام عوام جهلة طغام، فأدمنوا مطالعتها مع دقة معانيها، ورقة إشاراتِها، وغموض مبانيها، وبنائها على اصطلاح القوم السالمين عن المحذور واللوم، وتَوَقُفِ فَهْمِهَاْ بكمالها على إتقان العلوم الظاهرة، والتحلي بحقائق الأحوال

والأخلاق الباهرة، فلذلك ضعفت أفهامهم، وزلت أقدامهم، وفهموا منها خلاف المراد، واعتقدوه صوابا، فباءوا بخسار يوم التناد، والحدوا في الاعتقاد، وهوت بـــهم أفهامهم القاصرة إلى هوة الحلول والاتحاد، حتى لقد سمعت شيئا من هذه المفاسد القبيحة، والمكفرات الصريحة، من بعض من أدمن مطالعة تلك الكتب مع جهله بأساليبها.

وهذا هو الذي أوجب لكثير من الأئمة الحط عليها، والمبادرة بالانكار إليها، ولهم في ذلك نوع عذر لأن قصدهم فطم أولئك الجهلة عن تلك السموم القاتلة لهم، لا الإنكار على مؤلفها من حيث ذاته، وبعض المنكرين يغترون بظواهر الفاظها وإيهامها خلاف المقصود غفلة عن اصطلاحاتـــهم المقررة، وتحقيقاتـــهم المقررة، على القواعد الشرعية المحررة، والحقُّ عدم الإنكار والتسليم فيما برز عن أولئك الأئمة الأطهار مع التشديد على الجهلة بالقواعد والاصطلاحات في مطالعة تلك الكتب، فقد صرح الإمام ابن العربي بحرمة مطالعة كتبهم إلا لمن تحلى بأخلاقهم، وعلم معاني كلماتـــهم الموافقة لاصطلاحاتـــهم، ولا تجد ذلك إلا فيمن جد وشمّر، وجَانَبَ السوء وشد المئزر، وتضلّع من العلوم الظاهرة وتطهر من كل خلق دنيء، فهذا هو الذي يفهم الخطاب، ويؤذن له في الدخول إذا وقف على الباب، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب اهـــ.

فالحاصل من كلام الهيتمي جواز مطالعة كتبهم للعالم المتضلع من علوم الكتاب والسنة، العالم بمعاني كلماتـــهم واصطلاحاتـــهم، بخلاف الجهال عن ذلك، فليس لهم مطالعتهم فإنه يخشى عليهم أن يغتروا بظواهر عباراتـــها ويأخذوا بمدلولات ألفاظها، فيقعوا في الورطات وما يؤدي إلى الحسرات وهم لا يشعرون بذلك، بل هم يحسبون أنـــهم يحسنون صنعا، وأنـــهم سالكون سبل الصالحين والأولياء(١).

---

[1] إقناع المؤمنين بتبرك الصالحين.

تنبيه في تأويل أفعال الأولياء وأقوالهم

ذكرت في كتابي (إقناع المؤمنين بتبرك الصالحين) أنه ينبغي تأويل ما وقع من بعض علماء الصوفية مما يخالف ظاهره الشريعة وحمله بمحامل حسنة، فقد أُمِرْنَا بإقالة عثرات ذوي الهيئات، كما روى أبو نعيم في الحلية عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: أقيلوا ذوي الهيئات عثراتِهم إلا من الحدود. وقال السيوطي في (الجامع الصغير): روى هذا الحديث أحمد في مسنده، والبخاري في (الأدب المفرد) وأبو داود عن عائشة، ورمز له بالحسن .

وقال الإمام النووي في (بستان العارفين): يجب تأويل أفعال أولياء الله تعالى، وقال: حكي عن إبراهيم الرُقِي قال: قصدت أبا الخير التيناتي مسلّما عليه فصلى صلاة المغرب فلم يقرأ الفاتحة مستويا، فقلت في نفسي: ضاعت سفرتي، فلما سلمت خرجت للطهارة فقصدني السبع فعدتُ إليه وقلت: إن الأسد قصدني، فخرج وصاح على الأسد وقال: ألم أقل لك: لا تتعرض لضيفاني فتنحى وتطهرت، فلما رجعت قال: اشتغلتم بتقويم الظواهر فخفتم الأسد، واشتغلنا بتقويم القلب فخافنا الأسد.

ثم قال النووي: قد يتوهم من يتشبه بالفقهاء ولا فقه عنده أن صلاة أبي الخير هذا كانت فاسدة لقوله لم يقرأ الفاتحة مستويا، وهذه جهالة وغباوة ممن يتوهم ذلك، وجسارة منه على إرسال الظنون في أولياء الرحمن، فليحذر العاقل من التعرض لشيء من ذلك، بل حقه إذا لم يفهم حِكَمَهُم المستفادة ولطائفهم المستجادة أن يتفهمها ممن يعرفها، وكل شيء رأيته من هذا النوع مما يتوهم من لا تحقيق عنده أنه مخالف ليس بمخالف .

وجواب هذا من ثلاثة أوجه: أحدها أنه جرى منه لحن لا يخل بالمعنى، ومثل هذا لا يفسد الصلاة بالاتفاق، الثاني: أنه مغلوب على ذلك بخلل في لسانه فتصح صلاته بالاتفاق، الثالث: أنه لو لم يكن له عذر فقراءة الفاتحة ليست بمتعينة عند أبي حنيفة وطائفة من العلماء، ولا يلزم هذا الولي أن يتقيد بمذهب من أوجبها. انتهى ما نقلته من (بستان العارفين).

وأوَّل الحافظ الذهبي ما نُقِلَ عن أبي يزيد البسطامي فقال في سير أعلام النبلاء: جاء عن أبي يزيد أشياء مشكلة، الشأن في ثبوتـــها عنه، أو أنه قالها في حال الدهشة والسكر والغيبة والمحو، فيطوى ولا يحتج بـــها إذ ظاهرها إلحاد، مثل سبحاني اهــ. فتراه لم يَثْبُتْ ذلك عنده، وعلى تقدير ثبوته فقد أوّله بأنه قالها في الغيبة والدهشة والمحو، ولا يخفى أنه لامؤاخذة في تلك الحالة لعدم التكليف فيها .

وسئل ابن حجر الهيتمي عن قول أبي يزيد : خضت بحرا وقف الأنبياء بساحله، فقال: لم يصح هذا القول عنه وإن صح فمؤول، ثم ذكر بعض التأويلات التي استحسنها .

وذكرابن حجر الهيتمي ما يفيد أنه ينبغي تأويل شطحات الأولياء فقـــال في (الفتـــاوي الحديثية): للأئمة العلماء الذين منّ الله عليهم بالاعتقاد في أوليائه وحماهم مـــن الانكـــار عليهم وبحمل ما صدر عنهم من الشطحات على أحسن المحامل وأقومها أجوبة مســـكتة، وتحقيقات مبهتة، لا يهتدي إليها إلا الموفقون، ولا يعرض عنها إلا المخذولون، فاحذر أن تكون ممن يتحسّى كأس سم الانكار فيهلك لوقته، وبادر إلى السلامة مـــن غضـــب الله ومحاربته ومقته، فقد قال تعالى في الحديث القدسي: من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب، أي أعلمته أني محارب له، قال الأئمة: و لم ينصب الله تعالى المحاربة لأحد من العصـــاة إلا للمنكرين على أوليائه وآكلي الربا، ومن حاربه الله لا يفلح أبدا، ثم ذكر الهيتمي بعـــض الأجوبة فقال: إن تلك الشطحات وقعت منهم في حال الغيبة والسكر الناشئين عن الفناء في المحبة، ألا ترى أن بعض الهموم أو الواردات الدنيوية إذا وردت على القلـــب أذهلتـــه وأذهبت تمييزه لشدة تمكنها منه واستغراقه في فكره، فإذا كان هذا في الأمور السافلة التي لا تقاوم جناح بعوضة فكيف بواردات الحق على القلوب ولواعج(١) المحبة المذهلة عـــن كل مطلوب ومرغوب، وذكر الهيتمي خمسة أجوبة أخرى .

وفي (الفتاوي الحديثية) للهيتمي أيضا أن فقيها أنكر على شيخ قراءته، فقال له: إن كنتُ لحنتُ في قراءة القرآن فقد لحنتَ أنت في الإيمان، وذلك أنه لما أنكر عليه وخرج قصده السبع فخشي منه لضعف إيمانه وقلة يقينه بالله. وقال النووي في (بستان العارفين): روينا عن الإمام مالك رضي الله عنه: تلقى الرجل وما يلحن حرفا، وعمله لحن كله اهــ.

---

[١] جمع لاعج وهو الهوى المحرق، يقال: به لاعج الشوق ولواعجه، المعجم الوسيط.

ولا شك أن اللحن في العمل أشنع وأقبح بكثير من اللحن في اللسان، فإن أساس النجاة التقوى والعمل الصالح، وأما عدم اللحن اللساني فهو من الكماليات التي ينجو بدونـــها الإنسان، وقال الهلال بن العلاء:

سبيلي لسان كان يعرب لفظه فيا ليته من وقفة الحشر يسلم

وما ينفع الإعراب إذ لم تكن تقى وما ضر ذا تقوى لسان معجم

وذكر الحافظ السيوطي في (تأييد الحقيقة العلية) الاعتذار والتأويل فيما نسب إلى بعضهم فقال: إن حسن الظن بآحاد المسلمين واجب فضلا عمن تواردت الألسنة بالشهادة له بالولاية، فإن ثناء الناس بذلك شاهد صدق كما نص عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم(١) وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لا تظنن بكلمة خرجت من أخيك سوءا وأنت تجد لها في الخير محملا(٢) اهـــ.

آداب يشترك فيها العالم والمتعلم

قال الإمام النووي في (مقدمة المجموع): ينبغي لكل واحد من العالم والمتعلم أن لا يُخِلَّ بوظيفته لعروض مرض خفيف ونحوه مما يمكن معه الاشتغال ويستفتي بالعلم ولا يسئل أحدا تعنتا وتعجيزا، فالسائل تعنتا وتعجيزا لا يستحق جوابا، وفي الحديث النهي عن غَلُوطات المسائل(٣) وأن يعتني بتحصيل الكتب شراء واستعارة ولا يشتغل بنسخها إن حصلت بالشراء لأن الاشتغال أهمّ إلا أن يتعذر الشراء لعدم ثمنه أو لعدم الكتاب مع نفاسته فيستنسخه وإلا فلينسخه، ولا يهتم بتحسين الخط بل بتصحيحه، ولا يرتضى مع إمكان تحصيله ملكا، فإن استعاره لم يبطيء به لئلا يفـــوت الانتفاع بـــه على صاحبـــه

[١] يعني قوله صلى الله عليه وسلم: من أثنيتم عليه خيرا وجبت له الجنة، ومن أثنيتم عليه شرا وجبت له النار، أنتم شهداء الله في الأرض، رواه الشيخان وأبوداود، والأحاديث في هذا المعنى كثيرة اهـــ من تعليق الشيخ عبد الله بن محمد بن الصديق الغماري على كتاب تأييد الحقيقة العلية وتشييد الطريقة الشاذلية.

[٢] تأييد الحقيقة العلية للسيوطي ص٦١.

[٣] كذا في نسخة، وفي نسخة أخرى: أغلوطات بالهمز، وهما روايتان، والحديث في سنن أبي داود، وقال في لسان العرب أراد بالغلوطات المسائل التي يغالط فيها العلماء ليزلُّوا فيها فيهيج بذلك شر وفتنة اهـــ.

ولئلا يكسل عن تحصيل الفائدة منه، ولئلا يمتنع من إعارته غيره، وقد جاء في ذم الإبطاء برد الكتب المستعارة عن السلف أشياء كثيرة نثرا ونظما، ورويناها في كتاب الخطيب الجامع لأخلاق الراوي والسامع، منها عن الزهري إياك وغلول الكتب وهو حبسها عن أصحابـــها. وعن الفضيل: ليس من أفعال أهل الورع ولا من أفعال الحكماء أن يأخذ سماع رجل وكتابه فيحبسه عنه، ومن فعل ذلك فقد ظلم نفسه. قال الخطيب: وبسبب حبسها امتنع غير واحد من إعارتـــها، ثم روى في ذلك جملا عن السلف، وأنشد فيه أشياء كثيرة، والمختار استحباب الإعارة لمن لا ضرر عليه في ذلك لأنه إعانة على العلم مع ما في مطلق العارية من الفضل. وروينا عن وكيع أَوَّلُ بركةِ الحديثِ إعارَةُ الكتبِ. وعن سفيان الثوري: من بخل بالعلم ابتلى بإحدى ثلاث أن ينساه أو يموت ولا ينتفع به أو تذهب كتبه. وقال رجل لأبي العتاهية: أعرني كتابك، قال: إني أكره ذلك، فقال: أما علمت أن المكارم موصولة بالمكاره فأعاره. ويستحب شكر المعير لإحسانه (١).

---

[١] مقدمة المجموع فصل في آداب يشترك فيها العالم والمتعلم ص٣٩-٤٠.

الخاتـــمة نسأل الله حسنها

وَهَذِيْ رِسَاْلَتِيْ إِلَىْ كُلِّ طَاْلِبٍ وَطَاْلِبَةٍ لِلْعِلْمِ فِيْ كُلِّ بَلْدَةِ
وَأسْأَلُ رَبِّيْ ذَا العَطَايَا قَبُوْلَهَا بإحْسَانِهِ مِنِّيْ بِفَضْلٍ وَمِنَّةِ

أي وهذه القصيدة المسماة بالنصائح المرسله هي رسالتي التي أرسلتها إلى كل طالب للعلم وطالبة له في جميع الأماكن من قرية ومدينة وبادية، وأنا أسأل ربي ذا العطايا الكثيرة، والمواهب الجزيلة، قبولها مني بإحسانه وفضله ومَنِّهِ، وفي ذكر اسم الرب هنا التَّعَرُّض لإجابة الدعاء، فإنه يرجى لمن دعا به قبول دعائه فقد قال الإمام جعفر الصادق: من حزبه أمر فقال خمس مرات (ربنا) أنجاه مما يخاف وأعطاه ما أراد، فقيل: وكيف ذلك؟ فقال: {**الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبـــهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار* ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته وما للظالمين من أنصار* ربنا إننا سمعنا مناديا ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيآتنا وتوفنا مع الأبرار* ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد**(١)}

وَإِنِّيْ لأَدْعُو اللهَ رَبِّيْ وَسَيِّدِيْ لِمَنْ يَسْتَفِيْدُ أَوْ يُفِيْدُ بِـــهِمَّةِ

أي إني أدعو الله لمن يستفيد من هذه الرسالة أو يفيد لغيره منها بـــهمة.

وَأَرْجُو الدُّعَا مِمَّنْ يُطَالِعُهَا وَيَجْـــتَنِيْ ثَمْرَةً فِيْهَا بِعَزْمٍ وَرَغْبَةِ

أي إني كما أدعو لمن يفيد أو يستفيد منها كذلك أرجو الدعاء ممن يطالعها ويقتطف من ثمارها اليانعة فيستفيد أو يفيد غيره منها بعزم قوي ورغبة فيها.

وَوَفِّرْ وَأَعْطِ الخَيْرَ عَبْداً أَعَانَنِي إلَهِي بِتَصْحِيْحٍ وَنَشْرٍ وَطَبْعَةِ

في هذا البيت الدعاء لكل من أعانني على تصحيحها، والتصحيح من أهمِّ الأمور وأصعبها، بل هو أهمُّ ما يحتاج إليه بعد تأليف الكتاب وقبل طبعه ونشره، وفيه أيضا الدعاء لمن أعانني على طبعها أو نشرها بين الناس عموما، وبين طلبة العلم خصوصا، فإنّ المقصود من وضعها أصالة النصحية لهم وغيرهم تبع.

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين.

وَكُتَّابَـــهَا وَشَارِحِيْهَا وَمُنْشِداً لَهَا حَافِظاً عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ بِغِبْطَةِ [١]

في هذا البيت الدعاء لكل من كتبها أو وضع عليها شرحا أو تقريرا أو تعليقا أو فعل جميلا غير ذلك من كل ما يعين على قراءتـــها ودرسها من تفسير غريبها وإعراب ألفاظها أو تنبيه على أخطاء فيها، وفيه أيضا الدعاء لمن أنشدها وحفظها بغبطة وسرور عن ظهر قلبه. وقد حفظها والحمد لله خلائق من الطلبة والطالبات، وطبع منها في مدة قصيرة ما يزيد على خمسة آلاف نسخة.

عُبَيْدُكَ عُثْمَانُ الْمُسِيْءُ أَتَاكَ يَرْ تَجِيْ يَا إِلَهِي العَفْوَ مِنْكَ بِرَحْمَةِ

أي أتى باب رحمتك الواسعة يا إلهي عبيدك المسيء المذنب الحقير، المحتاج الفقير، عثمان بن الشيخ عمر وهو يرتجي العفو والغفران بمحض رحمة منك وإحسان، لا باستحقاق منه وتأهل لذلك، ولا بسبب آخر من عمل صالح أو قلب مخلص، فإنك تَمُنُّ على من تشاء من ألطافك ومواهبك.

فَجُدْ لِيْ الْمُنَا وَاغْفِرْ ذُنُوْبِيَ كُلَّها وَأَحْسِنْ خِتَامِيْ عِنْدَ مَوْتِي وَرِحْلَتِي

في هذا البيت الدعاء والسؤال من الله تعالى بلوغ المنى والمطلوب ومغفرة الذنوب وحسن الخاتمة، عند الوفاة والارتحال، من دار الفناء والعناء، إلى دار الحساب والجزاء.

وَهَبْ لِيْ وَلِلأَحْبَابِ وَالوَالِدِيْنَ وَالـــ ـــمَشَايِخِ مَعْ أَوْلادِنَا كُلَّ نِعْمَةِ

أي هب لي يا إلهي وللأحباب والوالدين والمشايخ والأولاد كل نعمة، وادفع عنا وعنهم بفضلك كل بلية ونقمة.

---

[١] الغبطة: المسرة كما في القاموس واللسان.

وَصَلِّ عَلَى الْمُخْتَارِ طَهَ شَفِيْعِنَا وَآلٍ وَأَصْحَابٍ سُرَاْةِ (١) الأَئِمَّةِ

وَنَاشِرِ دِيْنِ اللهِ فِيْ الأَرْضِ دَاعِياً إِلَى الحَقِّ مَنْ يَلْقَاهُ فِيْ كُلِّ بُقْعَةِ

وَطَالِبِ هَذَا الدِّيْنِ فِيْ نَيْلِ جَنَّةٍ بِجِدٍّ وَإِخْلاصٍ وَرُشْدٍ وَهِمَّةِ

وَسَاْلِكِ نَـهْجِ اَلْصَّاْلِحِيْنَ ذَوِيْ اَلْتُّقَىْ وَأَهْلِ اَلْهُدَىْ وَاَلأَوْلِيَاْءِ اَلأَجِلَّةِ

وَمَنْ قَدْ أَعَاْنَ هَؤُلاْ أَوْ أَحبَّهُمْ وَسَلِّمْ عَلَيْهِمْ كُلَّ حِيْنٍ وَلَحْظَةِ

في هذه الأبيات الخمسة الصلاة والسلام على الحبيب المصطفى والسيد المجتبى الذي اختاره الله من جميع من أقلته الأرض وأظلته السماء، وعلى آله وأصحابه الكرام سادات الأنام، وعلى ناشري دين الله في أرضه والدعاة للحق كل من يلقونه في أي بقعة من بقاع الأرض وأماكنها، وعلى طالبي العلم بجد وإخلاص، الراغبين فيه لرضاء ربهم والخلود في دار كرامته، وعلى جميع سالكي نـهج الصالحين المقتفين آثارهم، وأهل الهدى والأولياء الأجلة، ذوي المقامات العلية، والمراتب السنية، وعلى من أعان هؤلاء المذكورين أو أحبهم.

مَتَىْ مَا يَقُوْمُ لِلْتَّهَجُدِ قَانِتٌ وَفَاضَتْ عُيُوْنُ الخَاْشِعِيْنَ بِدَمْعَةِ

أي صل عليهم مدة قيام القانتين للتهجد، وفيضان عيون الخاشعين وسيلانـها بالدموع. والله سبحانه وتعالى أعلم وهو الموفق.

---

[١] في لسان العرب: السَرْوُ المروءة والشرف، والسَّرِي: المختار، وفي حديث أم زرع: فنكحت بعده سريا أي نفيسا شريفا، وقيل: سخيا ذا مروءة.

روينا إجازة عن الحبيب العلامة سالم بن عبد الله بن عمر الشاطري حفظه الله قال: أخبرني صحيح مسلم السيد الجليل شيخ السادة بمكة المشرفة السيد محمد بن علوي السقاف عن والده العلامة الجليل السيد علوي بن أحمد السقاف عن شيخه العلامة السيد أحمد زيني دحلان عن العلامة عثمان بن حسن الدمياطي عن العلامة محمد بن محمد بن أحمد الأمير المالكي عن نور الدين أبي الحسن علي بن محمد بن علي السقاط عن ولي الله تعالى الشيخ إبراهيم الفيومي عن الشيخ أحمد الفوقاوي المالكي عن الشيخ علي الأجهوري عن نور الدين علي العراقي عن الحافظ أبي الفضل جلال الدين السيوطي عن علم الدين الصالح بن عمر بن رسلان البلقيني عن الحافظ برهان الدين أبي إسحاق إبراهيم بن أحمد التنوخي عن سليمان بن حمزة عن أبي الحسن علي بن نصر عن الحافظ عبد الرحمن بن منده عن الحافظ أبي بكر بن محمد بن عبد الله عن مكي بن عبد الله النيسابوري عن مؤلفه الإمام الحافظ أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري قال: حدثنا محمد بن عبد الله بن نُمَيْر وزهير بن حرب وأبوكريب ومحمد طَريف البجلي قالوا: حدثنا ابن فضيل عن عُمارة بن القعقاع عن أبي زُرعَة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم.

وروينا أيضا إجازة عن الحبيب العلامة سالم بن عبد الله بن عمر الشاطري حفظه الله قال: أخبرني صحيحَ البخاري السيد محمد بن علوي السقاف شيخ السادة بمكة المكرمة عن والده السيد علوي السقاف عن السيد أحمد زيني دحلان عن عثمان بن حسن الدمياطي عن محمد بن محمد بن أحمد الأمير المالكي عن نور الدين أبي الحسن علي بن محمد بن علي السقاط عن ولي الله تعالى الشيخ إبراهيم الفيومي عن الشيخ أحمد الفوقاوي المالكي عن الشيخ علي الأجهوري عن نور الدين علي العراقي عن الحافظ أبي الفضل جلال الدين السيوطي عن علم الدين الصالح بن عمر بن رسلان البلقيني عن الحافظ برهان الدين أبي إسحاق إبراهيم بن أحمد التنوخي عن أبي العباس أحمد بن أبي طالب الحجار عن أبي الوقت عبد الأول بن عيسى السجزي عن أبي الحسن عبد الرحمن بن محمد الداودي عن أبي محمد عبد الله بن أحمد السرخسي عن أبي عبد الله محمد بن يوسف بن مطر الفربري

عن الإمام محمد بن إسماعيل البخاري قال: حدثنا أحمد بن إشْكَاْبَ حدثنا محمد بن فضيل عن عمارة بن القعقاع عن أبي زُرْعَة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: كلمتان حبيبتان إلى الرحمن خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم(١).

وهذا آخر ما يسر الله لى كتابته في آداب طلبة العلم الشريف، وفيما ينبغي لهم أن يتخلقوا به ويدربوا عليه نفوسهم، والله المستعان وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم، وأسأل الله العظيم المنان ذا الفضل والإحسان أن يتقبله مني بكرمه وجوده ومنّه، وأن ينفع به كل من تلقاه بقلب سليم، بجاه نبيه الوسيم، ذي الجاه العظيم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وشرّف ومجد وبارك على أشرف المرسلين وعلى آله وصحبه والتابعين.

وقد تم تأليف هذا الكتاب بحمد الله تعالى وتيسيره في رجب الفرد سنة ألف وأربعمائة وثلاثين ببلدة عيل طير حرسها الله تعالى إلا أحرفا قليلة ألحقتها بعدُ في نيروبي عاصمة كينيا أيام إقامتي فيها، وبالله التوفيق .

---

[١] إنما اخترت ختم الكتاب بهذا الحديث تأسيا واقتداء بالإمام البخاري حيث ختم كتابه الجامع الصحيح بهذا الحديث الشريف.

قصيدة في آداب التعلم

قال الحافظ ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله: أحسن ما رأيت في آداب التعلم والتفقه من النظم ما ينسب إلى اللؤلؤ(١) من الرجز، وبعضهم ينسبه إلى المامون، وقد رأيت إيراد ما ذكر من ذلك لحسنه ولما أرجو من النفع به لمن طالع كتابي هذا، نفعنا الله وإياه به، وهذه هي القصيدة:

واعلم بأن العلم بالتعلم   والحفظ والإتقان والتفهم
والعلم قد يُرْزَقُه الصغير   في سنه ويحرم الكبير
فإنما المرء بأصغريه   ليس برجليه ولا يديه
لسانه وقلبه المركب   في صدره وذاك خلق عجب
والعلم بالفهم وبالمذاكرة   والدرسِ والفكرةِ والمناظرة
فرب إنسان ينال الحفظا   ويُورِد النص ويحكي اللفظا
وما له في غيره نصيب   مما حواه العالم الأديب
ورب ذي حرص شديد الحب   للعلم والذكر بليد القلب
معجز في الحفظ والرواية   ليست له عما روى حكاية
وآخر يعطى بلا اجتهاد   حفظا لما قد جاء في الإسناد
يـــهزه بالقلب لا بناظره   ليس بمضطر إلى قماطره
فالتمس العلم وأجمل في الطلب   والعلم لا يحسن إلا بالأدب
والأدب النافع حسن الصمت   وفي كثير القول بعض المقت
فكن لحسن الصمت ما حييتا   مقارفا (٢) تحمد ما بقيتا
وإن بدت بين أناس مسأله   معروفة في العلم أو مفتعله
فلا تكن إلى الجواب سابقا   حتى ترى غيرك فيها ناطقا
فكم رأيت من عجول سابق   من غير فهم بالخطاء ناطق
أُزرِى به ذلك في المجالس   عند ذوي الألباب والتنافس

---

[١] كذا في الأصل ولعله اللؤلؤي بياء النسبة.

[٢] وفي نسخة: مقارنا .

والصمت فاعلم بك حقا أزين　　إن لم يكن عندك علم متقَن
وقل إذا أعياك ذاك الأمر　　ما لي بما تسأل عنه خُبُرْ
فذاك شطر العلم عند العلما　　كذاك ما زالت تقول الحكما
إياك والعجب بفضل رأيكا　　واحذر جواب القول من خطائكا
كم من جواب أعقب الندامه　　فاغتنم الصمت مع السلامه
العلم بحر منتهاه يبعد　　ليس له حد إليه يقصد
وليس كل العلم قد حويته　　أَجَلْ ولا العشر ولو أحصيته
وما بقي عليك منه أكثر　　مما علمت والجواد يعثر
فكن لما سمعته مستفهما　　إن أنت لا تفهم منه الكلما
القول قولان فقول تعقله　　وآخر تسمعه فتجهله
وكل قول فله جواب　　يجمعه الباطل والصواب
وللكلام أول وآخر　　فافهمهما والذهن منك حاضر
لا تدفع القول ولا ترده　　حتى يؤديك إلى ما بعده
فربما أعيى ذوي الفضائل　　جواب ما يلقى من المسائل
فيمسكوا بالصمت عن جوابه　　عند اعتراض الشك في صوابه
ولو يكون القول في القياس　　من فضة بيضاء عند الناس
إذا لكان الصمت من خير الذهب[١]　　فافهم هداك الله آداب الطلب[٢]

---

[١] وفي نسخة: عين الذهب .

[٢] بيان جامع العلم وفضله ج١ص١٧٧-١٧٩ .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، وبعد: فهذه منظومة في آداب طلبة العلم والطالبات، ومشكاة للراغبين والراغبات، نظمتُها في بلدة عَيْلْ طَيْرْ مِن بحر الطويل المقبوض عروضا وضربا .

بَدَأتُ بِبِسْمِ اللهِ نَظْمِيَ أوَّلاً ... وَحَمْدٍ وَشُكْرِ اللهِ رَبِّ الْبَرِيَّةِ
أُصَلِّيْ عَلَىْ خَيْرِ الأَنَامِ مُحَمَّدٍ ... وَآلٍ وَصَحْبٍ مَعْ سَنِـــيٍّ تَحِيَّةِ
وَأَتْبَاعِهِمْ وَالْمُهْتَدِيْنَ بِـــهَدْيِهِمْ ... ذَوِيْ الفَضْلِ وَالإِحْسَانِ أنْصَارِ مِلَّةِ
وَمَنْ عَلَّمَ العِلْمَ الشَّرِيْفَ وَطَاْلِبٍ ... بِهِ عَامِلٍ بالصِّدْقِ مَعْ حُسْنِ نِيَّةِ
وَبَعْدُ فَذَا نَظْمٌ بَدِيْعٌ لِنُصْحِ مَنْ ... يَرُوْمُ تَعَلُّمَ العُلُوْمِ وَحِكْمَةِ
عَسَىْ يَنْفَعُ اللهُ الكَرِيْمُ بِمَنِّهِ ... رِجَاْلاً ذَوِيْ فَهْمٍ وَفِكْرٍ وَفِطْنَةِ
كَمَا أَنَّهُ وَعْظٌ لِنَفْسِيْ وَنُصْحُهَا ... عَسَىْ أَنْ يَكُوْنَ لِيَ مِرْقَاةَ جَنَّةِ
فَيَا طَاْلِبَ العِلْمِ الشَّرِيْفِ نَصِيْحَتِيْ ... إِلَيْكَ تَقَبَّلْهَا بِأعْظَمِ رَغْبَةِ
وَكُنْ سَالِكاً نَـــهْجَ الأُلَىْ فِيْ تَعَلُّمٍ ... فَهُمْ فِيْ طَرِيْقِ الاهْتِدَا خَيْرُ أُسْوَةِ
وَهُمْ سَادَةٌ غُرُّ الجِبَاْهِ أَئِمَّةٌ ... حُمَاةٌ لِهَذَا الدِّيْنِ مِنْ كُلِّ فِتْنَةِ
وَمِنْ وَاجبِ التِّلْمِيْذِ أنْ يَقْتَدِي بِـــهِمْ ... وَيَقْفُوْ عَلَى آثَارِهِمْ بِالْمَوَدَّةِ
وَلاْ بُدَّ لِلتِّلْمِيْذِ مِنْ تَرْكِ مَا نَـــهَى الــ ... ـــإِلَهُ بَتَاتاً خَائِفاً كُلَّ لَحْظَةِ
مَعَ الامْتِثَالِ لِلأَوَامِرِ عَامِلاً ... بِمَا فِيْ كِتَابِ اللهِ رَبِّىْ وَسُنَّةِ
وَهَذَا أَسَاسٌ لِلتَّعَلُّمِ يَافَتَى ... وَأَصْلٌ لِنَيْلِ كُلِّ خَيْرٍ وَبُغْيَةِ
وَلاْ شَكَّ أَنَّ الذَّنْبَ دَاْءٌ وَظُلْمَةٌ ... يُغَطِّي صَدَاهُ القَلْبَ عَنْ فَهْمِ حِكْمَةِ
وَأَنَّ العُلُوْمَ النَّافِعَاتِ دَوَاؤُنَا ... وَنُوْرٌ يُزِيْل رَيْنَ قَلْبٍ وَقَسْوَةِ
وَمَا اجْتَمَعَ الضِّدَاْنِ فِيْ القَلْبِ مَرَّةً ... فَإِنْ جَاء هَذَا غَابَ هَذَا بِسُرْعَةِ
كَذَاكَ ظَلاَمُ اللَّيْلِ يَذْهَبُ إِنْ بَدَا الصَّـــ ... ـــبَاحُ وَحَلَّ النُّوْرُ مَوْضِعَ ظُلْمَةِ
سَيَنْدَمُ مَنْ يَعْصِي بِعَمْدٍ إِلَهَهُ ... إِذَا الأَرْضُ رُجَّتْ وَالجِجَارَةُ بُسَّتِ
وَيَأتِيْ كَئِيْباً بَاكِياً فِيْ القِيَاْمَةِ ... يَقُوْلُ أَيَا وَيْلِيَ كُنْتُ كَتُرْبَةِ
وَيَصْرُخُ بِالْثُبُوْرِ حُزْناً وَحَسْرَةً ... يُنَاْدِيْ فَهَلْ لِيْ مِنْ رُجُوْعٍ وَأَوْبَةِ
وَهَذَا إِذَا لَمْ يَعْفُ رَبِّيْ ذُنُوْبَهُ ... بِفَضْلٍ وَيَسْمَحْ مَا جَنَاهُ بِمِنَّةِ

فصل في إخلاص طالب العلم

وَكُنْ مُخْلِصاً يَا طَالِبَ العِلْمِ قَاصِداً بِمَرْضَاةِ رَبِّيْ عَنْكَ بَعْدَ الْمَنِيَّةِ
تَعَلَّمْ لأَجْلِ اللهِ إِنْ كُنْتَ رَاغِباً حُصُوْلَ الأَمَانِ ثُمَّ فَوْزاً بِجَنَّةِ
وَلاْ يَخْطُرَنْ فِيْ القَلْبِ حُبُّ رِيَاسَةٍ وَجَاهٍ فَذَا أَصْلٌ لِكُلِّ الرَّزِيَّةِ
وَلاْ تَطْلُبَنْ صِيْتاً وَمَدْحاً وَشُهْرَةً فَهَذَا سُقُوْطٌ صَاحِ فِيْ قَعْرِ هُوَّةِ
وَمَنْ يَتَعَلَّمْ لِلْمَنَاصِبِ دِيْنَهُ فَقَدْ ضَاعَ عُمْراً بِالْمَسَاوِيْ وَغَفْلَةِ
وَإِيَّاكَ إِيَّاكَ القَوَادِحَ كُلَّهَا كَإِعْجَابِ نَفْسٍ وَالرِّيَاءِ وَسُمْعَةِ
وَيُفْسِدُ ذَا أَعْمَالَهُ فَثَوَابُــهَا كَمِثْلِ سَرَابٍ أَوْ هَبَاءٍ وَرَغْوَةِ
وَلاْ تَكْتَرِثْ بِالذَّمِّ وَالسَّبِّ وَاطْلُبَنْ مَرَاتِبَ عِزٍّ كُلَّ وَقْتٍ بِــهِمَّةِ
وَلاْ تَفْرَحَنْ فِيْ مَدْحِهِمْ وَثَنَائِهِمْ فَذَلِكَ أَصْلٌ لِلْغُرُوْرِ وَخِسَّةِ

فصل في التحذير من اتباع الهوى

وَإِيَّاْكَ طَوْعَ النَّفْسِ فِيْمَا تُرِيْدُهُ وَلاْ تَتَّفِقْ مَعْهَا بِصُلْحٍ وَهُدْنَةِ
وَلاْتَرْضَ لاْتَأْمَنْ بِــهَاْ إِنَّ كَيْدَهَاْ عَظِيْمٌ يَزِيْدُ كَيْدَ شَرِّ اَلْبَرِيَّةِ
وَأَمَّاْرَةٌ بِاْلسُّوْءِ وَاَلشَّرِّ دَاْئِماً فَحَاْذِرْ كَمَاْ تَخْشَىْ أَخِيْ فَتْكَ لَبْوَةِ
وَخَالِفْ هَوَاهَا وَاقْمَعَنْ شَهَوَاتِــهَا وَخُذْهَا بِقَهْرٍ وَانْقِلاْبٍ بِعَنْوَةِ
فَلاْ أَحَدٌ مِمَنْ هَوَاْهُ اتَّبَعْ بِغَيْــ ـــرِ هَدْيٍ أَضَلُّ فَاَخْشَ هَذِىْ اَلْبَلِيَّةِ
فَمَنْ خَاْلَفَ اَلْهَوَىْ لأَجْلِ إِلَهِهِ فَمَأْوَاْهُ يَوْمَ اَلْدِّيْنِ فِيْ وَسْطِ جَنَّةِ

المبادرة إلى الخيرات

وَإِيَّاكَ وَالتَّسْوِيْفَ فَالعَجْزُ فِيْهِ وَالتَّــ ـــخَلُّفُ وَالذُّلُّ وَحِرْمَانُ مُنْيَةِ
وَلاْ تُمْهِلُوْا لِلغَدِ أَعْمَالَ يَوْمِكُمْ عَلَيْكُمْ لَهُ أَعْمَاْلُ بِرٍّ بِكَثْرَةِ
وَيُمْكِنُ أَنَّ الْمَوْتَ يَأْتِيْكَ بَغْتَةً فَبَادِرْ إِلَىْ الْخَيْرَاْتِ قَبْلَ الْمَنِيَّةِ
وَشَمِّرْ وَخُضْ بَحْرَ العُلُوْمِ فَإِنَّمَا تَنَالُ الْمُنَى بِالْجِدِّ مَعْ تَرْكِ لَذَّةِ
وَكُنْ بَاذِلاً جُهْداً كَبِيْراً كَمِثْلِ مَنْ يَغُوْصُ البِحَارَ كَيْ يَفُوْزَ بِدُرَّةِ

وَكُنْ صَابِراً فِيْ كُلِّ عُسْرٍ وَشِدَّةٍ تَنَلْ يَا أَخِيْ شَأْوَ العُلاْ وَالْمَسَرَّةِ
إِذَا مَا تَسَابَقَتْ خُيُوْلُ ذَوِيْ التُّقَىْ بِمَيْدَانِـــهَا عَجِّلْ خُطَاكَ بِسُرْعَةِ
وَلاْ تَرْضَ أَنْ تَبْقَى وَرَاْءَ جِيَادِهِمْ وَحِيْداً بِلاْ أُنْسٍ فَتَنْدَمْ بِحَسْرَةِ
وَكُنْ مُكْثِراً ذِكْرَ الإِلَهِ بِخَلْوَةٍ وَجَمْعٍ وَلَيْلٍ وَالْمَسَاءِ وَغُدْوَةِ
قِرَآءَةَ قُرْآنٍ مَجِيْدٍ فَرَتِّلَنْ لِكَيْ تَرْتَدِيْ كُسْوَةَ مَجْدٍ وَرِفْعَةِ
وَسَبِّحْ بِحَمْدِ اللهِ فِيْ الصُّبْحِ وَالْمَسَا مَعَ البَاقِيَاْتِ الصَّالِحَاتِ البَهِيَّةِ
وَصَلِّ الصَّلاَةَ بِالجَمَاعَةِ دَائِماً رَوَاتِبَهَا احْفَظْ وَالضُّحَىْ كُلَّ ضَحْوَةِ
كَذَا الوَتْرُ وَانْوِ الاعْتِكَافَ بِمَسْجِدٍ وَصَلِّ صَلاَةَ اللَّيْلِ مِنْ بَعْدِ هَجْعَةِ
وَكُنْ فِيْ الصَّلاْةِ خَاشِعاً مُتَدَبِّراً قِرَاءَتَهَاْ يَا صَاحِ مَعْ حُسْنِ هَيْئَةِ
وَبَادِرْ إِلَى الخَيْرَاتِ وَاطْلُبْ مَظِنَّةً لَهَا مِن جِهَاتِ الكَوْنِ فِيْ كُلِّ طَرْفَةِ
تَمَسَّكْ بِحُبِّ الْمُصْطَفَىْ سَيِّدِ الوَرَىْ وَعَضُّوْا عَلَيْهِ بِالنَّوَاجِذِ إِخْوَتِي
إِذَا كُنْتَ مُشْتَاقاً بُلُوْغَ ذُرَى العُلا فَكُنْ تَابِعاً طَهَ بِأَكْمَلِ قُدْوَةِ
بِأَقْوَالِهِ وَفِعْلِهِ بَلْ وَحَالِهِ تَنَلْ كُلَّ خَيْرٍ بِالدَّوَامِ وَنِعْمَةِ

فصل في احترام المشايخ

وَآدَابُ طُلاَّبِ العُلُوْمِ كَثِيْرَةٌ كَصُحْبَةِ شَيْخِهِ بِتَعْظِيْمِ حُرْمَةِ
وَبِرٌّ لَهُ وَاللِّيْنُ فِيْ كُلِّ حَالَةٍ دُعَاءٌ لَهُ فِيْ الجَهْرِ أَيْضاً وَخُفْيَةِ
وَتَوْقِـــيْـــرُهُ إِجْلاَلُـــهُ وَمَحَبَّـــةٌ حَقِيْقِيَّةٌ وَبِشْرُهُ فِــيْ التَّحِيَّةِ
وَمُفْتَرِشاً كُنْ فِيْ جُلُوْسِكَ عِنْدَهُ وَخَفِّضْ لَدَيْهِ الصَّوْتَ مَعْ كُلِّ هَيْبَةِ
وَمُمْتَـــثِـــلاً لأَمْرِهِ كُنْ وَرَاضِياً بِهِ فَاحْذَرَنْ خِلاَفَهُ قَـــدْرَ ذَرَّةِ
وَسَلِّمْ لَهُ اخْتِيَاْرَ فَنٍ يُرِيْدُهُ فَإِنَّ لَهُ فِيْ ذَاْكَ أَعْظَمَ خِبْرَةِ

الصبر على ضيق المعيشة

وَكُنْ بِالْيَسِيْرِ قَانِعاً رَاضِياً بِمَا حَبَاكَ الإِلَــهُ مِنْ قَلِيْلٍ كَلُقْمَةِ
فَكَمْ مِنْ إِمَامٍ طَبَّقَ الأَرْضَ عِلْمُهُ تَعَلَّمَ فِيْ جُـــوْعٍ وَأَضْيَقِ عِيْشَةِ
وَإِنْ أَنْتَ لاْ تَرْضَى بِذَلِكَ فَاكْتَسِبْ وَكُنْ جَاهِلاً أَعْمَى يَعِيْشُ بِذِلَّةِ

فصل في آداب متفرقة

تَخَلَّقْ بِأَخْلاقٍ حِسَانٍ فَإِنَّهُ يَنَالُ الفَتَى فِيْهَا نِــهَايَةَ رُتْبَةِ
وَكُنْ مُشْفِقاً لِلْخَلْقِ وَارْحَمْ لِكُلِّ مَنْ يُوَحِّدُ رَبِّيْ مِنْ كَبِيْرٍ وَصِبْيَةِ
وَكُنْ لاَبِساً بِيْضَ الثِّيَابِ وَعِمَّةً وَلاَزِمْ بِأَقْلاَمٍ سِوَاكٍ وَسُبْحَة
وَكُنْ هَيِّناً وَلَيِّناً مُتَوَاضِعاً حَلِيْماً زَكِيّاً عَنْ عُيُوْبٍ وَخِسَّةِ
وَكُنْ بَاذِلاً جُهْدًا كَبِيْراً بِحِفْظِ مَا تَرَاهُ مُهِمّاً مِنْ عُلُوْمٍ وَحِكْمَةِ
وَمُبْتَدِئاً مِنْ كُلِّ فَنٍّ صِغَارَ كُتْــ ــبِهِ مِنْ مُتُوْنٍ أَوْ شُرُوْحٍ مُهِمَّةِ
مُطَالَعَةَ الكُتْبِ الَّتِيْ فِيْ فَضَائِلِ الْــ ــعُلُوْمِ فَدَاوِمْهَا لإِنْــهَاضِ هِمَّةِ
تَعَوَّدْ بِسُرْعَةِ الكِتَابَةِ يَا فَتَى بِتَحْسِيْنِ خَطٍّ مِثْلَ خَطِّ ابنِ مُقْلَةِ
وَرَدِّدْ وَكَرِّرْ نَحْوَ عِشْرِيْنَ مَرَّةً بِدَرْسِكَ كَيْ تَبْلُغْ مُنَاكَ بِسُرْعَةِ
وَأَمَّا إِذَا أَعَدْتَّ يَا غِرُّ مَرّةً وَتَتْرُكْهُ تَنْدَمَنْ وَتَحْيَى بِذِلَّةِ
مُطَالَعَةَ الكُتْبِ الْمُفِيْدَةِ لاَزِمَنْ بِجِدٍّ وَفَهْمٍ مَعْ كِتَابَةِ نُكْتَةِ
إِذَا مَا دَهَاكَ الخَطْبُ وَالعُسْرُ فَاسْتَعِنْ بِصَبْرٍ دُعَاءٍ وَالصَّلاةِ بِخَشْيَةِ
وَكُنْ ذَا مُرُوْءَةٍ بَعِيْداً عَنِ الخَنَا وَلاْ تَقِفَنْ أَصْلاً مَوَاقِفَ تُــهْمَةِ
وَلاْ تَكُ ثَرْثَاراً يُضَيِّعُ وَقْتَهُ بِقِيْلٍ وَقَالٍ وَاَلْمِزَاْحِ وَسَمْرَةِ
وَلاْ تُكْثِرَنَّ الالْتِفَــاتَ فَــإِنَّهُ أَمَارَةُ نُقْصَانٍ وَطَيْشٍ وَخِفَّةِ

فصل في ترتيب الفنون وتقديم بعضها على بعض

وَتَقْدِيْمُ فَنِّ الفِقْهِ فَرْضٌ فَإِنَّمَا يَصِحُّ بِهِ كُلُّ الفُرُوْضِ وَسُنَّةِ
كَصَوْمٍ صَلاةٍ وَالزَّكَاةِ وَحَجَّةٍ بِهِ عِلْمُ أَرْكَانٍ شُرُوْطٍ وَهَيْئَةِ
وَعِلْمُ أُصُوْلِ الدِّيْنِ يَتْلُوْهُ فَالتَمِسْ بِجِدٍّ صَحِيْحَ الاعْتِقَادِ بِسُرْعَةِ
وَخُضْ بَعْدَ ذَيْنِ فِيْ بُحُوْرِ الفُنُوْنِ مَعْ رِعَايَةِ تَرْتِيْبٍ بِإِمْعَانِ فِكْرَةِ
وَبَادِرْ إِلَىْ نَحْوٍ وَصَرْفٍ أُصُوْلِ فِقْــ ــهِنَا وَالحَدِيْثِ ذِيْ العُلُوْمِ اَلْسَّنِيَّةِ
وَتَفْسِيْرِ قُرآنٍ بِشَتَّى عُلُوْمِهِ بَيَانٍ مَعَانٍ وَالبَدِيْعِ بِجُمْلَةِ
وَقَافِيَةٍ مَعَ العَرُوْضِ وَمَنْطِقٍ كَذَا لُغَةٌ طِبٌّ حِسَابٌ بِدِقَّةِ

وَسِيْرَةُ خَيْرِ الخَلْقِ تُحْيِي القُلُوْبَ وَالـــ
ـــتَّصَوُّفْ يُصَفِّي القَلْبَ عَنْ كُلِّ ظُلْمَةِ
تَوَارِيْخُ أَهْلِ العِلْمِ وَالعَقْلِ وَالتُّقَىْ بِـــهَا الإِدِّكَارُ وَاتِّعَاظٌ بِعِبْرَةِ

التعلم في زمن الشباب والفراغ والصحة

وَمِنْ أَوَّلِ التَّمْيِيْزِ فَابْدَأْ تَعَلُّمَ الـــ ـــعُلُوْمِ وَلاَ تَتْرُكْ إِلَىْ يَوْمِ نُقْلَةِ
تَعَلَّمْ وَلاَ تَكْسَلْ أَخِي فِي الشَّبَابِ وَالـــ ـــفَرَاغِ وَأَيَّامِ النَّشَاطِ وَصِحَّةِ
فَإِنْ فَاتَكَ التَّعْلِيْمُ فِي هَذِهِ الفُرَصْ تَكُنْ نَادِماً مِنْ بَعْدِهَا دُوْنَ مِرْيَةِ
وَقَدْ قِيْلَ إِنَّ مَنْ تَعَلَّمَ فِي الصِّغَرْ يَكُنْ عِلْمُهُ صِدْقاً كَنَقْشٍ بِصَخْرَةِ

الرحلة لطلب العلم

وَسَافِرْ مِنَ الأَوْطَانِ لِلْعِلْمِ وَاتْرُكَنْ أَهَالِيْكَ وَالأَحْبَابَ مَعْ كُلِّ إِخْوَةِ
فَفِي الإِغْتِرَابِ رَاحَةٌ وَالْفَرَاغُ مِنْ شَوَاغِلِ أَصْحَابٍ وَأَهْلٍ وَرُفْقَةِ
وَيَكْفِيْ أَنِيْساً لِلْتَّلاَمِيْذِ كُتْبُهُمْ وَإِخْوَانُـــهُمْ فِي الدَّرْسِ أَهْلُ المَوَدَّةِ
وَإِيَاكَ أَنْ تَعْيَى إِذَا طَالَ مُدَّةُ الـــ ـــغِيَابِ وَهَاجَ الشَّوقُ نَحْوَ الأَحِبَّةِ
وَلِلعِلْمِ ذَوْقٌ لَيسَ يَدْرِيْهِ غَيْرُ أَهْـــ ـــلِهِ فَائِقٌ مِنْ طَعْمِ شَهْدٍ وَتَمْرَةِ
وَقَدْ أَخْبَرَ الزَّمَخْشَرِيُّ بِأَنَّهُ يَفُوْقُ يَقِيْناً طَعْمُهُ كُلَّ لَذَّةِ

الصاحب في التعلم

وَصَاْحِبْ مِنَ الطُّلاْبِ مَنْ كَاْنَ عَزْمُهُ قَوِيّا لَهُ جِدٌّ وَأَعْظَمُ هِمَّةِ
وَلاْ تَصْحَبَنْ مَنْ كَاْنَ أَهْلَ بَطَاْلَةٍ وَعَجْزٍ وَحِقْدٍ وَالفَسَادِ وَحِدَّةِ
وَلاْ تَقْرَبَنْ مِنْ سَيِّئِ الطَّبْعِ وَاحْذَرَنْ فَإِنَ جَلِيْسَ اَلْسُوْءِ يُفْضِيْ لِشِقْوَةِ

الصبر على طول مدة التعلم

تَعَلَّمْ مَدَى عُمْرِكَ إِنْ كُنْتَ تَبْتَغِيْ رُقِيَّ رُبَىْ مَجْدٍ وَعِزٍّ وَرِفْعَةِ
وَكُنْ يَا أَخِيْ عَلَى الشَّدَائِدِ صَابِراً فَتَحْظَىْ بِنَيْلِ مَا تَرُوْمُ وَبُغْيَةِ
وَإِيَاكُمُوْا أَنْ تَجْبُنُوا ثُمَّ تَنْكُصُوْا إِلَىْ أَهَلِكُمْ فَوْراً بِجَهْلٍ وَخَيْبَةِ

حل المشكلات بالتدبر وسؤال المشايخ

تَدَبَّرْ وَفَكِّرْ فِي الدَّقَائِقِ وَاجْتَهِدْ بِحَلِّ جَمِيْعِ الْمُشْكِلاتِ الْمُلِمَّةِ
وَسَلْ مَا جَهِلْتَ مِنْ عَوِيْصٍ وَمُعْضِلٍ شُيُوْخَكَ تَظْفَرْ بِالْمُنَى وَالْمَسَرَّةِ
وَلاَ يَمْنَعَنْكَ العُجْبُ وَالكِبْرُ وَالْحَيَا سُؤَالَ الشُّيُوْخِ أَهْلِ حَقٍّ وَنُصْحَةِ

المذاكرة بالعلم والمطارحة والمناظرة

مُذَاكَرَةٌ بِالعِلْمِ عَوْنٌ لِطَالِبٍ زِيَادَةُ عَلْمٍ بَلْ وَفَهْمٍ وَفِطْنَةِ
مُطَارَحَةٌ بَيْنَ التَّلامِيْذِ وَالْمُبَا حَثَاتُ مَعَ الطُّلاَّبِ مِنْ خَيْرِ خَصْلَةِ
مُنَاظَرَةٌ مَعْ حَاْذِقٍ مُنْصِفٍ لَهَاْ فَوَائِدُ جَمَّةٌ كَتَشْحِيْذِ فِكْرَةِ

احترام كتب العلم والمصاحف

وَتَعْظِيْمُ كُتُبِ العِلْمِ حَقٌّ مُؤَكَّدٌ عَلَيْكَ فَصُنْهَا عَنْ غُبَارٍ وَتُرْبَةِ
وَضَعْهَا مَكَانًا طَاهِراً لاَئِقاً بِـــهَا وَخُذْهَا بِحُبٍّ بِاليَمِيْنِ لِحُرْمَةِ
وَعَظِّمْ مَصَاحِفَ القُرَانِ وَقَبِّلَنْ بِفِيْكَ بِـــهَا وَقُمْ لَهَا بِالْمَحَبَّةِ

التمسك بعقيدة أهل السنة والجماعة

وَكُنْ أَشْعَرِيّاً فِيْ العَقِيْدَةِ يَا فَتَى أَوِ اتْبَعْ أَبَا الْمَنْصُوْرِ تَسْعَدْ بِجَنَّةِ
فَإِنَّـــهُمَا قَدْ وَافَقَا دُوْنَ مِرْيَةٍ بِمَا فِيْ كِتَابِ اللَهِ فَاعْلَمْ وَسُنَّةِ
وَلاَ تَتَّبِعْ أَهوَاءَ قَوْمٍ تَفَرَّقُوْا وَخَاضُوْا حُيَارَى فِي ضَلالاَتِ بِدْعَةِ

التمسك بمذهب من المذاهب الأربعة

تَمَسَّكْ بِفِقْهِ الشّافِعِيِّ وَمَالِكٍ وَنُعْمَانِنَا وَأَحْمَدٍ خُذْ بِقُوَّةِ
وَسَاءَ صَنِيْعُ مَنْ تَقَلَّدَ غَيْرَهُم وَقَد خَابَ سَعْياً وَارْتَدَى ثَوْبَ حَسْرَةِ
وَإِيَّاكَ وَالتَّلْفِيْقَ مِنْ كُلِّ مَذْهَبٍ فَتَأخُذَ مِنْ هَذَا وَهَذَا بِخُلْطَةِ

التثبت لدى الفتاوي

تَثَبَّتْ لَدَى الفَتْوَى وَلا تَعْجَلَنْ فَذَا خَطِيْرٌ وَزَلَّتْ فِيْهِ أَقْدَامُ أُمَّةِ

وَهَذَا زَمَانٌ قَلَّ فِيْ أَهْلِهِ اَلْتُّقَىْ   وَأفْتَى أنَاسٌ دُوْنَ عِلْمٍ وَخِبْرَةِ
وَقَدْ قِيْلَ قَبْلُ إنَّ زَلَّةَ عَالِمٍ   كَزَلَّةِ مَنْ فِيْ الكَوْنِ فَاحْذَرْ بِرَهْبَةِ

غض الأبصار عن المحرمات

وَغُضُّوْا عَنِ العَوْرَاتِ أبْصَارَكُمْ فَمَنْ   يَكُنْ نَاظِراً فِيْهَا يَخُضْ بَحْرَ فِتْنَةِ
وَيَقْسُوْ بِذَلِكُمْ قُلُوْبُكُمُو وَيَعْـــ   ـــتَلِيْهَا سَوَادٌ ثُمَّ رَيْنٌ بِظُلْمَةِ
وَإيّاكَ نَظْرَ الأجْنَبِيَّاتِ إنَّــهُ   كَلَسْعِ الأفَاعِيْ أوْكَطَعْنِ الأسِنَّةِ

احترام ذي الشيبة المسلم وحامل القرآن وأهل العلم وغيرهم

وَإكْرَامُ ذِيْ الشَّيْبَةِ إنْ كَانَ مُسْلِماً   يَكُوْنُ بِهِ أجْرٌ وَإمْدَادُ رَحْمَةِ
وَحَامِلُ قُرْآنٍ كَهَذَا وَذَا إذَا   يُرَىْ غَيْرَ غَالٍ فِيْهِ فَاسْمَعْ نَصِيْحَتِي
وَفِيْ حُبِّ أهْلِ العِلْمِ وَالفَضْلِ وَالتُّقَى   وَخِدْمَتِهِمْ خَيْرٌ وَإجْزَالُ نِعْمَةِ
إذَا مَا أتَىْ كَرِيْمُ قَوْمٍ إلَيْكُمُو   فَخُصُّوْهُ بالإكْرَامِ مَعْ حُسْنِ خِدْمَةِ
وَوَقِّرْ وَعَظِّمْ هَؤُلاَءِ جَمِيْعَهُمْ   وَقَابِلْهُمُ عِنْدَ اللِّقَاءِ بِبِشْرَةِ

الخاتمة

وَهَذِيْ رِسَالَتِيْ إلَىْ كُلِّ طَالِبٍ   وَطَالِبَةٍ لِلْعِلْمِ فِيْ كُلِّ بَلْدَةِ
وَأسْألُ رَبِّيْ ذَا العَطَايَا قَبُوْلَهَا   بإحْسَانِهِ مِنِّي بِفَضْلٍ وَمِنَّةِ
وَإنِّيْ لأدْعُو اللهَ رَبِّيْ وَسَيِّدِيْ   لِمَنْ يَسْتَفِيْدُ أوْ يُفِيْدُ بِــهِمَّةِ
وَأرْجُو الدُّعَا مِمَّنْ يُطَالِعُهَا وَيَجْـــ   ـــتَنِيْ ثَمْرَةً فِيْهَا بِعَزْمٍ وَرَغْبَةِ
وَوَفِّرْ وَأَعْطِ الخَيْرَ عَبْداً أَعَانَنِي   إلَهِي بِتَصْحِيْحٍ وَنَشْرٍ وَطَبْعَةِ
وَكُتَّابَــهَا وشَارِحِيْهَا وَمُنْشِدًا   لَهَا حَافِظاً عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ بِغِبْطَةِ
عُبَيْدُكَ عُثْمَانُ الْمُسِيْءُ أتَاكَ يَرْ   تَجِيْ يَا إلَهِي العَفْوَ مِنْكَ بِرَحْمَةِ
فَجُدْ لِيْ الْمُنَا وَاغْفِرْ ذُنُوْبِيَ كُلَّها   وَأَحْسِنْ خِتَامِيْ عِنْدَ مَوْتِي وَرِحْلَتِي
وَهَبْ لِيْ وَلِلأحْبَابِ وَالوَالِدِيْنَ وَالــ   ــمَشَايِخِ مَعْ أوْلادِنَا كُلَّ نِعْمَةِ
وَصَلِّ عَلَى الْمُخْتَارِ طَهَ شَفِيْعِنَا   وَآلٍ وَأَصْحَابٍ سُرَاْةِ الأَئِمَّةِ
وَنَاشِرِ دِيْنِ اللهِ فِيْ الأَرْضِ دَاعِياً   إلَى الحَقِّ مَنْ يَلْقَاهُ فِيْ كُلِّ بُقْعَة

وَطَالِبِ هَذَا الدِّيْنِ فِيْ نَيْلِ جَنَّةٍ بِجِدٍّ وَإِخْلاصٍ وَرُشْدٍ وَهِمَّةِ
وَسَالِكِ نَـــهْجِ اَلْصَّالِحِيْنَ ذَوِيْ اَلْتُّقَىْ وَأَهْلِ اَلْهُدَىْ وَالأَوْلِيَاءِ الأَجِلَّةِ
وَمَنْ قَدْ أَعَانَ هَؤُلاْ أَوْ أَحبَّهُمْ وَسَلِّمْ عَلَيْهِمْ كُلَّ حِيْنٍ وَلَحْظَةِ
مَتَىْ مَا يَقُوْمُ لِلْتَّهَجُّدِ قَانِتٌ وَفَاضَتْ عُيُوْنُ الخَاْشِعِيْنَ بِدَمْعَةِ

فرغت من تبييض هذه المنظومة ١٤٢٨/٣/٣٠ هجرية .

أهم المراجع والمصادر

التفسير وعلوم القرآن

رقم	اسم الكتاب	المؤلف
١	الجامع لأحكام القرآن	للإمام القرطبي
٢	تفسير الفخر الرازي	للفخر الرازي
٣	تفسير القرآن العظيم	للحافظ ابن كثير
٤	الدر المنثور في التفسير بالمأثور	للإمام السيوطي
٥	الإتقان في علوم القرآن	للإمام السيوطي
٦	النشر في القراءات العشر	لابن الجزري
٧	التبيان في آداب حملة القرآن	للإمام النووي

الحديث وعلومه

رقم	اسم الكتاب	المؤلف
١	صحيح البخاري	للإمام البخاري
٢	صحيح مسلم	للإمام مسلم بن الحجاج
٣	سنن أبي داود	لأبي داود
٤	سنن ابن ماجه	لابن ماجه
٥	الترغيب والترهيب	للحافظ المنذري
٦	مجمع الزوائد ومنبع الفوائد	لابن حجر الهيثمي
٧	كنْز العمال في سنن الأقوال والأفعال	للعلامة علاء الدين المتّقي الهندي
٨	الجامع الصغير	للسيوطي
٩	فتح الباري شرح صحيح البخاري	للحافظ العسقلاني
١٠	عمدة القاري شرح صحيح البخاري	للعيني
١١	إرشاد الساري شرح صحيح البخاري	للحافظ القسطلاني
١٢	التلخيص شرح الجامع الصحيح	للإمام النووي
١٣	المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج	للإمام النووي
١٤	فتح الملهم شرح صحيح مسلم	للشيخ شبير أحمد العثماني
١٥	الكاشف عن حقائق السن على المشكاة	للطيبي
١٦	الفتوحات الربانية على الأذكار النووية	لابن علان الصديقي
١٧	مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح	لعلي بن سلطان القاري
١٨	الشفاء بتعريف حقوق المصطفى	للقاضي عياض

١٩ رياض الصالحين — للإمام النووي
٢٠ معجم الأوسط — للطبراني
٢١ دليل الفالحين شرح رياض الصالحين — لابن علان الصديقي
٢٢ جامع بيان العلم وفضله — لابن عبد البر
٢٣ السراج المنير شرح الجامع الصغير — للعزيزي
٢٤ نسيم الرياض شرح الشفاء — للخفاجي
٢٥ فيض القدير شرح الجامع الصغير — للمناوي
٢٦ الفتح المبين شرح الأربعين — لابن حجر الهيتمي
٢٧ حاشية المدابغي على الأربعين — للمدابغي
٢٩ الباهر — للسيوطي
٣٠ الجواهر اللؤلؤية شرح الأربعين النووية — للجرداني
٣١ حاشية المواهب اللدنية على الشمائل — للباجوري
٣٢ خلاصة الأحكام — للإمام النووي
٣٣ أشرف الوسائل إلى فهم الشمائل — لابن حجر الهيتمي
٣٤ الفتاوي الحديثية — لابن حجر الهيتمي
٣٥ الدررالمنتشره في الأحاديث المشتهره — للسيوطي
٣٦ كشف الخفا — للعجلوني
٣٧ المقاصد الحسنة — للسخاوي
٣٨ تعقبات — للسيوطي
٣٩ حاشية الأجهوري على الزرقاني على البيقونية — لعطية الأجهوري
٤٠ تدريب الراوي شرح تقريب النووي — للإمام السيوطي
٤١ فتح المغيث شرح ألفية الحديث — للسخاوي
٤٢ شرح شرح نخبة الفكر — لعلي بن سلطان محمد القاري

العقائد

١ تحفة المريد على جوهرة التوحيد — للباجوري
٢ غاية البيان في تنـــزيه الله عن الجهة والمكان — إعداد قسم الأبحاث والدراسات الإسلامية في جمعية المشاريع الخيرية الإسلامية

الفقه وأصوله

١ المجموع شرح المهذب — للإمام النووي
٢ روضة الطالبين — للنووي

٣	تحفة المحتاج شرح المنهاج	لابن حجر الهيتمي
٤	مغني المحتاج بشرح المنهاج	للخطيب الشربيني
٥	فتح المعين شرح قرة العين	للمليباري
٦	إعانة الطالبين شرح فتح المعين	للسيد بكر محمد شطا
٧	قواعد الأحكام في مصالح الأنام	لعز الدين بن عبد السلام
٨	سبعة كتب مفيدة	للسيد علوي بن أحمد السقاف
٩	جمع الجوامع	لتاج الدين عبد الوهاب السبكي
١٠	حاشية النفحات على شرح الورقات	للشيخ أحمد بن عبد اللطيف الخطيب

التصوف والرقائق

١	إحياء علوم الدين	للإمام أبي حامد الغزالي
٢	إتحاف السادة المتقين	للمرتضى الزبيدي
٣	المنن الكبرى	للشعراني
٤	الرسالة القشيرية	للقشيري
٥	أحكام الدلالة على تحرير الرسالة	لزكريا الأنصاري
٦	سعادة الدارين	للنبهاني
٧	الأربعين في أصول الدين	للغزالي
٨	تنبيه المغترين	للشعراني
٩	شرح الحكم	لابن عباد
١٠	كفاية الأتقياء ومنهاج الأصفياء	للسيد بكر محمد شطا
١١	بستان العارفين	للإمام النووي
١٢	رسالة المسترشدين	للمحاسبي
١٣	تأييد الحقيقة العلية وتشييد الطريقة الشاذلية	للحافظ السيوطي

السيرة النبوية

١	منتهى السؤل على وسائل الوصول	للحجي
٢	أشرف الوسائل إلى فهم الشمائل	لابن حجر الهيتمي
٣	الشمائل	للترمذي
٤	ألفية السيرة	للعراقي

التاريخ والتراجم

١	تاريخ بغداد	للخطيب البغدادي
٢	طبقات الشافعية الكبرى	لابن السبكي

٣ سير أعلام النبلاء — للذهبي
٤ البداية والنهاية — لابن كثير
٥ شذرات الذهب في أخبار من ذهب — لابن عماد الحنبلي
٦ طبقات الفقهاء الشافعيين — لابن كثير
٧ تذكرة الحفاظ — للذهبي
٨ صفة الصفوة — لابن الجوزي
٩ حلية الأولياء — لأبي نعيم
١٠ الأعلام — للزركلي
١١ طبقات الحنابلة — للقاضي ابن أبي يعلى الحنبلي
١٢ تاريخ الخلفا — للسيوطي
١٣ الجواهر والدرر في ترجمة ابن حجر — للسخاوي
١٤ آداب الشافعي ومناقبه — لعبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي
١٥ المنهاج السوي — للسيوطي
١٦ الخيرات الحسان — لابن حجر الهيتمي
١٧ مناقب الشافعي — للإمام البيهقي

اللغة

١ القاموس المحيط — للفيروزآبادي
٢ لسان العرب — لابن منظور
٣ تاج العروس شرح القاموس — للمرتضى الزبيدي
٤ الصحاح — للجوهري
٥ أساس البلاغة — للزمخشري
٦ المصباح المنير — للفيومي
٧ تـــهذيب الأسماء واللغات — للإمام النووي
٨ النهاية في غريب الحديث — لابن الأثير

فنون متنوعة

١ الفقيه والمتفقه — للخطيب البغدادي
٢ مغيث الخلق في ترجيح القول الحق — لإمام الحرمين
٣ صيد الخاطر — لابن الجوزي
٤ ذم الهوى — لابن الجوزي
٥ صفحات من صبر العلماء — لأبي غدة

٦	الاعتصام	لإبراهيم بن موسى الشاطبي
٧	إقناع المؤمنين بتبرك الصالحين	للشيخ عثمان حِدِغْ
٨	معيد النعم ومبيد النقم	لابن السبكي
٩	الموسوعة السياسية	عبد الوهاب الكيالي
١٠	الموسوعة اليوسفية	للدكتور يوسف خطار محمد
١١	ديوان الشافعي	للإمام الشافعي
١٢	تبيين كذب المفتري	لابن عساكر
١٣	كف الرعاع عن محرمات اللهو والسماع	لابن حجر الهيتمي
١٤	حياة الحيوانات الكبرى	للدميري
١٥	تذكرة السامع	لابن جماعة
١٦	المنح المكية في شرح الهمزية	لابن حجر الهيتمي
١٧	الزواجر عن اقتراف الكبائر	لابن حجر الهيتمي
١٨	العمدة في شرح البردة	لابن حجر الهيتمي
١٩	الحاوي للفتاوي	للسيوطي
٢٠	تذكرة القرطبي	للقرطبي
٢١	شرح الزرقاني على المواهب اللدنية	للزرقاني
٢٢	أثر الاختلاف في مسائل العلم والدين	لمحمد عوامه
٢٣	اللامذهبية أخطر بدعة	للبوطي
٢٤	قيمة الزمن	لأبي غدة
٢٥	النبذة اليقينيه في معجزات خير البرية	للشيخ عبد الرحمن صوفي
٢٦	أخلاق العلماء	للآجري
٢٧	علو الهمة	لمحمد بن إسماعيل المقدم
٢٨	تعليم المتعلم	للزرنوجي الحنفي

المنطق والبلاغة والعروض

١	السلم المنورق	للأخضري
٢	حاشية الباجوري على السلم	للباجوري
٣	شرح العطار على شرح زكريا الأنصاري	للعطار
٤	إرشاد الشافي	للسيد محمد الدمنهوري

التقاريظ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي جعل العلماء مصابيح الدجى، ومنارات الهدى، والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي المصطفى، والحبيب المجتبى، وعلى آله ذوي الطهر والصفا ورضي الله عن أصحابه أولى الفضل والوفا.

وبعد : فان الأمة الإسلامية أمة مباركة لا تخلو من خير، ولا ينضب معينها عن تزويد الأمة بالعذب النمير، ومن مظاهر البركة بقاء العلماء الربانيين، والمرشدين الكاملين، الذين يقومون بخدمة الدين عند فساد الزمان، ويرفعون راية الحق في معترك الطغيان، ولاشك في أنه لا يقوم بـــهذه المهة إلا أفذاذ العلماء وكبار الأدلاء، جعلهم الله للإرشاد مددا، ومن يضلل الله فلن تجد له وليا مرشدا، ومن هولاء المرشدين الربانيين الذين كان لهم الفضل في خدمة حقائق الدين والنصح لكافة المسلمين والذود عن حمى منهج أهل السنة والجماعة الأصيل، ضد هجمات أصحاب الفكر المتطرف الدخيل، فضيلة العلامة الشيخ عثمان الشيخ عمر الشيخ داؤود عُلُسَو عُبَيْدْ عَلِي، الصوماليّ العَيْلْطَيَرْيّ المعروف بالشيخ عثمان حدغ، والشيخ غني عن التعريف فهو المفتي العام لعلماء أهل السنة والجماعة في الصومال وأحد كبار مراجع الشافعية فيه، كما أنه واحد من أبرز متكلمي السادة الأشاعرة أهل التنزيه لله والتوقير لأنبيائه وأوليائه، أما في السلوك والتربية فهو حامل لواء التصوف السني الصحيح القائم على الكتاب والسنة، وكيف لا وهو سليل السادة الأحمدية وزعيم الطريقة الإدريسية الجامعة لخلاصة تعاليم سائر طرق السادة الصوفية، ومن حسن الحظ أني تشرفت منذ عقد من الزمان بالعلاقة بالشيخ عبر مؤلفاته القيمة ومصنفاته الموضوعية الرائعة مما قادني إلىّ الإتصال المباشر به وتوطيد الصلة به متعنا الله بحياته ونفعنا ببركاته وعلومه.

وكان من آخرما وصل إليّ من تأليفه كتاب (التيجان المكللة) الذي شرح به منظومته الذائعة الصيت (نصيحة طلبة العلم).

أهدى المصنف إليّ نسخة منه للإطلاع عليه وإبداء الرأي حوله، فتصفحته فوجدته كتابا قيما عمدة في علم التربية فريدا في نصيحة عشاق المعارف وتوجيه رواد اللطائف

مرصعا بجواهر الأدلة في كل مناحيه مكسوا بحلل الروعة في مبانيه ومعانيه. ومن عجائب المصادفات أن وصول الكتاب تزامن مع اتمامي لثلاث سنوات من دراسة علم التربية وتعليم اللغة العربية لغير الناطقين بِها من معهد الخرطوم الدولي للغة العربية بالتعاون مع كلية سندباد العربية – فرع إثيوبيا .

وكنت تعرفت خلال تلك الدراسة على الخلل في تنظيم المنهج الدراسي وطريقة توجيه الطلبة في الحلقات العلمية التقليدية، فرأيت كتاب الشيخ خطوة نافعة وتقدما ملحوظا في سبيل تفادي ذلك الخلل القائم في الساحة كما أنه يحمل رسالة روحية تسمو بطلبة العلوم الشرعية من الغايات الرخيصة ليحلقوا في سماء المعارف والأخلاق الفاضلة ويتحلوا بالإخلاص والربانية ويقصدوا بعلمهم وجه الله وخدمة دينه وترقية الأمة الإسلامية ليصبحوا ورثة حقيقيين للأنبياء والمرسلين وحلقة سليمة في سلسلة العلماء الربانيين الذين خدموا للإسلام في مسيرته الطويلة.

فجزى الله جل جلاله الشيخ عنا خير جزاء وجعل عمله مشكورا، وأضافه الى ميزان حسناته مضاعفا موفورا، ونفعنا به وبسائر كتبه المباركة، وعلومه وبركاته وأبقاه الله للدين خادما وللمسلمين ناصحا، وصلّى الله على سيدنا وحبيبنا وشفيعنا محمد وآله الأطهار ورضي الله عن صحابته الأخيار.

العبد الفقير محمد نذير السيد نور كَلْطَيِرِى

رئيس المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية في الإقليم الصومالي –إثيوبيا (سابقا)

وعضو مجلس العلماء للإفتاء والدعوة في جمهورية إثيوبيا الفيذرالية (حاليا)

فهرس الكتاب

مصنفات المؤلف

١) إقناع المؤمنين بتبرك الصالحين

٢) التيجان المكلله في شرح النصائح المرسله، وهو الذي نحن بصدده

٣) المِنح الوهبيّة في ذم القبليّة والعصبيّة

٤) اللآلي السنيّة في مشروعية مولد خير البرية

٥) التبيين في أدلة التلقين

٦) التحفه في نشر محاسن البرده

٧) أنيس الجليس في ترجمة السيد أحمد بن إدريس

٨) التوضيح في شرح أذكار التسبيح

٩) المنتخب في شرح أوراد مرحب

١٠) البرهان في جواز الذكر بلفظ هو للملك الديان

١١) ترجمة الشيخ ابن حجر الهيتمي

١٢) المنهل في أدلة التوسل

١٣) منية اللبيب في التبرك بآثار الحبيب صلى الله عليه وسلم

١٤) النصائح المرسله إلى طلاب العلم لله والآخره

١٥) إرشاد الطالب إلى أحكام الشارب

١٦) تنبيه الأكياس على مساوي الوسواس

١٧) ديوان القصائد والمدائح النبوية

وقد طبعت هذه الكتب كلها ولله الحمد بدأ وختما .

١٨) إعلام المؤمنين في مشروعية التبرك بقبور الصالحين تحت الطبع

وله أيضا مصنفات أخرى لم تكمل بعد، ونرجو له من الله تعالى التيسير في إكمالها وطبعها، فإنه المستعان والموفق .